الانتظار

في الحياة والعلم والفن



بيتر توهي

ترجمة: وائل يوسف



الانتظار

في الحياة والعلم والفن

بيتر توهي

ترجمة: وائل يوسف





الانتظار: في الحياة والعلم والفن
تأليف: بيتر توهي
ترجمة: وائل يوسف
الطبعة الأولى: 2023
ISBN: 978-603-92096-6-9
رقم الإيداع: 1445/1613
لوحة الغلاف: غوردون كوتس

هذا الكتاب ترجمة لـ:
Peter Toohey, *Hold On: The Life, Science, and Art of Waiting*, Oxford University Press, 2020.

Cover painting by Gordon Coutts



الناشر:
دار معنى للنشر والتوزيع
الرياض - المملكة العربية السعودية


www.mana.net | info@manaa.net | @manaplatform

المحتويات

تقديم

«واصلي تناول الأقراص التي وصفتها لكِ »..

«لا تتوقفي مرة أخرى عن الطعام والشراب، وأقلعي عن التدخين، وتجنبي الكحوليات، وابتعدي عن المجهود العصبي والعضلي الزائد، وعليكِ الإكثار من استنشاق الهواء المنعش، والراحة والنوم، وفوق كل ذلك، لا تتوقفي عن تناول الأقراص التي وصفتها لكِ». كانت تلك توصيات المعالج النفسي للسيدة جيني Jenny عندما كانت على وشك الخروج من العيادة النفسية، حيث جاءت إلى العيادة تشكو من نوبات من القلق، والاكتئاب، والتفكك النفسي، والخرس المرضي، ومن تكرار محاولات الانتحار.

وكانت استجابة جيني الصامتة لتوصيات د. فليمنجك Dr. Vlemingck باختصار «عليكِ أن تتوقفي عن الحياة Don't go on living». ولا تعد تلك الاستجابة جيدة أو مفيدة في الوصول إلى التعافي. لا أدري كيف اعتبرت جيني أن التوقف عن الطعام والشراب يعني التوقف عن ممارسة الحياة. كانت جيني سويدية الجنسية، وكان ديديه هو اسم زوجها الفرنسي Didier. وقد انتهى بها الأمر أن تنتظر نوبة جديدة من تلك الحالة التي تعانيها. لقد أصبحت حياتها معلقة، ولكنها نجت، وأصبحت جزءًا من هذا الكتاب الذي يتناول موضوع الانتظار.

لم أذهب بنفسي من قبل إلى أي عيادة نفسية، ليس بصفتي زائرًا أو مريضًا، ولكن هذا الأمر ليس جديدًا على الطبيب النفسي جونز هوبكنز Johns Hopkins، والكاتبة كاي ريدفيلد Kay Redfield، التي أوضحت عند كتابتها للسيرة الذاتية للشاعر الأمريكي روبرت لويل Robert Lowell: «لقد انتظر مثلما كان يفعل جميع النزلاء في المصحة النفسية». «لقد انتظر الطبيب والدواء، وهو في انتظار التعافي، وفي انتظار أن تعده زوجته»[1]. لقد كان روبرت لويل مثل بروفيسور ريدفيلد جايمسون Redfield Jamison يعاني اضطراب ثنائي القطب* bipolar. والمرض النفسي يتربص بنا طوال الوقت على أروقة الطريق، ويتسبب في إهدار كثير من الوقت، سواء كنت في العيادة النفسية، أو عند الخروج منها، أو تنتظر الخروج منها. هل تتذكر سن الحادية والعشرين؟ لقد قرأت أن ديك كوفيت Dick Covett عانى أولى نوبات الاكتئاب في هذه السن، عندما كان طالبًا في جامعة يال[2]. إن سن الواحدة والعشرين ليست بالسن المناسبة للإصابة بالاكتئاب أو القلق. وأنا أتساءل إن أمكن أن ينتهي هذا الأمر مع الزمن. لقد حضرت ذات مرة أحد المؤتمرات المتخصصة في الطب النفسي، وكان هذا هو المؤتمر الوحيد الذي حضرته. وقد تحدث أحد المعالجين النفسيين بثقة قائلاً: «لن تجد شخصًا واحدًا سبق له أن أصيب بنوبة قوية من الاكتئاب دون أن يشكو من تبعاتها مع الزمن، ولو مرة واحدة». وذلك طلب تأكيدي وليس سؤالاً

---

(1) تتحدث كاي ريدفيلد جايمسون هنا عن الزوجة الثالثة للسيد روبرت لويل. وكان اسم زوجته الثالثة هو كارولين بلاكوود Caroline Blackwood. والاقتباس من كتاب بعنوان: *Setting the River on Fire: A Study of Genius, Mania, and Character*. نيويورك 2017 – ص. 329.

(*) اضطراب ثنائي القطب، يُعرف في السابق باسم الاكتئاب الهوسي، عبارة عن حالة نفسية تتسبب في تقلبات مزاجية مفرطة تتضمن الارتفاعات (الهوس أو الهوس الخفيف) والانخفاضات (الاكتئاب)، ويعاني المريض نوبات من الهوس تليها نوبات من الاكتئاب (المترجم).

(2) مقال نايت جينكنز Nate Jenkins، بعنوان «Dick Cavett Talks about His Depression»، صحيفة ذا هافنجتون بوست، 20 يونيو 2008.

بحق؛ فالرجل يعلم أننا لن نجد تلك الحالة. وبالطبع كان اسم هذا الطبيب هو د. فليمنجك. عليكِ بتناول الحبوب التي وصفتها لك. لماذا؟ لماذا لا أنفض يدي وأنتظر وحسب. ولكن الجميع في المؤتمر انتظروا قليلًا وأجابوا بالقبول. شكرًا على أوهام التعافي. ربما كانت تلك العبارة تدور في رأس جيني في ذلك الوقت، وقرأت في ذلك الحين أن معدل انتكاس ضحايا الاكتئاب قد يزيد على 46%[3]. ومثل هؤلاء الكثير- وربما تكون أنت منهم- من الذين يعانون المرض النفسي.

انحدر ديفيد باوي David Bowie من عائلة تعاني سلسلة من الاضطرابات النفسية، على الأقل من ناحية الأم. وفي أحد المقالات قرأت أن هذا الاضطراب العقلي «كان مثل لعنة أو ميراث عائلي»، حيث كانت فيفيان خالة باوي [من ناحية والدته بيجي] تعاني الفصام* Schizoplrania، وتوفيت العمة أونا أيضًا في أوائل الثلاثينيات من عمرها متأثرة بالتنقل من مستشفى إلى آخر. كما خضعت العمة نورا لعملية جراحية لعلاج مشكلات في الأعصاب. كما ادعى ذلك المقال أن تيري، شقيق ديفيد باوي، كان مصابًا بالفصام أيضًا[4]. ولقد خضع تيري للعلاج في مصحة نفسية، ولكنه توفي بعد ذلك منتحرًا بعد أن ألقى بنفسه أمام القطار. وربما خشي باوي أن يرث الجينات نفسها. ولقد سجل ديلان جونز Dylan Jones، الكاتب المختص

---

(3) يمكنك أن تقرأ مزيدًا من المعلومات عن تكرار الحالة فيما كتبه أي. جي. إم بولوتش وآخرون: «Recurrence of Major Depressive Episodes Is Strongly Dependent on the Number of Previous Episodes»، مجلة الاكتئاب والقلق، 31، 2014.

(*) الفصام اضطراب عقلي شديد يفسر فيه الأشخاص الواقع بشكل غير طبيعي. وقد ينتج عن الإصابة بالانفصام مجموعة من الهلوسات والأوهام والاضطراب البالغ في التفكير والسلوك وهو ما يعرقل أداء الوظائف اليومية. (المترجم)

(4) ظهرت المقالة في صحيفة ديلي ميل، 29 أغسطس 2017 (كارولين هاوي Caroline Howe)، وكانت مبنية في الأساس على السيرة الذاتية للسيد ديلان جونز– كتاب David Bowie: A Life، مجلة دابل داي، كندا، 2017.

بنقل السيرة الذاتية لديفيد باوي وطباعتها، أن باوي كان يخشى المرض النفسي، وأنه قضى حياته كلها يترقب حدوثه. «إن المرء ليضع نفسه تحت تهديد المرض النفسي في أثناء محاولته تفادي الإصابة بالجنون»، أو كما يُقال «مَن يخاف مِن العفاريت تظهرله». وبسبب هذا الإرث العائلي، خاصة من ناحية الأم، كثرت حالات الانتحاربين أفراد العائلة، وهو أمر كان يخشاه باوي بكل جوارحه[5]. ولا يخفى علينا أن نستنتج أن الإبداع الموسيقي لباوي كان مدفوعًا بالانتظاروالترقب.

ربما يمكننا اعتبار أن كتابة كتاب كامل عن الانتظار والأشخاص المنتظرين فحسب يمكن أن يشكل إهانة للأشخاص المنهمكين في العمل والشغل في هذا العالم، وهم محيطون بنا في كل مكان. وفيما يخص هذا الأمر، كل ما أستطيع قوله هو أنه علينا الانتظار. لأن موضوع الانتظار يتجاوز كل ما نفكر فيه، فأنا لن أكتب عن المرض النفسي هنا. فجيني ديديه تكفلت بتجسيد موضوع انتظار التعافي من المرض النفسي على أكمل وجه، ولكن يوجد مزيد عن ذلك الأمر بشكل يتجاوز مقولة د. فليمنجك، حيث يوجد لكل شخص شبيه بالسيدة جيني، شخص آخر شبيه بالسيد ديفيد باوي يحاول أن يطوي الانتظار ليسخره لمصلحته الخاصة، مثل أن تشعر بالوحدة وسط الزحام، أو أن تجلس بهدوء في قلب العاصفة. فلو نظرنا إلى جيني ديديه مثلًا سوف نجد أن لها عائلة وزوج وأطفال. وكثير من الناس يشعرون بذلك الأمر، ولكنهم يشعرون بحرج يمنعهم من الاعتراف بهذا الأمر. وسوف أحاول الخروج عن مشاعر جيني المتعلقة بالانتظار، وأحاول تكوين فهم عنه بشكل أفضل، وأكثر اتساعًا، خاصة فيما يتعلق بتلك الأجزاء من الأعمال الأدبية والعلمية السابقة في الآداب، والحياة اليومية،

---

(5) لن تنال حالة باوي أيًا من هذا حسب ما أكده جاك مالفيرن في صحيفة التايمز، 15 يونيو، 2018.

والموسيقى، وعلم النفس، والعلوم الفيزيقية. كما سوف أشرح كيف يمكن أن يكون الانتظار والتمهل أمرًا محمودًا برغم كل شيء. وأعترف بأن إقناع القارئ لهذا الكتاب بهذه الفكرة لن يكون أمرًا سهلًا.

فجميعنا ننتظر، أو هذا هو ما أعتقده، وإليكم بعض أبرز الأرقام: يقضي البشر ثلث أوقات أعمارهم في العمل، وربما توصلنا إلى هذا الرقم من التقديرات التي تؤكد أن معظم السكان، في الولايات المتحدة الأمريكية على الأقل، يعملون مدة تتراوح من 30 إلى 35 عامًا من أعمارهم إذا بلغوا سن 78 سنة، أي إنهم يعملون مدة لا تقل عن 40 ساعة أسبوعيًا. وبناءً على ذلك، إذا جزمنا أنك تقضي نسبة 30% من حياتك في العمل. ففي هذه اللحظة يمكننا أن نقول بالنسبة إلى الأشخاص غير المتحمسين كثيرًا للعمل، إنهم أضاعوا 30% من حياتهم في الانتظار. الانتظار خلال فترة الدوام حتى موعد العودة إلى البيت، والانتظار حتى حلول إجازة آخر الأسبوع، والانتظار حتى بلوغ سن التقاعد. كما توجد كثير من صفوف الانتظار سوى تلك التي يقضيها الإنسان في دوام عمله، فإنه عليك أن تصل إلى عملك يوميًا، ومعنى ذلك أنه سوف يتعين عليك أن تبقى معلقًا في انتظار سلاسة حركة المرور، ثم سوف يتحتم عليك العودة إلى البيت مرة أخرى، وربما تمر على المتجر لشراء بعض المستلزمات في طريق العودة، وربما تمر على بوابة من نوع ما، أو يصبح عليك الانتظار عند ماكينة الحساب في المتجر. وعندما تصل إلى البيت سوف يكون عليك أنت وأولادك أن تنتظروا حتى يتبخر الثلج المحيط بالخضار المجمد. وإليك المزيد: فمنذ سنوات ليست بالبعيدة، كتب آدم هادازي Adam Hadhazy لموقع بي بي سي bbc.com: «عندما تصل إلى سن 78 سنة في إنجلترا؛ فعليك أن تعلم بعد إجراء بعض الحسابات البسيطة أنك قد قضيت منها 9 سنوات في مشاهدة التليفزيون، و4 سنوات في قيادة

السيارات، و92 يومًا في الحمامات، و48 يومًا في ممارسة الجنس»[6]. وحينئذ، عندما ينتهي كل شيء، سوف تذهب لتنام أخيرًا. وعندما نتحدث عن تضييع الوقت، يقول هادازي إن النوم يأتي على رأس تلك الأنشطة الأكثر إهدارًا للوقت. فإننا إذا أمد الله في أعمارنا حتى سن 78، فربما يضيع منها 25 عامًا على النوم وحده، إلا إذا كنت تعاني الأرق؛ ففي هذه الحالة أرجح أنه سوف يضيع منك 5 أعوام في انتظار أن تضيع 25 عامًا في النوم، وأتحداك أن تقول لي إن أيًا من هذا ليس صحيحًا، أو أن تخبرجيني بذلك.

وإليكم مزيدًا من الملاحظات الشيقة عن الانتظار، ملاحظات مدهشة، كما أنها محبطة، وقد حصلت عليها من كتاب كلوديا هامون Claudia Hammond بعنوان «لقد طوانا الوقت»، أو Time Warped[7]. حيث تحدثت تلك المعالجة النفسية والإعلامية لدى البي بي سي عن بعض الملاحظات المدهشة: «لقد أثبتت الأبحاث بعض النتائج المذهلة، حيث قد يعتاد المخ التفكير في المستقبل في أثناء العمل، وتصبح تلك هي الحالة الأصيلة default لطريقة عمل المخ، ولكن ذلك ليس نوعًا من أحلام اليقظة التي لا طائل منها، أو طريقة أخرى للتفكير في مجرى حياتنا لو أن شيئًا ما لم يحدث، حيث يكتسب التفكير في المستقبل أهمية من نوع خاص ... لأنه يؤثر في قراراتنا للحاضر، كما يؤثر في مشاعرنا، وأحاسيسنا، وحالتنا المزاجية اليوم». وربما يكون من الأفضل أن نقدم بعض الأرقام التي تتناول وتوضح تلك الطريقة في التفكير عن موضوع الانتظار، وقد قدمت لنا كلوديا هاموند تلك الأرقام بالفعل: «في المعتاد، يفكر الناس في المستقبل 59 مرة يوميًا، أو مرة واحدة

(6) موقع البي بي سي على الإنترنت bbc.com، 23 فبراير، 2015 (أدم حجازي Adam Hadhazy).

(7) هذا الاقتباس مأخوذ من كتاب كلوديا هاموند بعنوان «*Time Warped: Unlocking the Mysteries of Time Perception*» *time warped*: الكشف عن الغموض المحيط بمفهوم الزمن، لندن، كانونجيت، 2011.

كل 16 دقيقة، في أثناء ساعات الاستيقاظ. وإذا كنت من النوع شديد القلق، فإن تلك الأرقام مرشحة لزيادة كبيرة». وينطبق الأمر نفسه في حالة وجود شيء مفرح متوقع، مثل حلاوة انتظار موعد الرجوع إلى المنزل، وانتظار التقاعد عند بلوغ سن المعاش. هل تعلم أن نصف المرات التسع والخمسين التي تتخيل فيها المستقبل يوميًا في المعتاد تكون مخصصة لموضوع واحد تتلهف إلى تحقيقه؟ ومعنى ذلك أن 8 دقائق من وقتك على الأقل تصبح مخصصة يوميًا للانتظار العقلي mental waiting. ويبلغ المجموع الزمني لهذا الوقت 2920 دقيقة. وتوفر إحصاءات كلوديا هاموند حقائق رهيبة. ربما تشعر بالطريق الذي أتوجه إليه الآن. فلو أنك شخص كثير القلق، مثل جيني ديديه، أو ديفيد باوي؛ فسيكون الأصل عند تفكيرك في المستقبل أن «ما هو قادم بالتأكيد ليس جيدًا». ولكن لنكن منصفين. فلو أنك شخص صاحب دعابة: فربما سوف تتطلع إلى حدوث أمر جيد في المستقبل. فليس الحياة كلها شقاء وألم، وليست كلها تافهة ولا معنى لها أما إذا كان الأمر كذلك بالنسبة إليك: فسوف تمضي 2920 دقيقة في انتظار 2920 دقيقة أخرى من الانتظار للمتعة.

مثال آخر، في صباح يوم السبت الموافق 15 أبريل 2017، وضعت زرافة، اسمها أبريل، تبلغ من العمر 15 عامًا عجلها[8]. ويؤكد ما حدث طوال فترة الحمل الخاصة بعجل الزرافة حتى ولادتها، أن الانتظار ليس بالضرورة ينطوي على الألم والكآبة. فلقد استمرت فترة الحمل والولادة الخاصة بأبريل مدة من 400 إلى 450 يومًا، وهي مدة طويلة بمعايير بشرية قبل أن يرى العجل الصغير النور. ولقد وُلد ذلك الوليد في حديقة أنيمال أدفينشار بارك في نيويورك. وشاهد ذلك الحدث أكثر من 1.2 مليون شخص من بدايته

(8) يمكنك أن تجمع أجزاء تلك القصة من صحيفة «ذا ستار»، 1 مايو، 2017 (أبريل – وأخيرًا أصبح لوليد الزرافة اسم)

حتى نهايته على صفحة الحديقة على الفيسبوك، ويوتيوب عن طريق البث المباشر، حتى رأت الخيلف(وليد الزرافة) تاجيري النور. (اسم الخيلف معناه باللغة السواحلية الأمل، والأمل هو نسخة أخرى من الانتظار). بدأ البث المباشر للكاميرا المثبتة في بيت الزرافة يوم 10 فبراير 2017، وقيل إن من شاهدوا البث في البداية كانوا بضعة آلاف فقط، ولكن سرعان ما أصبحوا بالملايين. وكان الانقطاع الوحيد لهذا البث في فبراير 2017، عندما أوقف موقع يوتيوب البث المتواصل لعملية التعشير التي تمر بها الزرافة. ربما كان السبب في ذلك يرجع إلى التظاهرات التي انتشرت اعتراضًا على المحتوى الجنسي الذي ظهر على البث في أثناء التعشير. ولكن سرعان ما عاد البث المباشر عندما نُظمت مظاهرات مضادة تطالب بمتابعة البث المباشر.

لم يكن ذلك الانتظار لميلاد الخيلف أمرًا ممتعًا بالنسبة إلى جميع المشاهدين؛ فمنهم من شاهد هذا البث بقلق وترقب. حتى ظهرت بعض التقارير من قناة جلوبال نيوز في كندا أن أحد الموسيقيين البارزين في فارمنحتون نيوهامشير أطلق مقطع فيديو موسيقيّ على يوتيوب بعنوان «إنني أتلهف إلى الزرافة»[9]. ولكن التفاعل مع حدث ولادة تاجيري على تويتر كان أقل توترًا، فقد أعلنت جلوبال: «لقد فعلناها يا معشر الإنترنت في كل مكان، لقد أسهمنا في ولادة زرافة معًا»، فليرفع الجميع رأسه الآن ليلمح ذلك الحيوان الصغير وبينما كانت كلمة «أم القنابل» MOAB من أكثر الكلمات بحثًا على الإنترنت، أحببنا جميعًا الطريقة التي تفاعل بها العالم خلف ولادة هذه الزرافة. وهذا يدفعني إلى أن أعتقد أن الانتظاريتطوي على مناسبة سعيدة - غالبًا- وليس مرتبطًا بالمآسي بالضرورة.

---

(9) جلوبال نيوز، 15 أبريل 2017 (April the giraffe gives birth before online audience of over 1 million people)

أغفلت عندما تحدثت عن جيني ديديه في البداية أن أوضح مَن هي، وتلك حيلة التشويق القديمة. لقد أردت منكم أن تستمروا في القراءة لتعرفوا مَن هي حقًا وإذا كنتم ما زلتم بالانتظار. وإذا كنتم تريدون مني أن أعرفكم بها حقًا: فعليكم أن تسألوني من هي؟ جيني هي نسخة من شقيقة إنجمار بيرجمان Ingmar Bergman، أحد أشهر المخرجين السويديين، وهي من أدت دور الراوي في رواية مارجريتا بيرجمان Margreta Bergman بعنوان «يا مرآتي» أو «Mirror ... Mirror»، وكانت شقيقة المخرج إنجمار في الحقيقة. كما أدت دور فاني Fanny في فيلم من إخراج إنجمار، عُرض عام 1982، بعنوان فاني وألكسندر «Fanny & Alexander». لقد انتظرت جيني في رواية «يا مرآتي» كثيرًا حتى تمكنت من استعادة الأدوار المهملة من حياتها، خاصة موهبتها الفنية، وربما لم يكلل انتظارها دومًا بالنجاح. إنه المرض النفسي الذي يجعل هذا الانتظار يطول. لقد انعكست حياة مارجريتا على جيني، وكانت فاني تبرز مواطن الحسرة لدى جيني ومارجريتا بالرغم من كونها صبورة، حتى إن لم تكن دومًا سعيدة في أثناء صبرها

وسوف يتناول هذا الكتاب قصتهم قريبًا. والآن دعونا نناقش الشق الخاص بموضوع «تَناوَلي الأقراص التي وصفتها لكِ».



1

الجميع ينتظرون فحسب

ثلاث صور لتجربة الانتظار

ممسكًا بالسنارة، منتظرًا أن تلتقط السمكة الطعم
أو في انتظار أن تطير الريح طائرتي الورقية في السماء
أو متشوقًا إلى حلول ليلة الجمعة
أو في انتظار قدوم العم جايك
أو منتظرًا غليان طاسة الشاي، أو في انتظار الحصول على سروال جديد
أو في انتظار الحصول على شعر مجعد مستعار
الجميع منتظرون فحسب.

«مكان مخصص للانتظار The waiting place»، هو اسم قصيدة مهمة جدًا، ولها شعبية كبيرة، أُخذت منها تلك الأبيات. وربما أنتم تعرفون ذلك الأمر من سابق معرفتكم بالقصيدة عندما كنتم أطفالًا. فإذا كنت تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان لديك أطفال، أو أحفاد، أو أولاد لأخيك أو لأختك؛ فلقد سبق لك- بلا شك- أن قرأت تلك القصيدة لهم، أو حفظوها عنك؛ ومن ثم غنوها بأنفسهم. وهذه الأبيات في الأصل مقتبسة من كتاب د. سوس Dr. Seuss الأخير الموجه إلى الأطفال بعنوان «**تلك الأماكن التي**

ستذهب إليها «*The places you'll go*»، الذي طُبع عام 1990. ومن المؤسف أن د. سوس ربما كان ينتظر الموت بسرطان الفم عند كتابة كتاب «تلك الأماكن التي ستذهب إليها» وطباعته[1]. ولكن د. سوس يثبت أن انتظار الموت الوشيك يمكن تحمله، وأن حتى ذلك الأمر المروع لا يستطيع أن يوقف التفاؤل والإبداع.

تتكون قصيدة «مكان مخصص للانتظار» من صفحتين في كتاب «تلك الأماكن التي ستذهب إليها»، وهي مصحوبة ببعض الرسوم التي تصف بعض المواقف المضحكة التي تنطوي على الانتظار الموصوفة في القصيدة. فهناك بعض الناس الذين تعطلت بهم الحافلة، ورجل آخر أنزل سنارته في فتحة بالوعة المجاري يصطاد السمك، وعدد من البشر يصطفون في طابور في انتظار دورهم لدخول دورة المياه. وجندي آخر ينتظر أن يرن جرس تليفون فُصلت عنه أسلاك الاتصال. وطفل آخر ينتظر نسمة الهواء التي تساعده أن تعلو طائرته الورقية إلى السماء. وسيدة أخرى تنتظر أعلى منحدر ثلجي إلى أن يهطل الثلج، وسيدة أخرى تنتظر حتى يغلي الماء داخل طاسة الشاي. إن قصيدة «مكان مخصص للانتظار» هي جزء من كتاب مخصص للأطفال. ولكن لأن كتاب «تلك الأماكن التي ستذهب إليها» يحظى بانتشار واسع بين البالغين أيضًا الذين يقرؤونه ويستمتعون به فإنه من أكثر الكتب المطبوعة باللغة الإنجليزية التي يتهافت على شرائها القراء. ومن أكثر الكتب الموضحة لفكرة الانتظار. ويعد هذا الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر الهدايا التي يتم شراؤها كهدية تخرج في الجامعة

---

(1) كتب جيك جروجان في كتابه Origins of A Story: 202 طريقة لإلهام الآخرين من خلال أعظم الأعمال الأدبية العالمية، سيدر ميل للنشر، 2017 (روجع في مجلة ناشونال بوست، عدد 18 نوفمبر، 2017 [مايكل ميلجارد Michael Melgaard]) الذي يناقش قصة آخر كتاب للدكتور سوف

أو المدرسة، وقد باع هذا الكتاب بحلول مايو 2016 نحو 12.5 مليون نسخة. وقد حظي هذا الكتاب باحترام كبير في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى درجة أن السيدة الأولى/ ميلانيا ترامب Melania Trump تبرعت بنسخ من هذا الكتاب ضمن مجموعة من مؤلفات الدكتور سوس لعدد من البرامج التعليمية المنتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد نجحت الفكرة في جميع الأماكن تقريبًا، ربما لأن الجميع في انتظار أمر ما. ولكن حسب علمي، رُفضت تلك الهبة من مكتبة مدرسة كمبريدج بورت الابتدائية في مدينة كمبريدج بولاية ماساتشوسيتس. حيث أكد أمين المكتبة المسؤول في ذلك الوقت أن ذلك الكتاب ممتلئ بالأفكار النمطية والعنصرية Cliched and racist.[2] وربما يعكس ذلك مدى شهرة الدكتور سوس وكتابه هذا الذي كان هدفًا لاعتراض الناشطين المهمومين بالتنوع والشمول الاجتماعي، وهم بالتأكيد في الانتظار أيضًا وبالرغم من رفض تلك المدرسة الابتدائية لكتاب الدكتور سوس «تلك الأماكن التي ستذهب إليها»، فإن ذلك الكتاب يضع كتاب صامويل بيكيت Samuel Becett بعنوان «في انتظار جودو Waiting for Godot» في مكانة أقل لو أغفلنا النكهة السياسية لكتاب جودو الذي يعد أحد أعظم الأعمال التي تناولت موضوع الانتظار وبالرغم من حبي وإعجابي بالدكتور سوس وأعماله فإنني أعتقد أنه قدّم الانتظار في شكل لا يعدّه يقدم خدمة جيدة لأحد، أي إنه قد تناول الجانب السيئ للانتظار. فموضوع الانتظار بالنسبة إلى الدكتور سوس هو أمر جامد، وكئيب، وميؤوس منه، وممل أيضًا، أو يمكن أن تقول إن الانتظار هو أمر لا

(2) وُصفت هدية ميلانيا ترامب في مجلة «ديلي ميل»، عدد 30 سبتمبر 2017 (جيمس ويلكنسون James Wilkinson) اعتادت السيدة ميشيل أوباما أن تستمتع بقراءة كتب الأطفال أيضًا. ظهرت مقالة للسيد فيليب نيل بعنوان «Was the Cat in the Hat Black? The Hidden Racism of Children's Literature and the Need for Diverse Books»، مباشرة قبل أن تقدم السيدة ميلانيا ترامب هديتها

نهائي بالنسبة إلى الدكتور سوس، يهدف إلى إخبارنا بشيء ما عن الطبيعة البشرية. إنه بورتريه عن الانتظار، الذي بالرغم من نكهته الفكاهية فإنه يعقب- بشكل حاد جدًا- على الطبيعة الكئيبة للانتظار. حسنًا، إن كان الأمر كذلك، ولكن من الممكن أن ينطوي الانتظار- بشكل يفوق التوقعات- على كثير من المميزات الأخرى البعيدة كل البعد عن الملل والكآبة بل قد يصبح الانتظار أمرًا مستحسنًا في بعض الأحيان، وربما يكون الانتظار ممتعًا في أحيان أخرى. وربما لو نظرت عن كثب، ستعلم أن الانتظار ربما يصبح إحدى الخصال المحمودة لدى شخص ما تعرفه مما يجعله محبوبًا ويُظهر الانتظار قدرة أي شخص على الحب والعطاء. وإليكم تلك النسخة من الانتظار. لقد حصلت عليها من رواية موشي موشي Moshi Moshi، التي ربما يُقصد بها التحية اليابانية عند الرد على المكالمات الهاتفية، والتي تعادل كلمة «Hello» باللغة الإنجليزية والرواية عن أم وابنتها تتعلمان التكيف مع وفاة إيمو Imo، وهو الأب الذي يعمل موسيقيًا محترفًا. حيث توفي منتحرًا مع عشيقته التي أقنعته- بالقدرة على الإقناع التي تتمتع بها- بضرورة أن ينتحرا معًا. وفي الفقرة التالية تتحدث الابنة إلى ياماراكي سان، وهو صديق والدها، وكان يعمل معه موسيقيًا عارفًا على الطبول، وكانت تسأله عن كيفية وفاة والدها. إن يامازاكي سان يتقن جيدًا موهبة الانتظار:

> ضربت الطاولة براحتي بعنف، وبدأت بالبكاء بصوت عالٍ ولقد درفت مزيدًا من دموع الحزن التي تبدو وكأنها آتية من بئر لا قرار لها، لا تنضب مهما سكبت من الدموع. ولكن يامازاكي سان لم يربت على كتفي، ولم يمسح رأسي بيده.. وعندما رفعت رأسي رأيت بعينيَ الحمراوين المتورمتين يامازاكي سان هناك واقفًا بوجهه الطيب والدموع تجاهد وتنتظر أن تهرب من أطراف مقلتيه

لم تحصل يوشي على الإجابة التي تريدها عن الاتفاق المبرم بين أبيها والمرأة التي لم تقابلها من قبل، والتي كانت الرفيق الجديد والأخير لأبيها قبل وفاته، الذي حرضه على الموت. ولكنها حصلت بالفعل على كثير من عاطفة الإشفاق والمواساة من يامازاكي سان الطيب وليست تلك هي التجربة التي يتحدث عنها الدكتور سوس، أليس كذلك؟ ولكنه تحدث عن صفوف الانتظار أمام أبواب دورات المياه، والانتظار بجوار هاتف لن يرن أبدًا، أو انتظار أن ترتفع الطائرة الورقية بدون رياح تحملها عاليًا ولست متأكدًا أن هذا الأمر يمكن أن يصب في مصلحة ذلك الموطف الحكومي في تلك المدرسة التي رفضت كتاب الدكتور سوس، ولا يبرر فعلتهم ولكن سيذهب كتابي إلى ما هو أبعد من كتاب الدكتور سوس «تلك الأماكن التي ستذهب إليها»، أو قصيدته «مكان مخصص للانتظار»

الجميع منتظر، ربما كان الدكتور سوس على حق في هذه النقطة، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنك قطعًا محشور في مكان ما، كالأماكن المخصصة للانتظار، أو معطل واقف في طابور طويل أمام ماكينة الحساب في السوبر ماركت. ربما تكون جالسًا في مكان ما على طاولة واحدة مع شخص مثل يامازاكي سان، أو جالسًا في غرفة العمليات تنتظر مولودًا جديدًا. فمعظمنا متوقف ومتمهل ومنتظر، أو كما قال بوززو في رواية بيكيت «انتظر قليلًا أستحلفك بالله» I beg you.. but stay still ننتظر جميعنا حتى يأتي الوقت المناسب للقيام بأمر ما. نُبقي الأمور معلقة، ونتوقع أن تحدث أمور أخرى (بالخير كان أو بالشر). نشعر بالإثارة والقلق والترقب، نكبح جماحنا، ونحاول معالجة الأمور وقتيًا إلى أن نتأكد من خطوتنا المقبلة ونتردد في اتخاذ قرار لسنا متأكدين منه تمام التأكد، ونهدئ من روعنا (لو حالفنا الحظ)، ونوقف بعض الأمور عن مسارها، ونعيد حساب الأمور، ونتنبأ بتبعات أفعالنا، ونقرأ الطالع (نعم، حرفيًا)، ونقف على الحياد بين الإحجام والإقدام، ونحاول

إبقاء الأمور طافية على السطح. وربما نجمدها تمامًا ونؤجلها، ونضعف ونتحرق شوقًا («لا يوجد ما نفعله» nothing to be done كما يمكن أن يقول فلاديمير واستراجون من رواية بيكيت). وربما التقليل من مزايا شيء جيد، وعدم المغادرة («لن أبرح مكاني، ولن أفكر حتى في تركك هنا» I won't leave, I won't ever leave you). ونتحامل على أنفسنا ونتحمل ونصبر كما صبر باتريك لي فيرمور Patrick Leigh Fermor ذلك الصبر اللاذع. ونأمل ونتعشم ونؤجل القرار إلى يوم آخر. ونبقى منتظرين نعطل الأمور ونوقفها[3]. والأمر على ذلك متواصل ولا نمانع أبدًا الانتظار. بل أعتقد أن فيه من الخير أكثر ما فيه من الشر. ولكن ربما ذلك تفكيري وحدي[4]. مع أنني يجب أن أفصح لكم الآن أن التفاؤل ليس من خصالي. إنها طبيعة الأمور. وما سوف نتناوله فيما يلي ذلك الآن هو بعض المواقف الحيدة التي تنطوي على الانتظار[5] ذلك لأنها في الغالب تصبح متجاهلة ولكن ربما لن تتمكن من

(3) تكثر التعبيرات المضحكة عن الانتظار في مسرحية «في انتظار جودو». ومن أكثرها قربًا من ذاكرتي تعبيفان «الغروب... الضيق... الانتظار». و«انتظر مزيدًا من الوقت فلن تندم أبدًا».

(4) مع أنها قصة سيئة في الغالب. كما يدعي كتاب «لكل مهدر بلا ثمن» All for Nothing، الناشر NYRB كلاسيكس، الصادر عام 2016، بها قصة أسرة ألمانية كانت تتمتع بثروة في الماضي، أصبحت تعيش في مزرعة صغيرة في بروسيا في يناير 1945، في حين ينتظرون الغزو الروسي يمكن أيضا مقارنتها برواية جي ام جوتزي JM Coetzee بعنوان Waiting for the Barbarians

(5) يعد كتاب فريدريك جراف Friederike Graff بعنوان Erkundungen eines ungeliebten Zustands، شركة مي اتش ليمكس فيرلاج، 2014، من الكتب الأكثر إيجابية لموضوع الانتظار، أكثر من أي كتاب آخر قرأته، وهو كتاب مشوق جدًا. ولكني لا أعتقد أنك ستجد نسخة مترجمة منه إلى الإنجليزية، وإن أردت يمكنني أن أساعدك في ترجمته كما يضاف إلى ذلك كتب أخرى من ألمانيا، فلدينا كتاب أندريا كوهلر Andrea Kohler الانتقادي بعنوان Die geschenkte Zeit Über das Warten، شركة تاشينبوخ لنشر، 2011، ولكن هذا الكتاب يحتاج جدًا بشكل حذر، ويتناول الحالة التي نحن بصدد التعامل معها، وهو كتاب يصعب الوصول إليه، ولكنه يستحق التعب والبحث، ويوجد منه نسخة باللغة الإنجليزية بعنوان «لعبة الانتظار» The Waiting Game، 2015، كما يمكن أن تتابع كتابًا بعنوان «Passing Time An Essay on Waiting» Passing Time An Essay on Waiting، 2017، وهو كتاب يحمل نفس محتوى الكتاب السابق، ولكن مع تغيير في العنوان فقط ويركز كتاب كوين سيمون Coen Simon بعنوان Warten macht glücklich! Eine Philosophie der Sehnsucht, Gebundenes Buch، شركة Gebundenes =

تجاهل المواقف السيئة (ومنها كما يقول بوززو في رواية بيكيت «الغروب... الانحسار... الانتظار» The dusk . the strain . the waiting)، والجزع، والفاجعة، والموت البطيء، والأطفال الموتى والهلاك يمثل جزءًا من طبيعة الانتظار، ولا يمكن التغلب عليه أيضًا كما سوف أتحدث كثيرًا عن آليات التكيف التي يلجأ إليها بعض البشر لتحويل أي موقف وجداني كالانتظار، عندما يصبح الانتظار غير محتمل، أو سيئًا ببساطة، إلى أمر جيد، أو حتى مفيد وهو أمر لا يمكن أن يتم إن لم يكن ممكنًا. ففرصتك لتحويل ذلك الموقف السيئ إلى أمر جيد لن تكون جيدة على الاطلاق لو أنك تنتظر تنفيذ حكم الإعدام مثلًا مثل ماكسميليان الأول Maximilian I امبراطور المكسيك الذي أعدم في يونيو 1867.

بمناسبة موقف انتظار تنفيذ الحكم بالإعدام، يوجد لهذا الأمر شقان: الشق الأول يتضمن رجالًا يصطفون في طابور، بيد كل منهم بندقية، ورجل واحد على استعداد للموت في مواجهتهم على الناحية الأخرى. بالطبع ستفضل الاصطفاف مع حاملي البنادق، ولن تتمنى أبدًا مواجهتهم. إننا جميعًا نقف في طابور من نوع ما، مثل أولئك الأشخاص في رسوم كتاب

= للنشر، 2015 (ترجمه من اللغة الهولندية إيرا فيلهيلم Ira Wilhelm) عن التذكر بالماضي. وكان كتاب ستيفن جيير Stefan Geyer، وجورج كريستيان دور Georg Christian Dorr بعنوان «الانتظار» بالألمانية Vom Warten، شركة مريكس فيرلاج للنشر، 2018، قد وصلني متأخرًا والآن فسعد إلى الإنجليزية يمكنك أن تجد بعض الأشياء الإيجابية عن الانتظار في كتاب دانيل مندلسون Daniel Mendelsohn بعنوان «في انتظار البرابرة: صفحات مكتوبة من الكلاسيكيات حتى رمز موسيقى البوب»، شركة نيويورك ريفيو بوكس، 2012، بالرغم من العنوان غير المشجع كما تعرف العلاقة بين الانتظار والتواصل من خلال كتاب جوزيف فيرمان Joseph Farman بعنوان «الاستجابة المتأخرة: فن الانتظار منذ العالم القديم حتى الوقت الحاضر»، شركة جامعة يال للنشر، 2018 ولكن فيرمان يشرح الكثير بالفعل عن الانتظار كما نرى التعلم العميق في كتاب لوثر بيكوليك Lothar Pikulik، بعنوان Warten, Erwartung. Eine Lebensform in Endund Ubergangszeiten in Beispielen aus der Geistesgeschichte، شركة Literatur und Kunst للنشر، 1997 .Vandenhoeck + Ruprecht Gm.



الشكل رقم (1-1) لا يحمل الانتظار بالضرورة أمرًا سيئًا لنا باستمرار. لوحة «طابور الانتظار أمام محل بيع السمك»، للرسامة والناقدة التشكيلية إفلين دانبار Evelyn Dunbar عام 1944، متحف إمبريال الحربي، لندن.

الدكتور سوس المطبوعة في كتابه «تلك الأماكن التي ستذهب إليها». ونجد في تلك الرسوم طابورًا من البشر منتظرين دخول دورة المياه. ولا يخفى على أحد أن الانتظار في طوابير هو جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية في المدينة.

ويوضح الجدول التالي قائمة بالأنشطة التي يمارسها الإنجليز، والوقت الذي يستهلكونه في أثناء تلك الممارسات، ووقوفهم في طابور في انتظار القيام أسبوعيًا بجميع تلك الأنشطة[6].

(6) وُجدت هذه القائمة لدى موقع swns.com بتاريخ 27 سبتمبر 2021 بعنوان « لانتظار في الطابور: لقد أمضيت عامًا تقريبًا من حياتي منتظرًا في طوابيره» كما قد تلقي نظرة على كتاب ماري ماركيز Marie Marquis وبيير فيلياترولت Pierr Filiatrault بعنوان: « Wait in line: Nearly a year of our life is spent in QUEUES»، السلوك الاجتماعي والشخصية: مجلة دولية، العدد 28 (4)، عام 2000



تابع الشكل رقم (1-1)

الوقوف في طابور في انتظار دخول دورة المياه	17 دقيقة
الوقوف في طابور في انتظار شراء الطعام والشراب في أثناء التجوال ليلًا	19 دقيقة
الانتظار في طابور السوبر ماركت في انتظار الحساب	29 دقيقة
الانتظار أمام إشارات المرور حسب السيولة المرورية	60 دقيقة
الإجمالي	125 دقيقة

ألا ترون؟ نحن لا نقضي وقتًا طويلًا بالانتظار على الطرق. على غير المتوقع. ولكنني في المعتاد أقضي وقتًا أطول من ذلك محشورًا في سيارتي

في الشارع رقم 14 يوميًا وأنا متأكد أنك قد تعاني الأمر نفسه. ولكن يبدو من القائمة أن الفكرة واحدة. حتى إذا كان مجرد التفكير في ضياع كل ذلك الوقت منك يجعلك شديد الحساسية. خاصة إذا كانت قائمة الممارسات التي تسهم في ضياع وقتك أطول من تلك، ولكن مستوى الحساسية يتوقف كذلك على الشخص المنتظر معك في السيارة. وما المناسبة التي اضطررت معها أن تقف في طابور ربما يكون ذلك الانتظار بصحبة شخص ما تحبه كثيرًا، وفي هذه الحالة يصبح الانتظار ممتعًا فالانتظار يوفر لكما الفرصة للجلوس معًا وتجاذب أطراف الحديث. ولهذا لا أعتقد شخصيًا أن أيًا من تلك القوائم تخبرنا أي شيء حقيقي ذو قيمة على الإطلاق: لأن تلك التجربة التي تنطوي على الوقوف في طابور قد تختلف عن الانتظار نفسه، وبهذا الشكل يمكنها أن تكون تجربة جيدة أو سيئة بالفعل. والأمر يتوقف على ظروف الانتظار، والطريقة التي تستشعر بها الأمر. ويمكن أن تساعدنا لوحة إيفلين دانبار (الشكل رقم (1)) على الوصول إلى فهم أفضل لظروف الانتظار. وتقدم الصورة مثالًا حيًا من أحد مواقف الحياة اليومية للطريقة التي يقف فيها عدد من البشر في طابور: رغبة في شراء الطعام. في وقت يندر فيه توافر الطعام للناس، حيث توضح تلك اللوحة كيف يمكن للانتظار مدة طويلة في طابور أن يكون جيدًا، وكذلك يمكن أن يصبح عصيبًا.

ماذا يجري في لوحة إيفلين دانبار بعنوان « طابور الانتظار أمام محل بيع السمك»؟ The Queue at the Fish Shop. توضح تلك اللوحة التي ترجع إلى عام 1944، والتي استغرقت عامين حتى انتهت إيفلين من رسمها، صفًا من الأشخاص يرغبون في شراء السمك. وهم منتظرون دورهم في مدينة روشيستر في مقاطعة كنت، مسقط رأس إيملين. ما القصية التي تحاول إيفلين تناولها هنا عند محل بيع الأسماك؟ لقد ابتُليت إنجلترا في زمن الحرب العالمية الثانية بنقص حاد في المواد الغذائية: مما دفع الحكومة

إلى تحديد نصيب كل فرد من المواد الغذائية. في هذه اللحظة خطرت تلك اللوحة على مخيلة إيفلين (حيث التهم المجهود الحربي معظم الإنتاج المحلي، وكانت المواد التموينية تُرسل للمجهود الحربي في شمال إفريقيا وأوروبا) كان اللحم على وجه الخصوص يوزع على الناس في مخصصات غذائية. ولكن لم يكن السمك يتعرض لتلك المعاملة نفسها، ربما لأنه كان من المنتجات الغذائية السريعة التلف، ولهذا السبب لم يكن السمك يتعرض للمصادرة والتوزيع من الحكومة. ومن أجل ذلك، أصبح السمك من أهم مصادر البروتين للأسرة في إنجلترا في زمن الحرب العالمية الثانية. ولقد اعتادت والدة زوجتي أن تحكي لنا كيف كانت الحياة صعبة في أثناء الحرب، خاصةً إذا كان عليك أن تجد الغذاء لشخص صغير، أو كبير، أو حتى توفير قوتك اليومي ولكن ذلك كله لم يقلل من حس الدعابة لدى إيفلين، حيث أوضح متحف إمبريال الحربي في ملحوظة بجوار لوحة إيفلين أنه: «يتضح حس الدعابة لدى إيفلين في اللافتة التي تقول (توريدات كبيرة من الأسماك الطازجة يوميًا). حيث كان الصيد ممنوعًا بأمر من البحرية الملكية، وبسبب انتشار الأعمال الحربية للبحرية الألمانية بطول السواحل البريطانية». كما رسمت زوجها على الدراجة وضمته إلى اللوحة، بالإضافة إلى أختها التي كانت تعبر الطريق ممسكة سلة بيدها.

توضح لوحة مثل « طابور الانتظار أمام محل بيع السمك» وجهين للانتظار: فيمكن أن يكون التركيز على الموقف، أو على التجربة. وتتعلق مشكلة الموقف في الغالب على المدة (كم من الوقت يجب أن أنتظر؟)، وهي عملية تتعلق فقط بالأرقام وتستند إلى الفكرة التي تؤكد أن الطوابير تحمز الناس وتستثير أعصابهم في كتابه «الاستجابة المتأخرة» Delayed Response أخبرنا جيسون فارمان أننا «نكره الانتظار بكل أشكاله» «We hate waiting with all its forms». وأن هذه الأحاسيس قد وجدت طريقها

حتى عند الانتظار، ولو لأقل وقت ممكن، مثل الوقوف في طابور. معظم البشر الذين يقفون في أي طابور يريدون أن يعرفوا كم من الوقت يتعين عليهم الانتظار في هذا الموقف وجميعهم يريدون أن يخرجوا منه في أقرب وقت ممكن. ولكن تجربة الوقوف في طابور تختلف إلى حد بعيد. ربما تحب الوقوف في هذا الطابور، فمن يدري؟ ربما تكون وظيفتك التي تعمل بها مملة جدًا، إلى درجة أنك تفضل الانتظار في الطابور عن العودة إليها، أو لأنك تحب أن تتجاذب أطراف الحديث مع صديق من روشيستر في أثناء انتظارك في الطابور.

دعونا الآن نفكر في الأمر. كم من الوقت يمكنك أن تنتظر أمام محل بيع الأسماك؟ ربما سوف يكون من الجيد أن نعرف الإجابة. فربما تود أن تذهب وتعود في وقت لاحق، أو ربما تفكر في الذهاب إلى مكان آخر أكثر أهمية، وربما تنضم إلى طابور آخر أقصر في العدد وأسرع في الإنهاء مثل محل بيع الخضراوات على ناصية الطريق وكلما طال الوقت الذي سوف تقضيه في الطابور كان من المنطقي التفكير في الاستغناء عن شراء منتجات الأسماك من محل N. Hill & Son، وربما اللجوء إلى محل Toohey's للفاكهة. بالتأكيد سوف تتمكن من حساب الزمن الذي سوف تستغرقه في الانتظار لدى محال N. Hill's باستخدام ساعة عادية، وآلة حاسبة، وفي هذه الحالة سوف تتمكن من اتخاذ ذلك القرار، إما بالانتظار وإما بالرحيل. ويعتمد تفكيرك في زيارة محل Toohey's على عدة عوامل، حسب الوقت الذي سيستغرقه صاحب المحل في جلب البضاعة، وعدد العمال القائمين على الإدارة في المحل كما يعتمد الأمر أيضًا على كمية الطعام التي يتعين على كل شخص أن يحصل عليها. كما يعتمد كذلك على كفاءة العمال في المحل، وعلى قدرتهم على التعامل مع الأوامر، وعلى سرعة استجابتهم ونرى 27 شخصًا في الطابور، ويبدو أنهم منتظرون منذ فترة ليست بالقصيرة

ويمكننا أن نفترض أن بداخل المحل 4 أشخاص يشترون أغراضهم، فإذا طلب كل شخص يقف منتظرًا في ذلك المحل سمكتين فقط، وإذا تمكن طاقم العمل في المحل من تعبئة الطلبات، وتسليم الأسماك بسرعة بدون الثرثرة عن مشاغل الحياة في روشيستر، فربما في هذه الحالة يمكن التعامل مع هذا الطابور بكفاءة وسرعة. يبدو الأمر سهلًا في الوهلة الأولى، ولكن من يدري؟ فربما يكون طاقم العمل في المحل مكونًا من عمال متبلدين. وربما جادت روشيستر بأفضل أبنائها للمجهود الحربي على جبهات القتال، ويبدو أن الحال كذلك، فكما ترى في الصورة، الطابور لا يكاد يبرح مكانه

ولقد عالجت قليل من المصادر والبرامج التعليمية والتدريبية في الجامعات هذه النسخة من الانتظار المتعلقة بالموقف Situational Waiting- الانتظار للوصول إلى مكان ما، أو للحصول على شيء ما من طابور ما. تروج بعض البرامج التدريبية في الجامعات لبعض المصطلحات المتعلقة بما يسمى «نظرية الطابور» queuing theory، أو نظرية الاحتمالات probability theory. ويمكن أن تساعد تلك الدراسات السابقة[7]. وتلك

(7) ولهذا أهمية خاصة للعاملين في مجال أنظمة الحاسب. مثلاً: دونالد جروس Donald Gross وآخرون– Fundamentals of Queuing Theory، الناشر: شركة وايلي إنترسايتس 4، عام 2008 – أو: أي واي كينشين A Y Kinchin Mathematical Methods in the Theory of Queuing، شركة دوفر للنشر، 2013. كما يوجد عدد كبير من الكتب مثل تلك التي سردناها سلفًا. ولكن الجانب الأكثر شيوعًا وعمومية من الانتظار قد تم تداوله من خلال نظرية الاحتمالات؛ كتاب من تأليف واي إيه روزانوف Y A Rozanov بعنوان «Probability Theory A Concise Course»، حيث توصل العالم المتخصص في الرياضيات سكوت كوميرز Scott Kominers ورفاقه إلى معادلة يمكن استخدامها لحساب الوقت المثالي الذي يتعين عليك احتماله في أثناء انتظار حافلة متكدسة متأخرة عند كل محطة قبل أن ينفد صبرك وتضطر إلى النزول منه والذهاب مشيًا إلى عملك. ربما يفكر كثير من المتخصصين في الرياضيات في هذا الأمر عند ذهابهم إلى العمل كل يوم، ولكن لم يتمكنوا قط من الوصول إلى حل ما لهذه المشكلة. وقد وجد هذا الفريق أن الحل بسيط بشكل مفاجئ. عندما يبدو لك كلا الخيارين جذابًا فعليك اختيار الأمر الذي لن يتيح لك خلاله فعل أي شيء؛ ذلك الخيار «الكسول»: انتظر عند أول محطة مهما كان الأمر محبطًا. وهذا الاقتراح مذكور في مجلة نيوساينتست في العدد الصادر بتاريخ 23 يناير 2008.

المواد التعليمية، على الحساب التقريبي للوقت الذي سوف تستغرقه في الطابور أمام محل Hill & Sons في شتاء روشيستر في مقاطعة كنت متسائلاً: «كم من الوقت سأنتظر؟» ?how long will I have to wait. إن الموقف هو الأهم بالنسبة إلى أولئك المُنظرين والمحللين المهتمين بفك شفرة الزمن المنقضي نتيجة لانتظار موقف ما. ويمكن أن نجزم أن مشاعر الأشخاص المنتظرين لا تعني شيئًا بالنسبة إلى المُنظرين، حيث يفترضون أن الجميع لديهم الشعور نفسه. وإليكم مثالًا على طريقة عمل نظرية الانتظار، وذلك من خلال مراجعة مقال السيد إيان سامبل Ian Sample، الكاتب والصحفي في جريدة الجارديان The Guardian[8] في أثناء فترة تخفيضات البيع في متاجر المملكة المتحدة عام 2017. وتضمنت القصة عملًا بحثيًا غير منشور للدكتور ريان بويل Ryan Buell، وهو أستاذ مشارك في قسم «إدارة الخدمات» في كلية هارفارد لإدارة الأعمال التجارية. حيث توصل في إحدى دراساته أنه «يوجد على الأقل شخص واحد بين خمسة أشخاص تملكهم الملل في مؤخرة الطابور؛ ومن ثم يبدل للانتظار في طابور آخر مجاور على أمل تسريع الأمور» «ولكن في المتوسط، ازداد الوقت الذي انتظره أولئك الأشخاص بنسبة 10% مع التغيير» «أما من غيروا أماكنهم مرتين، فقد كان وضعهم أكثر صعوبة؛ حيث انتظروا وقتًا أكثر بنسبة 67% عن الوقت المحدد لهم لو أنهم بقوا في أماكنهم». في المعتاد، يشعر الأشخاص الموجودون في آخر الطابور بالملل بدرجة أكبر من غيرهم وعلى ذلك، يؤكد د. بويل أننا لا يجب أبدًا أن نستبدل الطابور. وينصح بأن «ابدأ الحديث، وبادر الشخص الذي أمامك بالكلام، فإن لم تكسب شيئًا من الحديث معه، فقد تمكنت من تمضية الوقت إلى أن يأتي شخص آخر خلفك في الطابور، فلا تصبح

(8) صحيفة الجارديان، العدد الصادر بتاريخ 27 ديسمبر 2017، مقال بعنوان « Back to front
«why switching queues will get you nowhere faster

الشخص الأخير» «أو ببساطة، لا تنظر خلفك، وحاول أن تنسى أن مكانك هو الأخير في الطابور».

وماذا عن تجربة الانتظار؟ The Experience of Waiting، حيث نجسد طريقة ثانية لفهم ما يجري مع الانتظار في طابور محل بيع الأسماك في مقاطعة كنت. إذ تركز تلك النظرة إلى موضوع الانتظار على ما تشعر به في أثناء الانتظار، والأمر بهذا الشكل لا يتعلق بالأرقام التي ينطوي عليها موقف الانتظار. تخيل فقط أنك تقف منتظرًا في ذلك الصف في روشيستر. كيف تشعر الآن؟ تلك المرأة ذات الشعر الرمادي في مقدمة الطابور تحدق في مدخل المحل، وتبدو مستعدة للتحرك، وتبدو عليها لهفة مشوبة بالسرور وبعد ذلك، يقف زوجان يثرثران وتبدو عليهما السعادة أيضًا- هل تبدو السيدة الثانية في الطابور مسترخية وتستند إلى إطار النافذة؟ والزوجان التاليان لا يبدو أنهما يثرثران، ويبدو عليهما الملل على ما أظن. أو قد يكون التحفظ هو ما يسيطر على مشاعرهما لأنهما لا يعرفان بعضهما بشكل أو بآخر (فلدى كل منهما سلة مشتريات مختلفة). وانظر إلى الزوجين التاليين المحيطين بالطفل الصغير. الآن لدينا زوجان ثرثاران بالفعل. إن الوقوف في طابور مع أصدقائك أمر ممتع في بعض الأحيان.

لقد قرأت إحدى الدراسات المسحية عن الأنشطة التي يقوم بها الإنجليز عند الانتظار في طابور، حيث تبين أن 68% منهم يميلون إلى الثرثرة. وذلك من خلال المبادرة بافتتاح مجرى الحديث مع الشخص الواقف أمامهم في الطابور، أو حتى مع من هو خلفهم ويمكنك أن تراجع بنفسك صورة كل شخص منتظر في طابور روشيستر، وأظنك ستتفق مع رأيي عندما أقول إن كل شخص منهم يبدو عليه أنه يمر بتجربة مختلفة. فبعضهم سعيد، وكثير الكلام، وبعضهم يبدو هادئًا ومسترخيًا، ويبدو بعضهم أنه يشعر بالملل،

والبعض الآخر تبدو عليه علامات كره الانتظار. كما أن بعضهم أقل سعادة، وربما تظهر عليهم نظرة مثل نظرة الموت. فهم يرغبون بالتأكيد أن يتحرك الطابور حتى يمكنهم الحصول على سندويتش من لحم سمك الحادوق. وربما لا يحب هؤلاء الأشخاص بعضهم بعضًا، فمن يدري؟ فالوقوف في طابور واحد مع أشخاص لا تحبهم يصبح أمرًا مكروهًا جدًا.

ويمكن أن يمر الوقت ببطء شديد إذا فكرت بهذا الشكل. وقد تستنتج بعد النظر إلى الأشخاص الثمانية الموجودين في أول الطابور، أن تجربة انتظار هؤلاء الأشخاص أمر مختلف. حيث تتوقف تجربة الوقوف في الطابور على الأشخاص المصاحبين لهم في الطابور. وتؤكد كلوديا هاموند في كتابها «لقد طوانا الوقت» «Time Warped» أنه توجد توليفة أخرى مختلفة عن تجربة الوقوف في طابور، فتقول «إن الأشخاص الموجودين في مؤخرة الطابور يرون الوقت يمضي نحوهم، في حين يرى مَن هم في مقدمة الطابور أنهم يمرون عبر الوقت»[9]. تؤكد هاموند في كتاباتها الأخرى أن تجربة

(9) كتاب من تأليف كولديا هاموند Claudia Hammond بعنوان «لقد سحقنا الوقت» Time Warped ومن الأمثلة الأخرى للكتب الجيدة التي تتناول الوقت كمجربة. كتاب من تأليف مرك ويتمان Marc Wittmann بعنوان «Time. The Psychology of How We Perceive Time». شركة إم أي تي للنشر، 2016. يبدو أن الوقت أو الزمن من الموضوعات الشيقة التي تكثر الكتابة عنها بحيث نرى كتابًا جديدًا عن الزمن كل بضعة أشهر. ومن أمثلة الكتب الجيدة عن الزمن أيضًا ما يلي: الزمن من وجهة نظر عملية عصبية في مواجهة الزمن من وجهة نظر فيزيقية. شركة دابليو دابليو نورتون للنشر، عام 2017. وكتاب من تأليف فانيسا أوجلي Vanessa Ogle، بعنوان «Your Brain Is a Time Machine: The Neuroscience and Physics of Time»، شركة جامعة هارفارد للنشر، 2015. وكتاب من تأليف آلان بورديك Alan Burdick بعنوان «Why Time Flies: A Mostly Scientific Investigation»، شركة سايمون وشوستر للنشر، 2018. ومن أحدث الكتب التي لاحظت ظهورها عن الزمن مؤخرًا كتاب من تأليف ريموند تاليس Raymond Tallis بعنوان Why Time Flies: A Mostly Scientific Investigation، شركة أجند للنشر، 2016. وكتاب سايمون جارفيلد Simon Garfield بعنوان Time keepers: How the World Became Obsessed with Time، شركة كانونجيت للنشر، 2017. وأيضًا كتاب من تأليف لي سمولين Lee Smolin بعنوان «Time Reborn: From the Crisis in Physics to the Future of the Universe» – شركة فينتاج للنشر، 2013. وأخيرًا كتاب من تأليف جيمس جليك James Gleick بعنوان «السفر عبر الزمن»، شركة بانثيون للنشر، 2016.

الوقوف في طابور قد تختلف أيضًا باختلاف الثقافة: حيث تؤكد الكاتبة إيفا هوفمان Eva Hoffman أن كونها ترعرعت في بولندا أيام الشيوعية جعلها قادرة على تحمل الطوابير إلى حد بعيد[10] [كتبت هوفمان كتابًا كاملًا عن الملل]، وقالت إن في ذلك الوقت لم يكن هناك ما تستعجله في حياتها بكاملها ولكن عندما انتقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ثم عادت إلى أوروبا عام 1989 بعد انهيار الشيوعية، وجدت أن الطوابير قد أصبحت أمرًا لا يمكن تحمله[11]. ماذا يفعل كل هذا بنا؟ نظريًا، قد يتوقف أمر الوقوف في طابور على المدة التي يجب أن يستغرقها أمر ما حسب الساعة، ولكنه أيضًا ينطوي على طريقة تمضية الوقت في أثناء الانتظار، وكيف تختلف تلك التجربة بشكل دراماتيكي باختلاف طبيعة المنتظرين، وحتى بالنسبة إلى الثقافات المختلفة

وبفضل الطوابير والرياضيات وجهود كنت Kent توصلنا إلى وصف للانتظار ولكن قبل الاسهاب أكثر نريد أن نحدد تعريفًا للانتظار، لنضع كل شيء في المسمى الصحيح له واليكم افتراضي عن تعريف الانتظار: (مع عظيم تقديري لقاموس أكسفورد الإنجليزي على الإنترنت) «يتضمن الانتظار التجربة الوجدانية التي يمر بها الشخص في أثناء أحد المواقف التي تتطلب البقاء في المكان نفسه حتى وقت معين، أو حدوث أمر معين، أو حتى وصول شخص ما- أو جميع ما سبق» ويؤكد ذلك التعريف الأحاسيس التي

(10) عانت بولندا في ذلك الوقت من ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة جدًا، نتيجة تبعات الحرب العالمية الثانية إبان غزو ألمانيا لبولندا عام 1936، وانتصار الاتحاد السوفيتي على ألمانيا، واستعادة بولندا من القبضة النازية عام 1945، لكن بعد دمار تام للأوضاع الاقتصادية في ذلك الوقت (المترجم)

(11) قد تعتبر العلاقة بين الطوابير والأنظمة السياسية الشمولية موضوعًا يستحق الاهتمام في ذاته، حيث ظهرت رواية فلاديمير سوروكين بعنوان «الطابور» عام 1985، في الأيام الأخيرة قبل تفكك الاتحاد السوفيتي، شركة نيويورك ريفيو، 2008 ويبدو أن رواية بسمة عبدالعزيز بعنوان «الطابور» أيضًا أظهرت مصر الشمولية التخيلية

يمر بها الشخص في أثناء الانتظار بشكل مساوٍ لتأكيد الموقف نفسه وسوف أركز هنا على التجربة الوجدانية للانتظار، وما تشعر به في أثناء الانتظار. سوف أتجاهل الأمور الرياضية المتعلقة بالانتظار إلى أن تؤدي إلى تكوين فهم أفضل لتجربة الانتظار.

سوف أحاول أن أشرح لكم ثلاث نسخ من الانتظار كخبرة وربما أبالغ إذا قلت إن تلك النسخ الثلاث تشرح تجربة الانتظار، بل لقد وجدتها مفيدة جدًا، وأظن أن تلك النسخ تقدم موضوع الانتظار أكثر من أي شيء آخر. لقد ساعدتني بطريقة أو بأخرى لأفهم موضوع الانتظار جيدًا، ونعرف الطريقة التي يمكن من خلالها تبسيط وربط الأشكال المتعددة من الانتظار التي رأيناها توًا في طابور محل بيع الأسماك. فما تلك النسخ الثلاث المخصصة لموضوع الانتظار؟ تتلخص النسخة الأولى في الزوجين، أو العاشقين، أو الرفيقين: فالصداقة والعشق والحب والعلاقات الجنسية والرفقة كلها إما أن تبدأ بالانتظار وإما أن تستمر بالانتظار.

لو حاولت أن تجسد فكرة الانتظار، وفكرت أن ترسم أو تقدم صورة للانتظار، فربما سوف ينطوي الأمر على شخصين من نوع ما يفعلان شيئًا ما. أما النسخة الثانية من الانتظار فإن اتخاذ وضع الوقوف يقدم النسخة الثانية من الانتظار. تخيل معي شخصًا يهم بالقفز قفزة الغوص من أعلى برج القفز، ما شعوره؟ في هذه اللحظة قد يشعر بخليط من أحاسيس النشوة والإثارة (ويتطلب الأمر أعصابًا قوية لفعل ذلك) "it takes nerves to do it"، مصحوبة بالخوف والرهبة (نابع من التساؤل: ماذا لو ساءت الأمور؟) "what if something goes wrong". ففي هذه اللحظة يبدو أن الوقت يمر ببطء عجيب بالنسبة إلى الشخص الذي يهم بالقفز، والأشخاص المتفرجين من حوله. والخسارة هي النسخة الثالثة. إن



الشكل (1-2) «الجميع منتظر فحسب» من أعمال الفنان التشكيلي ادجار ديجاس، بعنوان: الانتظار «*Waiting*» عام 1882 – من ورق الباستيل مقاس 26 × 31 ¼ × 2 – معروضة في متحف جاي بول جيتي – لوس أنجلوس – بالاشتراك مع مؤسسة نورتون سايمون للفنون - باسادينا

ما يجعل تحمل الخسارة أمرًا لا يُطاق هو استحالة الانتظار عندما يتوفى رفيقك أو صديقك. لا يمكنني أن أصف ما تشعر به أنت، ولكني أجد نفسي منتظرًا لعلهم يرجعون. وكذلك فعلت السيدة جوان ديديون Joan Didion بالنسبة إلى زوجها جون جريجوري دان John Gregory Dunne بعد وفاته متأثرًا بأزمة قلبية مفاجئة. وهي تحكي تلك القصة في كتابها «عام التفكير السحري» *The Year of Magical Thinking*. أعلم بأن الموتى لا يرجعون. وكذلك جوان ديديون تعلم هذا، ولكن يعتمد الحزن والغضب المصحوب بوفاة شخص قريب منك دومًا على هذه الفكرة. لا أحد يعود بعد الموت،

ولا طائل من الانتظار. الآن ربما لا تثق تمامًا بتلك الصور الثلاث التي سقتها إليك بخصوص موضوع الانتظار. فقد يبدو أنها غامضة وتنطوي على كثير من الافتراضات عير المادية. وربما تكون نابعة من أفكار تخصني وحدي. ولمَ لا؟ فمثلًا، لنتحدث أكثر عن الطوابير. ولكني أعتقد أنني تحدثت بشكل كافٍ عن الطوابير (يمكننا أن نتحدث كثيرًا عن الطوابير. وتبرهن روايتا فلاديمير سوروكين Vladimir Sorokin، وبسمة عبد العزيز Basma Abdel Aziz، وكلتاهما بعنوان «**الطابور**» *The Queue* على هذا الأمر) اهدأ واصبر وانتظر. ربما تقتنع بتلك النسخ الثلاث. وهذا ما أتمناه. ألا ترى أن الانتظار دومًا يخرجك من كثير من الأزمات.

ننتقل الآن إلى مشهد من أعلى عام 1988 في إحدى دور الباليه في باريس وبطريقة أو بأخرى، تمكنا من إلقاء نظرة خلف الكواليس، ومن مكاننا نرى سيدتين (الشكل 1-2). ونرى في المنظر العام راقصة باليه ومدربتها. وتنتظر راقصة الباليه لتصعد على المسرح وتبدأ بتأدية فقرتها. أو أنها تنتظر لتبدأ تجربة الأداء لفريق الباليه. أو أنها تنتظر فقط بأداء بروفة. أما المدربة فتجلس وسط المقعد الذي تجلسان عليه وتنتظر الحدث نفسه. أم أنها تنتظر لتوفير الحماية للراقصة الشابة وتشجيعها[12]؟

من الواضح وجود قصة شاعرية في القصة التي تخبرنا بها لوحة ديجاس Degas من ألوان الباستيل بعنوان «**الانتظار**». وهي تتعامل مع تجربة الانتظار. إنها الرفقة التي تجعل من اللوحة- بدون شك- معبرة جدًا عن موضوع الانتظار، وعن ماضي ومستقبل اثنين من العناصر داخل الصورة. فلو أن كلتا الشخصيتين قد أُجلست في مكانها ولكن بالمنظر نفسه، فربما سوف تتساءل عن معنى هذه الوقفة وما تقصده الصورة ككل. وربما تكون

(12) وقد ألف ريتشارد طومسون كتابًا عن هذه اللوحة بعنوان «إدجار ديجاس: الانتظار»، متحف جيتي للدراسات الفنية، 1993

تلك الجلسة المنعزلة للمدربة تعني أنها تشعر بإحباط غاضب. أو أنها متلهفة فحسب أما ذلك الوضع الذي تتخذه راقصة الباليه وتلك العزلة، فربما لأنها تدعك كاحلها الملتهب، وتأمل ألا يتسبب لها ذلك في مزيد من الألم. قدم ديجاس عددًا آخر من اللوحات عن الموضوع نفسه. ولكن لأن الأشخاص في هذه اللوحة يجلس بعضها إلى حوار بعض. فإن المتفرج على اللوحة يحاول أن يعرف ما يفكر فيه كل شخص من أشخاص ديجاس. ما الذي ينتظره؟ وما الذي تفصح عنه كل سيدة عن الأخرى.

كيف- إذن- أصبحت لوحة إدجار ديجاس Edgar Degas عن الانتظار موضوعًا للبحث عن الانتظار؟ ربما تكون المدربة هي السبب في ذلك، حيث أشار ريتشارد طومسون Richard Thompson في إحدى دراساته التي أعدها عام 1995 إلى هذه الصورة تحديدًا وأسهب طومسون أن الرسوم المبدئية للسيد ديجاس المتعلقة بهذه اللوحة كانت تتضمن راقصة الباليه الشابة فحسب. وأضاف ديجاس المدربة الأكبر سنًا إلى النسخة النهائية في الوسط تمامًا. وكان يهدف عندما جمع السيدتين إلى الإشارة إلى ماضي كلتا الشخصيتين ومستقبلهما فعندما نرى السيدتين في هذه اللوحة. من الصعب ألا نفكر فيما يلي: «يا ويحي- حياة المدربة! هذا هو بالفعل ما ينتظر راقصة الباليه الشابة في المستقبل». «وهي لا تعي ذلك، ولا تشعر به». ربما خلال عشر سنوات، إذا لم يسعدها الحظ، سوف تتحول راقصة الباليه الشابة لتصبح مدربة أيضًا. وهذا هو نوع الانتظار الذي تناقشه اللوحة.

وماذا عن تلك المدربة؟ ماذا تنتظر؟ ما الذي فاتها من أيام عزها عندما كانت راقصة باليه محترفة؟ ربما هذا هو ما يبعث على مشاعر الفخر لدى راقصة الباليه الشابة، وذلك نتيجة النجاح الذي أدركته وربما يقدم وضع المقارنة في اللوحة إجابة أخرى عن هذا السؤال المتعلق بالزمن. فيمكنك

أن تقول أن كلا من راقصة الباليه والمدربة تنتظر أمرًا مختلفًا. وذلك يتعلق بالأفكار التي تحملها كل منهما عن الزمن: فالزمن حمل كبير تجره السيدة الأكبر سنًا خلفها. فلقد مرت الأيام الخوالي التي شهدت مجدها عندما كانت راقصة باليه شابة. لكنها ليست طاعنة في السن. ولكن الأمر يتعلق الآن بالمجد الذي يجب أن يحققه شخص آخر، وهذا هو ما جلبه عليها مرور الزمن. أما الفتاة الشابة. فلا بد أن الوقت يجري مسرعًا بالنسبة إليها وهي تنتظر في لهفة حتى تبدأ بالاستعراض الخاص بها. وكل ما تتمناه أن تحصل يومًا ما على أيام مجدها.

لا بد أنها تشعر بالقلق. ولكنه قلق مصحوب بالإثارة she must be nervous but at the same time excited. والمقارنة مع المدربة هي ما يجعل الأمر أكثر وضوحًا. يغير الوقت الطريقة التي نشعر بها بتجربة الانتظار، أو هذا على الأقل ما يظنه مارك ويتمان Marc Wittmann ولكن في هذه اللوحة، احتاج الأمر إلى تقديم ذلك النموذج المزدوج حتى يكون جليًا واضحًا، وفي هذه الحالة سوف تنتشر قصة ديجاس. إن الإحساس بالزمن يختلف من شخص إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، وهذا أمر مؤكد. ولكنك ستفهم هذا التباين وتلك الاستجابة المعقدة «Complex Response» بشكل أفضل عند توفير نموذج ثنائي.

لم أذكر أكثر الجوانب وضوحًا في هذه اللوحة عند تقديم زوج من النماذج للتعبير عن موضوع ما. إنها الرفقة: فالرفقة مستحيلة بدون توافر زوج من البشر. ويمثل اجتماع المتدربة بمدربتها معًا في الصورة نفسها زوجًا متقاربًا من الرفاق، مع أننا لن نعرف أبدًا مدى التقارب بينهما. ولكننا نلاحظ وجود ألفة تقترب من اللامبالاة بينهما، تجعل الأمر يبدو بالفعل أن أحدهما لا يبالي بوجود الآخر. وربما هذا هو الوضع نفسه بالنسبة إلى

الأزواج المنتظرين في طابور ما لا يشجع على إقامة رفقة من أي نوع مع أي أحد. وربما إذا أردت أن تجسد الانتظار، أو أن ترسم لوحة معبرة عنه، فإنك بالفعل سترسم صورة لشخصين.

ثم لدينا تلك اللوحة لقفزة تلك الغطاسة اليابانية، وقد ظهرت تلك اللوحة في ثلاثينيات القرن الماضي. وتوضح لوحة «**الغطسة**» *The Diver* أنه توجد طرق وأساليب أخرى يمكن من خلالها أن نفكر في موضوع الانتظار. لا يوجد رفاق لهذه الغطاسة المحترفة، ولكن قفزتها تعكس روح الانتظار، وإنه لأمر مثير أن نرى الانتظار بهذه الطريقة، مجرد حركة وُضعَت في وضعية الوقفة في الهواء. بغض النظر عن المرات التي تتبعنا خلالها موضوع الانتظار، يمكننا من الوهلة الأولى أن ننظر إلى اللوحة المعروضة في الشكل رقم (1-3)، وتبدو كالصور التي نراها في الإعلانات الترويجية عن الرحلات السياحية، أو على ملصق لإحدى وكالات السفر.

يقدم لنا الفنان التشكيلي الياباني كوجيرو أونشي Koshiro Onchi (1891- 1955) عملًا دراميًا من خلال لوحته تلك التي تجسد هذه اللحظة القصيرة من الانتظار، تلك اللحظة التي تكاد تمر على الجميع مثل حقبة من الزمن؛ لأنها لا تستمر إلا لطرفة عين ربما بسبب الحركة النشيطة القوية[13]. ويسهل علينا استنتاج عنوان هذه اللوحة اليابانية المطبوع على الخشب «**الغطسة**». ويعرف كوجيرو أونشي كيف يوضح ما سوف نتمكن من رؤيته

(13) ربما يرتبط ذلك بالمصور هنري كارتييه بريسون وصورته بعنوان The Decisive Moment، الذي سبق أن شرحها كارتييه بريسون بالعنوان نفسه Steidl repr. 2015، والذي سبق شرحه عام 1953. كان بريسون يتحدث كثيرًا عن التصوير. أما الناقد القوي فلدينا السيد شون أوهاجن Sean O Hagen، وذلك في مقاله بعنوان «عادت كلاسيكيات كارتييه بريسون، ولكن لحظته الحاسمة قد مضت»، صحيفة الجارديان، في 23 ديسمبر 2014. ما زال كثير من الناس مهتمين كثيرًا بالفكرة. جيمس جلوسوب James Glossop، ما وراء النقطة، دي تايمز، عدد 16 ديسمبر 2017



الشكل (3-1) وقمة – كادر ملليمتري من الانتظار في لوحة كوجيرو أونشي «**الغطسة**» *Diving* عام 1932 اليابان عهد الامبراطور شو، حوالي عام 1933 (شوا 8) مقاس 8 47سم × 8 30سم متحف الفنون الجميلة – بوسطون – صندوق الفن الآسيوي 56 489

فقط، أو ما نرغب في رؤيته. ويبدو أنه يعلم الجوهر الحقيقي لعمل أي شيء يستعرق أجزاء من الثانية. لقد اقتطع كوجيرو أونشي أجزاء من الثانية من خلال هذه الغطسة، وقدمها لنا لنراها واضحة جلية. ويبدو جسد هذه الغطاسة معلقًا ومتجمدًا في الهواء؛ ومن ثم ننتظر. وينتهي الأمر بأن نسمع صوت ارتطام جسدها بالماء. ولا يمكننا وصف لوحة كوجيرو أونشي تلك إلا بأنها جميلة بالقدر نفسه الذي يمكننا أن نقول عنها إنها مثيرة. ومن اللوحات الأولى وأكثرها شعبية للسيد أونشي هي لوحة مطبوعة على الخشب من عام

1914، تسمى «أشياء معلقة في الهواء» «*Things suspended in the sky*» وتبدو كصورة للجزء الأسفل من موجة على شاطئ البحر تستعد للتكسر على الصخور. وقد سمح لنا أونشي من خلال تلك اللوحة أن نحظى بلحظة لنتأمل فيها تلك الموجة المعلقة في الهواء قبل أن تنزل لتتكسر على الصخور وتلك اللوحة مثل لوحة «الغطسة»، لا تقل في جمالها عن إثارتها، ولكن الحركة أكثر عنفًا ووصوحًا وتصور لنا لوحة أونشي «الغطسة» بعض الأشياء المعلقة في الفراغ، وماهية الانتظار بالطريقة المذهلة نفسها.

والآن ما شعور هذه الغطاسة الواضحة في لوحة كوجيرو أونشي؟ يبدو أن الزمن يمر ببطء شديد عند السقوط من أعلى، وكأنه شريط سينما معروض بالحركة البطيئة، خاصة إذا اختلط موقف السقوط بحالة من الرعب والفزع. أظن أن فعل الانطلاق قبل الغطس مباشرة هو فعل مثير مشوب بالخوف، وإحساس الخوف هنا يشبه الفزع إلى حد بعيد. وتتحدث كلوديا هاموند عن تجربة الغطس التي قام بها ديفيد إيجلمان David Eagleman، الأستاذ في قسم علم النفس والعلوم السلوكية في جامعة ستانفورد وهو العالم نفسه الذي كتب- كما تقول هاموند- كتابه الشهير عن الانتظار في الحياة الأبدية بعنوان «ملحص من أربعين قصة من الحياة الأبدية» *Sum: Forty Tales from the Afterlife*. والذي قدم قصصًا خيالية عن الانتظار في الحياة الأبدية بعد الموت. وبفضل إيجلمان اللجوء إلى الأساليب الدرامية في العمل، ولكن التجربة التي أجراها كانت مذهلة بحق. حيث أجرى تجربة تبحث في المشاعر التي يفكر فيها المرء عندما يؤدي غطسة ما من مكان مرتفع، وذلك ليتأكد من إجابة السؤال «هل يتباطأ الوقت حقًا؟» "Whether time slows" ومعه هل تزيد قدرتنا على الانتظار؟ وقد أجرى ايجلمان تجربة تتضمن اختبارًا عمليًا لعدد من المتطوعين (وهو نفسه معهم بشخصه) يحترون نوعًا من قفزات الغطس

تسمى «السقوط الحر» «Free-fall». والفكرة تتلخص في مراقبة إحساس المفحوصين للوقت. والتأكد من تأثير تجربة الغطس (في أثناء القفز من أعلى) في إحساس المفحوصين بالوقت. وكانت خطة إيجلمان هي إنزال عدد من المفحوصين من أعلى مبنى ارتفاعه 150 قدمًا، مربوطين جيدًا داخل قفص معدني طوله 33 قدمًا على سطح المبنى. وقد بلغت السرعة القصوى لسقوطهم من أعلى نحو 70 ميلًا/ الساعة وقد هبطوا جميعًا بسلام، وتمكنوا من سرد طبيعة مشاعرهم التي شعروا بها في هذه اللحظة، وإلا ما تمكنا من الحديث عن هذه التجربة خلال هذه السطور. ولقد جرب ديفيد إيجلمان صلابته من خلال تأدية هذه التجربة ثلاث مرات. ونجا أيضًا ليسرد لنا هذه النتائج بعد أن كان أول من جرب القيام بهذه التجربة.

لقد أراد ديفيد إيجلمان أن يعرف تأثير الإحساس بالخوف والرعب الناتج عن السقوط في جعل المفحوصين يسرعون من قدرتهم على معالجة المعلومات. هل سيسهم البطء في مرور الوقت في أثناء السقوط في مساعدة المفحوصين بشكل كافٍ حتى يتمكنوا من رؤية الأشياء التي فاتتهم في حياتهم التي يخاطرون بفقدانها؟ هل تصبح مداركهم بطيئة إلى أن تصل إلى معدلات شبه كاملة من التوقف؟ ولهذا الأمر وضع صفًا من ساعات اليد الكبيرة داخل القفص المعدني وكانت تلك الساعات تظهر بسرعة على شاشتين داخل القفص عشوائيًا، إلى درجة أنك ستراها لمحة خاطفة للعين، هل تتسبب الغطسة المرعبة في إبطاء سرعة مرور الزمن، مما يجعل الغطاس يتجمد في الهواء مثل لوحة أونشي وتجربة تمييز الزمن؟ هل يتمكن الغطاس الذي يمر بهذه التجربة فعلًا من رؤية الساعة: ومن ثم يقرؤها بشكل صحيح؟ لم ينجح الأمر. لم يتمكن المفحوصون من قراءة الوقت قراءة سليمة، ولكن جميع من شاركوا في التجربة ادعوا أن الوقت قد مر عليهم بطيئًا في أثناء التجربة، تمامًا كما كان الأمر بالنسبة إلى ذلك الغطاس في لوحة أونشي لقد

تباطأ الوقت بمعدل كافٍ بالنسبة إليهم ليشعروا بتجربة الانتظار. لقد مر الغطاسون في القفص المعدني بما أسمته هاموند «اتساعًا شخصيًا للزمن» subjective time dilation. هل أثبت ديفيد إيجلمان أي شيء آخر من خلال تلك التجربة الدرامية؟ تقول هاموند إن إيجلمان قد أثبت أن الوقت «لا يتباطأ من تلقاء نفسه فعليًا عندما نتعرض لمشاعر الخوف، ولا تزداد سرعة المعالجة الحسية بالمخ، وأن ما يتغير فعلا هو حقيقة إدراكنا للوقت» وهذا ما أطلق عليه العالم مارك ويتمان Marc Wittmann، المتخصص في دراسة الزمن، «الإحساس بالوقت» "Felt time". ولكن هل نقل كوجيرو أونشي جميع هذه المشاعر في لوحته «الغطسة»؟ أحب أن أقول إنه لم يدرك كل هذه المشاعر. بل أضيف أن هذا الخوف والرعب الموجود في لوحة أونشي «الغطسة» يجعلنا ننتظر بشغف ورهبة حادة.

إن هذه اللقطة المتوقفة، والتوقع المصحوب بها، والإثارة الناتجة عن التجربة، وتمثيل الغطس، جميعها نسخة ثانية من الانتظار، ولها انعكاسات أخرى. إن هذه الوقفة الخفية موجودة في معظم الألحان الموسيقية، وهي ما يُطلق عليها في الموسيقى اليابانية «ما» أو «ma»[14]. كما أن الوقفة ملحوظة في بعض الحالات التي لا تلقى كثيرًا من الاستحسان، مثل التردد، وتأجيل عمل اليوم إلى الغد بلا داعٍ. وجميعها تعكس نوعًا من أنواع الانتظار. ويوجد أنواع أخرى من الانتظار التي تناجز الإحساس الوجداني للوحة الغطسة: المرابضة عند الصيد، وانتظار الأخبار الجيدة أو السيئة،

(14) السائق الياباني سيجي أوزاوا في نقاشاته مع هاروكي موراكامي (مع الموسيقى: حوار مع سيجي أوزاوا [ترجمة: جاي روبن]، نوبف ستريت بوكس، 2016. وهذه الأحداث تحديدا عن «في اليابان نتحدث عن «ما» ma في الموسيقى الآسيوية... عن أهمية تلك الوقفات أو المساحات الخالية من الموسيقى داخل اللحن الموسيقي. ولكن يبدو أن هذا الأمر متوافر في الموسيقى الغربية أيضا، فترى بعض الموسيقيين، مثل السيد جلين جولد Glen Gold يفعلون الشيء نفسه بالضبط. ولا يستطيع الجميع بالطبع فعل الأمر نفسه. فقط الموسيقيون العظام».

أو الانتظار، ولن أخدعكم إذا قلت التالي: شفاعة مقدسة، أو معجزة إلهية. وتشير حالة الجمود تلك إلى أننا على أعتاب أمر جلل.

جميع ما سبق ليس موجودًا في اللوحة التي سأتحدث عنها لاحقًا في الشكل (1-4). مَن تلك السيدة المنتظرة في الظلام قبل 30 سنة من انتهاء كوجيرو أونشي من لوحته «الغطسة»؟ هل قامت تلك السيدة لتوها من ذلك الكرسي الفارغ المنتصب خلف الباب المفتوح؟ ولماذا تنتظر بالقرب من الباب عند الغرفة الثالثة والنافذة مشرعة، وتطل على مدينة كوبنهاجن في بداية العقد الأول من القرن الماضي؟ هناك قصة عن الانتظار هنا إذا ألهمنا الله الصبر لنسمعها. وتلك القصة يحكيها فيلهيلم هاميرشوي Vilhelm Hammershoi مرات ومرات، وهي قصة تبقى مربكة أكثر من أي وقت مضى.

يرتبط الكرسي الفارغ كثيرًا بالموت. والكرسي هو نسختي الثالثة من تجربة الانتظار. في دول إسكندنافيا يكون الكرسي من المعتاد ضمن أثاث الحداد، حيث كانوا يضعون كرسي المتوفى للعرض مع جثته في قاعة الجنازات؛ دلالة على فراق المتوفى لعائلته إلى الأبد وأعتقد أن هذا كان أقوى الإسقاطات البصرية المأخوذة من رمزية الكرسي الفارغ، وهي إشارة فنية شائعة ممثلة للخسارة والفاجعة والحداد. وربما يوجد معنى أكبر بالنسبة إلى الكرسي الفارغ في الصورة أكثر من مجرد الإحساس بفقدان شخص عزيز إلى الأبد: ففي بعض الأحيان يظن أقرب الناس للمتوفى أن هناك أملًا في عودته إذا تُرك الكرسي بدون استخدام، فربما يشجع ذلك الكرسي الفارغ صاحبه على العودة مرة أخرى. تتحدث جوان ديديون Joan Didion كثيرًا عن الخوف من إنكار احتمال عودة زوجها جون جريجوري دان John Gregory Dunne المتوفى حديثًا إلى عالم الأحياء، وأن الأمل قد



الشكل (1-4) عام التفكير السحري، فيلهيلم هاميرشوي، **سيدة في غرفة داخلية، 30 شارع ستراندجراد**، 1901، الدنمارك، مجموعة شخصية

يضيع في عودته لو أنها تخلصت من ممتلكاته ومقتنياته الموجودة في البيت. وأطلقت على هذه الفكرة اسم «الأفكار السحرية» "Magical Thinking" في مذكراتها بعنوان «عام التفكير السحري». وربما يؤدي الكرسي الفارغ دورًا في الفكرة السحرية التي تتضمن حدادًا وأحاسيس بالخسارة والألم إذا تركنا هذا الكرسي أطول فترة ممكنة منتظرًا عودة المتوفى، حيث قد يشجع ذلك المتوفى ليعود إلى استخدام كرسيه الفارغ منذ رحيله. هذا إذا تمكن الأحبة من ترك الكرسي بدون استخدام فترة طويلة.

لدينا ثلاثة أبواب مفتوحة في لوحة «سيدة في غرفة داخلية، 30 شارع ستراندجراد»، وهي تؤدي إلى نافذة موجودة في حيز في أبعد نقطة في اللوحة. إنها زوجة فيلهيلم هاميرشوي، واسمها إيدا Ida تقف منتصبة بشكل مستقيم في منتصف الغرفة، منتظرة ومترقبة ومترددة في الجانب

المظلم من الغرفة الداخلية. فماذا تنتظر؟ ولماذا؟ ربما يقدم الكرسي الفارغ طرف الخيط الذي يمكن من خلاله استنتاج الإجابة. فقد تخيل فيلهيلم هاميرشوي أن زوجته إيدا في حداد على أحد الأشخاص المقربين إليها، الذي يرمز إليه بهذا الكرسي الفارغ. وهي تنتظر حتى تمر فترة الحداد، وربما تتساءل في نفسها: هل سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه هذا الحداد؟ وربما تنتظر أن يعيد السحر ذلك المتوفى إلى الحياة، مثل جوان ديديون، ولكن تُرى مَن الشخص الذي تنتظره بكل هذه اللهفة؟ ويوجد طرف خيط للإجابة أيضًا عن هذا السؤال يتضح ذلك في كل تلك اللوحات المعلقة فوق الكرسي الفارغ هل هي صور إيدا مع حبيبها؟ لقد فقدت إيدا حبيبها ورفيقها في الحياة وتحكي قصة إيدا حكاية ذات ثلاثة أوجه من الحداد والخسارة والألم. ولكن إيدا تمكنت لاحقًا من الجلوس على أحد تلك الكراسي الفارغة التي تكثر في تلك الشقة المدهونة بدهان من لون واحد في أحد شوارع كوبنهاجن. وفي الأسبوع الأخير من نوفمبر 2017 بيعت إحدى اللوحات الفنية لفيلهيلم بعنوان «منظر داخلي سيدة تجلس على البيانو»، رسم فيها فيلهيلم زوجته إيدا، حيث خاطب عقول الناس في العصر الحديث منذ العقد الأول من القرن الماضي.

ولقد رسم فيلهيلم لوحته لسيدة تجلس على البيانو عام 1901 في العام نفسه الذي رسم فيه اللوحة الواضحة في الشكل رقم (4-1)، ورسم فيها الشقة نفسها، في العنوان نفسه. وبيعت لوحته «سيدة تجلس على البيانو Interior with a woman at the piano» مقابل 6.3 مليون دولار في قاعة سوذيبي Sotheby في مدينة نيويورك. وكانت تلك اللوحة هي الأعلى سعرًا بين الأعمال الفنية والأدبية الدنماركية على الإطلاق[15]. ولا أعتقد أنه من الإنصاف أن أقول إن فيلهيلم وإيدا كانا ينتظران اعتراف العالم بهما بعد

---

(15) تداولت أخبار صفقة البيع تلك بتاريخ 1 ديسمبر 2017 في صحيفة بوليتيكن Torben Benner

100 عام من الانتظار، مع أن الأمر يبدو بهذا الشكل. ولكنهما بالتأكيد انتظرا 100 عام ليحصلا على شهرة واسعة، وقيمة باهظة الثمن[16]. توفي فيلهيلم هاميرشوي عام 1916 عن عمر ناهز 51 عامًا. وقد اشتهر كثيرًا هذه الأيام ربما لتواضعه الفني، وإحساسه العميق بالنظام (يقارنه البعض بالفنان الموسيقي العظيم باخ Bach عند النظر إلى لوحاته). ولوحاته من الكانافا التي تشبه المسائل الرياضية، والتي راقت- بشكل غريب- للجمهور في العصر الحديث، واحساسه بالتفكير السحري والانتظار والخسارة.

وتعكس هذه النسخ الثلاث من الانتظار بالنسبة لي كثيرًا من جوهر الانتظار كتجربة. وتقدم تلك النسخ الثلاث معًا النموذج المطلوب لفهم موضوع الانتظار. ولسوف تشكل تلك النقاط الثلاث هذا الكتاب إلى حد بعيد، كل اثنتين على حدا، وقد اخترت أن أحاول توضيح تلك النقاط بطريقة أسهل وأكثر جاذبية وقبولًا من المتلقي من خلال ربطها بصورة بصرية. ربما لا تقتنع بالأمر، ولكني أعتقد أن ذلك سيساعدني على توضيح فكرتي. وتبقى نسخة واحدة من الانتظار التي لم أقدم الكثير من الأفكار عنها، وهي نسخة يصعب فهمها، إنها «الصبر» Patience. وأحب أن أختم كلامي بالحديث عن فضيلة الصبر، وأريد أن أخبرك أن الصبر لا يرتبط كثيرًا بالانتظار كما تتوقع.

لقد عاني هارولد ويلسون Harold Wilson، رئيس وزراء بريطانيا، كثيرًا من الصبر، وسوف أستغله كتجسيد أو نموذج للصبر. فقبل أن يبلغ ويلسون الثانية عشرة من عمره، استقر رأيه أنه يرغب عندما يكبر أن يكون عضوًا في البرلمان، ثم رئيسًا للوزراء. وقد نجح في تحقيق هذا الطموح

(16) ربما انهى المعرض الذي قيم في الأكاديمية الملكية في لندن عام 2008 قرنا كاملًا من الانتظار كتالوج هامرشوي (لأكاديمية الملكيه - لندن) 2008، فيليكس كريمي Felix Kramer، نابوكي ساتو Nooki Sato، وقد أثبتت ذلك آن بريجيت فونماسك

الطفولي، وتحقق له ما أراد، فانتُخب نائبًا في البرلمان عام 1945 عن عمر 29 عامًا، ثم أصبح رئيسًا للوزراء دورتين متتاليتين، من عام 1964 إلى 1970، ومن عام 1974 إلى 1976. وُلد ويلسون عام 1916، وقد انتظر 36 عامًا إلى أن حقق أعظم طموحات حياته. لا بد أنه كان يتمتع بصبر عتيد، وجلد لا يُقهر، أو أنه كان جيدًا جدًا في الانتظار. وكان يزعم أنه بالنسبة إلى حلمه الطفولي: «لقد كان عليَّ الانتظار والانتظار حتى أحقق حلمي after that it was a question of waiting and waiting»[17]. إني أتساءل: ماذا لو كان الصبر المتعلق بالانتظار هو أحد المشاعر المتعلقة بالإرادة؟ وأتساءل إن كان الصبر يؤدي إلى الإنجاز ويعطي أملًا في ذلك الإنجاز. في حين أن الانتظار، بوصفه سلوكًا سلبيًا إلى حد بعيد، هو شيء مفروض علينا مع أننا قادرون على تقبل الوضع بشيء من الصبر. لقد تحدث هارولد عن الانتظار لأمد طويل، ولكنني أعتقد أن مقصده من الأمر هو الصبر وليس الانتظار، إضافة إلى إرادته التي تحركه، وآماله التي تشجعه. ويبدو لي أن هارولد يقترح هنا أن الإنجاز ممكن لو أن المرء تحلى بالصبر مدة طويلة بما يكفي، ولو تحلى المرء بالثقة في إرادته، ولم يعدم الأمل وأظهر قدرة عالية على الصمود.

(17) وقد شاعت هذه المعلومة العربية عن هارولد ويلسون Harold Wilson من خلال ذا تايمز في عددها الصادر بتاريخ 11 ديسمبر 2017. وقد أتى التعليق على كتاب هارولد ويلسون بعنوان « waiting, and patience»، من خلال الصحفي مات كورلي Matt Chorly (في مقالة بعنوان «الصندوق الأحمر») صادرة بتاريخ 11 ديسمبر 2017. حيث كان تشورلي يقدم ردًا على تقرير من صحيفة التايمز كتبه ديفيد ساندرسون وكايا بورجس، David Sanderson & Kaya Burgess. حيث كتبا في التقرير: «لقد عكف عالم النفس الإسباني خوزيه بورجويرا Jose Burguera على إرسال الاستبيانات إلى السياسيين والعلماء والفنانين والرياضيين حول العالم، وحصل على 450 ردًا، ولكن نسخ تلك الاستبيانات لم تنشر». ويقول جابرييل هيتون Gabriel Heaton، المتخصص في الكتب والمخطوطات من شركة سوذبي للمزادات التي ستبيع تلك المادة البحثية في مزاد غدًا [12 ديسمبر 2017] إنه «لأن طبيعة بعض الأسئلة تبدو كأنها توفر مدخلًا للمفحوص فكانت تلاقي ردًا مهمًا، وكانوا يستجيبون لها. ويقول هيتون إن تلك المادة البحثية تحتوي على 450 إجابة عن استبيانات بتوقيع أصحابها منذ عام 1970 حتى 2001، ويتوقع أن تحقق مبيعات تقدر بنحو 20 000 إلى 30 000 جنيه استرليني، وإن توفر تلك المادة «إمكانات بحثية عريضة»

والآن، أخيرًا لدينا اختبار بسيط: فعندما يشرب المرء كأسين من الخمر إلى أن يسكر قليلاً. هو لم يشرب الكثير، ولكن ما زال يشرب الكحوليات، ويرى الشراب لذيذًا جدًا. إنك تشرب الكأس وتستحسنها، يصبح توقع شرب كأس من الخمر احساسًا ممتعًا للغاية بعد تناول الغداء لن ينفك عقلك يتوقع جرعة من الشراب بعد يوم عمل طويل، أو حتى جرعة شراب في نهاية اليوم، بغض النظر عن فوضى العمل وتعبه. جرعة من الشراب في يوم من أيام التقاعد، أو في الإجازة سوف يلقي عقلك في حلقك إحساسًا ما فور أن تبرز لك فكرة الشراب في بالك. ربما لأن عقلك يتوقع الحصول على جرعة شراب سوف ترى أن الجرعات الأولى التالية من الشراب، التي تلي هذا الإحساس مباشرة، سوف تنزل كالبلسم في حلقك. أما الباقي فمن واقع خبرتي الشخصية هو محاولة للإبقاء على تلك المتعة الأولية وتكرارها ولكن لا تنتظر كثيرًا؛ فقد ذهبت كل المتعة الان والوقت لا يمر سريعًا بالنسبة إلى هذا السكير؛ بل يدور في حلقة مفرغة مدفوعة بانقضاء وقت «الفوقان». فالأمر يبدأ بمتعة الإحساس بالشراب في الحلق، ثم ينطفئ هذا الإحساس؛ ومن ثم نحاول بترقب الحصول عليه مرة أخرى، ولكن هذا لا يحدث أبدًا لقد ذهب كل إحساس بالمتعة بلا رجعة. حتى مع أحسن أنواع الخمور لا بديل عن الكأس الأولى. ما الذي يجري هنا؟ هل يبدو على المرء السكير في وقت المساء قبل تناول الخمر إحساس بالصبر أم بالانتظار؟ ماذا تعتقد؟ الصبر أم الانتظار؟ هل هما الأمر نفسه؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نرجع إلى لوحة لازلو ميدنيازنسكي Laszlo Mednyasnszky في نهاية هذا الكتاب، لكن انتظر، لا تقلب الصفحة.

2

ألان روبينوفيتس والفهد

هل بعض الأدمغة أكثر قدرة على الانتظار من غيرها؟

كنت في دولة بيليز في أمريكا الوسطى أتتبع أثر أكبر أنواع الفهود حجمًا على الإطلاق، الذي لم أره قط وجهًا لوجه. وقد علمت أنه يوجد واحد جديد من تلك الحيوانات المذهلة في المنطقة التي أدرس فيها عادات الفهود، وأردت أن أعرف إلى أين ذهب. ولكن بعد بضع ساعات، عندما اختفت كل الآثار، وبدأ الليل يقترب، استدرت للعودة إلى المخيم. وفور أن استدرت، كان هناك واقفًا. الفهد. لقد كان يحوم حولي، ويقتفي أثري منذ وقت طويل.

يخبرنا ألان روبينوفيتس Alan Robinowitz هذه القصة في كتابه «وحش لا يُقهر- رحلة مشوقة في الأدغال»، وهو الكتاب الذي تضمن قصة النشأة الأولى لهذا المستكشف والعالم الذي كان يعمل من أجل إنقاذ القطط الكبرى، وبخاصة الفهود. ولطالما كان ألان روبينوفيتس أحد أكثر المتخصصين في القطط الكبرى إثارة للإعجاب، وكانوا يطلقون عليه أحيانًا في مجلة تايمز «إنديانا جونز الحفاظ على الحياة البرية في العالم». لقد عاش حياة غنية جدًا، خاصة إذا كان عضوًا في عائلة القطط الكبرى. ويفخر ألان بأن واحدًا من أفضل إنجازات حياته كان مبادرة «ممر الفهود»، وهي سلسلة

من الممرات الطبيعية والمعالجة جينيًا المخصصة للفهود كي تتحول بأمان في موطنها الطبيعي بطول المساحة التي تمتد من المكسيك حتى الأرجنتين وعرضها[1]. لقد تطلب الأمر وقتًا طويلًا لإنجاز هذا الممر. لقد كان المدير التنفيذي لشركة بانثيرا في نيويورك طوال حياته وحتى وفاته في 5 أغسطس 2018 بمرض السرطان الليمفاوي. وكانت شركة بانثيرا إحدى الشركات التي لا تهدف إلى الربح؛ بل إلى إنقاذ 37 نوعًا من القطط البرية. قبل تأسيس شركة بانثيرا، عمل ألان مديرًا تنفيذيًا لقسم العلوم والاستكشاف لجمعية الحفاظ على الحياة البرية.

ولكن ماذا حدث بالفعل عندما قابل ألان الفهد الكبير؟ لقد ظل منتظرًا ومترقبًا، بدون أن يدري ما عليه فعله بعد ذلك، بخلاف التأكد أنه لن يحاول الجري مبتعدًا. لقد ركعت على الأرض واضعًا يديَّ تحت ركبتيَّ حتى يمكنني أن أوحي للفهد الكبير أنني صغير الحجم ولا يمكن أن أسبب أي تهديد.

ما تلك القدرة التي تتوافر في بعض الأدمغة فتمنح الفرد القدرة على الانتظار عندما يجد نفسه في موقف يجعل معظم الناس يهربون من الفزع؟ إن استجابة ألان تتجاوز ضبط النفس. لا يبدو الصبر موضوعًا مطروحًا في موقف لا يستدعي سوى استجابة الخوف، وفي هذه الحالة تصبح الشجاعة أمرًا مفروغًا منه. ويوجد نوعان من المواد الكيميائية التي يفرزها الدماغ، فتساعد الإنسان على الانتظار وربما ذلك هو ما ساعد ألان على الانتظار ويبدو أنهما يفعلان ذلك من خلال نمذجة قيمة الانتظار نظير مكافأة من نوع ما في المستقبل. ويوجد نوعان من العوامل المساعدة على الانتظار أو المعدلات العصبية، هما: Neuromodulators دوبامين dopamine وسيروتونين serotonin، حيث يعزز الدوبامين الإحساس بالمكافأة

---

(1) مبادرة ممر الفهود Panthera.org

المستقبلية من خلال مكافأة لحظية. أما السيروتونين فيعزز الإحساس بالمكافأة المستقبلية بدون تقديم مكافأة لحظية. وربما تتساءل الآن: «من أيهما استفاد آلان في تعزيز قدرته على الانتظار؟»

إذن، ما الدوبامين؟ إنه إحدى المواد الكيميائية الصادرة عن بعض المناطق في المخ، مثل تلك التي تسمى سابستانشيا نيجرا (نسيج صغير على جانبي المخ) ومنطقة فنترال تيجمنتال (القريبة من منتصف الدماغ) ويؤدي الدوبامين دورًا في ضبط بعض الاستجابات الوجدانية البشرية. كما أنه يساعد الجسم على ضبط الحركة (وربما يساعد بذلك في مكافحة بعض الأمراض الحركية، مثل مرض باركنسونز). وهذه المادة تساعدنا كمخلوقات عاقلة في إدراك المكافآت في المستقبل، والتصرف بطريقة تجعلنا قادرين على الحصول على تلك المكافأة في المستقبل. حيث اقترحت الأبحاث أنك إذا كنت تنتظر أمرًا مشوقًا في المعتاد أو ممتعًا، فربما في هذه اللحظة يفرز المخ مادة الدوبامين. هذه المادة الصغيرة من الدوبامين ممتعة بحق، وربما تكون هبة للمخ كمكافأة على الانتظار، توقع المكافأة، كما تحب أن تقول، ستتبعه مكافأة[2]، وأرجح وقوع نوع ما من التعلم مع تكرار توقع المكافأة والحصول عليها. وعلى ذلك، يمكن للدوبامين أن يساعد المخلوقات على اكتساب معلومات مهمة من خلال تلك العملية المستمرة من التنبؤ والمكافأة والتعلم[3]. ولكن ينبغي أن تكون نسبة الدوبامين مضبوطة، حيث ارتبط إفراز نسب ضئيلة من الدوبامين بإتيان سلوكيات عالية الخطورة.

(2) تجدر الإشارة إلى أن كمية بسيطة من الدوبامين لا ترتبط بمعدلات الإصابة بمرض باركنسونز فحسب، بل تتعدى ذلك إلى ازدياد درجة التعرض للإدمان واعتياده.

(3) عارف حامد وآخرون، Mesolimbic Dopamine Signals the Value of Work. ويعطي نشرة عن أهمية العمل. بيتشر نيوروساينس، منشور عبر الإنترنت، بتاريخ 23 ديسمبر 2015. للحصول على ملخص سريع لهذه المقالة: انظر صحيفة نيوروساينس، العدد 24، نوفمبر 2015، بعنوان: دور الدوبامين في التحفيز والتعلم

ويرتبط بسلوكيات الأفراد الذين لا يحبون الانتظار[4]. ربما لن يساعد ذلك في أدغال بليز. ومن المهم بالنسبة إلى الباحثين، أمثال ألان روبينوفيتس، أن نعلم أن إفراز كثير من الدوبامين له أضراره على الانتظار. فالإحساس بالخوف والفزع مرتبط بالإفراز المفرط للدوبامين أيضًا[5] وهو الأمر الذي ربما لا يساعد صديقنا العالم بأي شكل من الأشكال، ويبدو أنه يتعين للاستفادة من الدوبامين ضبط معدلاته إلى المستوى المعتدل، فهل تمكن ألان من ذلك؟

انظر إلى تلك القطط المنزلية في الشكل (2-1). هي لا تحاول الجري والاختباء؛ بل تجلس على أسوار الميناء في طابور واحد منتظرة. فماذا تنتظر القطط؟ إنها تنتظر عودة الصيادين بقواربهم ومعهم أرزاقهم (أرزاق الصيادين والقطط أيضًا). حيث تحصل القطط أيضًا على حصتها من الأسماك، وتلك هي مكافأتها الصغيرة على الانتظار، وهذا هو ما تتوقعه القطط أيضًا. ولكن لماذا هذا الربوض؟ لم لا تتجول في المكان على مقربة من الشاطئ؟ فهي- كما يبدو عليها- لا تعاني جوعًا. كما أن السمك ليس هو الطعام الوحيد المفضل لدى القطط فربما توجد بعض الفئران المختبئة في تلك المنازل المتفرقة من ورائها في خلفية الصورة. فالقطط تحب البحث عن الفئران والجرذان ومطاردتها. كما أنها تصاب بالملل سريعًا، ومن المعروف عن القطط أنها سريعة الملل أكاد أراها تهرب مسرعة الآن.

---

(4) أما عن اعتياد المخاطر وتسيل الدوبامين فيمكن ان تبحث في كتابي بعنوان «Boredom: A Lively History»، شركة جامعة يال للنشر، 2011، ومقالي بعنوان ارتباط القرارات التي تنطوي على مخاطرة بالإفرازات الكيميائية في المخ، مجلة نيو سانتست، 21 يوليو 2018 (كلير ويلسون Clare Wilson

(5) يؤكد آدم حجازي دلت في كتابه بعنوان «Fear Factor: Dopamine May Fuel Dread, Too»، مجلة سايتنيفيك أميريكان، العدد الصادر بتاريخ 14 يوليو 2008.



الشكل (2-1) قطط تنتظر عودة الصياد. مصور مجهول

المصدر.
http www.thisiscolossal.com/2013/10 cats waiting for fishermen to return/

ولكن هذه ليست طباع تلك القطط. لا يبدو شراع. أو قارب صياد في الأفق. إنني أتوقع منها أن تهرب بعيدًا. أو هذا ما سأفعله إذا كنت مكانها. ولكنها لا تهرب؛ بل إنها هادئة تترقب. وهي تشعر بالإثارة الهادئة. انظر إلى هذه الرقبة المرفوعة لدى تلك القطة في صدارة الصورة. إنها تبدو جادة جدًّا في سعيها هل تستمتع القطط بهذا الانتظار؟ يبدو بالفعل أن المتعة التي تشعر بها هي ما تجعلها منتظرة.



الشكل (2-2). لوحة وينسلو هومر بعنوان «في انتظار أبي». عام 1873. ألوان مائية شفافة وغير شفافة (13 24 سم×29 34سم). متحف الفن في ميلز كوليدج. اللوحة هبة من جين مي تولمان

وتجسد لوحة وينسلو هومر Winslow Homer، بعنوان «في انتظار أبي» waiting for dad، نوعًا مشابهًا من الانتظار، حيث يوجد شخص ما في الصورة. لا توجد قطط. ولكن الصبي يشعر بالحماسة، مثل تلك التي تشعر بها القطة في اللوحة السابقة.

ولكنني لا أعتقد أن الصبي في اللوحة ينتظر أبيه الصياد لمجرد الحصول على نصيبه مما اصطاده. ما ذلك الشيء الذي ينتظره الصبي أكثر من الأسماك الطازجة؟ إن لون الماء يحمل كثيرًا من العاطفة إلا إذا كان مقترنًا بالقطط، وبإشارات المعدلات العصبية الخاصة بها، التي تثير العواطف. لو أنك أخرجت من عقلك العاطفية الواضحة في الصورة، فسوف تجد أن الصورة تحمل أمرًا واقعيًا بحق.

هل تتذكر ذلك الإحساس الشبيه بأحاسيس هذا الطفل في لوحة وينسلو هومر؟[6] إنه الدوبامين الذي يجعل الطفل والقطط يحافظون على مواقعهم حينما ينطوي الأمر على مكافأة مثل الأسماك بالنسبة إلى القطط. وربما بالنسبة إلى الطفل أيضًا، فإن الإحساس بتوقع المكافأة ينتج عنه إفراز قدر من الدوبامين في المخ. فهل تتذكر هذا الإحساس؟ ويحدث هذا الافراز في أثناء فترة الانتظار، أو خلال توقع المكافأة. إنه ذلك الإحساس الذي يسبق إشباع القطط لهمها، وقبل عودة الأب إلى طفله بالأسماك والصحبة الطيبة. إنه الدوبامين ما يجعل من الانتظار والتنبؤ حدثًا ممتعًا. إن ما يتسبب في الإحساس بالمتعة أيضًا هو التكرار. ويشرح عارف حامد Arif Hamid، أكبر المشاركين في إحدى الدراسات التي تتناول دور الدوبامين والتعلم، أن الدوبامين الأيضي يطلق إشارات بقيمة العمل ويضيف أن «الزيادة المفاجئة في إبراز الدوبامين التي تحدث عندما يتلقى الفرد مثيرات تؤدي إلى توقع المكافأة، من آليات التعلم من خلال المكافأة في المخ. وهو من المفاهيم المشابهة لتجربة إيفان بافلوف Ivan Pavlov من إفراز الكلب للعاب عندما يسمع صوت الجرس كاستجابة لسماع صوت الجرس»، وهذا هو التفكير الأساسي للسيد حامد وفريقه في الورقة العلمية بعنوان «علم الأعصاب في الطبيعة» Nature Neuroscience التي اشتركوا في إعدادها عام 2015، حيث حصلوا على تلك النتائج من خلال قياس «معدل الدوبامين في الفئران في أثناء اتخاذها مهمة تنطوي على عملية

---

(6) يوجد كثير من الأعمال الفنية التي تصور عائلات منتظرة وصول الصياد، وفي الغالب تجتذب الزوجات الانتباه بالكامل، لذلك إذا نظرنا إلى لوحة هومر «في انتظار الصياد»، ولوحة هنري مور به بعنوان «في انتظار عودة الصياد»، ولوحة يوجين بودين بعنوان «زوجات الصيادين في انتظار عودة قوارب أزواجهن»، فهن جميعًا موجودات ليساعدن في حمل ما جلبه الصياد من خيرات البحر، أو هذا ما نظنه. ولكن دومًا نرى الإحساس بالارتياح عند عودة الصياد إلى بيته. كما يحتوي كتاب فريدريك جراف بعنوان «الانتظار» warten على بعض المواد عن هذا الموضوع أيضًا

اتخاذ القرارات»، ومن ثم مقارنتها بمعدل تحفز الفئران ومدى تعلمها. كما جربوا رفع معدلات الدوبامين لزيادة تحفيز الفئران بشكل زائد على المعدل الطبيعي بشكل يؤدي إلى حدوث التعلم؛ ومن ثم تؤدي الفئران المهام التي لم يخصصوا لها أي مكافآت[7].

لا يبدو أن تلك هي المرة الأولى التي تُشاهد فيها تلك القطط تنتظر عند الميناء، أو ذلك الطفل عند ذلك المركب، بل يبدو أن القطط قد تعلمت أن تنتظر نصيبها من الأسماك عند الميناء عن طريق التعلم بالتكرار[8]. وذلك النوع من التعلم الناتج من خلال تعزيز مكافآت الدوبامين هو إحدى أهم الفوائد التي يمكن تحصيلها من المعدِّلات العصبية[9]، أو ما يسمى Neuromodulators، ولكن الدوبامين لا يعمل فقط على زيادة إحساس الإنسان بالمتعة؛ ولكنه يرفع من معدلات الانتباه والتركيز على المسافات البعيدة كما تزعم كارولين ديكليرك Carolyn Declerk، وكريستوف بون Christophe Boon[10]، وهذا هو بالضبط ما تحتاج إليه تلك القطط بجوار الميناء، وذلك الصبي المنتظر عند الشاطئ، إلى أن يتمكنوا من رؤية القوارب العائدة من بعيد. ويقدم الدوبامين فائدة أخرى، حيث يذكر بالمكافآت التي سبق الحصول عليها، والمرتبطة بمثيرات معينة. إن هذه الزيادة في معدل

(7) The Role of Dopamine in Motivation and Learning، نيوروساينتست، 24 نوفمبر، 2015.

(8) لقد ذاع الربط مؤخرًا بين الدوبامين والذكاء، ويقصد آندي كوجهلان هذا في مقالة بعنوان: لقد جعلت كميات كبيرة من الدوبامين في المخ من البشر الكائنات العاقلة الوحيدة في الكون، نيوساينتست، 23 نوفمبر، 2017.

(9) قد لا يوفر لنا الدوبامين قدرة متزايدة على التعلم فحسب؛ بل أيضا ميزة صحية للبشر، وذلك حسب مقالة آن جيبنز بعنوان: ربما كان الدوبامين في مخ البشر هو ثمن الميزة الاجتماعية التي تفرقنا عن القرود والرئيسيات، مجلة ساينس، الناشر (AAAS)، عدد 22 يناير 2018.

(10) إضافة إلى كتاب كارولين ديكليرك وكريستوف بون، بعنوان: Neurochemistry of Prosocial Decision Making: The Role of Dopamine, Serotonin, and Oxytocin، دور العمليات العقلية في عملية اتخاذ القرار المؤيد للترابط الاجتماعي Neuro-economics of prosocial behavior: The Compassionate Egoist، مؤسسة Elsevier للنشر، 2016.

الدوبامين التي تمر بها القطط عند الميناء تساعدها على تذكر تلك الأسماك التي حصلت عليها في الماضي، وتلك الإندوكانابينويدز endocannabinoids والأوبويدز Opoids، وهي نواقل عصبية تصحب تناول الأسماك. وهذا التذكر القائم على الدوبامين يساعد القطط على تحمل الانتظار، ويحفزها على البقاء دون حراك، أو كما يقول ديكليرك وبون إن الدوبامين «يقوي الباعث على الحصول على المكافأة». ويمكننا القول بطريقة أخرى أن الدوبامين يساعد القطط والطفل على التعلم.

وفي هاتين اللوحتين تبقى القطط ويبقى الطفل بالانتظار، وتبدو عليهم السعادة وهم متحفزون، وذلك يرجع إلى تلك الدفعات من الدوبامين الناتجة عن ذلك التوقع المتعلم بما سوف تأتي به القوارب من خير. إنه ذلك الدوبامين الذي يجعل القطط تحافظ على الانتظار من خلال التوقع المتعلم لما سوف تأتي به القوارب بالنسبة إلى القطط. سوف تأتي القوارب بالسمك اللذيذ. أما بالنسبة إلى الطفل فسوف يأتي والده على متن أحد تلك القوارب. ومن أجل ذلك فإن عملية التوقع والمكافأة والتعلم سوف تُبقي القطط والطفل في انتظار القوارب. وسوف تحصل القطط على مزيد من الدوبامين عندما تغرس أنيابها القاطعة في أجسام الأسماك الطازجة. ولكن عندما ينتهي الانتظار بالنسبة إلى القطط، وعندما تأكل تلك الأسماك أخيرًا، فسوف تأتي المكافأة من مصدر آخر في المخ، وهو إفراز المخ لتلك المواد الأفيونية، مثل الأوبويدز opioids والإندوكانابينويدز endocannabinoids ومن اسمها القريب من المواد المخدرة، يمكننا أن نستنتج التأثير الإدماني لهذه المواد التي يمكن أن نقول إن تأثيرها شبيه بتأثير المواد الأفيونية opium والنباتات المخدرة cannabis. يبدو الأمر غير قانوني، ولكن تلك هي طبيعة الأمر، وعلى كل حال فالقانون المدني لا ينطبق على تلك القطط على الرصيف البحري.

والآن، لنتعمق قليلًا في العلوم المتعلقة بمستويات الدوبامين. إذا استطعنا أن نقلل مستويات إفراز الدوبامين في المخ، فإن رغبتنا في الأشياء سوف تتناقص، وذلك ما تؤكده أبحاث بون وديكليرك، وبالرغم من إصرارهم أن انتقاص الدوبامين سوف يقلل الرغبة في الأشياء فإنه لن يقلل «حب» الأشياء. فما سوف تراه ستحبه، ولكنك لن ترغب فيه، وذلك يعني أن القطط لن تشعر برغبة في تذوق أسماك الميناء الطازجة، فلو أنك كنت قطة فسوف يظل مذاق الأسماك الطازجة جميلًا جدًا بالنسبة إليك. وذلك لأن حب الأشياء المختلفة يعتمد على إحساس صادر عن المخ، لا علاقة له بالدوبامين، بتفضيل بعض الأشياء على الأخرى، ولا يتطلب ذلك انتظارًا على الإطلاق. وهو نابع من تلك المواد الأفيونية التي ترتفع مستوياتها إذا أكلت القطط الأسماك الطازجة، وربما يكون الأمر نفسه بالنسبة للطفل الصغير أيضًا. هل يعني ذلك بالنسبة إلى موقف القطط أنه لو أمكننا أن نقلل معدلات الدوبامين في المخ لدى تلك القطط، أن تلك القطط لن تأتي إلى الميناء، وأنها سوف تسعى إلى الحصول على بعض الفئران، أو ربما تخلد إلى النوم؟ هل تقليل الدوبامين في المخ سيؤثر في الطفل ابن الصياد أيضًا؟. هل تقليل الدوبامين في مخ تلك المخلوقات سوف يجعلها غير قادرة على التلهف على الحصول على أمر ما؟ والإجابة كما يقدمها لنا السيد عارف حميد هي أن الأمر يعتمد على بعض العوامل. «بعيدًا عن تأثير الدوبامين في الحالة المزاجية الفورية وفي السلوك، فإن الدوبامين أيضًا يُحدث بعض التغييرات في المخ، وبعض هذه التغييرات تبقى مدى الحياة»[11]. إن عملية المكافأة المتوقعة والتعلم تحتاج إلى تكرار بالشكل الذي يساعد الرسالة لأن

(11) بعنوان Dopamine New Theory Integrates Its Role in Learning, Motivation، صحيفة ميتشجان نيوز جامعة ميتشجان، العدد الصادر بتاريخ 23 نوفمبر 2015. وبالنسبة إلى الأصل، عارف حامد وآخرون، «الإشارات الصادرة عن الدوبامين التي تعزز قيمة العمل لدينا»، صحيفة ناتشير نيوروساينس، 2016.

تصبح أبقى أثرًا. أما إذا زادت معدلات الدوبامين بالشكل الكافي لدى الطفل والقطط، فإن المخ سوف يتغير بالشكل الذي يجعلهم مصرين على الانتظار في أماكنهم، والتركيز على المكافأة. هل هذا هو الموقف نفسه بالنسبة إلى السيد ألان روبينوفيتس؟.

وفيما يلي قصة مثيرة جدًا توضح الطريقة التي يعمل من خلالها الدوبامين، وكيف يمكنه أن يفيد في حياة الإنسان بطرائق غير متوقعة، ولكن ابقَ مكانك، فسوف أعود إلى السيد ألان روبينوفيتس القصة متعلقة بالسيد لورنس جون ربل، البالغ من العمر 70 سنة، من مدينة كانساس، حيث دخل يومًا ما بنكًا اسمه «بنك العمل»، يبعد خطوات عن مركز شرطة كانساس حيث تجهز بورقة كتب عليها بخط يده أنه بحاجة إلى المال، وأنه يحمل مسدسًا ولقد كتب السيد ربل تهديده المكتوب هذا في داخل منزله وأمام زوجته، بالرغم من صعوبة تصديق ذلك الأمر. وأخبرها أنه يفضل الذهاب إلى السجن على البقاء في المنزل، أو هكذا أكد التقرير المنشور في صحيفة كانساس سيتي ستار[12] ويمكنني أن أؤكد لكم الآن أن زوجته لم تفعل شيئًا لتثنيه عن عزمه؛ ربما كانت قد ضاقت ذرعًا بزوجها السيد ربل على أي حال. لقد حصل لورانس بالفعل على مبلغ 2 924 دولارًا أمريكيًا من صراف بنك العمل. وبدلًا من الهرب مسرعًا بالمال، استدار وجلس في ردهة البنك منتظرًا بتركيز. لقد كان منتظرًا ضباط الشرطة في مركز الشرطة القريب ليأتوا ويقبضوا عليه، وهذا بالضبط ما حدث. أراهن أن ربل كان مستمتعًا في انتظار الشرطة لتأتي وتنقذه من الحياة التعيسة التي كان يقضيها في منزله، وحتى في انتظار حكم المحكمة. مع أنه- حسب قوانين ولاية كانساس- ربما سيحكم عليه القاضي بالسجن مدة لا تقل عن

(12) صحيفة كانساس سيتي ستار، العدد الصادر بتاريخ 13 يونيو 2017، كاتي بيرجين بالاشتراك مع توني ريزو

20 عامًا. هل من المعقول أن يكون الدوبامين هو العامل الذي ساعد السيد ريبل على انتظار الشرطة في حالة من الرضا تشبه تلك الحالة التي كانت عليها القطط، أو تلك الحالة التي كان عليها الصبي في انتظار والده؟ ربما يكون هذا صحيحًا.

كما تؤكد صحيفة كانساس سيتي ستار أنه قبل حدوث السطو، كان السيد ريبل يعيش حياة مواطن طبيعي ملتزم بالقوانين كزوج وأب لأطفال زوجته الأربعة، لكنه أجرى مؤخرًا عملية جراحية في القلب. كما كان ضحية لحالة (غير معلنة) من الاكتئاب النفسي وكما وصف محاموه عملية السطو تلك، فإنها لم تكن ناتجة عن عمل إجرامي شرير بطبعه؛ بل إنه كان أشبه بصرخة طلبًا للمساعدة. وأعتقد أنهم كانوا يقصدون بكلامهم هذا أن السيد ريبلي كان منتظرًا الشرطة على أمل أن يؤدي قبضهم عليه واعتقاله إلى الشفاء من حالة الاكتئاب النفسي التي كان يعانيها. ويبدو لي من إصراره على انتقاء السطو على هذا البنك تحديدًا، القريب من مركز الشرطة، أنه عمد إلى التخطيط لجريمته، وطريقة القبض عليه، وطريقته في الدفاع عن نفسه أمام المحكمة. وحسب الصحيفة، فقد فلح الأمر؛ حيث إن «في جلسة محاكمة السيد ريبلي، أفاد بأنه قد سعى إلى المساعدة العلاجية لحالته النفسية، وبأنه بدأ يشعر أنه قد عاد إلى سابق عهده». يبدو أن السيد ريبل قد أقنع نفسه، بل أفضل من ذلك، أنه ربما قد تعلم من سياق هذا الموقف أنه إذا تمكن من استفزاز الناس لمساعدته فإنهم بلا شك سوف يساعدونه بالفعل. وأتساءل: هل تمكن من التمرين على جريمته قبل ارتكابها، أو على الأقل الجزء المتعلق بجلوسه في ردهة البنك في انتظار الشرطة؟ ربما قد جعل مخه يعتاد ذلك الإحساس بتلك المكافأة الوشيكة المرتبطة بإلقاء القبض عليه وربما في وجود تلك الجرعة من الدوبامين، وليس فقط مجرد غبائه في الاعتقاد بأن ذلك سوف يساعده على حل جميع

مشكلاته. تمكن الرجل من انتظار وصول الشرطة ومثل ذلك الفتى الذي رسمه وينسلو هومر جلس يقظًا في انتظار مكافأته، المتمثلة في وضعه في السجن، بعيدًا عن حياة المنزل، وشفائه من حالة الاكتئاب النفسي.

لهذه القصة نهاية سعيدة يمكن أن ترجع إلى تلك الجرعة من الدوبامين التي أدت إلى هذا الفعل الحميد الذي بالرغم من خطورته فإنه لم يكن ليؤذي أحدًا. فبالرغم من اعتراف ريلي بجريمته، وبأنه مذنب، مما قد يجعله يتعرض للسجن مدة لا تقل عن 37 شهرًا. فإن محاميه وأحد أعضاء هيئة الادعاء في محكمة المقاطعة رجوا من القاضي أن يأخذ المتهم بعين الشفقة، وقد أيد هذا الطلب نائب رئيس البنك المسروق، والصراف الذي تسبب له ريلي في حالة من الذعر. كما أوردت ذلك السيدة شيري كاتانيا مساعدة المحامي المختص بالقضية ولقد حكمت محكمة مدينة كانساس على لورانس «بوضعه تحت إشراف مراقبة الشرطة، وإنهاء 50 ساعة في أعمال خدمة المجتمع». لم تحكم عليه المحكمة بساعة واحدة في السجن. «كما قضت المحكمة بإلزام السيد ريلي بدفع 227.27 دولار أمريكي للبنك الذي سرقه». وهو قيمة ساعات العمل التي اضطر البنك بسبب السرقة أن يدفعها إلى الموظف الذي ذُعر في يوم السرقة؛ إذ اضطر البنك إلى منحه إجازة مدفوعة عن باقي يوم الحادث إلى حين أن يتمالك الموظف نفسه مرة أخرى ويعود للعمل في اليوم التالي، علاوة على 100 دولار أمريكي لصندوق ضحايا الجريمة. كما أن زوجته لم تتركه، ولم تنزعج من فعلته؛ بل ساندته وحضرت معه الجلسات في المحكمة.

وقبل أن نترك موضوع الدوبامين، هناك أمر آخر يجب علينا أن نذكره؛ ففي الفصل السابق (الفصل الأول) تحدثت عن ثلاث أنواع من الانتظار، وكانت الوقفة أحدها. وقد حاولت أن أجسد تلك النسخة من الانتظار عن طريق صورة الوقت المتوقف للغواص، رسمها الفنان التشكيلي الياباني

كوجيرو أونشي. وقد عرفنا عن تأثير الدوبامين الآن ما يكفي لنربط بين التأثيرات والمرايا الخاصة بالوقفة بما رأيناه يحدث عند زيادة معدل الدوبامين في المخ. وسوف يكون من السهل الربط بين الإثارة والعزم والتشوق الذي تشعر به القطط المنتظرة في الميناء، أو حتى الطفل ابن الصياد. بذلك الغواص في لوحة أونشي. كما سوف يسهل علينا أيضًا ربط مشهد السيد ريبل منتظرًا في ساحة بنك العمل في مدينة كنساس، تمامًا كما كان يفعل ابن الصياد والقطط عند الميناء. لقد تعلمت تلك الغواصة في لوحة أونشي- بالتأكيد- أن ما تفعله في حقيقة الأمر شيء آمن تمامًا، بالضبط بالطريقة نفسها التي كانت تفكر بها القطط عند الميناء. ويمكن للدوبامين أن يسهم في الحفاظ على هذا الشعور بالأمان من خلال تغيير بنية المخ. وتقدم الوقفة والغطسة أساليب مفعمة بالحيوية حتى يمكن فهم كيفية عمل الدوبامين، وكيف هو شعور تلك القطط عند الميناء، وذلك الطفل عند الشاطئ، وإحساس السيد ريبل منتظرًا في ردهة البنك ولكن ماذا عن السيد ألان رابينوفيتس؟ يبدو أننا قد شططنا عن دراسة تلك المسألة التي كان يمر بها في جزيرة بليز مع ذلك الفهد العملاق. هل كان الدوبامين هو العنصر المساعد الذي مكنه من الصمود بثبات منتظرًا أمام هذا النوع من القطط العليا؟ لا يبدو الأمر كذلك، فلا يمكنني أن أتخيل رجلًا مثل «إنديانا جونز الحياة البرية» يمكن أن يكون نسخة من شخصية مهزوزة مثل السيد ريبل. فلا يمكن أن نقتنع بأن هناك إحساسًا بالإثارة والمتعة يمكن أن ينبعث من خلال الانبطاح أمام أحد أضخم أنواع الفهود في وقت المساء. ولقد توصلت الأبحاث إلى أحد أنواع المعدلات العصبية التي ترتبط بالانتظار أيضًا، وهو السيروتونين Serotonin[13]. ويختلف الانتظار الناتج عن إفراز السيروتونين عن الانتظار

---

(13) يمكن أن يعمل الدوبامين والسيروتونين معًا - جي إيه هورفاث وآخرون. تحسن ميول الإيذاء الذاتي عن طريق السيروتونين والدوبامين. نظرية الإخلال لدى مريض مصاب بتشوه حسي - إستراتيجية علاجية جديدة للخصائص العقلية والعصبية لأحد الاضطرابات العقلية، مجلة علم –

المتعلق بالدوبامين. والسيروتونين ناتج عن إفراز مجموعة معينة من الخلايا التي توجد بتركيز أكبر في منطقة معينة في المخ تسمى نيوكلاي راف nuclei raphe، تقع في قاع المخ، في مكان قريب من جذع المخ Brain Stem أعلى العمود الفقري. ويشرح فريق طب المخ والأعصاب الياباني من أوكيناوا، بقيادة كي ميازاكي K. Miyazaki، وكي دابليو ميازاكي K. W. Miyazaki، وكي دويا K. Doya، وظيفة السيروتونين الصادر عن منطقة نيوكلاي راف، وهي: «تشكيل أو تعزيز قيمة الانتظار من أجل الحصول على فائدة في المستقبل»[14]. حيث زعموا أن الاستمرار في إفراز السيروتونين في الأعصاب يسهم في سلوك الانتظار، خاصةً مع توقع الحصول على مكافأة في المستقبل. وأن نشاط إفراز السيروتونين في المخ يؤدي إلى إتيان سلوكيات تنطوي على الصبر: مما يسمح للفئران [حيوانات التجارب المستخدمة في التوصل إلى النتائج] بالانتظار فترة أطول. وهذا الوصف يمكن أن ينطبق على التجربة التي يصفها ألان رابينوفيتس بأنها انتظار، أو الإبقاء على الوضع كما هو عليه، والمواجهة بنجاح؛ ومن ثم الاستجابة للرغبة في تتبع المهود. وكانت مكافأة رابينوفيتس- كما كان يأمل- ألا يؤكل على العشاء، وكانت طريقته التي يستخدمها لتحقيق هذا الهدف هي الانتظار. ويقدم عالمان متخصصان في اقتصادات الأعصاب neuroeconomists، هما كارولين ديكليرك وكريستوف بون، بعض الأفكار المتعلقة بالانتظار القائم على السيروتونين. حيث يؤكدان أنه عندما تنخفض مستويات السيروتونين فإن ذلك يؤدي إلى «عيب في القدرة على التعلم، وتثبيت التعلم من خلال التعزيز القائم على

= أعصاب الأطفال، 33 (1)، 2018.

(14) كاي ميازاكي وكاي دابليو ميازاكي وكاي دويا « The Role of Serotonin in the Regulation of Patience and Impulsivity»، 45، 2012. وكاي دابليو ميازاكي وآخرون، «مراقبة تفاعلات السيروتونين في بعض مناطق المخ لتعزيز الصبر على الحصول على مكافآت مستقبلية»، مجلة كارنت بيولوجي، 24 (17)، 2014.

المثيرات والإسقاطات». فربما لم يكن رابينوفيتس ليتعلم كيفية الانتظار إذا كانت المعدلات العصبية ومعدلات السيروتونين لديه منخفضة؛ هذا لأن انخفاض معدلات السيروتونين في المعتاد يؤدي إلى تأجيل الوصول إلى حالة الرضا. إن انخفاض معدلات السيروتونين قد يؤدي إلى دفع المرء أن يصبح سهل الانقياد نحو المكافآت السريعة قصيرة المدى. كما أنه سوف يؤدي إلى استدعاء استجابة فطرية، ولكنها غير مناسبة اجتماعيًا، تتعرض في معظم الأحوال للكبت والتغطية. ربما كان الشعور السائد لدى رابينوفيتس في هذه اللحظة هو الحاجة الملحة إلى الجري بأقصى سرعة ممكنة[15].

ما الذي يمكن أن يحدث للمخ المتشبع بإفرازات السيروتونين؟ حتى يمكن التوصل إلى صورة يمكن من خلالها تفسير العلاقة بين السيروتونين والانتظار، أجرت الباحثة مادلينا فونيسكا Madalena Fonesca، بالتعاون مع فريق بحث من لشبونة في البرتغال، من العاملين في برنامج تشامباليمود Champalimaud Neuroscience Program المتخصص في علم المخ والأعصاب، تجربة باستخدام فئران التجارب والضوء الأزرق[16]. لنفترض أن رابينوفيتس هو الفأر بالرغم من صعوبة ذلك. للبدء في التجربة؛ عمل فريق البحث على جعل الخلايا العصبية المسؤولة عن السيروتونين حساسة للضوء؛ ولهذا عندما كانوا يضيئونها كان مفعولها في إفراز السيروتونين في المخ يبدأ. وهذا النوع من الأساليب المستخدمة في التحكم في سلوك خلايا

(15) كما يرتبط السيروتونين أيضًا بالخوف والترقب. ويمكن أن تساعد مضادات الاكتئاب على استدعاء هذه الاستجابة لدى عدد من المستعملين غير المعتادين تناولها. والسبب في حدوث ذلك لا يزال مجهولًا. ويوجد مقال صغير عن هذا الأمر منشور في صحيفة ساينس دايلي، بتاريخ 21 أغسطس 2016. كيف يمكن أن تستدعي مضادات الاكتئاب استجابة الخوف والترقب؟

(16) إم. إس. فونسيكا وم. موراكامي وزد. إف. ماينين. كيف يمكن أن تعزز الإفرازات السيروتونينية عملية الانتظار بدون تعزيزها. مجلة كارنت بيولوجي، 25 (3). وقد ناقش ميكل ماكدونالد أعمال فريق فونسيكا من خلال مقالة بعنوان: «السيروتونين: الانتظار لكن ليس كمعزز». مجلة كارنت بيولوجي، 25 (3)، 2015.

المخ، وجعل الخلايا العصبية حساسة للضوء، يسمى علم البصريات الوراثي Optogenetics. إنها عملية مذهلة في بساطتها وفي تعقيدها في الوقت نفسه. ويستخدم الضوء في علم البصريات الوراثي، ذلك الضوء الذي يستطيع أي كائن حي أن يراه بعينيه للتحكم في طريقة عمل الخلايا في الأنسجة الحية، ويكون الضوء المستخدم في الغالب ملونًا باللون الأزرق. إن نوع الخلايا المقصود بالمعالجة في أبحاث فونسكا وفريقها البحثي هو تلك الخلايا العصبية التي تتحكم في السلوك، مثل تلك الخاصة بالسيد ألان رابينوفيتس في أثناء رحلته في غابات بليز. لقد عمل الباحثون في برنامج تشامبالمود على تعديل تلك الخلايا العصبية «للتأثير في القنوات الأيونية الحساسة للضوء». وقد أدى ذلك إلى أن أصبح الفريق قادرًا على تشغيل أو إغلاق النظام العصبي، وبالتالي السلوكي. ويمكن استخدام هذه الطريقة أيضًا مع الحيوانات الحرة الحركة، مثل الفئران. وفور تشغيل فريق البحث خلايا السيروتونين العصبية أو إغلاقها، فإنها مكنت تلك القوارض الصغيرة من الحصول على مكافأة. ولكنها مكافأة تحدث في أوقات متنوعة لا يمكن التنبوء بها عند تفعيل الخلايا العصبية المسؤولة عن إفراز السيوتونين باستخدام الضوء الأزرق، حيث اكتشف فريق البحث التابع للباحثة فونيسكا أن الفئران أصبحت أكثر قدرة على انتظار مكافأتها. وقد فسر ماسايوشي موراكامي Masayoshi Morakami، وهو أحد الباحثين المشاركين في برنامج تشامبالمود، أنهم اختاروا تأثير المستويات المختلفة من التفعيل في سلوك الانتظار، ورأينا أنه كلما زاد التفعيل قوة طالت مدة الانتظار يحدث تعزيز لمدة الانتظار لدى الفئران عند تحفيز الخلايا العصبية المسؤولة عن السيروتونين، فتزيد مدة انتظار الفئران[17]. هل يمكن أن يكون

(17) نيوروساينس، 15 يناير 2015، الأشياء الجيدة تأتي لمن ينتظرها؟ المزيد من السيروتونين، المزيد من الانتظار

هذا هو ما حدث في حالة آلان رابينوفيتس؟ وربما لدى ذلك الفهد أيضًا؟

ويتصاعد احتمال اعتماد آلان رابينوفيتس على إفرازات مخزون السيروتونين لديه في هذا الموقف إذا نظرنا إلى العوامل الأخرى المتعلقة بالخواص الكيميائية العصبية. ومن الخصائص غير المتوقعة الدالة على ارتفاع معدلات السيروتونين هو أنه لا يقدم تعويضًا محددًا واضحًا. حيث أشار السيد زاكري ماينين Zachary Mainen، مؤسس برنامج تشامباليمود في لشبونة، والمتخصص في علوم المخ والأعصاب، أن ارتفاع معدلات السيروتونين لا يقدم أي مكافأة من أي نوع[18]. ونشر ذلك في كتابه «بيولوجية الخلية» Cell Biology، المنشور عام 2015. ولاستعراض ذلك بوضوح، تم الاستعانة بفئران التجارب التي تعمل باستمرار داخل المعمل. «لو كان ارتفاع معدلات السيروتونين له أثر جيد، أو يقدم مكافأة للفئران، فربما يفسر لنا ذلك لماذا انتظرت الفئران وقتًا أطول»، حسب ما أكدت زميلة ماينين، الخبيرة في السيروتونين مادلينا فورنسكا. ولتجربة هذا الأمر خرج فريقها البحثي بعملية، ومجموعة من التجارب التي تمتاز بالبساطة. وكان هدف الباحثين من هذه العملية هو «التأكد إن كانت الفئران ستفضل القيام بأفعال تنطوي على إثارة معدلات السيروتونين». ولكن التجارب أظهرت سقوط هذه الفرضية؛ حيث لم تفضل الفئران القيام بأشياء على أساس إثارة خلايا المخ من أجل إفراز معدلات مرتفعة من السيروتونين. ويبدو أن زيادة القدرة على الانتظار لم تكن نابعة من توقع الحصول على مكافأة، أو على الأقل لم تنتج عن توقع الحصول على مكافأة فورية؛ فالمكافأة- إن وُجدت- هي في الأساس بعيدة المدى. والآن ما علاقة ذلك كله بالسيد رابينوفيتس؟ لقد حاول أن يجعل نفسه أصغر حجمًا عند مواجهة

(18) إس بي راباي وري إف ماسين، إطلاق بعض المناطق في المخ الأكود بعزز أحداث متنوعة ومخصصة وحسية وحركية ومعززة محددة، مجلة نيوروفسيولوجي، 102 .5 ,2009

الفهد العملاق. لو كان السيروتونين قد ساعده فربما لن يكون أبدًا ليشعر بالسعادة عندما انكمش في نفسه. ولكنه بالتأكيد سوف يشعر بشعور جيد لأنه لن يؤكل ذلك اليوم على العشاء. أو هكذا يبدو الأمر. لقد رقد ووضع ذراعيه حول ركبتيه. وحاول بكل قوته تصغير جسمه حتى يقتنع الفهد بأنه لا يشكل أي نوع من أنواع التهديد، ولكني لا أعتقد أن هذه التجربة كانت ممتعة بأي شكل من الأشكال. جرب هذا الأمر أمام المرآة. وسوف تجد الإجابة عن السؤال السالف الذكر. من أي نوع من المعدلات العصبية التي أوجرناها سلفًا تمكن رابينوفيتس من تكوين نوع من الاستفادة الشخصية؟ السيروتونين أم الدوبامين؟ لقد وفر السيروتونين. وليس الدوبامين. الحماية للسيد رابينوفيتس

دعونا نبقَ في بليز. عندما واجه ألان رابينوفيتس ذلك الفهد العملاق في أدغال بليز الكثيفة قال إنه قد فعل ما فعل كثيرًا في أقفاص الحيوانات بأنواعها المختلفة المعروضة في حدائق الحيوانات. ولكن إلى ماذا يرمي رابينوفيتس بهذه الإشارة إلى حديقة حيوانات بروكلين؟ وكيف تمكن من خلالها أن يكتسب القدرة العصبية والمخية على الانتظار؟ إليكم ما قاله رابينوفيتس عند وصفه حدثًا مهمًا ساعد على تشكيل شخصيته منذ الصغر. عندما زار حديقة الحيوان في بروكلين:

> لقد رأيته يتوقف قبل أن أصل إليه .. ثم انحنيت إلى الأمام لأتمكن من أن ألمس القفص عبر السور الأمني .. لقد كانت عيناه هي دومًا ما تجذبني .. هاتان العينان المملوءتان بالألم الأبدي وتجاهلت كل من كان حولي من البشر. وبدأت أهمس بصوت لا يمكن لغيري أن يسمعه .. لقد خطوت إلى عالم خاص وشخصي .. لا يستحق غيري أن يسمع منه شيئًا.

لقد كان ألان في سن الخامسة عندما قابل القطط العليا للمرة الأولى، ولم تدفعه طيبته وإحساسه بالشفقة على هذا القط العجوز فقط إلى الهمس له بهذا الشكل. لقد كان رابينوفيتس الصغير يعاني حالة من الصعوبة في الكلام صاحبته حتى البلوغ، حتى إنه لم يكن قادرًا على إنهاء جملة واحدة كاملة. لقد كان يضطر كثيرًا إلى الانتظار بشكل مؤلم لتوضيح كلامه بشكل مفهوم للناس. ربما يكون ما سأقوله غريبًا، ولكن مثل كثير من الأشخاص الذين يعانون صعوبات الكلام كان رابينوفيتس يتحدث إلى الحيوانات بدون مشكلة، مثلما حدث مع ذلك الفهد في حديقة الحيوان في بروكلين. وتلك قصة مؤثرة تعلمنا الكثير، حيث استفاد رابينوفيتس بشكل شخصي من اكتشافه أنه قادر على الكلام مع القطط العليا بدون تأتأة.

كما تعلم أن يكرر تلك العادة التي اكتسبها بمساعدة القطط العملاقة في بيته كذلك، حيث كان إذا دخل إلى بيته يتحدث إلى جميع الحيوانات الأليفة التي تعيش معه في المنزل، فيعمد إلى دولابه الذي في غرفة نومه، ويهمس إلى سلاحفه الأليفة، والأفاعي والسناجب أيضًا[19] وفي المقابل، فإنه يبدو أن إجبار هذا الطفل المنعزل، المصاب بحالة صمت جزئي على الانتظار، قد أدى إلى تعلم رابينوفيتس عادة الانتظار والهمس في حديقة الحيوان، وفي البيت أيضًا. لقد اعتاد أن يقلد عملية الانتظار التي يقوم بها كثير من الكائنات، مثل الفهد العجوز. ومن خلال نسخته الخاصة به من الانتظار، تعلم كيفية التواصل معها. ويعد السبب الرئيسي الذي جعله يهمس إلى الحيوانات بالكلام، هو أن هذا الأمر يعمل جيدًا، ولأنه لم يكن يريد لأحد أن يسمعه، ولكن أيضًا لأن ذلك يوفر له القدرة على التحرر من إعاقته التي كانت تعوقه عن التواصل مع الأطفال والبالغين الآخرين. يبدو

(19) نيو ساينتيست، 12 أكتوبر 2014، فيل ماكينا

أن الحيوانات منحته صوتًا، وأعطته فهمًا للقوة التي يقدمها الانتظار، ويبدو أن الحيوانات أرادت أن تعلم رابينوفيتس أنه سوف يتعلم في النهاية، ويكتسب صوته، ويخاطبها من خلاله إذا انتظر فحسب. ولكن لا توجد مكافأة حتى الآن. وفي أحد الأيام، تعهد رابينوفيتس الشاب لحيواناته بأنه «عندما يكتسب صوتًا، سوف يكون الصوت الذي يتحدث به نيابة عن المخلوقات التي لا تستطيع الكلام»[20].

هل في هذه القصة ما يشير - مرة أخرى - إلى توافر القدرة على الانتظار لدى أدمغة معينة أكثر من غيرها؟ هل كان دماغ آلان رابينوفيتس متصلًا بشكل أفضل منذ الولادة؟ أم أن إعاقة رابينوفيتس وظروف تربيته أكسبته قدرة أكبر على الانتظار أكثر من غيره؟ يبدو أن الان رابينوفيتس قد تعلم الانتظار بالفعل، مع أن هذا التعلم ربما بدأ في الوقت نفسه تقريبًا الذي تحسنت لديه القدرة على الكلام في السنة الأولى من حياته. ويبدو أنه قضى مدة طويلة منتظرًا في طفولته، باختياره أو رغمًا عنه، إلى أن يصبح متمكنًا من عملية التواصل، وفي انتظار أن يُسمع صوته، وأن تفهم حيواناته محادثاته المتكررة. إذا أمكن تعلم مهارات متقدمة من خلال الانتظار، فقد يبدو لنا رابينوفيتس من الأدلة التي تثبت أن المقدرة ربما لا تأتي بالشكل الأمثل من خلال التعلم المدرسي، أو من خلال قوة الإرادة، أو من خلال بعض عمليات الكيمياء العصبية، أو من خلال نصائح البالغين والخبراء والكبار في السن، أو عبر ذلك من السلوكيات المشابهة. ولا يعني ذلك بالضرورة أن تلك الأشياء لا تساعد. يبدو أن تعلم القدرة على الانتظار، إلى أن تصبح ذا قوة انتظار خارقة، مثل آلان رابينوفيتس، وحتى تتمكن من إفراز كل السيروتونين الذي تحتاج إليه في الدماغ، هو قدرات تظهر من خلال التعلم من ظروف عصيبة

(20) نيو سايتنبست، 12 أكتوبر 2014، فيل ماكينا

مكونة من مواقف مزعجة مطولة تمر بها أولًا في سن مبكرة جدًا. ربما، وهذا هو اعتقادي الشخصي، كان ألان رابينوفيتس مرتبطًا بالانتظار أكثر من أي شخص آخر، ويحتمل أن يكون لذلك علاقة بحياة العزلة التي عاشها كطفل ضعيف. كما يبدو أن التأتأة هي تجسيد للانتظار؛ حيث يكافح المتلعثمون وينتظرون كثيرًا إلى أن يتمكنوا من إنتاج كلمات لغوية مفهومة، وعندما يفعلون ذلك، فإنهم ينتظرون لمعرفة ما إذا كانوا قد فُهموا، وينتظرون حتى تنكشف لهم ردة الفعل البادية على مَن يتحدثون إليهم. لقد تمكن رابينوفيتس من التحدث إلى الحيوانات بدون تأتأة، ويبدو أنه كان قادرًا على استحضار قدرته على الانتظار حتى يتمكن من التأثير في الحيوانات، أو هذا ما يحاول أن يلمح إليه. إن تلك القدرة على الانتظار التي اكتسبها هي التي مكنته من «الهمس» whisper في مواقف مثل تلك الموصوفة لدينا هنا. وربما لا يكون ذلك أمرًا سعيدًا بالنسبة إلى أشخاص مثلي، ممن هم بطبيعتهم فقراء في نسبة السيروتونين، ولكن ربما تكون تلك الأنباء طيبة بالنسبة إلى كل من يمرون بحياة طفولة عبارة عن نسخة غير مفهومة من قصة أوليفر تويست، أو أسوأ من ذلك.

قد يولد بعضنا بقدرات انتظار خارقة، بدلًا من المرور بخبرات تجبرهم على اكتساب تلك القدرة على الانتظار منذ نعومة أظفارهم، مثل ألان رابينوفيتس. ربما كان كريس كايل Chris Kyle، القناص الأكثر شهرة في كل العصور، صورة تجسد القدرة الخارقة على الانتظار، والمكتسبة عند الولادة. يُقال إن كريس كايل تغلب على الجميع في تحقيق أعلى عدد من «القتلى» kills في تاريخ الجيش الأمريكي خلال جولاته الأربع التي قضاها في خدمة قوات مشاة البحرية خلال حرب العراق، ويُقال إن هذا يشمل مقتل ما لا يقل عن ١٦٠ شخصًا. وقد وصف الانتظار الذي قضاه في حياته بصفته قناصًا متخصصًا في سلب الأرواح في كتابه الأكثر مبيعًا، المنشور

عام 2012، بعنوان «**قناص أمريكي**» *American Sniper*، الذي يحتوي على سيرته الذاتية، السيرة الذاتية للقناص الأكثر فتكًا في التاريخ العسكري الأمريكي وقد أخرج كلينت إيستوود فيلمًا مشهورًا يحمل الاسم نفسه. حقًا كان فيلم القناص الأمريكي من إخراج كلينت إيستوود مشهورًا جدًا إلى درجة أنه يُقال إنه الفيلم الحربي الأعلى إيرادات في تاريخ الأفلام الحربية الأمريكية (أخشى أن هذه ليست شهادة جيدة لقيمة أي فيلم، ولكن دعونا نترك هذه الإحصاءات الغريبة) أما بالنسبة إلى كرس كايل، فسوف تتأكد أنه لتصبح قناصًا ناجحًا حقًا فإن الأمر يتطلب كمية كبيرة من السيروتونين أو الدوبامين في المخ. إذا أردنا أن نجد مهنة تتميز بالقدرة المذهلة على الانتظار والصبر بدقة حتى تأتي اللحظة المناسبة، فإن مهنة القناص هي بالضبط ما نبحث عنه.

وربما يجب علينا أن نتوقف لتأكيد مدى أهمية الانتظار بصبر في سياق عمل القناص المحترف. ربما كان كرس كايل الأنجح في تاريخ القناصين، لكنه لم يحقق الرقم القياسي في القنص البعيد المدى لقد حقق قناص كندي مجهول الاسم ذلك في يونيو 2017 عندما قتل أحد مقاتلي داعش، في معركة بالقرب من الموصل في العراق. وكان هذا من مسافة 11.319 قدم بالضبط. وحسب أحد التقارير، «أطلقت الرصاصة من بندقية من طراز ماكميلان TAC -50 من أعلى برج مرتفع، واستغرقت 10 ثوان لتقطع مسافة 2.14 ميل نحو ذلك القناص الداعشي الذي كان يهاجم جنودًا عراقيين»[21]. في هذا الفيلم نجد وصفًا مفعمًا بالحيوية لعملية القنص قدمته الصحفية ديبرا هاينز Deborah Haynes التي تعمل لحساب صحيفة التايمز[22]. إنها عملية

---

(21) دايلي ميل، يونيو 2022، 2017، روري تيبجل.

(22) كيف يتمكن القناصون من استخدام التكنولوجيا والمهارة في التغلب على أي هدف من مسافة بعيدة؟ (ما وراء القصة)، التايمز، 23 يونيو، 2017.

معقدة جدًا، ومشحونة بالانتظار، إلى درجة أنها تستحق أن تُحكى مرارًا. يضع القناص بندقيته، ويحدد هدفه (عن طريق المنظار المتصل ببندقيته)، ويصطحب مطلق النار مراقبًا يساعده على استخدام منظار لقياس المدى بالليزر، ويحدد هذا المنظار الهدف، ويحسب المسافة. كما يستعين المراقب أيضًا بجهاز كيسترل Kestrel، وهو كمبيوتر محمول «يحسب سرعة الرياح، ومعدل الرطوبة، وأي عوامل بيئية أخرى يمكن أن يكون لها تأثير في مسار الرصاصة بعد إطلاقها». يبقى القناص والمراقب على اتصال مستمر في المقر الرئيسي، لساعات أو حتى لأيام، لتحديد هدفهما الصحيح؛ ومن ثم:

> وفور عثورهما على الهدف المطلوب تصفيته، يصبح المطلوب منهما هو المراقبة والانتظار. وعند تحديد الهدف، وتلقي الإذن بقنص الهدف، ينقل المراقب هذه المعلومات إلى القناص، إلى جانب البيانات الخاصة بسرعة الرياح، ومعدلات الرطوبة، ثم تُضبط شبكة البحث عن الهدف على التلسكوب المثبت بالبندقية حتى يتمكن القناص من ضبط الهدف وفقًا لذلك

وينبغي للقناص أن يحصل على ما هو أكثر من مجرد عين جيدة، وهدف مؤكد، ومراقب كفء جدًا. يجب أن يتمتع القناص أيضًا بالهدوء والثبات إن أراد إصابة الهدف. هذا هو الموضع الذي سوف تسهم في تغييره المستويات المرتفعة من المعدلات العصبية. بعبارة أخرى، فإن حياة القناص هي انعكاس لحياة الحيوان المفترس الباحث دومًا عن طريدته. تتطلب حياة الحيوانات المفترسة، مثل الفهد المقترن بألان رابينوفيتس، كثيرًا من المعدلات العصبية المسؤولة عن عملية الانتظار. إذا لم تكن لديهم تلك المعدلات العصبية فإنهم سوف ينفذون عملية الانقضاض في وقت مبكر جدًا. ربما يشبه القناص في هذه الحالة - إلى حد ما- تلك القطط على رصيف

الميناء. هل من المنطقي أن نعزو قدرتهم على الانتظار إلى ارتفاع في معدل الدوبامين («ومن خلال [هذه الزيادة] يزيد الاهتمام بالإشارات البعيدة») بدلا من ارتفاع معدل السيروتونين؟

لكن تلك المستويات المرتفعة من الدوبامين، إن كان الأمر كذلك، لا يمكنها أن تعمل دومًا لصالح الدماغ على المدى البعيد: فالقدرة على الانتظار التي يحركها الدوبامين قد يكون لها جانبها السلبي. تشير كارولين ديكلرك وكريستوف بون إلى أنه من المحتمل أن يسهم نظام إفراز الدوبامين «في اتخاذ قرارات متهورة وأنانية، ومن غير المرجح أن تسهم أبدًا في اتخاذ قرارات متسقة مع الوسط الاجتماعي لها آثار بعيدة المدى» وخلُص ديكليرك وبون إلى فكرة كئيبة؛ أنه «في المجال الاجتماعي، يمكن أن يُترجم [نشاط الدوبامين هذا] إلى قرارات أنانية فقط» ربما يمكننا القول إن القناص كريس كايل يشبه - إلى حد بعيد- تلك القطط المنتظرة عند رصيف الميناء بدرجة تفوق موقف المواجهة بين آلان رابينوفيتس وذلك الفهد العملاق. ربما يرمز كريس كايل إلى الفهد: فالمكافآت متشابهة، إنها متعة الصيد والقتل، وممارسة تلك المهارة التنشيطية، والمختلفة، التي أدت إلى اكتساب الاعتراف والاحترام من الأقران.

إنها تلك المتعة المقترنة بممارسة مهارة من نوع ما. لقد كان الانتظار والترصد الذي يمارسه كايل من ذلك النوع القائم على إفرار الدوبامين، ويبدو أن هذا النوع من الانتظار أضر على المدى البعيد بحياته الشخصية، حيث كان كريس يتلقى كثيرًا من الاتهامات بخصوص تصرفاته الشخصية، إذ ارتبط اسمه كثيرًا بالتصرفات الأنانية عند اتخاذ القرارات، وأحيانًا ارتبط بالاضطرابات في الشخصية ويُقال إن كريس كايل، الذي قتله جندي أمريكي سابق، كان يُدعى إيدي راي روث Eddie Ray Ruth، في أحد ميادين

الرماية عام 2013، كان يبالغ في تقديره للنياشين والميداليات التي حصل عليها في أثناء خدمته في حرب العراق. في سيرته الذاتية، قال كايل إنه قد حصل على نجمتين فضيتين، وثلاث نجمات برونزية: تقديرًا لشجاعته في القتال، ولكن موقع إنترسيبت Intercept نقل عن صحيفة الجارديان Guardian أن كايل حصل على نجمة فضية واحدة، وثلاث نجمات برونزية: تقديرًا لشجاعته في القتال. تلك المعلومات حصل عليها الموقع بعد أن تقدم بطلب للجيش الأمريكي للحصول على معلومات مصنفة أنها سرية[23]. كما زعم بعضهم أن كريس كايل علق بعض التعليقات المبالغ فيها- حسب التقرير الصحفي نفسه- عندما قال إنه سدد لكمة إلى عمدة ويسكونسن والمصارع السابق خيسي فينتورا Jesse Ventura، وأن هذه الواقعة حصلت في كولورادو ليلة إحياء ذكرى مايكل مونسور Michael Monsoor، زميل كايل في الخدمة. ونتيجة لاستيائه من تلك الادعاءات، شكى فينتورا ضد كايل في المحكمة، وربح القضية.

ولكن، هل يتناسب ذلك مع ادعاءات كارولين ديكليرك، وكريستوف بون أن إفراز الدوبامين يرتبط أحيانًا بتغيرات في الحالة الوجدانية، مثل الإصابة بإحساس مبالغ فيه بالعظمة، والإحساس بالسعادة البالغة التي ربما ترق إلى مستوى النشوة، كما يرتبط أيضًا بالانفصال العاطفي والعزلة الاجتماعية[24]؟ ولن نعرف أبدًا إن كانت تلك هي الحال بالنسبة إلى كايل أم لا. وعلى أي حال، فإن تلك التقارير صادرة عن إحدى الصحف المشهورة

(23) صحيفة الجارديان، 26 مايو، 2016 (بين تشايلد)

(24) من السهل أن نكره الدوبامين. قد يعطيك بعض الناس الإحساس بذلك، وهذا هو الإحساس الذي سوف تشعر به عندما تقرأ كتاب فريد بريفيتش، The Dopaminergic Mind in Human Evolution and History، شركة جامعة كامبريدج للنشر، 2009، وبريفيت Previc – مقربات بين الإنجازات العظيمة لعمل الدوباميني مع الآثار السلبية لرفع معدلات الدوبامين في المجتمعات الحديثة [ويتساءل ب:] إن كان العمل الدوباميني لا يزال متكيفًا مع صحة البشر وللكوكب عمومًا

بمناهضة كل ما هو عسكري، وهي تتحفظ دومًا على الأذواق المشابهة لكلينت إيستوود. وبناءً عليه، فربما يكون هذا الهجوم على كريس كايل ناتجًا فقط عن الصراع بين الأفكار والأذواق التي لاحقت كايل بالمصادفة. ولكن إذا لم يكن الأمر كذلك، فلا بد أن تظن أن الدوبامين، وليس السيروتونين، هو المسؤول عن تحويل كريس إلى قناص ممتاز، وأن تلك الزيادة الكبيرة في إفراز الدوبامين لديه قد أتت نظير ثمن باهظ. ربما يجب علينا أن ندع أمر معدلات الدوبامين، والتأثير المتبادل بينهما، والبدء بالتفكير في الأسباب التي تجعل البالغين أكثر قدرة على الانتظار، لكن بدون التطرق إلى بعض السقطات الشبيهة بتلك التي تمتلئ بها حياة ذلك القناص المحترف المتأثر بالدوبامين. هل فعلًا توجد بعض أنواع الطعام، أو المواد الكيميائية التي إذا تعاطاها شخص عادي مثلي أنا، يمكن أن تصحح الأخطاء التي قد يقوم بها المخ البشري العادي؟ لا أتوقع أنني أحب أن أصبح مثل كريس كايل، ولكن الأفضل أن أحصل على قليل من مآثر رابينوفيتس، فلن يضيرنا بعض الثبات في هذه الحياة.

هل يمكننا أن نعوض أي نقص في السيروتونين أو الدوبامين؟ بالتأكيد معظمنا لم يولد مزودًا بتلك الخصائص التي يتمتع بها كريس كايل، أو ألان رابينوفيتس، ولكن كيف يمكننا أن نصل إلى أن نطور من قدرتنا على إفراز معدلات جيدة من الدوبامين أو السيروتونين في المخ، بدون أن نكون قد وُلدنا مزودين بهذه المعدلات، أو بدون تلك المواقف التي تنطوي على أمور تتطلب قدرة خارقة على الانتظار؟ يبدو أن معدلات إفراز الدوبامين يمكن أن تتحسن من خلال الأنشطة التي تنطوي على مخاطرة، تلك المواقف التي لا يبدو أنها تحتاج إلى حلول بعيدة الأجل ولسوف تنخفض معدلات الدوبامين مرة أخرى، أو ربما تُقتل أو تصاب إذا جربت بعض المواقف الخطيرة، مثل القفز من الجسر، أو من فوق أعلى الجبال غير ممسك

بشيء فيما عدا طائرة شراعية خفيفة الوزن يمكننا زيادة معدلات إفراز الدوبامين باستخدام بعض المواد المعالجة كيميائيًا، مثل إل دوبا L-Dopa، أو باستخدام أنتيكوليترجيكس Anticholinergics، أو تلك المواد التي تحفز استجابة فسيولوجية عند اقترانها بالمستقبلات العصبية. ولكن بعض تلك المواد لها آثار جانبية مزعجة بالفعل: فالصيدلانيون والكيميائيون حذرون عند التعامل مع مادة إل دوبا بالذات. فمع كثرة استخدام تلك المواد، قد تعتاد السلوك الخاضع، إلى درجة أنك قد تُهدي قميصك ببلاهة، أو حتى شعر رأسك، إلى أحد التجار الاستغلاليين[25].

إن توافر السيروتونين بمستويات مرتفعة يمكن أن يضمن فرصة أفضل لتطوير قدرة أبقى أثرًا على الانتظار، لكن من أين يمكننا تدبير مستويات مرتفعة من السيروتونين؟ هل تتكون تلك المستويات نتيجة الحظ والرزق فحسب، أم أنها ترجع لأسباب جينية وراثية، أم يمكن تطويرها من خلال موقف مشابه لذلك الذي مر به ألان رابينوفيتس، مما يشجع على الحفاظ على إمداد مستمر من هذا النوع من المعدلات العصبية؟ هل يمكن زيادة معدلات السيروتونين من خلال الأكل؟ المعلومات المتوافرة عن هذا الموضوع ليست جيدة. أوضح أحد علماء الأعصاب، وهو الدكتور لاري سيفر Dr. Larry Siever، الذي كان يعمل سابقًا في كلية طب ماونت سيناي في نيويورك Mount Sinai School of Medicine، أنه «تتأثر أنظمة إنتاج السيروتونين لدينا ليس فقط بما نستهلكه من مواد: ولكن بجيناتنا وخبراتنا

(25) بالنسبة للمرضى المصابين بمرض باركينسون، فإن الاستخدام الأمثل للدوبامين يتعلق بحدوث اضطرابات التحكم في السلوك الاندفاعي، وذلك في شكل العلاقة بين الجرعة والتأثير الفعال للمادة المستخدمة. وقد كان ذلك مثبتًا في أعمال جون كريستوف كورفال وآخرين – تحليل طولي لاضطرابات التحكم في السلوك الاندفاعي في مرض باركنسون، صحيفة نيورولوجي، 91 (3)، 2018. لا يبدو أنه يمكننا أن نجد دليلًا على ذلك الأثر لدى عينة من غير المصابين بمرض باركنسونز

ومواقفنا أيضًا. وبعدد آخر لا يحصى من المواد الكيميائية التي تسري في أدمغتنا قد يكتشف العلماء يومًا ما كيفية تفاعل جميع هذه القوى، ولكن الحياة الجيدة- مهما كان الأمر- لا تزال تتطلب كثيرًا من العمل». من ناحية أخرى، يؤكد سيفر أن «نظام إنتاج السيروتونين الخاص بك لا يتحكم في كل شيء. فإذا كنت تعاني نقاط ضعف مرتبطة بخفض معدل إنتاج سيروتونين، مثل الإحساس بالذنب، والسلوك الخاضع، وانخفاض معدل احترام الذات؛ يمكنك أن تتعلم تعويضها»[26]. يبدو أن سلوكيات التبعية، مثل (الصداقة، والحياة الأسرية، وبيئة العمل التي توفر الدعم لأفرادها)، قد يكون لها التأثير نفسه. ويفترض أن الصبر وضبط النفس يزيدان أيضًا معدلات إفراز السيروتونين، وهذا- بدوره- يتسبب في تحرير السيروتونين.

هل يمكننا تناول دواء أو عقار مثل «حبة انتظار» waiting pill حتى يمكننا تعلم الانتظار؟ أو يمكننا أن نتناول ما يساعدنا على تحمل الانتظار؟ يمكنك بالتأكيد أن تتناول عقاقير تساعدك على الانتظار ربما يقدم ذلك بعض المساعدة. يمكننا زيادة معدلات إفراز السيروتونين- بشكل اصطناعي- من خلال العقاقير والأدوية، من خلال ما يسمى مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين، أو (SSRIs) اختصارًا، على سبيل المثال، التي تستخدم في المعتاد لعلاج الاكتئاب النفسي ومع ذلك، قد تكون قدرة تلك الأدوية على التحفيز على الانتظار المفيد محدودة بسبب بعض الآثار الجانبية السيئة: النعاس، والشعور بالغثيان، وجفاف الفم، والأرق، والإسهال، والعصبية الزائدة، والتهيج أو القلق، والدوار، أو المشكلات الجنسية (المتعلقة بالرغبة الجنسية، وإكمال العلاقة الجنسية إلى النهاية). وكل تلك الآثار الجانبية تجعل تكلفة الانتظار باهظة جدًا. كما يوجد لدينا التربتوفان tryptophan،

(26) مقال من تأليف آن أندروود Ann Underwood بعنوان: مساعدة صغيرة من السيروتونين، نيوزويك، عدد 28 سبتمبر، 1997

وهو حمض أميني يمكن إنتاجه اصطناعيًا، ويمكن أن يساعد على إنتاج السيروتونين. ويمكن تناول تلك العقاقير كمكملات غذائية، وعلى عكس مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين، يمكن شراؤها بدون الحاجة إلى وصفة طبية في الولايات المتحدة الأمريكية (بالرغم من تعرض هذا العقار بالذات للحظر بين عامي 1989و2005)، وفي المملكة المتحدة كمكمل غذائي يستخدم كمضاد للاكتئاب والقلق والأرق. كما تباع أيضًا كعقار يستخدم بوصفة طبية في أجزاء من أوروبا لاستخدامه في حالات الاكتئاب النفسي الحاد. ويلاحظ عالم الأعصاب سيمون يونج Simon Young، وهو محاضر في جامعة ماكجيل في مونتريال، «أن التريبتوفان يؤثر في الأشخاص الأصحاء الذين يعانون حالة هياج مزاجية بشكل أشبه بالعلاج الوهمي placebo حيث تنخفض لديهم السلوكيات التي تميل إلى الشجار، وتزيد السلوكيات المقبولة، وتتحسن الحالة المزاجية»[27]. ولكن هناك مشكلات مع التريبتوفان، تمامًا كما هي الحال مع مثبطات إعادة امتصاص السيروتونين. إن الآثار الجانبية المحتملة للتريبتوفان تشبه تلك المرتبطة بمثبطات إعادة امتصاص السيروتونين، وتشمل: الغثيان، والإسهال، والنعاس، والدوار، والصداع، وجفاف الفم، وعدم الرؤية بوضوح، والإحساس بالخدار والنشوة، والرأرأة (حركات لاإرادية اهتزازية في مقلة العين). كما أن آثاره الجانبية وتفاعله مع العقاقير الأخرى غير معروفين. يبدو بالفعل أن تناول الأقراص قد يكون طريقة غير سارة، أو حتى محفوفة بالمخاطر لتحفيز معدل مُرضٍ من إنتاج المواد الكيميائية العصبية المطلوبة، أو السيروتونين على وجه الخصوص.

هل يمكننا إيجاد طرائق أكثر طبيعية وأقل ضررًا لزيادة معدلات إفراز السيروتونين؟ هل يمكن أن تساعد التعديلات السلوكية؟ هل يمكن أن

(27) مقال بعنوان "كيف يمكن زيادة إفرازات السيروتونين في المخ البشري بدون اللجوء إلى العقاقير"، مجلة الطب النفسي وعلوم طب المخ والأعصاب، 32 (6)، 2007.

تساعد ممارسة التمارين الرياضية على زيادة القدرة على الانتظار؟ هل يمكن تناول ما يساعد على ذلك؟ أجرى سيمون يانغ مسحًا كدليل بحثي لمقال نُشر عام 2007 في صحيفة الطب النفسي وطب الأعصاب وقد تحقق من أربع نقاط عن الطرائق الطبيعية التي يمكن من خلالها زيادة إفراز الدماغ مادة كيميائية معينة، ومن خلال ذلك يمكن تقوية القدرة على الانتظار وزيادتها.

1. يمكن أن تؤثر التغيرات الذاتية التي يمكن أن تحدث باستخدام العلاج النفسي في تغيير الحالة المزاجية. مما يساعد على إفراز السيروتونين من الممكن أن يكون «التفاعل بين تخليق السيروتونين وضبط الحالة المزاجية ذا اتجاه تبادلي، حيث تكون العلاقة بين السيروتونين والحالة المزاجية علاقة تأثير وتأثر».

2. «تشير بعض الدراسات أيضًا إلى أن التعرض للضوء الساطع علاج فعال للاكتئاب غير الموسمي، ويقلل أيضًا من الحالة المزاجية الاكتئابية لدى النساء اللاتي يعانين اضطراب ما قبل انقطاع الحيض، ولدى النساء الحوامل اللاتي يعانين اكتئاب ما بعد الولادة... كما أشارت الأبحاث أن معدل السروتونين في المخ أعلى لدى جميع من توفوا في فصل الصيف عمن توفوا في فصل الشتاء».

3. كتب سيمون يونغ مراجعة شاملة لموضوع العلاقة بين التمرين الرياضي والحالة المزاجية»، و«خلص إلى أن الآثار المريحة للتمرين الرياضي كانت أشبه بمضادات الاكتئاب، كما أنها قللت من القلق».

4. هل يمكن أن نجد التربتوفان في المواد الغذائية المختلفة؟ تعد الحواجز بين المخ والدم من الخلايا التي تشكل بطانة حماية تحرس المخ من الدخلاء المحتملين، سواء كانوا من الدخلاء المفيدين أم من الضارين».

ويتنبأ يانج بأن إمكانية تحسين الصحة العقلية لعينة ما من خلال زيادة الحصة الغذائية التي تحتوي على التريبتوفان بالنسبة إلى الحصص الغذائية من الأحماض الأمينية الأخرى، لا تزال فكرة مثيرة للاهتمام، ويجب العمل على التوغل فيها.

وكما رأينا، توجد كثير من الفرص التي يمكن أن تسمح بزيادة إفراز المعدل العصبي المسمى السيروتينين بشكل طبيعي. وقد تؤدي هذه الزيادة كذلك إلى تحسن الحالة المزاجية. وبناءً عليه، يمكن أن تتكون دائرة من التأثير المتبادل توفر الفرصة لتحسين الحالة المزاجية؛ مما يؤدي إلى زيادة مستويات السيروتونين، ومعها زيادة القدرة على الانتظار.

إن تشكيلات خبرة الانتظار أكثر محدودية مما كنت أعتقد عندما بدأت برسم هذا البورتريه. حتى الآن، كان تركيزي الأساسي على الطريقة التي يعمل بها الانتظار في الدماغ، والشيء المذهل بحق في تجربة الانتظار هو أنه، بعيدًا عن كونها تجربة سلبية وغير فعالة يفضل التعامل معها باستخدام ساعات ضبط الوقت، إلا أنه يوجد علم عصبي ودماغي يختبئ خلفها. إن الانتظار من الخبرات المزروعة في جذور شخصية الحيوانات، وهي ليست مترسخة في الحالات المتعلقة بالوقت فحسب (مثل الوقوف في طابور)؛ بل في الجسم أيضًا. إن الانتظار الفعال هو ذلك النوع من الانتظار الذي لا ينطوي على انتظار الخوف والفزع، أو الانتظار الذي يزيد على حده. وعلى النقيض، يوجد نوع آخر من الانتظار، لا يزيد على ثانية واحدة، ثم يحدث الفعل مثل ومضة البرق. ينبغي للمخ أن يضع مقياسًا صحيحًا للانتظار، مستخدمًا إما الدوبامين وإما السيروتونين؛ ففي حالة الدوبامين، هناك درجة مؤكَّدة من المتعة متداخلة في الأمر، ملحقة بخبرة متعلمة من نوع ما (التنبؤ، ومكافأة الدوبامين، والتعلم). وفي حالة السيروتونين، يكشف

الانتظار عن نفسه على أنه شيء هادئ ومحايد. ولكن عندما يعتمد الانتظار على مستوى متوازن من الدوبامين أو السيروتونين، يبدو أن تجربة الانتظار تعمل كوسيط ذهبي يقع بين النقيضين اللذين ذكرتهما، الرعب والخوف، أو الفرحة النشطة. ولست أعتقد أنه يوجد من يعرف تمامًا كيفية تحقيق هذا المستوى المناسب من الدوبامين أو السيروتونين، أو قياسه، ولو قريبًا من المعدل التقريبي، غير أنك سوف تستطيع أن تميز الأوقات التي تشعر فيها أن المستوى المناسب من السيروتونين أو الدوبامين يقوم بمفعوله. كما سوف تستطيع أن تلاحظ الأوقات التي تفلت فيه الأمور وتبتعد مهارة الانتظار عن التحكم. ربما أفضل ما يمكننا قوله الآن- على الأقل إلى أن نعرف أكثر عن كيميائية المخ- أن الانتظار يسهل التفكير فيه كإحدى العواطف الوجدانية «الجديدة» New Emotions، مثل الفضول، أو الارتباك، أو القلق، أو العرفان بالجميل، أو الكبرياء، أو الكرامة[28]. ويبدو أن جميع العواطف تنقلب إلى نقمة إذا جنحت إلى مستويات متطرفة.

وللانتظار تركيبة كيميائية خاصة في المخ مثل باقي أنواع العواطف الأخرى. كما يمكن أن تصبح له مميزاته الواضحة أو الملاحظة مرئيًا مثل باقي العواطف الأخرى. ويمكن أن يكون للانتظار سيكولوجيته الخاصة به، مثل أنواع العواطف الأخرى، كما سبق أن أوردنا، وهذا يعطي تجربة الانتظار شكلًا عاطفيًا منفصلًا كأحد أنواع العواطف الحقيقية. والانتظار بالتأكيد له سمة العالمية في حياة البشر والحيوانات[29]، فماذا نستفيد من هذا الفهم؟

(28) بعض التقارير عن العواطف الجديدة نيوسايانتست، 5 ابريل 2017، هل العواطف الوجدانية لوحة مختلطة الألوان تبنى منذ سنوات الطفولة المبكرة؟، وكذلك هذا المقال أيضًا من نيوسايانتست، في العدد الصادر بتاريخ 13 يناير 2010 خمسة أنواع من العواطف الوجدانية التي لم تكن تعلم بوجودها لديك.

(29) إن ترتيب النظام العاطفي في المخ يتكون تكوينًا بطيئًا جدًا، ويبدو أنه مرتبط بالتفاعل بين الفص الأمامي قبل الجبهي في المخ وبعض المصادر المسؤولة عن إنتاج المشاعر الوجدانية في المخ، مثل

إن الانتظار، مثل جميع العواطف الأخرى، مفيد للمخلوقات من وجهة نظر تطورية. يمثل الانتظار عنصرًا من عناصر ذلك التكتل البشري المعقد الذي يمكن تجربته واستخدامه للخير أو للشر، تمامًا مثل جميع المشاعر الأخرى لو أننا سمحنا بتطبيق ذلك على الانتظار فإنه سوف يمكن أن نرى تطبيق الأفكار نفسها المتعلقة بالعواطف الأخرى، مثل الملل، والغيرة. يمكننا القول إن العواطف موجودة لتزويد المخلوقات بقدرات تتناسب مع التطور، لقد وُجدت لمساعدة المخلوقات على الازدهار في حياتهم اليومية وهكذا يمكن للانتظار أن يكون هادفًا، وهو كذلك بالفعل، أو من السهل إيجاد هدف للانتظار، إذا أمكننا إدارته إدارة متميزة، ولكن يمكن أن يتسبب الانتظار في ضرر- بالضبط كما هو الأمر بالنسبة إلى العواطف الأخرى- إذا لم نتمكن من التحكم فيه، حيث يمكن للانتظار- مثل باقي العواطف- أن يكون له وجه جيد، وآخر سيئ. ويمكن أن نجرب كلا المشهدين في سياق الحياة اليومية، ويمكن أن نرى أن الهدف هو توفير المساعدة. وبالفعل ساعد الانتظار ألان رابينوفيتس.

وبمناسبة الحديث عن ألان رابينوفيتس، ماذا حدث في النهاية بينه وبين ذلك الفهد القاطن في أدغال بليز؟ دعونا نسمع كلمات رابينوفيتش نفسه:

> لم يرفع الفهد عينيه عني قط. تذكرت الشعور الذي شعرت به وأنا أحدق في وجه الفهد قبل سنوات كثيرة عندما كنت طفلًا في

لوره المخ ونكتمل قدرات الفص الأمامي قبل الجبهي في المخ وإمكاناته بالشكل الذي يجعله قادرًا على أداء وظيفته ولو في وقت متأخر لدى البشر. ويبدو أننا ننتظر حتى تكون لدينا تلك القدرة من التحكم الذاتي التي يمكن أن تعبر عن نفسها من خلال الانتظار. ويمكننا تعلم الكثير عن ذلك النوع من الانتظار من خلال مقالة نيم توتنهام Nim Tottenham بعنوان: النمو العاطفي للمخ البشري، مجلة سيريبيوم، يوليو 2017. كما يوجد لدينا أيضًا مقالة جاي بانكسيب ول بيفن J. Panksepp & Biven L بعنوان: علوم تطور المخ البشري، التطور العصبي وأصوله في المشاعر الوجدانية البشرية، دابليو دابليو نورتون، 2012.

حديقة برونكس.. ما رأيته في عيني هذا الفهد اليوم لا يزيد على الوحشية والقوة. لقد انحنيت إلى الأمام قليلا، كما كان الأمر في كثير من الأحيان عندما كنت أقف بجانب ذلك القفص في حديقة الحيوان، وهمست: «لا بأس الآن»، ثم قلت: «كل شيء سيكون على ما يرام».

وهذا ما كان بالفعل. كان الانتظار من الأمور التي تعلمها آلان رابينوفيتس من خلال الشدائد التي مر بها في طفولته، ولكن تلك الدروس المستفادة من تلك الشدائد لم تتركه كشخص بالغ: لقد سمحت ذكريات الطفولة لرابينوفيتس أن يواجه هذا الفهد. لم يطلق آلان العنان لنفسه، بل انتظر ثم همس، وبذلك رحل الفهد وترك آلان- الأكثر شبهًا بإنديانا جونز- وحده، وعاد كل منهما إلى بيته، ليأكلا عشاءً منفصلًا بدلًا من أن يتشاركا في طعام العشاء في تلك الليلة. أتساءل: هل يمكننا الاستفادة من المزايا نفسها التي تمتع بها رابينوفيتس إذا تمكنا من الانتظار مثلما فعل؟ ومن أين يمكن أن تأتي الاستفادة؟ بالتأكيد لن تكون من الفهود، ولكن في حياتنا اليومية. ربما كما كنت أقترح للتو، يمكن أن تأتينا الاستفادة من الانتظار من خلال اكتساب ميزة تطورية يمكن الحصول عليها عندما تتطور لدينا القدرة على الانتظار، ولكن كيف يمكن أن يكون الانتظار في ذاته من الأفكار التطورية الجيدة في حياتنا اليومية، وهو شيء لم نختبره بعد؟ سوف أتحدث عن هذا الأمر في الفصل التالي. سوف تكون بؤرة التركيز على الأزواج، وعلى الانتظار، بما أن هؤلاء الأزواج هم من يربطون الأسرة، وعلاقتهم بالأولاد، وعلاقة ذلك بأصدقائهم. وبحسب ما يحدث من تطور، لا يمكنك الحصول على تجارب أساسية أكثر من تلك. يساعدنا تكوين الأسر على حماية الشباب، والشباب بدوره يحمي بقاء النوع، ويوفر الأصدقاء شبكات من الوقاية لكل من العائلات والأطفال. سأحاول أن أوضح من خلال السياق التالي أهمية

أزواج

الانتظار لهذا النوع من العلاقات. وسنرى- مرة أخرى- أهمية السروتونين بالنسبة إلى الانتظار. والإمكانات التي يمكن أن تتوافر بالنسبة إلى هذه العلاقات. وسوف نرى كيف تتمركز قرود الفرفيتي vervet monkey في قلب الأمور. إنها القردة؟

3

زوجة سينف، الحمّال، في المخاض

الولادة، والصداقة، والزواج، والانتظار

هذا المشهد يحدث في أحد أفضل فنادق العاصمة، جراند أوتيل وقد جرى هذا الحديث المتبادل عام 1929.

«إنك لم تستغرق وقتًا طويلًا في المكالمة، أكان هذا كل شيء؟»، هكذا كان سؤال عامل الهاتف المسؤول عن لوحة مفاتيح خطوط الهاتف، واضعًا السماعات على أذنيه، وفي يديه مفاتيح ومقابس حمراء وخضراء.

«لقد أخذوا زوجتي فجأة إلى المستشفى.. لقد أخبروني أن العملية قد بدأت وأنا لا أعرف معنى ذلك. لقد قالت لي إنها على وشك أن تلد لكن يا إلهي! لا يمكن أن يكون الأمر قد وصل إلى ذلك الحد في هذا التوقيت».

لقد كان عامل الهاتف شبه مُصغيًا إلى الحديث. وكانت لديه مكالمة يجب توصيلها، ثم قال: «حسنًا، لا تقلق سيد سينف، سوف تُرزق بمولود سعيد في الصباح الباكر».

السيد سينف الشاب ذو الشعر الأشقر هو رئيس الحمالين في قاعة الاستقبال في فندق جراند هوتيل برلين. في تلك الأيام، إن كنت زوجًا جيدًا، وأبًا صالحًا، فلا وقت لديه للراحة، خاصة وهو يعمل في فندق كبير حيث لا يُسمح للآباء إذا تمكنوا من حضور الولادة بأن يتجاوزوا غرف الانتظار في المستشفى، حتى إنهم قد يسمحون لك بتدخين سيجارة، أو سيجارًا احتفاليًا إلى جانب فنجان من القهوة عند الانتظار في الاستراحة

وهذا هو كل ما في الأمر. وقال عامل الهاتف: «بالضبط، وعندما يولد الطفل سوف أتصل بك في الاستراحة»، بدون تفكير، وواصل إجراء مكالماته. غادر الحارس، ممررًا أصابعه في خصلات شعره بعد أن نزع غطاء رأسه، ولقد فعل ذلك بدون وعي لأن زوجته قد نقلت إلى المستشفى وهي على وشك ولادة طفله. ثم زفر بعمق، ومرر يديه خلال شعره مرة أخرى، ثم فوجئ بأن يديه مبتلتان، لكن لا وقت لغسل اليدين الآن. وعلى العموم، لا يمكن أن يختل روتين الفندق لأن زوجة الحارس سينف تضع طفلها اليوم

سوف ينتظر السيد سينف وقتًا طويلًا، ولا يبدو أن أحدًا مهتم بالأمر، حيث لا يبدو أن للصداقة رصيدًا كبيرًا هنا، خاصةً إذا كنت تعمل في فندق جراند أوتيل. سنلتقي السيد سينف مرة أخرى بعد انتهاء مناوبته.

ها قد أتى رئيس الحمالين المختص بالنوبة المسائية نحو الحادية عشرة ليحصل السيد سينف على راحة، وانطلق- شارد العقل قليلًا- إلى المستشفى وهو في حالة من القلق، إلى درجة أن أسنانه كانت تصطك في فزع وعند وصوله إلى هناك منعته إحدى الممرضات من الدخول، وأعادته إلى المنزل ولم تكن مرحبة به على الإطلاق بعد أن أخبرته أن الأمر سيستغرق أربعًا وعشرين ساعة حتى يولد الطفل، ولكن هذا بالطبع كان شأنًا خاصًا به، ولم تكن له علاقة بالفندق.

يبدو أن الأمر سوف ينطوي على انتظار طويل ومقلق. هل سيكون الطفل على ما يرام؟ هل ستكون الأم على ما يرام؟ عندما يتعلق الأمر بالأطفال والزوجات فربما تكون هذه أكثر خبرات الانتظار ألمًا . وهذا هو ما يمر به السيد سينف الآن. بهذه الطريقة المتلهفة والمتواضعة يعد السيد سينف نموذجًا للوالد والزوج حسن النية. بالرغم من فشله أحيانًا في تحقيق الهدف. بالتأكيد تمر قدرته على الانتظار باختبار حقيقي الآن. ولكن رغبته في بذل قصارى جهده لن تتحقق من خلال الجلوس وانتظار زوجته وطفله الصغير.

هكذا ظنت فيكي بوم Vicki Baum أيضًا. ويمكننا التعرف أكثر إلى السيد هول بورتر سينف في بداية روايتها «جراند أوتيل». الصادرة عام 1929. وهي في مجملها تتعلق بموضوع الانتظار بالدرجة الأولى. وتتضمن كلتا النسختين، الجيّدة والسيّئة. وهناك السيدة جروسينسكايا Grusinskaya. وهي راقصة باليه سابقة شهيرة، ولكنها أصبحت كبيرة في السن. وتنتظر عودتها للشهرة مرة أخرى. الفاتنة غريتا غربو Greta Garbo في الشكل (رقم 3-1) تؤدي دور راقصة الباليه في فيلم «جراند أوتيل». المعروض عام 1932. والحاصل على جائزة الأوسكار. وهو فيلم مقتبس عن الكتاب الأصلي. ولكن السيدة غروسنسكا لا تتقن الانتظار على الإطلاق[1]. «أريد أن أكون بمفردي»، أو كما تقول في الفيلم. يبدو أن جريتا غاربو تشبه نماذج الانتظار في العالم كما لو كنا نتخيل تلك السيدة مدربة راقصة الباليه المنتظرة لدى بورتريه ديجاس

(1) نُشر كتاب «جراند أوتيل» في إنجلترا خلال عامي (1930-1931) بعد نقله من الكتاب الأصلي المكتوب والصادر باللغة الألمانية بعنوان «Menschen im hotel» وقد تم تصوير الفيلم القائم على هذه الرواية وإنتاجه عام 1945 بعنوان «الإجازة الأسبوعية في فندق والدورف». وكذلك تم إنتاجه للمسرح الموسيقي بالعنوان نفسه عام 1989. ولكن سبق أن أُنتجت هذه الرواية للمسرح في مسرحية أخرى لم تلق رواجًا مساويًا لتلك التي أنتجت في الثمانينيات، وكانت بعنوان «الفندق الكبير»، وذلك عام 1958



الشكل (3-1) الانتظار holding on. الممثلة غريتا غربو في دور السيدة جروسينسكايا، من فيلم جراند أوتيل، عام 1932، صورة مأخوذة من إحدى الصحف الألمانية

باستيل. فهي تنتظر الفرصة للتألق مرة أخرى كراقصة باليه محترفة تحاول إعادة أيام المجد، وتمني نفسها بالأمل والتوقعات. أم أن هذه هي راقصة الباليه الشابة التي تقدمت في السن؟ ما الذي يمكن أن تنتظره وهي تستلقي على الأرض في تنورتها المذهلة تلك؟

سأعود مرة أخرى إلى السيد سينف، ونترك أمر سيدة جروسينسكايا قليلًا حاليًا. أود أن أنتقل بعيدًا عن برلين، وأعود مباشرة إلى الغابة ولكن هذه المرة ليس إلى بليز، بل إلى تلك الأدغال التي تعيش فيها قرود الميرفيت تمامًا مثل السيد سينف، فإن قرود الفيرفيت تألف الانتظار ولا تمله بسرعة كما أنها تعلمنا الكثير عن الزواج وتربية الأطفال، وليس الحياة في الفنادق في ألمانيا في أثناء فترة حكم جمهورية الفايمر الألمانية هذا لأن قرود الميرفيت، تمامًا مثل هول بورتر، تهتم كثيرًا بعائلاتها وأصدقائها. إنها من

الكائنات التي تألف الحياة الاجتماعية، وفضائل التفاعل، والانتساب إلى العائلة.

يصعب ألا تشعر بالإعجاب بالسيد هول بورتر سينف، إذا كنت من محبي القرود، أو قرود الفيرفيت تحديدًا، حيث إن تكوينها ليس مثل تكوين السيد سينف، ولكنها صغيرة الحجم بشكل جذاب؛ فحجمها لا يزيد على نحو 20 بوصة (للذكور) إلى نحو 16 بوصة (للإناث)، ولها وجوه، وآذان، وأيادٍ، وأقدام سوداء بشكل أنيق، حتى أطراف أذيالها سوداء اللون. ويوجد زغب (أطراف ناعمة من الشعر) من الشعر التركوازي اللون عند أعضائها التناسلية؛ مما يسهل التفرقة بين ذكورها وإناثها[2]. حيث إن شعر أجسادها يتلون باللون الرمادي، وهذه الحيوانات الصغيرة الودودة هي في الغالب نباتية النشأة. ولا يمكن أن تتسبب قرود الفيرفيت في أي أذى لأي كائن[3]، حتى عندما تتناول كمية كبيرة من الكحوليات التي تعشقها. وتسكن تلك القرود المولعة بالخمور في الغالب في جنوب إفريقيا، غير أنها تكثر أيضًا في الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية (حيث تعودت تناول الخمور على ما أعتقد)، إلى جانب انتشارها في جزر الكاريبي، وجزيرة إسينشين، وكيب فيردي (الرأس الأخضر). يبدو أن قرود الفيرفيت تستطيع أن تكون من الحيوانات الأليفة المثالية في المنزل، ولكنني لا أعلم إذا كان ذلك الأمر منتشرًا كثيرًا أم لا. فمثل التجمعات البشرية، يعيش هذا النوع من القردة في مجموعة اجتماعيّة. غير أنّ مجموعتها كبيرة، يتراوح عدد أفرادها ما بين 10 إلى 50،

(2) على ويكيبيديا يمكننا أن نجد بعض المعلومات المتاحة عن قرود الفيرفيت. ولقد لجأت إلى بعضها ويوجد كثير من المواقع على الإنترنت عن قرود الفيرفيت من بين موضوعات أخرى، مثل «حقائق عن قرود الفيرفيت/ دليل الحياة البرية في جنوب أفريقيا»، و«صور عن الحياة البرية على الإنترنت معلومات عن قرود الفيرفيت»

(3) يمكنك أن تشاهد منظر قرود الفيرفيت تعبر عن فرحتها عند تناول الخمور على موقع يوتيوب إنه من السهل العثور على هذا المشهد بالرغم من قساوته.

أو هكذا قرأت. إن قرود الفيرفيت تفتقد أفراد عائلاتها وأخواتها إذا وقعت في الأسر، وتميل إلى الإحساس بالحزن كما يمكن أن تصبح ضحايا لارتفاع ضغط الدم والقلق، مثلي تماما. يقال إنها داخل فرقها تتواصل بنشاط، ويتصل بعضها ببعض، كما قرأت، عن طريق النقيق والصراخ. لا تحاول قرود الفيرفيت الصراخ بصوت عالٍ إلا في حالات الخطر.

عندما يتعلق الأمر بالزواج والأطفال، والصداقة، وقرود الفيرفيت، فإن القدرة على استغلال تجربة الانتظار سوف تكتسب قوة جيدة جدًا تبين أنها مهمة جدًا. هذه هي الفكرة التي سأحاول شرحها وهي فكرة واحدة بسيطة: بالنسبة إلى الزواج، وانتظار أطفال، والصداقة، فربما لن تبقى مع شريكاتك، أو أطفالك، أو أصدقائك، إن لم تحصل على التمرين المناسب على هذه الأمور، وتكتسب الخبرة. الغريب في الأمر أنه في حالة الفيرفيت، لا يبدو أن هذه الممارسة تعتمد على الشريك، أو الطفل، أو الصديق المحدد، حيث تتوافر من خلال المجتمع كله، ومن خلال عادات المجتمع الذي تعيش فيه القرود. هكذا هي الحال بالنسبة لقرود الفيرفيت المخلصين للعائلة، خاصة مع صغارهم. إنهم قلقون على صغارهم، هؤلاء الفيرفيت، تمامًا مثل هول بورتر. فالإناث تحمل قبل الولادة بفترة طويلة، وهي تعتني بصغارها بعد الولادة لفترات طويلة. في نصف الكرة الجنوبي، تتكاثر الفيرفيت من أبريل إلى يونيو، ويستغرق حملها خمسة أشهر ونصف الشهر. تنتهي هذه المدة بولادة صغير واحد وردي الوجه، وأسود الفراء، وترضع صغار الفيرفيت لفترة نحو أربعة أشهر[4]، وربما تمتد عملية الفطام طويلا حتى سنة كاملة، وهذه مدة طويلة من الانتظار حتى بالنسبة إلى البشر. وتلتصق أمهات قرود الفيرفيت بصغارها مثل التصاق البشر بأطفالهم. بعضها لن

(4) معلومات عن الحياة الاجتماعية لقرود الفيرفيت: «شبكة المعلومات عن هذه الرئيسيات، خدمة المكتبة والاستعلامات، المركز الوطني للمعلومات عن الرئيسيات، جامعة ميسكونسن، ماديسون: قرود الفيرفيت».

يسمح للإناث الشابات، أو حتى الإناث البالغات الأخريات، بالاقتراب من الصغار أو حملها، غير أن بعضها تشجع التفاعل مع الآخرين، ومع صغارها. ترتبط قرود الفيرفيت كثيرًا بأطفالها، وهي المكون الأول للحيش المدافع عنها في حياتها القصيرة فيما بعد. ويبدو أن جميع هذه الروابط ترتبط بكل ما هو متاح في عملية الانتظار حيث تنتظر قرود الفيرفيت وتتحمل الكثير إلى أن تنضج أطفالها.

تتطلب مدة الحمل الطويلة والولادة صبرًا من قرود الفيرفيت في مجموعة ثابتة تشكل الإناث البالغات والإناث الشابات وصغارها القوام الرئيسي لعائلة الرئيسيات هذه. ويبدو أن الذكور لا يشغلون بالهم بالقطيع، فهم يأتون ويذهبون من وقت إلى اخر. تبقى الأطفال طوال حياتها داخل هذه الفرقة النسوية. ,يبدو أن المجموعة تتمحور حول أنثى واحدة بالغة. ويبدو الأمر للعالم كله مثل عائلة إكدال Ekdahl من أوبسالا Uppsala في فيلم إنغمار بيرغان Ingmar Bergan عام 1982 «فاني وألكسندر» Fanny and Alexander (هل تذكر جيني ديدييه؟ كانت تؤدي دور فاني). واحدة من أهم الطرائق التي يتم من خلالها تحقيق الاستقرار في الجماعات الفيرفيتية هي من خلال ما يسمى الاستمالة التابعة affiliate grooming (التي ستصبح قريبًا تفاعلًا تابعًا affiliative interaction). وهذه هي بالضبط الطريقة التي يزود بها المجتمع القرود بقدرتها المثيرة للإعجاب مع الصغار والصداقة، حيث قدمت تلك الممارسة أغرب عادة تقوم بها القرود، مثل تنظيف فرو قرد آخر ضمن المجموعة[6] ويُقال إن قرود الفيرفيت تمضي ساعات يوميًا منتظرة بعضها حول بعض في حلقة لتمارس هذه العادة الغريبة من تمشيط شعر بعضها بعضًا. إنها تعيد تحريك الوحل والكائنات

(٦) درام سيفارث ودي ال تشيني «التزاوج والتحالفات والإيثار المتبادل لدى قرود الفيرفيت»، مجلة ناتشار، العدد رقم 308، 1984

الزاحفة على أجسادها– وإزالة أي شيء قد يفسد فروها الوسيم. يبدو أن ممارسة تلك الاستمالة التابعة التي تنطوي على كثير من الانتظار من العادات المحببة التي تشجع على الهدوء والولاء. والأمر الأكثر من مفاجئ لنا هو أن هذه العادة تقلل من السلوك الاندفاعي لدى قرود الفيرفيت، وهي عادة مفيدة في برلين، كما هي مفيدة في الرأس الأخضر، أو في أوبسالا. كذلك تعكس السلوكيات الاجتماعية Grooming (مثل التفلية) الحالة الاجتماعية، والمركز الاجتماعي، والتسلسل المتدرج للمركز الاجتماعي داخل الجماعة. ولكن الأكثر أهمية في هذا الأمر هو أنه سلوك مرتبط- إلى حد بعيد- بإنتاج السيروتونين الكيميائي العصبي. وأوضح إم. جاي. رالي M. J. Raleigh وفريقه البحثي، في ثمانينيات القرن الماضي، أن الاستقرار داخل جماعة قرود الفيرفيت كان مرتبطًا بالمستويات المرتفعة من إفرازات السيروتونين، وأن هذا الاستقرار يمكن أن ينخفض بالانخفاض الاصطناعي لإفرازات السيروتونين[6]. ولقد كانت السلوكيات الاجتماعية في ذلك الوقت أقل انتشارًا. يبدو أن القردة تكون أكثر سعادة وهي في انتظار تفلية وتنظيف فرائها، وكلما زاد الانتظار أصبحت أكثر قدرة على الانتظار، وهذا هو ما تحتاج إليه القرود حتى تتمكن من رعاية أطفالها على المدى البعيد، وذلك ينطبق أيضًا على الجماعات الصديقة التي سوف تتولى الاعتناء بالصغار. إنها تلك الدائرة الحميدة virtuous circle مرة أخرى

وكلما زادت السلوكيات الاجتماعية التي ينفذها القرد كان مستوى السيروتونين أكثر إرضاءً. وتحفز عملية التفلية إفرازات السيروتونين؛ مما ينمي القدرة على التحكم في السلوك الاندفاعي، والقدرة على تقديم

(6) إم جي رالي M J Raleigh وجي ال برامر G L Brammer، و ي يوبلار A Yuwiler واخرون، « Serotonergic Influences on the Social Behavior of Vervet Monkeys »، علم المخ والأعصاب التجريبي، 68 (2)، 1980.

سلوكيات الصبر، وإدارة خبرة الانتظار بطريقة يمكن أن يستفيد منها كل من الأفراد والجماعة على حد سواء. وتأثير السلوكيات الاجتماعية مثل التفلية يعمل في اتجاهين، وقد يفاجئنا ذلك: فبينما يستفيد القرد المفلَّى، فإن القرد القائم بعملية التملية يستفيد أيضًا. لقد توصل فريق بحث ياباني، عمل على جماعة من قرود الماكاك اليابانية الشبيهة بقرود الفيرفيت، إلى نتيجة أن معدلات القلق تنخفض عند تفلية بعض القرود بعضًا[7] وكان فريق البحث الياباني بقيادة إم. وينو M. Ueno، وكاي يامادا K. Yamada، وإم. ناكاميشي M. Nakamichi وبينما تنخفض معدلات القلق يمكن توقع ارتفاع معدلات السيروتونين. إن تفلية أفراد المجتمع بعضهم بعضًا تعد من الهدايا لمن يفلي ومن يتعرض للتفلية على وجه السواء. إن هذا الفريق الياباني يصر على أن يربط بين الانخفاض الوثيق في معدلات القلق بالمعدلات المفيدة من إفرازات السيروتونين. ويمكننا أن نرى بسهولة كيف أن هذه القدرة على الانتظار. وهذا التقليل من معدل القلق يفيد المجموعة يبدو أن فرصة الاستقرار التي تتاح بفضل التفلية الجماعية. وما ينتج عنها من زيادة في إفراز السيروتونين ينتج عنها عالم آمن جدًا، بحيث يتمكن الفيرفيت الصغير من التعامل معه.

إن التفلية الجماعية تؤثر في هذه القرود بشكل يتجاوز مجرد تحويلها إلى مخلوقات هادئة ومخلصة وحذرة من السلوك المتهور. ويبدو أيضًا أنه يجعل قرود الفيرفيت مخلصة لمجموعاتها ولأطفالها خلال مدة حمل الأطفال وتنشئتهم كما يحفز إفراز السيروتونين والمعدلات العصبية الأخرى، ومن خلال ذلك تتطور القدرة على استغلال الانتظار والاستفادة منه. تساعد التفلية الجماعية قرود الفيرفيت على اكتساب المهارات المطلوبة على المدى

(7) الحالات الوجدانية بعد وقائع التزاوج لدى قرود الماكاك. مجلة علم النفس المقارن، 9، 129 (4)، 2015

البعيد حتى تتمكن من ضبط مرحلة الطفولة. ويبدو أن عملية التفلية وافرازات السيروتونين الناتجة عنها هي زيوت التشحيم اللازمة لتسهيل حركة آلية مجتمع قرود الفيرفيت. فهي تساعد على التزاوج والحفاظ على تماسك المجموعة، واستمرار التسلسل القيادي في المجتمع. ويبدو أنه ينتج عن ذلك عالم مسالم جدًّا، عالم ربما قد يرتاح إليه السيد سينف أكثر من أي وقت مضى في فندق جراند أوتيل في برلين. إنه عالم يرتاح كثيرًا إلى الانتظار، أو أنه عالم على الأقل أفضل في تحمل الانتظار من كثير من العوالم الأخرى. والآن، علينا أن نسأل أنفسنا السؤال التالي: كيف يتشابه هذا العالم مع عالم البشر؟ وماذا يحاول أن يقول فيما يتعلق بالزواج والصداقة والأطفال في عالم لبشر؟

والآن، إليكم جزءًا بسيطًا من الإجابة عن هذا السؤال. يوضح الشكل (3-2) لوحة بعنوان «أم تفلي طفلها» A Mother Delousing Her Child's Hair، وهي لوحة رُسمت في القرن السابع عشر، وتقدم إحساسًا واضحًا لبعض عناصر التفلية الجماعية كسلوك تعاوني واضح ومنتشر بين عالم قرود الفيرفيت. اللوحة لأم هولندية تمشط شعر ابنتها وتمحصه. في هذه الصورة، تزيل الأم قمل الرأس من شعر طفلتها الصغيرة بطريقة لا يمكن أن تكون مختلفة تمامًا عن تلك التي تستخدمها قرود الفيرفيت.

تحتاج تلك الأسرة المكونة من هذا الثنائي الواضح في الصورة، في هذه الغرفة من بيوت القرن السابع عشر إلى الانتظار. وذلك ينطبق- بشكل خاص- على الفتاة الصغيرة، التي ينعكس انتظارها العاطفي على هذا الجرو الصغير الهادىء الذي يبدو وكأنه ينتظر الخروج من الباب الخلفي نصف المفتوح حتى يستمتع بضوء الشمس المريح. كيف تمكنت الطفلة من الانتظار بهدوء شديد، وبهذا السكون البادي عليها؟ ربما تستمتع



الشكل رقم (3-2) التملية التعاونية بين البشر. بيتر دي هوتش (1629- 1684) Pieter de Hooch، تمشط شعر طفلتها. كما تُعرف اللوحة بعنوان بديل هو «واجب الأم» A Mother's Duty، بورتريه 1658-1660 لوحة زيت على كانافا. عرض 610 مللي× طول 525 مللي. متحف ريكز- أمستردام. على سبيل الإعارة من مدينة أمستردام (بعد وصية من مجموعة فان دير هوب) ولقد حصلنا على صورة للبورتريه بعد استئذان إدارة متحف ريكز

بالجلوس قريبًا جدًا إلى أمها. لكن عملية إزالة القمل من فروة الرأس لا يمكن أن تكون تجربة ممتعة على الاطلاق، فهي عملية مضجرة. ويمكن أن تتطلب كثيرًا من القرص والحكة، وقد تصبح مؤلمة. ويجب تكرارها كثيرًا كما لا يمكن أن تكون تلك التجربة ممتعة بالنسبة إلى الأم كذلك- إنه «الواجب» duty حسب العنوان البديل لهذه اللوحة. ويتركز العائد الطويل

الأجل لهذا الزوج نتيجة ممارسة هذا النوع من السلوكيات التعاونية في تعزيز الروابط الأسرية. لكن لا يمكن توقع أي مكافأة فورية نتيجة الانتظار في أثناء ممارسة السلوكيات التعاونية. إن تحمل هذا الموقف بذلك القدر من الثبات يتطلب مستويات عالية من إفرازات السيروتونين، وذلك الذي تحدثنا عنه مع قرود الفيرفيت.

إن السلوكيات الاجتماعية التي تنطوي على مساعدة الآخرين على الظهور بالمظهر اللائق رائجة في جميع الأسر. ولكن نظرًا إلى استحداث كثير من الأساليب المستخدمة في التحكم في مشكلة القمل، فربما لا تكون تلك النسخة من السلوك الاجتماعي التعاوني التي تنقلها لوحة هوتش غير منتشرة اليوم كما كانت منتشرة في القرن السابع عشر. وحتى حين يتطلب الأمر تفلية الآن، لا أعتقد أن الأمر يستغرق المدة نفسها التي كان يستغرقها من قبل في القرن السابع عشر.

ولكن الإحساس بالانتساب إلى كيان أكبر يؤدي دورًا مهمًا بين البشر، حتى إن لم يقترن بالتفلية، كما كان الأمر في زمن بيتر دي هوتش، وكما هو الأمر مع قرود الفيرفيت. في الوقت الحاضر، ربما سنتحدث عن السلوك التبعي affiliative behavior، بدلًا من الإسهاب في موضوع التفلية الجماعية المبالغ فيها. ما هو هذا السلوك التبعي؟ ربما يمكننا فهم السلوك التبعي لدى البشر بشكل أفضل من خلال ارتباطها بالصداقة. عندما ننظر إلى الصداقة فإن الانتظار البطيء، مثل الارتباط بين زوجين، والمرتبط بالمشاعر المدفوعة من السيروتونين، يصبح أكثر وضوحًا إذا نظرنا بتمعن في الصداقة. وسوف أركز هنا على العلاقة الواضحة بين الزواج والصداقة، بالرغم من تعرضها في كثير من الأحيان للإغفال، وهو ذلك النوع من الزواج الذي يستمتع به السيد هول بورتر الذي يعمل في فندق برلين جراند أوتيل.

إن الإعجاب والحب الرومانسي، اللذين عادة ما يصبحان أساس الزواج الحديث، أو حتى أساس استمراره، يرتكزان على زيادة عابرة ومفاجئة في معدل الدوبامين.

أعدت لورن برانت Lauren Brent، وهي باحثة وعالمة أحياء شابة، لها أعمال كثيرة في جامعة إيسيكس، لدراسة سلوك الحيوان في المملكة المتحدة، بالاشتراك مع فريق عمل من الجامعة، ونشرت ورقة بحث رائعة بعنوان محير «علم السلوك العصبي للصداقة The Neuro-ethology of Friendship»[8] ولعملها دور كبير بشأن طبيعة السلوك التبعي. وفي أنواع الصداقات التي قد تنشأ بين البشر. مثل ذلك الثنائي المرسوم في لوحة بيتر دي هوتش، ولدى الحيوانات أيضًا، مثل قرود الفيرفيت. وتوصح تلك الورقة الكثير عن أهمية الانتظار في الصداقة، وذلك مع أن ذلك الأمر عرضي فقط في أبحاثها ولقد وجدت التعريف الأولي للصداقة الدي قدمه الدكتور برنت مفيدًا جدًا ويسهل لنا التعريف الذي قدمته للصداقة فهم نوع الصداقة بين قرود الفيرفيت، لكنه يسهل أكثر بكثير فهمنا للصداقة التي تتكون لدى بيتر دي هوتش والسيد سينف. كما أنه يسهل من فهم الانتظار والزواج والإنجاب في عالم قرود الفيرفيت إن التعريف الدي قدمته برنت وفريقها تعريف نمطي طاهري phenotypical. ومعنى هذا الوصف أن ذلك التعريف الذي ساقوه للصداقة ليس على أساس ما يمكن أن يشعر به الأصدقاء، بل على أساس الخصائص أو المميزات الملحوظة على المخلوقات التي تدعي وحود صداقة فيما بينها. لذلك فإن تعريفهم لا يستند إلى ملاحظة

(8) لورن بريت Lauren Brent واحرون، The Neuroethology of Friendship، حوليات أكاديمية نيويورك للعلوم، 1316، 2016. وأيضًا ار اي دوبوي R A Depue، وجي في ماروب J V Morrone، « A Neurobehavioral Model of Affiliative Bonding Implications for Conceptualizing a Human Trait of Affiliation»، علوم السلوك المخي، 28 (3)، 2005.

واضحة لمثل هذا النوع من الصداقة التي لا يمكن وصفها أو تسجيلها مع أنها حقيقية بما يكفي. ومن أهم علامات الصداقة التي لا يمكن ملاحظتها: العاطفة، أو الاحترام، أو المعاملة بالمثل، بل يقوم على أساس الخصائص التي تظهر على المخلوقات التي تبحث عن شراكة من نوع ما فيما بينها. يبدو أن الوصف النمطي الظاهري للوران برنت ينطبق أيضًا على الحيوانات، كما هي الحال بالنسبة للبشر، بالرغم من عدم المبالغة في الاهتمام بعادات التفلية التي تنتشر في عالم قرود الفيرفيت.

وتلك هي الطريقة التي عرفت بها لورين برنت الصداقة؛ فالأصدقاء هم «أزواج من الأفراد الذين يتشاركون في تفاعلاتهم التبعية الثنائية (غير عدوانية وغير منتجة لاستفادة) non-aggressive and non-reproductive بشكل من التكرار والاتساق يميزهم عن غيرهم. حيث ينخرط الأصدقاء في التفاعلات التعاونية أكثر من غيرهم، وعلى فترات زمنية متباعدة. وبالنسبة لي، فإن الجزء الأكثر إثارة في هذا التعريف المقدم عن الصداقة هو كيفية التعامل مع الانتماء. حيث تؤكد لنا برانت أن «الانتساب إلى شيء ما قد يتضمن تمضية بعض الوقت مع بعض الناس، وفي أثناء هذا الوقت يمكن القيام ببعض الأنشطة، مثل الكلام، والحديث، أو حتى التفلية (لا سبيل إلى نسيان أمر قرود الفيرفيت الفاتنة)، أو التجمع، أو المشاركة في تناول بعض أنواع الطعام، إلى جانب تكوين تحالفات ضد آخرين». بالنسبة لي، تعد الجلسة التعاونية ومشاركة الطعام من أهم العادات القديمة التي كانت تتم بين التجمعات، حتى غير البشرية منها وبالطبع، ربما تتطلب عادة المشاركة في تناول الطعام والتسوق معًا، أو الطبخ معًا، لم لا؟ ولكن ربما- وربما الاحتمال الأكثر أهمية- قد يستتبع ذلك أيضًا، بالنسبة إلى البشر، العمل معًا. ويعد مكان العمل هو الأساس لكثير من الصداقات طويلة الأجل.

و«تشكيل تحالفات ضد الآخرين». وهذا جانب من جوانب الصداقة نميل إلى تجاهله. ربما على المستوى الديني ولكن من واقع خبرتي. فإن ذلك يقع في قلب الصداقة في السراء أو الضراء. إننا جميعًا، من واقع خبرتي أيضًا، نحب أن نخطط. وأهم من ذلك أننا نعتمد على أصدقائنا للحصول على الحماية من أولئك الذين يتآمرون علينا. لا سيما عندما نتقدم في العمل ويتابع برنت وزملاؤها: «إن التفاعلات الودية بين الأصدقاء غير منتجة بحيث يمكن أن تشمل الجنس الذي لا يستهدف التكاثر، كما هو الحال مع قرود سلالة البونوبو». لقد كانت تلك معلومة جديدة بالنسبة لي، أن أحد سلالات الشمبانزي من البونوبو تمارس الجنس بدون أن تستهدف إنجاب أطفال، تمامًا مثل البشر (والجميع يفعل ذلك، فليس كل البشر المتزوجون، أو المنخرطون في علاقات عاطفية ورومانسية مع الجنس الآخر، يستهدفون إنجاب الأطفال عند ممارسة الجنس). إن الخط الفاصل بين ممارسة العلاقة الجنسية القائمة على الصداقة وتلك التي أساسها الحب غير واضح إلى الحد الذي يجعله تقريبًا بلا معنى. دعنا فقط نلتزم بموضوع الصداقة. وهكذا يبدو الأمر بالنسبة إلى الباحثة برنت وفريقها، حيث يعتقدون «أننا ندرك أن ممارسة الجنس بهدف إنجاب الأطفال، وممارسته لأسباب غير إنجابية بين المخلوقات المتغايرة الجنس، يصعب تمييزها في الممارسة العملية». وهذا ما قلناه سلفًا. إذا كان الهدف الوحيد من ممارسة الجنس هو إنجابيًا صرفًا، فربما في هذه اللحظة سوف تسقط جميع الكائنات في حفرة مملة من اللامبالاة. مع أنه ليس للحيوانات بالضرورة أن تشعر بهذا («عند تفاعل الذكور والإناث ليس بالضرورة أن تكون الأنثى منفتحة جنسيًا وليس بالضرورة أن يكونوا أصدقاء»). تختتم برنت وزملاؤها تعريفهم باقتراح: «إذا اشترك طرفا الممارسة الجنسية في عمل تعاوني باستمرار فهم أصدقاء» (وبهذا التعريف، يمكن أن نفهم أن الأزواج غالبًا ما يكونون

أصدقاء، وهو ما يتناسب مع الحكمة الشعبية التي مفادها أن الأزواج يجب أن يكونوا أفضل الأصدقاء لبعضهم بعضًا) وأحب أن أضيف حجرًا أخيرًا إلى هرم الحكمة الذي شيدته برانت عن الصداقة يمكن للأقارب الانخراط في تماعلات تبعية ثنائية الاتجاه بنفس طريقة غير الأقارب، فقد يكون أشقاؤك بالتأكيد أفضل أصدقائك الظاهريين التقليديين. إذا قُدر لهذا أن يحدث، سواء أكان صديقك قريبًا لك أم غير قريب، فإنه سوف يتعين عليك قضاء كثير من الوقت معهم في التسكع والانتظار مع مرور الوقت، والتحدث، وتحسين الصورة الاجتماعية الظاهرية (التفلية)، والتجمع مرة أخرى، وتناول الطعام، وتشكيل تحالفات ضد المنافسين المشتركين

هل يمكننا أن نعتبر جميع تلك الأنماط الظاهرية من التسكع تشجيعًا على إفراز السيروتونين؟ هل للسيروتونين، وكذلك الانتظار، دور في الصداقة الإنسانية. هل تتحفز إفرازات السيروتونين من خلال التفاعل البشري التبعي كما كانت تتحفز من خلال السلوكيات التعاوبية بين أفراد جماعة قرود الفيرفيت؟ لا تعتقد لورين برانت وجود دليل تجريبي قاطع على هذا حتى الآن. وتؤكد: «إننا لم نتمكن بعد من فهم العمليات الجزيئية الكامنة التي قد تؤدي إلى الربط بين السيروتونين والعلاقات الاجتماعية بالشكل الكافي، وسوف يتطلب الأمر بذل جهود بحثية متضافرة في المستقبل لفك هذا التشابك». أما دومينيك شوبي، الأقل حذرًا، فهو عالم متخصص في علم النفس، تابع لجامعة فريبورغ، يؤكد أن البيانات التجريبية التي جمعها فريقه البحثي في السابق تدعم «الادعاء بأن نظام إفراز السيروتونين يؤثر في الاستجابات العاطفية للمحفزات الاجتماعية»[9]، وهذا في البشر. حتى المتشككة لورين برانت تلاحظ أن:

(9) دومينيك شوبي وآخرون «Genetic Moderation of Sensitivity to Positive and Negative Affect in Marriage»، إيموشن، 12 (2)، 2012.

«لقد كان كثير من العمل على سروتونين- من ناحية أخرى- مقتصرًا على المستوى النمطي الظاهري. لاستكشاف العلاقة بين السروتونين والسلوكيات الاجتماعية. تشير غالبية الأبحاث التي تناولت السيروتونين إلى الروابط بين ذلك العنصر المنتسب إلى المعدلات العصبية والمدخلات الحسية، بما في ذلك المحفزات الاجتماعية وقد أدى ذلك إلى افتراض أن السيروتونين له تأثير يعمل على تعديل كيفية إدراك الأفراد للمعلومات الاجتماعية وطريقة الاستجابة لها».

هناك أمر آخر، غير أنه يبدو أن التفاعل الاجتماعي التعاوني هو بالنسبة إلى أزواج البشر المتقاربين، منفذ لتحصيل مستويات مفيدة من السروتونين ثم العكس بالعكس، يساعد السيروتونين المتزايد على أداء وظيفة التعاون التابع وتتضح جميع هذه الأمور وتتجلى من خلال الانتظار.

ويمكننا أن نعتبر أن ذلك الانتظار هو نوع القلق الذي كان يعيشه هول بورتر سينف، ولكن ذلك الخوف المدفوع بالحب لزوجته وطفله الذي سيولد قريبًا يعد من التفاعلات التعاونية وهذا الانتظار والقلق الذي يعيشه سينف، وصداقته الحميمة مع أسرته، يعدان مادة تشحيم حيوية داخل ماكينة الحياة الزوجية. توجد أسباب كافية ترجح أن السيروتونين له تأثير مسبب للتشجيع على الانتظار، وهذا ما يدفع سينف إلى هذه التصرفات. كما أن هذا النوع من سلوك الانتظار له أهمية لاستقرار الحياة الزوجية لدى الإنسان، إلى جانب تدعيم قدرته على القيام بمسؤولياته الأبوية بشكل ما، يشبه أهميتها بالنسبة إلى قرود الميرفيت. بدون السيروتونين يمكننا أن نتخيل كيف يمكن أن تصبح عملية الانتظار، حتى عقد الزواج، والانتظار في أثناء الزواج، وانتظار ولادة الأطفال، شكلًا من أشكال التعذيب. ويبدو

أن الزواج (وليس بالضرورة أن تكون كلمة «الزواج» هنا بمعنى ذلك الزواج الرسمي أو الديني بين جنسين أو بين شخصين، بل أن يقترن زوجان أحدهما بالآخر مدة طويلة) يؤدي دورًا معينًا كأحد أشكال التفاعلات الاجتماعية. إنه معزز، ويمتاز بانتظار حميد

يقدم لنا سبنسر ترايسي Spencer Tracy، الممثل الفائز مرتين بجائزة الأوسكار لأحسن ممثل، مثالًا واقعيًا يمكن أن نعدّه دليلاً وعرضًا للأمور التي أحاول توضيحها هنا[10]. بدأ ترسي حياته المهنية في عالم الشهرة في هوليوود في العام نفسه تقريبًا الذي كان فيه هول بورتر سينف منتظرًا وصول طفله في برلين. وقد تزوج ترايسي من السيدة لويز تريدول، ثم اقترن اسمه فيما بعد بالممثلة العظيمة كاترين هيبورن. مما يُعد تعليقًا آخر على تجربة الانتظار في أثناء الاقتران بين الأزواج. تلك القصة عن هذا الثلاثي وأطفال ترايسي يمكن أن تخبرنا الكثير عن الانتظار ومعدلات السيروتونين، مما يجعلنا نفكر كثيرًا في الأمر. لكن قصتهم هي قصة تشمل قصة الزواج والانتظار مع الأقران على بعد بسيط من وجودهم بعضهم بجوار بعض، وهي قصة ربما لن يرغب السيد سينف في أن يفهمها. استمع إلى السيدة لويز تريدويل ترايسي عندما تتحدث هنا عن العشر سنوات ونصف السنة بعد أحداث فندق جراند أوتيل في برلين، حيث تقول عن زوجها نجم السينما: «لقد أخبرته مرارًا وتكرارًا أن يخرج مع الآخرين». «في بعض الأحيان كان يخرج مع بعض الفتيات اللواتي عمل معهن. وتابعت: «لم أمانع؛ لأنه كان دائمًا يخبرني عن جميع تلك الأمور». «لا أستطيع أن أقول بصدق إن سبنسر وأنا لا نزال يحب كل منا الآخر بعواطف جارفة». ولكني لا أعتقد أن

(10) للمزيد عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب جيمس كورتس بعنوان «Spencer Tracy: A Biography»، 2011. كاثرين ويتبورن Kathrine Whitbourne – ديلي ميل، 12 أكتوبر، 2011، تقدم تحبيصًا مميزًا لبعض المحتويات وبالطبع ويكيبيديا

هذا النوع من الحب يدوم أبدًا، و«لكن يأتي بدلًا منه فهم عميق، ورفقة صالحة، وإخلاص».

التقى سبنسر ترسي زوجته المستقبلية في أوائل مارس 1923. وانضمت لويز إلى لاعبي نادي ليونارد وود في وايت بلاينز، في نيويورك، في وظيفة قائدة المشجعات من الفتيات. ثم قابلت ترسي في الشركة نفسها. وكانا متزوجين بعد ذلك بفترة وجيزة جدًا في 12 سبتمبر 1923، في سينسيناتي، أوهايو. كان ترسي يبلغ من العمر 23 عامًا، وكان عمر تريدويل 27 سنة، ورزقا بطفلين، وُلد أولهما، جون، بعد تسعة أشهر تقريبًا من زواجهما. وعندما بلغ جون 10 أشهر من عمره، اكتشفت لويز أنه مصاب بصمم تام؛ فعندما صفعت باب حجرته القريب من سريره، فوجئت أن الصبي لم ينزعج. في صيف 1930، وفي السنة التي تم فيها إنتاج فيلم جراند هوتيل، ذهب سبنسر ترسي إلى هوليوود ليعمل على فيلمه الأول، ثم تبعه جون ولويز، في حين كان سبنسر منشغلًا بالتصوير. وفي رحلة العودة إلى نيويورك أصيب جون، البالغ من العمر ست سنوات الآن، بمرض شلل الأطفال. ويبدو في هذه اللحظة، أن ما بقي من الدوبامين الذي صدر من قبل في أوائل الحياة الزوجية بدأ في التلاشي ليُستبدل بالواجب، ومن يعرف، ربما بقدرة على الانتظار مدفوعة من خلال معدلات مرتفعة من السيروتونين. وبدا لي أن الانتظار كان مهمًا جدًا. فقد وُلدت طفلة ثانية، لويز «سوزي» تريدويل ترسي، وذلك في شهر يوليو 1932.

وبدأ سبنسر ترايسي المسيحي الكاثوليكي الروماني في مغامراته الجنسية، في الوقت الذي أصدرت فيه لويز تريدويل ترايسي مقالها المتعلق بالتفاهم والصحبة والتفاني، فتورط في سلسلة من الخيانات الجنسية مع ممثلات شهيرات- من بينهن على سبيل المثال لوريتا يونغ، وجوان كروفورد، وميرنا

لوي، وإنغريد بيرغمان، وجين تيرني، وكاثرين هيبورن. وبحلول أواخر الثلاثينيات كان سبنسر تريسي يقضي معظم أوقاته نزيلًا في الفنادق بدلاً من العودة إلى منزل الزوجية. يصعب علينا القول ما إذا كانت لويز تريدويل تريسي تقول الحقيقة عندما أشارت إلى «التفاهم العميق (deep understanding).. والتفاني والإخلاص» لكن يبدو أن كلماتها تصدح بالإخلاص، على الأقل من الجانب الخاص بها من رباط الزوجية. ومن يدري؟ ربما كان سبنسر تريسي ولويز تريدويل تريسي قد تشاركا بالفعل فيما يكفي من التفاعل ليجعلهما مستمرين في أي علاقة زواج طبيعي. سبنسر ترايسي لم يطلق زوجته قط. ظل منتظرًا. وبعد مرور نحو عقد على زواجهما، رد سبنسر ترايسي على شائعات عن انفصاله عن لويز بهذه الكيمية: «لو حدث هذا الأمر سيكون اللوم كله عليّ وحدي». «وما زلت أنا والسيدة ترايسي صديقين رائعين، وربما يؤدي العيش منفصلين فترة من الوقت إلى إعادة لم الشمل». بالتأكيد، فالانفصال المؤقت لم يؤدِ بالتأكيد إلى الانفصال الكلي.

وإذا شئنا الدقة، فهو لم يتركها قط، حيث لم يتوقف قط عن توفير الدعم المالي للسيدة لويز وللأطفال. وبالتأكيد، لا يليق أن نصف زواجهما بأنه مجرد تركيبة من أداء الواجب (من جانب سبنسر) والترقب (من جانب لويز). لو أنني أتقن المقامرة، لراهنت على أن كلمات (لويز تريدويل ترايسي) تصدح بالصدق.

ثم ظهرت كاثرين هيبورن في الصورة. عمل ترايسي وهيبورن معًا في أعمال مشتركة في عامي 1941 و1942 في فيلم «**امرأة العام**» *Woman of the Year*. وبدأ «زواجهما» الشهير في العام نفسه. استمع إلى رأي كاثرين هيبورن عند وصف لقائهما معًا: «أعتقد أنه لا يقاوم - كنت سأفعل أي شيء له، أي شيء باستثناء الزواج به». «كنت مستقلة تمامًا، ولم يكن لدي أي

نية للزواج». «أردت أن أقود حياتي بنفسي، والتجديف بزورقي إلى أي جهة أريد». كان بإمكان هيبورن الانتظار، وقد فعلت ذلك مدة 26 سنة. لقد كانوا أصدقاءً بالطريقة نفسها التي وصفته بها لورين برنت: لقد مارسا علاقة تضمنت ما يلي: «نقضي الوقت معًا، ونتحدث، ونتكلم ... اللقاء اليومي، يتعاونان في طبخ الطعام وتناول الوجبات، إلى جانب تكوين تحالفات ضد الآخرين». استمرت كاثرين هيبورن في إخلاصها لصديقها، وربما بدون أن تحصل على مكافأة من أي نوع- بخلاف هذه الصداقة. عندما بدأت صحة سبنسر ترايسي بالتأخر خلال الستينيات، انقطعت كاثرين هيبورن خمس سنوات عن عملها على الشاشة للانتظار والعناية به، حيث كان ترايسي، بالرغم من كونه رجلًا ما زال متزوجًا، كان له منزله الخاص في هذا الوقت، وقد انتقلت هيبورن للعيش معه في هذا البيت خلال تلك الفترة. وقد كانت هيبورن هناك في تاريخ 10 يونيو 1967، عندما توفي. وعندما سُئلت بعد وفاة ترايسي لماذا ارتبطت به بإحكام فترة طويلة، أجابت قائلة: «بصراحة، لا أعرف». «ولا يسعني إلا أن أقول إني لم أكن لأتركه أبدًا». يبدو أن كاثرين هيبورن كانت- في الواقع- أحد أعضاء أسرة قرود الفيرفيت. وكذلك سبنسر ترسي، ربما كان أكثر شبهًا بالسيد سينف أكثر مما كنا نتخيل

وبناءً على ذلك، يمكننا القول إن لويز تريدويل ترايسي كانت من أفضل الأعضاء في أسرة قرود الفيرفيت، كما أنها امرأة قد يكون التاريخ أكثر لطفًا معها عن زوجها الممثل سبنسر، بالرغم من ترشيحاته السبعة للأوسكار، وحصوله على جائزتي أوسكار (لا يشاهد كثير من الناس هذه الأيام فيلم «مدينة الأولاد» Boys Town، أو فيلم «القبطان والشجعان» Captains Courageous، اللذين مُنح ترايسي عليهما جائزة الأوسكار). فبينما كان سبنسر ترايسي يشارك في إنتاج 75 فيلمًا في هوليوود (تسعة منها مع كاثرين هيبورن)، بدأت لويز تريدويل بإنشاء أول مدرسة للصم في مدينة لوس

أنجلوس، وأسمتها باسم ابنها. وكانت تلك المدرسة مصممة خصيصًا لتعليم ابنهما، جون، وحتى يمكن البدء كانت ممولة من الأموال التي كان سبنسر ترايسي يجمعها من عمله ممثلًا وبذلك فإنها لم تقدم لابنها جون فرصًا يُحرم منها ذوو الاحتياجات الخاصة من الصم في كثير من الأحيان فحسب: بل أيضًا شاركتهم في منظماتهم من خلال إنشاء هذه العيادة العلاجية. وقد حصلت لويز على سبع درجات فخرية لدورها في تأسيس تلك العيادة. ولا تزال تعمل بقوة بعد 80 عامًا، وتصف عيادة جون ترسي نفسها حاليًا بأنها «مركز تعليم خاص، لا يهدف للربح، مخصص للرضع والأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة ممن يعانون إعاقة سمعية. ويوفر هذا المركز التعليمي خدمات مجانية تتركز على الوالدين في جميع أنحاء العالم. كما تقدم العيادة خدمات أسرية في جميع أنحاء العالم، وخدمات للأسر المحلية، وتعليمًا مهنيًا، والرعاية في مرحلة ما قبل المدرسة، واختبارات للسمع، وعدد اخر من الخدمات». وفي عام 1963، عُينت لويز في اللجنة الاستشارية للأمراض العصبية والحسية التابعة للوزارة الفيدرالية للإسكان والتعليم والرعاية الاجتماعية وبعد ذلك بعامين، عُينت في المجلس الاستشاري الوطني للمعهد التقني الوطني للصم في هنريتا في نيويورك. وفي العام نفسه، وافقت على عضوية مدتها 4 سنوات في المجلس الاستشاري الوطني المختص بإعادة التأهيل المهني. وبعد عامين من وفاة زوجها، قبلت عضوية فريق العمل الرئاسي المختص بشؤون ذوي الاحتياجات الخاصة

ومن أجل جميع ما سبق، فإذا كانت هناك قصة عن الانتظار في أي وقت مضى في عالم العلاقات الإنسانية، فإن قصة الاثنين ترايسي وكاثرين هيبورن وجون وسوزي هي الأصل. لقد استمر زواج لويز وسبنسر أكثر من 40 عامًا حتى وفاته. ولقد أغدق ترايسي الأموال على أطفاله طوال تلك السنوات، ودعمهم ماليًا واجتماعيًا، كما لم يهمل لويز اجتماعيًا. كما

استمرت كاثرين هيبورن في علاقتها بترايسي مدة 26 عامًا حتى وفاته أيضًا. لا بد أن سبنسر كان يتمتع بكثير من خصال السيد سينف حتى يصبح لديه هذا النوع من الولاء. ومن خلال كل هذه المشكلات، بقيت لويز مكرسة حياتها لأطفالها ولجون المعاق، طفلها الأكبر. ويبدو أن سبنسر لم يظلم قط. إنها قصة تقدم اختبارًا لقوة الانتظار. إنها شهادة عن دور الانتظار في الزواج، والصداقة، والأبوة، والأمومة. وقد خرج جميع هؤلاء البالغين الثلاثة من هذه القصة النادرة بلا خسائر. لكن المرأتين لويز وكاثرين لم تتصالحا أبدًا. حيث اتصلت كاثرين بلويز بعد بضعة أيام من وفاة سبنسر سعيًا إلى المصالحة، وزعمت كاثرين أن الحوار التالي هو ما حدث بينها وبين لويز في ذلك الوقت:

كاثرين: أتعلمين يا لويز؟ يمكننا أن نكون أصدقاء. لقد صحبته في البدايات، وأنا في النهاية. كما يمكنني أن أكون عونًا لكِ مع الأطفال.

لويز: حسنًا، بالتأكيد كلامك صحيح، لكن المشكلة أنني تعاملت معكِ دومًا على أنك مجرد شائعة.

ذلك الرفض ظل عقبة في طريق المنطق والعقل، ومنذ ذلك الوقت لم يحدث أي اتصال، ولو هامشيًا، بين المرأتين.

هل شرط الشراكة والصداقة الإخلاص والوفاء؟ أم أنها تحتاج إلى مزيد من الولاء والتفاهم؟ يبدو لي هذا الزواج الغريب (والزواج هو نتيجة فرعية للصداقة) بين سبنسر ترايسي ولويز تردويل ترايسي، والعلاقة بين سبنسر ترايسي وكاثرين هيبورن، التي تضارع في غرابتها ذلك الزواج، والتي استمرت إلى جانب ذلك الزواج الرسمي (حيث استمرت العلاقة بين ترايسي وهيبورن من عام 1942 إلى وفاته عام 1967)، وكلاهما يبدو مثيرًا للإعجاب بطريقته

الخاصة بالرغم من غرابتهما، فكلتا العلاقتين تتميز بالصبر، وتتغذى على الانتظار، وكلتاهما- على المدى البعيد- تبرز السمات التي توصلنا إلى ربطها مع هول بورتر سينف وقرود الفيرفيت الرائعة تلك. أعتقد أن هاتين العلاقتين غير العاديتين تقدمان لنا موضوعات الزواج والصداقة والانتظار تقديمًا رائعًا وغير متوقع. إن الصداقة في الزواج تتطلب- بحق- الإخلاص والتفاهم أكثر من الولاء، وقد يساعد السيروتونين أيضًا.

بعد عام واحد من انطلاق سبنسر تريسي في بداية حياته المهنية في هوليوود، فقدت أليس نيل Alice Neel طفلتها. وأنا متأكد أن السيد سبنسر ترايسي لم تعرف شيئًا عن حادثة السرقة تلك، فلم تكن أليس نيل مشهورة بعد في ذلك الوقت. إن فقدان طفل بالتأكيد هو واحدة من أكثر القصص حزنًا التي يمكن أن تفكر بها. وتبرز القصة أحد أكثر الجوانب حزنًا لموضوع الانتظار، وعن انعدام أي نوع من أنواع التفاعل الصادق بين الأصدقاء. وكان كارلوس إنريكيز غوميز، الفنان التشكيلي والأرستقراطي الكوبي، وزوج أليس، هو من تسبب في حرمانها من ابنتها إيزابيتا (واسمها الرسمي إيزابيلا ليليان). ولم تكن تلك المأساة الوحيدة التي عاشتها أليس نيل مع الأطفال: فلقد وُلدت طفلتها الأولى، سانتيلانا، بعد يوم واحد من عيد الميلاد في هافانا من عام 1926. وتوفيت الرضيعة الصغيرة قبل شهر واحد من عيد ميلادها الأول بسبب مرض الدفتيريا. ولكن بعد فترة وجيزة من وفاة سانتيانا، أصبحت أليس حاملًا بطفلتها الثانية إيزابيتا، ووُلدت إيزابيتا بتاريخ 24 من نوفمبر 1928 في مدينة نيويورك. وبعد عام ونصف، اعتزم إنريكيز السفر إلى باريس، وكان عليه أن يترك إيزابيتا لتبقى مع والديه في كوبا. ولنقص المال سافر وحده، وترك طفلته في هافانا، وزوجته مع والديها في كولوين بالقرب من فيلادلفيا، ولم يتمكن من الوصول، بل انتهى به المطاف في فندق حراند في برلين. والآن أصبحت أليس نيل، التي تنتظر بصبر، بدون

طفلتها وزوجها، فعانت انهيارًا عصبيًا حادًا، وحاولت الانتحار دون جدوى. وتم إيداعها في قسم المصابين بميول انتحارية في مستشفى فيلادلفيا العام لمدة عام كامل، فرسمت في عام 1931 رسمًا مروعًا ومشهورًا للمكان بعنوان «قسم الانتحار في مستشفى فيلادلفيا العام»[11]، وهي لوحة يسهل العثور عليها على الإنترنت[12]

ولم تتمكن أليس من رؤية ابنتها مرة أخرى. لقد ترعرعت مع عائلة إنريكيز. لقد زارت إيزابيتا في عامي 1934 و1939 أمها أليس نيل (وكان هذا هو الاجتماع الأخير الذي جمعها بوالدتها لسنين طويلة اتية. وقد رسمت أليس نيل بورتريه «الابنة الضائعة» Lost Daughter في عامي 1934/1935 (وكان عمر إيزابيتا آنذاك لا يتجاوز 6 سنوات). لكن على ما يبدو أنها تمتعت بعلاقة قوية مع ابنها وأحفادها. ولقد حضرت والدة أليس نيل لتعيش معها في السنة الأخيرة من حياتها. كما رسمت حفيدتها الأولى أوليفيا (عندما كانت تبلغ من العمر ست سنوات أيضًا. وأسمت اللوحة أوليفيا في القبعة الحمراء، سنة 1974). لقد أخذت أوليفيا وضعًا مطابقًا لوضع إيزابيتا من ذلك البورتريه عام 1934 قبل 40 سنة. ويبدو الأمر كما لو أن (أليس لم تتوقف يومًا عن الانتظار وبالمناسبة، فقد أصبحت من

---

(11) يمكن اللجوء إلى التقسيم الزمني المفيد لأحداث حياة أليس نيل في كتاب أليس نيل الحقائق المرسومة، 2009، متحف الفنون الجميلة في مدينة هيوستن، من تأليف جيرمي ليوسون Jeremy Lewison، وباري ووكر Barry Walker.

(12) أعيد إصداره في كتب بعنوان «الجدول الزمني»، من تأليف سارة باورز Sarah Powers عن حياة أليس نيل، متحف فيلادلفيا للفنون، 2000 1، تحرير ن نيمكس وقد كتب بالتضامن بين ابنة راسل هوبان Russell Hoban التي كانت تعمل صحفية متخصصة في الشؤون الفنية والروائية فيبي هوبان Phoebe Hoban لسيرة الذاتية للفنانة التشكيلية أليس نيل (أليس نيل، وأسلوبها الفني في الخوض بشكل غير جمالي) سانت مارتن للنشر، 2010. كما توجد دراسة أحادية للمدير السابق في معرض تيت جيريمي لوسون بعنوان «Alice Neel Painter of Modern Life»، ميركاتورفوندز، 2016.

أعظم الرسامين التشكيليين الأمريكيين في القرن العشرين. وبالتأكيد هي من الأشخاص الذين قد يتعرف إليهم سبنسر ترايسي، وتزدحم لوحاتها بصور الآباء والأمهات، بعضهن حوامل، والأطفال. يبدو كثير منهم منتظرين. يبدو أن أليس نيل قد حولت الام شعورها بالخسارة، وانتظارها للولادة، ثم انتظارلم شمل عائلتها، إلى فن رائع وأود هنا أن أتناول لوحة «**مارجريت إيفانز حاملًا**» *Margret Evans Pregnant* على وجه الخصوص، التي تمثل إحدى الأمهات (اللاتي يبدو عليهن أنهن قد تعرضن لمس شيطاني)[13]. وُلدت النادلة، مارجريت إيفانز، عام 1944. وقد رُسمت لوحتها بعد 51 سنة من وفاة سانتيلانا. وقد رُسمت مارغريت إيفانز حاملًا في لوحة أليس نيل عارية، وحافية القدمين. وكانت حاملًا بتوءم في شهرها الثامن، وتجلس مارجريت إيمانز في اللوحة بشكل غير مريح على كرمي صغير وضيق جدًا، فتمسك بحافة المقعد بكلتا يديها كما لو كانت تحاول أن تضمن استقرارها وسلامتها، وأكاد أشعر بأنها توشك على أن تسقط في أي لحظة. عينا مارجريت الررقاوان المستديرتان متجمدتان في وجهها الصغير الخالي من التعبير على عنقها الطويل. ويبدو أن لدينا عددًا من النسخ من النُدُل في هذا كتاب. تنظر مارغريت إلى الرسام نظرة خالية من العواطف، وربما تنتظر المحنة الضعيفة المتمثلة في الوقوف عارية على هذا المقعد الضيق إلى أن تنتهي اللوحة، وربما تنتظر نوعًا من التجاوب من أليس نيل. وتظهر ظلال مارغريت إيفان الضبابية على الحائط خلفها وعن يمينها هناك أيضًا ضعف في الصورة الزينية، وهدا انعكاس مارغريت إيفانز في المرآة خلفها مباشرة. ويبدو أن صورة المرأة، التي في المرآة، ويتصح ظهرها لنا، تنتظر أيضًا

---

(13) الملاحظات عن عدد محدد بعينه من اللوحات والموضوعات (الآباء و لاطفال) في أعمل أليس نيل الحقائق المرسومة من تأليف جيريمي لوسوب، وباري ووكر، اللذين يؤكدان أن أسلوب أليس نيل «كان متأثرًا في أشكاله وألوانه بتجربها الذاتية كأم وكانت بعض الأحداث، مثل وفاة سانتيلانا وفقدانها إيزابيتا، وتعرضها لانهيار عصبي، انعكاسًا واضحًا على أعمالها»

نوعًا من الاستجابة. هل هذا هو السبب في وجود خط يشبه الدموع على الخد الأيمن للصورة المزدوجة؟ إن تلك الصورة المنعكسة كما يؤكد الناقد الفني جيريمي لويسون Jeremy Lewison، «والخصائص في الانعكاس، تظهر مزيجًا بين أليس نيل وإيفان». ويمكن أن تكون تلك النسخة- بعبارة أخرى- هي الرسامة نفسها، بالإضافة إلى الشخص موضوع اللوحة؛ لذلك، ففي حين أنه من الصحيح أن نقول إن هذه هي لوحة، وإن الرد لا يأتي أبدًا من ذلك الانعكاس، يمكن أن تتكلم أليس[14].

أتمنى لو بإمكاني أن أريك هذه اللوحة. يمكنك أن تقول إن اللوحة لا تزال تجبرني على الانتظار. وتمكنت من الحصول على إذن باستنساخ لوحة «مارغريت إيفانز حاملًا» من مالكها الحالي، ولكن ليس من مديري حقوق الطبع والنشر عن اللوحة. ذلك سيئ: إن لم تتمكن من رؤية اللوحة فربما لن تتمكن من متابعة تحليلي الفريد عنها، أو تكون تحليلًا لها من عندك. أما إذا رغبتم في رؤية اللوحة بأنفسكم، فهي متاحة بسهولة على الإنترنت ربما هناك ما هو أصعب عند التعامل مع أليس نيل بالشكل الذي يفوق توقعاتي. ويدعم أحد أصدقائي هذا الشك. حيث حلف لي أنه تقدم لزوجته من داخل منزل أليس نيل الصيفي في بحيرة سبرينج في نيو جيرسي. ولكن مع الأسف لم ينتظر الزواج كثيرًا. كما تتذكر صديقتي أيضًا أن المنزل كان مسكونًا. ربما لا تزال أليس نيل تنتظر في بحيرة الربيع، حيث قضت كثيرًا من ليالي الصيف هناك، وحيث يبدو أن هذا هو المكان الذي قد رسمت فيه أوليفيا في قبعتها الحمراء لتبدو مثل إيزابيتا.

وربما لهذا السبب يعد هذا المكان هو الأنسب لإعادة ذكر السيروتونين مرة أخرى. قد نجد تعقيدًا مضاعفًا غير متوقع لطريقة عمل السروتونين،

(14) كما هو موضح في كتاب بعنوان: «أليس نيل.. الحمائق المرسومة».

والانتظار الذي يحرض عليه هذا السيروتونين، من أجل مساعدة العائلات والأصدقاء. ربما يفاجأ الجميع إذا علموا بأن إفراز نسبة كثيرة من السيروتونين، مقارنة بالحال بالنسبة للانتظار أكثر من اللازم، يمكن أن تؤدي إلى فعل تصرفات غريبة يمكن أن ينقلب السيروتونين إلى الأسوأ. فقد يجعلك السيروتونين متوترًا وغير مرتاح، وغير متسق، وربما مشوش الفكر. يوجد عنصر من ذلك واضح على مارجريت إيفانز، ولا بد أن أليس نيل كانت تمتلك كثيرًا من ذلك في شبابها. وقد زعم الدكتور توماس فورمارك، الخبير في علم نفس الاضطرابات النفسية من جامعة أوبسالا في السويد، في عام 2015، بأن اضطرابات القلق (التي يمكن أن نقول إنها تزعج عددًا لا يقل عن 25 مليونًا أو أكثر من الأمريكيين) قد يرجع تكوينها إلى ميل الناس إلى إفراز كثير من السيروتونين[15]. وهذه هي الحال بشكل خاص في اضطرابات القلق التي تظهر في شكل رهاب اجتماعي (الشعور بالحرج والدونية والمرض في بيئة عامة). وعلى ذلك، يمكنك التكهن بأن كثيرًا من الانتظار، وحتى السلوك التبعي، قد يُساء استخدامه ويتسبب لنا في إصابة قرود الفيرفيت بالرهاب: ومن ثم نفعل عكس ما هو مطلوب داخل المجموعة

إن الانتظار هو ما جعل من أليس نيل فنانة عظيمة، ويتضح ذلك من خلال لوحات نيل الزيتية، مثل لوحة «مارجريت إيفانز حاملًا»، ويتكرر هذا الموضوع وتعبر عنه بالألوان من خلال فنها. لماذا؟ وما الذي سوف يحدث لهذه الفنانة التي تمتلك روح قرود الفيرفيت؟ هل كانت تنتظر العودة المستحيلة لبناتها، وخاصة إيزابيتا، وربما حتى عودة زوجها كارلوس؟ تلك الممارسة تعد شكلاً من أشكال الواقعية السحرية التشكيلية Painterly Magic التي انتهت بأن استسلمت اليد للرغبة في توصيل الخمر إلى الفم.

(15) أندرياس فريك Andreas Frick وآخرون «Serotonin Synthesis and Reuptake in Social Anxiety Disorder»، الصحيفة الصادرة عن الجمعية الأمريكية للطب النفسي، 2015.

ولقد وُضعت لوحتها للكاتبة والناشطة النسوية كيت ميليت Kate Millett، المستنسخة على غلاف مجلة تايم، عام 1970. في عيد ميلاد أليس نيل السبعين وبعد تسع سنوات، قدم الرئيس جيمي كارتر لأليس نيل جائزة الاتحاد النسائي الوطني للفن لإنجازاتها الفنية المتميزة جاءها النجاح بعد كل هذا الانتظار. لقد أثمرت في نهاية حياتها مجموعة كبيرة من اللوحات، مع التركيز قبل كل شيء على نقل التعبيرات على وجوه البشر. فهي واقعية في روح إدوارد هوبر Edward Hopper، وإدجار ديجاس Edgar Gegas . ويمكنك أن تقارنها بالسيد/ فرانسوا بارو Fransois Barraud المعاصر لها في نفس الفترة الفنية، والمغمور الذكر بالنسبة لها، والذي سنتحدث عنه أيضًا في هذا الكتاب.

ويبدو أن الانتظار قد أتى بفائدته، ولكن بتكلفة رهيبة شخصيّة، أو هكذا يبدو الأمر. لقد أتقنت أليس نيل مهارة الانتظار كما أتقنت فنها، ولكن ربما دفعت ثمنًا باهظًا عن جميع أشكال الانتظار التي عاصرتها. وفي عام 1978، حضرت إيزابيتا- وكان عمرها آنذاك يناهز الخمسين عامًا- لرؤية والدتها للمرة الأولى منذ مدة طويلة. وحدث ذلك في واحدة من حلقات أليس في برنامجها، وكان ذلك في العام نفسه الذي أنهت فيها أليس بورتريه مارجريت إيفانز. لم تتعرف أليس على ابنتها، لا في هذا اليوم، ولا في أي يوم آخر[16]. وبعد أربع سنوات انتحرت إيزابيتا.

لا يمكن الحديث عن الأثر والنتيجة المترتبة على هذا اللقاء بعد أربع سنوات، لكن ربما أرادت إيزابيتا أن تنهي كل هذا الانتظار أيضًا. هل ينبع البؤس نتيجة انقراض ملكة الصبر والانتظار، كما يزعم روجر غرينييه Roger Grenier؟[17] هل القلب المرتبك، كما تظهر أليس نيل في بعض

(16) النيويورك تايمز، 29 ديسمبر 2010، ديبرا سولومون Deborah Solomon

(17) روجر جرينييه Roger Grenier «Waiting and Eternity»، جامعة شيكاغو للنشر، 2014.

الأحيان، هو نتاج القدرة الكبيرة على الانتظار التي يتمتع بها صاحب هذا القلب؟ لن نعرف الجواب عن هذا السؤال أبدًا. ولكن ربما تنبع القدرة على الاستمرار في الانتظار بالرغم من إدراكنا أن هذا الانتظار ميئوس منه، هو شيء ينبع من وفرة إفرازات السيروتونين ولقد رأينا بالفعل كيف يتمتع أصحاب بعض المهن، مثل النُّدُل في المطاعم والكافتريات، بكميات ضخمة من هذا المحول العصبي المهم. وقد رأينا كيف أدى انتظار أليس نيل إلى التغير في حياتها، حيث أدت انعكاسات مأساتها الشخصية إلى جعلها الفنانة العظيمة التي كانت عليها، ولكن ربما أزعجها ذلك عاطفيًّا. عندما يتعلق الأمر بالعلاقات الثنائية، فقد يكافأ الشخص على الانتظار، وقد يعاقب.

حيث إن كثيرًا من الانتظار يمكن أن يجمد الشرايين العاطفية، ويضر بقدرة الشخص على الارتباط، فماذا يمكن أن يقال عن العكس مباشرة؟ ماذا يحدث عندما نجد محاولة للتعلق بدون انتظار، ويمكنني فقط أن أفترض، أنه لا يوجد سيروتونين جاهز على الإطلاق[18]. يمكننا التفكير بطريقة أخرى، هل يمكن التعلق حيث لا يكون التفاعل النمعي مطلوبًا؟ بالنسبة إلى الزواج والانتظار حتى إنجاب الأطفال، وتحمل الصداقة، فبالتأكيد لن تحافظ على زواجك وصداقاتك وتتحمل أولادك إلا بعد تدريب كبير على

(18) بالتأكيد قد يسوء الأمر ويمنح سببًا لانتظار عودة حبيب متوفى. وهذا هو ما حدث مع نايجل (طائر الأطيش الذي خضع لتجربة من نوع فريد في نيوزيلندا) نتحدث عن النهاية التراجيدية لأحد الطيور من نوع «الأطيش»، الذي صُممت من أجله تجربة علمية ظل خلالها هذا الطائر طوال أربع سنوات يخطب ود طائر زائف من الجبس. ويموت الطائر نايجل بدون الاستمتاع بالحب الحقيقي، حيث عُثر عليه ميتًا إلى جوار مجسم من الجبس لطائر أحبه إلى درجة العشق، فبنى عشًا إلى جوار عشيقته حتى مات من الإرهاق والجوع والعطش. لقد وضع العلماء نحو 80 مجسمًا من الطيور المصنوعة من الجبس على جزيرة «مانا» بالقرب من ساحل كابيتي في نيوزيلندا. وكان الغرض من ذلك هو جذب مزيد من الطيور لبناء أعشاشها هناك، ولكن أحدها أصيب بالحيرة الشديدة، حيث كان يحاول أن يكون أسرة مع أحد الطيور المصنوعة من الجبس. وتوفي نايجل إلى جوار محبوبته الزائفة. هذه القصة نُشرت في مجلة ديلي ميل، بتاريخ 1 فبراير 2018، بعنوان نهاية تراجيدية لأحد الطيور البحرية قضى 4 أعوام يخطب ود طائر زائف مصنوع من الجبس

الصبر والانتظار. وهذه نقطة شددت عليها مرارًا. تتعلق أكثر الأشياء روعة للتفكير في الانتظار والاقتران بالآخرين وتكوين العلاقات بالألعاب والماكينات الجنسية. ثار الحديث في العقد الماضي، أو نحو ذلك، عن إمكانات إقامة علاقات عاطفية وجنسية بين الإنسان والروبوت. بالنسبة إلى كثير من الناس، فإن أكبر عامل يجذبهم لشراء روبوت الجنس، وهو الروبوت المصنع ليحاكي ممارسة الجنس الطبيعية، هو أنه لا يوجد انتظار على الإطلاق. إنهم الأفراد المثاليون، الروبوتات أعني، للقاء سريع، وإن أمكن الاقتران السريع. لكن بدون انتظار، وبدون سيروتونين، هل سيكون الروبوت الجنسي مرضيًا لأمثال سينف، فضلًا عن قرود الفيرفيت؟ هل من المعقول أن نعيش بدون انتظار، وبدون رفاق؟ يمكنك الزواج بروبوت جنسي، لا شك في ذلك، لا تزعج نفسك بالاجابة[19].

إذا قضيت بعض الوقت في قراءة الكتاب الممتع جدًا بعنوان «الحب والجنس مع الروبوتات» Love + Sex with Robots للكاتب ديفيد ليفي David Levy، فسوف ترى أن العلاقة بين الروبوت والبشر قد تطورت- بلا شك- تطورًا واضحًا ليصبح الجنس مع الروبوتات بالفعل عملًا تجاريًا كبيرًا، بل سوف يصبح أكبر في المستقبل[20]. يبدو أن التعلق العاطفي دون تبعات، أو انتظار، أو سيروتونين، أمر مريح. ولم لا؟ إذا كان الجنس هو كل ما تريد، فسوف يؤدي الروبوت الجنسي وظيفته على أكمل وجه- ماذا يمكن أن يحدث؟ ربما نقص في الشحن؟ وفقًا لبيانات صحيفة اليابان تايمز في 14 أبريل 2015، قدر حجم سوق الألعاب الجنسية الصينية بنحو

(19) لقد أصبحت اريكا رائجة تمامًا في اليابان حتى أنها حصلت على تجربة أداء في وطيفة مذيعة في نشرة الأخبار – جريدة ديلي ميل – فيوبي ويستون – دراسة مسحية لحماس اليابانيين للروبوت زافن باري، جريدة لي بيل ليتير، 2016

(20) يرجى الرجوع الى جنس جيارد Agnes Giard، رغبة التحول إلى بشري عروسة لحب لدى اليابانيين، 2016

100 مليار يوان (أي ما يعادل 10 مليارات جنيه إسترليني) سنويًا بحسب بيانات منصة بيع الألعاب الجنسية بين الشركات باسم (ChinaSexQ com)[21] وأنا أرى أنه إذا تمكن هؤلاء الزبائن من الانتقال من مجرد استخدام الألعاب الجنسية إلى استخدام الروبوتات الجنسية، فإن ذلك سوف يغدق الأموال على الشركات. وفي التقرير الصحفي نفسه في «اليابان تايمز»، أكد أحد مصنعي الألعاب الجنسية، تشانغ هان Zhang Han، أن أعمالهم التجارية سوف تزدهر في المستقبل، بسبب عدم التوازن في العدد بين الجنسين في الصين تشير صحيفة Japan Times إلى أنه «في مواجهة التفضيل التقليدي للأبناء الذكور، وسياسة الطفل الواحد في أكثر دول العالم اكتظاظًا بالسكان، فإن الإجهاض على أساس جنس الطفل هو أمر شائع- مع أن هذا الأمر غير قانوني- ويولد ما يقرب من 116 صبيًا لكل 100 فتاة في الصين، وهو رقم أعلى بكثير من المتوسط العالمي البالغ 107». ربما يقترب تشانغ هان من مزيد من المكاسب كما توجد أيضًا جماعة تطلق على نفسها» أصدقاء الدمى» Friends of Dolls أعتقد أنها تشجع التفاؤل التجاري الذي يبديه تشانج هان في إدارة أعماله. تدعي صحيفة Japan Times أن «أصدقاء الدمى» «يجتمعون في منتديات خاصة عبر الإنترنت، ويشاركون المستخدمين في تعليقاتهم ونصائحهم. وقد ارتفعت أعدادهم من بضع مئات إلى أكثر من 20.000 شخص في السنوات الأخيرة"

ويتفاءل ديفيد ليفي بشأن مستقبل هذا النوع من النشاط الجنسي، مثل تشانج هان. ولكن كتاب ليفي تضمن كلمة «الحب» في عناوين كتابه، ويخصص العديد من الصفحات لهذا المفهوم وعادة ما يرتبط الحب في كتابه بأن نكون صريحين مع ما كان يسمى الممارسة الطبيعية للجنس wanton fornication. ما يحاول أن يقوله ليفي هو السبب الذي لن يتمكن

(21) ديلي ميل، 20 يونيو 2016 (صوفي ويليامز)

لوجوده أي شخص من أن يصبح ممتونًا أو حتى مرتبطًا جنسيًا بأي نوع روبوت. ولأجيب عن هذا الأمر، أولًا السيروتونين، وثانيًا أن هذه العلاقات الروبوتية ليست علاقة تشبه الشارع ذا الاتجاهين في أثناء التفاعل الوجداني العاطفي. لن يوجد انتظار، ولن يتطلب الأمر أي سيروتونين، ولا يمكن أن يكون هناك انتماء أو تفاعل؛ لأن التفاعل يحدث في الحقيقة مع الدمى والروبوتات: فقد تشعر بعاصفة من الدوبامين عندما تلتقي حبيب حياتك لأول مرة، وقد تشعر بشعور قوي بالانتماء بعد اختفاء موجة الدوبامين، ولكن هذا ليس ما ستشعر به مع دميتك، أو الروبوت الخاص بك. كما لن يشعر الروبوت بذلك إذا تعطل، بل سوف تشتري روبوت جديدًا بدلًا من القديم المعطل التفاعل النفعي، أو ما يطلق عليه «Affiliation». سوف يفيد حقًا كلا الطرفين (من يقدم خدمة لأخيه ومن يتلقى الخدمة، كلاهما مستفيد) (the groomer and the groomed will benefit)، وهذا الأمر- ببساطة- غير ممكن في حالة الروبوت. إذا كان كلامي يستحق، أود أن أقول إنه في حين أن الناس قد يكونون غير صبورين عندما يتعلق الأمر بانتظار ممارسة الجنس، وهذا أمر طبيعي، ويمكن تفهمه، فإنهم يكونون بالطبع متلهفين لتكوين شراكات. ولا يمكن اعتبار تلك الصداقات شراكات ذات معدل جيد من الكفاءة إلا من خلال سلوكيات التفاعل الاجتماعي، و«الاستمالة» grooming، والتلاعب بمعدلات السيروتونين، حتى يمكن اكتساب القدرة على الانتظار وممارسته. فبدون انتظار لن تكون هناك صداقة، أو رفقة في الحياة؟

ولذا، إذا كنت لا تستطيع الحصول على الرضا الجنسي، لماذا لا تشتري دمية جنسية؟ والأفضل من ذلك، روبوت مثل إيفا الروبوت في فيلم إكس ماكينا Ex Machina؟ لماذا الروبوتات الجنسية؟ إذا كانت الفكرة القائلة بأن الرجل الطبيعي يفكر في الجنس خلال ساعات استيقاظه نحو 19

مرة يوميًا[22]، وأنه سوف يقضي وقتًا يساوي 48 يومًا من حياته في ممارسة الجنس، فربما يكون هناك شيء يقال عن الروبوتات الجنسية، للرجال على الأقل[23]، فقد يتغير الرقم من 48 يومًا فقط إلى 96. إذا كان المطلوب هو التنفيس الجنسي، وذلك هو كل ما في القضية، فالأمر سهل، أي ميناء يمكن أن يحمي من العاصفة، ولكنك لا تشعر بالإثارة عند العثور على صديق بهذه الطريقة[24]. قبل سنوات يحكى أن راعيًا أرجنتينيًا مارس الجنس مع فزاعة أو خيال مآتة، ولكنه تحمد حتى الموت. الفزاعة هنا هي روبوت آلي كما يمكن القول ما أريد أن أشير إليه من خلال هذه القصة، هو أن أي إنسان يريد أن يتجنب الانتظار، وهو مستعد لفعل أي شيء من أجل ذلك، ولكننا نعلم أن هذا يمكن أن يسفر عن نتائج غير متوقعة.

والخبر: «تم العثور على راعٍ وحيد ميتًا إلى جانب خيال مآتة يبدو أنه كان يمارس الجنس معه بعد ألبسه شعرًا مستعارًا طويلًا وأحمر شفاه. لقد اكتشفت بقايا جثة خوسيه ألبرتو البالغ من العمر 58 عامًا بعد أن اتصل الجيران بالمجلس المحلي للإبلاغ عن تلك الرائحة النتنة القادمة من منزله في مدينة سان خوسيه دي بالكير الأرجنتين. وأدلى السيد رودولفو موور، الناطق باسم للمدعي العام بتصريحاته، حيث يقال: «نحن نعمل على الافتراض بأن الرجل قد مات في أثناء ممارسة الجنس مع خيال المآتة لقد

(22) بي بي سي، 18 يوليو، 2014، (توم ستافورد). bbc.com

(23) بي بي سي، 23 فبراير، 2015 (آدم حجاري)

(24) نايومي راي، عرض جديد من برادا فاونش، ويعرض عددًا من الصور الغريبة لبعض الناس على علاقة حب غريبة مع الروبوت الجنسي والأطفال الاصطناعيين الذين أخذوا منهم أولادًا صناعيين لهم، 18 .news artnet com، فبراير، 2019. والذي يعطي عرضًا فنيًا تقدمه ايليت دورفمان وجيمي دايموند بعنوان « Surrogate A Love Ideal» والذي كان يُعرض في 21 فبراير حتى 22 يوليو في ميلان. توجد جماعة اسمها «reborners» وهي جماعة معظمها من البنات تميل إلى جمع عدد كبير من الدمى النادرة والصغيرة وصناعتها أيضًا يوجد بهذه المقالة مجموعة من الصور. كما يوجد الكثير من النشاط التجاري لمجموعة reborn على الانترنت

جُمع القش ووضع كحشو داخل ملابس قديمة تم خياطتها معًا لصنع خيال المآتة[25].

لا بد أن هذا الأمر كان محرجًا جدًا لعائلته في أثناء جنازته لو كانت لديه عائلة. ربما لم تكن لديه عائلة. وأشك أن الراعي كان سيرغب في الزواج بخيالات المآتة. هل تزوج الناس في أي مرحلة من التاريخ ببساطة فقط من أجل ممارسة الجنس فور الضغط على زر؟ أتساءل عما إذا كان هذا هو اختبار الحمض acid test- هل ستقتل نفسك يومًا بسبب اقتراب شريكك الآلي من العطب أو التكهين؟ هل ستنتظر حتى يتم إصلاح حزمة بطاريته؟. أم أنك ستلقي الروبوت القديم ببساطة وتذهب لشراء آخر جديد؟ من هذا الذي ينتظر الروبوتات الجنسية؟ أم أنني مخطئ. وربما تخطط لكتابة اتفاق انتحاري مع الروبوت الجديد الذي اشتريته اليوم؟ يصعب عليّ تخيل هذه الصورة. إذا كنت لا تستطيع الانتظار، فلا تفكر في المواعدة والصداقة[26]. من الصعب جدًا تخيل أي شخص يُبرم اتفاقًا انتحاريًا مع روبوت على طريقة آرثر كوستلر Arthur Koestler وزوجته.

بدأنا هذا الفصل من خلال السيد سيف، الذي كان يعمل بجد في فندق جراند أوتيل في برلين، بوّابًا وحاملًا للحقائب عام 1929. ماذا حدث؟ هل كانت الأخبار جيدة أم سيئة؟ ربما تعرف الإجابة، ولكن لن تعرف التفاصيل. دعنا نستمع إليها.

---

(25) القصة مأخوذة من ديلي ميل، 3 أبريل، 2015. (تيم ماكفارلاند)

(26) روح عروسة الماريونت، من تأليف جون جري John Gray، وألان لين Allen Lane، 2015، يعتقد العكس. فهو يحاول أن يجادل حسب مقال مارس جاربر (الملحق الأدبي بصحيفة تايمز، 31 يوليو 2015) «أصبح استخدام الروبوتات كممرضات، وعاملات الخدمة الجنسية، وكجنود بديلة للعسكريين حقيقة. ولم يعد ذلك موضوعًا مبدلًا على شاشات السينما. على المدى البعيد سوف يصبح البشر مخلوقات عاطلة. وعلى هؤلاء الذين يريدون المشاركة بشكل أكبر في المجتمع أن يتشبهوا بالآلة تشبهًا أكبر.

جاء العامل السيد سينف في تمام الساعة الثامنة للبدء بأداء عمله. كان وجهه منتفخًا، ربما لأنه قضى الليل كله جالسًا في ممر المستشفى البارد منتظرًا أن يسمع خبرًا يطمئنه على زوجته حتى الصباح.

وفي هذه المرة، سمحت ممرضة نوبة الليل للسيد سينف أن يبيت في المستشفى. ومع ذلك، لم يصرفه فندق جراند أوتيل من عمله لهذا اليوم؛ فالواجب هو الواجب مهما كلف الأمر. ثم ركض هذا العامل البسيط، وكان وجهه يتصبب عرقًا بسبب المجهود الذي بذله وأنفاسه المتلاحقة، حتى توقف خلف مكتبه، كما لو وصل إلى ملاذه الآمن. إنها فتاة صغيرة. لقد اضطر الأطباء إلى حث عملية الولادة اصطناعيًا، لكن الأمر انتهى، والطفلة حضرت إلى الدنيا، وتزن خمسة أرطال. لا خطر على الإطلاق حتى الآن. لا توجد خطورة من أي نوع، فالطفلة وأمها بخير حال. لقد كان يلهث، وخلع قبعته.

لقد أدى السيد سينف عمله بجد، حيث يبدو أنه قد مر بكثير من الخبرات التفاعلية الاجتماعية في المنزل مع زوجته. حينما يكون الزواج، والأطفال، والصداقة في الصدارة، فكما كنت أقول، فالقدرة على الانتظار تكتسب أهمية كبرى. فبالنسبة إلى الزواج وانتظار إنجاب الأطفال، وتحمل تبعات الصداقة، فبالتأكيد لن تحافظ على زواجك وصداقاتك، وتتحمل أولادك إلا بعد تدريب كبير على الصبر والانتظار. ولكن بعد ذلك، إذا لم تكن قد حافظت وطورت من قدرتك على الانتظار، فلن تتمكن من القيام بالتفاعل الاجتماعي، ولن تصبح مثل السيد سينف.

4

السعادة.. هل هي مجرد مسألة تتعلق بالانتظار إلى أن تجد نسخة متطابقة منك؟

فصل عن الحياة، ومبدأ الانتظار، والإشباع

تجلس صورة منسوخة من مارجريت إيفانز في المرآة في بورتريه أليس نيل، ويجلس انعكاس صورة نيل في المرآة على الجدار خلفها[1]. وبالنسبة إلى أليس نيل، يبدو بورتريه المرآة مثالًا آخر على العزلة التي تواجه كثيرًا من الأشخاص الممثلة في لوحاتها- وأليس نيل أيضًا لأنها اقترنت بتلك النسخة: حيث يمكن أن تعكس تلك النسخة التي تدير ظهرها الطريقة التي تفكر بها أليس، وأحاسيسها لفقدانها بناتها، وفي عزلتها بعد أن تخلى عنها زوجها كارلوس. هل تقول شيئًا آخر؟ مثلاً إنها شعرت بأنها- بطريقة ما- معزولة حتى عن جزء من نفسها؟ لو أن مارجريت إيفانز، أو أليس نيل، تمكنت من التواصل مع تلك الصورة في المرآة، تلك الصورة المنعكسة، إذن لاستطاعت التخلص من الشعور بالخسارة، فربما ينتهي كل الانتظار والتعاسة. هل تشير اللوحة إلى هذا؟ وهل هذا هو المغزى من اللوحة؟ هل السعادة ممكنة

---

(1) لقد سبق أن كتب جيبسون ماكلور رسالة دكتوراه معي، وكانت رفيعة بالفعل. وتتناول موضوع النسخ المتطابقة في الأدب الروماني. ولقد استقيت معظم معلوماتي عن الموضوع وإسهاماتي من جيبسون. وكانت رسالة الدكتوراه تلك بعنوان: النسخ المتطابقة والعادات الأسطورية في طبيعة الرومانية وسردها من خلال الشعر الروماني، جامعة كاجاري، 2010. شكرًا جزيلًا صديقي جبسون

بعد ذلك؟ وهل هذا الوجه المتجمد للسيدة مارجريت إيفانز سيعرف الفرحة؟ ووجه أليس نيل أيضًا؟ ويبدو الأمر كما لو أن هذه الصور المزدوجة تقدم فرصة أخرى للسعادة، هذا فقط لو أنك تمكنت من الوصول إليها بطريقة أو بأخرى. ولكن بالطبع لن تتمكن من ذلك تؤدي النُسخ دورًا غير متوقع وقويًا في التوقع، وفي الخيال، وفي حياة الانتظار. ربما لا يجب علينا أن ندهش من ظهور صور انعكاسية للانتظار هل يرجع ذلك إلى أن خبرة الانتظار هي تجربة مبنية على توافر زوجين؟ أنت تنتظر شخصًا ما، أو شيئًا ما، وأحيانًا يكون هذا الشخص مثلك تمامًا، أو مثل جزء منك تفتقده. ربما إذا كنت تستطيع أن تفهم هذا المزدوج يمكنك أن تفهم هذا الجزء من نفسك. بالطبع لا يمكن لهذا أن يحدث بحق، أليس كذلك؟

ولكن ريتشارد أنتوني جونز Richard Anthony Jones يبين أن هذا قد يحدث بحق. ولقد حُكم على جونز بالسجن، وهو أمريكي من أصل إفريقي من كانساس سيتي، في مايو 1999، بتهمة السطو المسلح على تمارا شيرير أمام حديقة رولاند بارك وول مارت، ثم حُكم عليه بالبراءة، وأُطلق سراحه بعد أن أمضى في سجنه أكثر من 17 عامًا. وكان ذلك يوم الخميس 8 يونيو 2017. وقد تولى مسألة الحكم في قضيته قاضي مقاطعة جونسون/ كيفين موريارتي Kevin Moriarty، وقد نجح الاستئناف الأخير المقدم من جونز في نقض الحكم السابق؛ لأن من تولى الحكم في القضية هذه المرة هو القاضي موريارتي، الذي تيقن من عدم توافر أدلة كافية لدعم الإدانة. وخلال المحاكمة، تيقنت المحكمة من الافتقار الكامل إلى أي دليل مادي واحد يشير إلى جونز، سواء أكان هذا الدليل عبارة عن آثار دي إن إي (الحمض النووي)، أو بصمة، أو أي شيء يربط جونز بالواقعة موضوع القضية. إضافة إلى ذلك، كان جونز يسكن على الجانب الأبعد في المدينة من مسرح الجريمة، في ولاية كانساس. ألم تكن تلك المدينة هي التي أقدم فيها السيد

لورانس جون ربل على السطو على بنك العمل، ثم انتظر في هدوء في ساحة البنك منتظرًا حتى تأتي الشرطة وتعتقله؟ وكان الدافع الوحيد إلى فعله ذلك مجرد التخلص من حياته المنزلية المحبطة. ما المشكلة المتعلقة بالانتظار في ولاية كانساس؟[2].

لم يشكُ ريتشارد أنتوني جونز من حياته المنزلية. إذا افترضنا أن حالته تشبه حالة السيد ربل الذي كان يتمنى الذهاب إلى السجن للتخلص من الجحيم المنزلي الذي يعيشه، لكنه بالتأكيد استأنف نظر قضيته عدة مرات، وقدم الحجة. فما هي؟ أصر على أنه كان مع صديقته وأفراد الأسرة الآخرين على الجانب الآخر من المدينة في يوم السرقة. لقد استمر الافتراض أن جونز مذنب حتى- وأصدقكم القول- اكتشف جونز وجود شبيه له. بعد كل ذلك الوقت في السجن، علم ريتشارد، عام 2015، أن هناك رجلًا آخر يحمل نفس اسمه الأول، ريكي، محتجزًا، ويشبهه تمامًا. إنه نسخة متطابقة من جونز. فقرر جونز المغامرة، وتواصل مع مشروع ميدويست للتبرئة Midwest Innocence Project («وهي منظمة لا تهدف إلى الربح، يتلخص عملها الرئيس في تقديم الخدمات القانونية لتبرئة المدانين عن طريق الخطأ»)، بالإضافة إلى مشروع بول ويلسون للدفاع القانوني Paul E Wilson Defender Project في جامعة كنساس، فلم ينتظروا كثيرًا ووافقوا على مساعدته فورًا. وكان نظير جونز المتطابق ريكي أموس هو الذي ساعده، ثم قدم فريق المحامين التابعين لمشروع التبرئة صورتين، واحدة لريتشارد والأخرى لريكي للضحية، كما قدموا هاتين الصورتين أيضًا لاثنين من الشهود، وللمدعي بالحق المدني ضد جونز. ويمكن تخيل دفعة الدوبامين في

---

(2) يرجع هذا التقرير إلى ريتشارد انتوني جونز. ويمكن العثور عليه في مجلة كانساس سيتي ستار، 9 يونيو 2017. وكان الصحفي المسؤول في ذلك الوقت هو توني ريزو، الذي كتب بالمشاركة مع كاتي بيرجين Katy Bergen كتاب قصة السيد ربل لأجل الورقة نفسها

دماغ جونز وهو يتابع هذا كله، لابد أنها كانت دفعة قوية، مثل الشعور الذي أحس به ذلك الغواص عند تنفيذ الغطسة التي صورها كونشيرو أونشي في أثناء هبوطه من برج حمام السباحة عام 1932. وقد اتفق جميع الشهود الأربعة على عدم استطاعتهم التفرقة بين كلتا الصورتين، وكان هذا كافيًا بالنسبة إلى القاضي كيفين موريرتي، وأصدر حكمًا بأنه يتعين إطلاق سراح ريتشارد أنتوني جونز من سجنه. وادعى محامو جونز أن «السيد جونز أدين فقط بشهادة شاهد عيان ثبت أن شهادته معيبة بطبيعتها، وغير موثوق بها»، أو ذلك ما يجب أن نقوله. ما أريد قوله هو أنه لن تتمكن صورتك المتطابقة بالضرورة من إنقاذك من شر اتهمت فيه زورًا، أو ليس في كثير من الأحيان كما تعتقد. ولكن بالتأكيد يا له من فيضان من المواد الأفيونية والإندوكانابينويد[3] انطلق في رأس السيد جونز عند سماعه منطوق الحكم

وتدل هذه القصة ذات النهاية السعيدة أنه في بعض الأحيان يمكنك بالفعل أن تحصل على نوع من أنواع التواصل مع النسخة المطابقة لك. كما أنها توضح كيف يمكن أن تتلخص السعادة في الانتظار حتى مقابلة شبيهك. ولكن هذا الأمر صح في حالة ريتشارد أنطوني جونز، وتثبت قضيته كيف يمكن لهذا الأمر أن يكون صحيحًا في بعض الأحيان، حتى لو لم يسرِ الأمر كذلك بالنسبة إلى مارجريت إيفانز وأليس نيل. الآن ريتشارد أنتوني جونز رجل حر وسعيد مع صديقته وعائلته، بل آمل أن يكون سعيدًا

---

(3) الإندوكانابينويد هي إفرازات للدماغ الطبيعية من الهيروين والماريجوانا. تنشط تلك المستقبلات الكيميائية العصبية الخاصة بهذه المواد يزداد إحساس الفرد بالسعادة واللذة بشكل كبير؛ لذا فإن زيادة تنشيط هذه المستقبلات يمكن أن تحسن مذاق الطعام فضلًا لدى الفئران، وهذه نتائج لبعض الدراسات. وأشار الباحثون إلى كيفية معرفة ما إذا كان الجرذ أو الفأر يستمتع بالطعام أكثر، وهذا عن طريق النظر إلى وجه الفأر لمعرفة مدى إعجابه بتناول طعام معين. تعبير وجهه تكشف مشاعره بالطريقة نفسها التي يعطيها وجه الإنسان، وكذلك تمكن الباحثون من معرفة تعبيرات الوجه والجسم المتعلقة بالمتعة لدى الجرذان. وقد انتهت الدراسات أن هذه الإفرازات تزيد من المتعة والسعادة لدى الجرذان بشكل كبير (المترجم)

مع عائلته، مثل السيد ربل الآن. يبدو الأمر كذلك. صرح ريتشارد جونز لصحيفة كانساس سيتي ستار (أفضل صحيفة في الولايات المتحدة تتناول موضوعات متعلقة بالانتظار): «فيما يتعلق بأطفالي، فقد كان الأمر صعبًا عليهم في البداية، ولكنهم الان أصبحوا في سن تسمح لهم بأن يقدروا الأمور حق قدرها»، ولكن الأخبار السارة لم تنته عند هذا الحد: سوف تدفع ولاية كانساس إلى السيد ريتشارد أنتوني جونز تعويضًا يتجاوز مليون دولار[4].

قد يبدو موضوع النسخ المتطابقة أمرًا خارجًا عن المألوف، حتى بالنسبة إلى كتاب خرج عن المسار المألوف، مثل هذا الكتاب[5]؛ لأن تلك النسخ المتماثلة، أو النظائر، أو الأزواج المتطابقة، أو المتشابهين في الشكل، أو التوائم، أو أشباه الظلال، أو المستنسخات، أو الأشياء المستنسخة، أو المتطابقة، أو المكررة، أو التكرارية، أو انعكاس المرايا، أو أيًا ما كنت تريد أن تسميها، يُنظر إليها على أنها مثيرة للاهتمام بشكل غريب، مثل موضوع يصعب تصديقه بشكل غريب. وهذا ما يجعل قصة ريتشارد أنتوني جونز قصة جيدة- وربما ما يوضح تلك القصة هو إقدامه على إعادة تقديمها مرارًا في الصحف في جميع أنحاء العالم عام 2017. إن قصة كانساس سيتي تجعل الأمر يبدو كما لو أن العالم مليء بكثير من الناس ممن يحرصون جدًا على معرفة مزيد من القصص عن أشخاص آخرين، مثل ريتشارد أنتوني جونز؛ حتى يتمكنوا من إيجاد نسخهم المتطابقة. إن القصص تحظى بشعبية خاصة إذا كان لها نهاية سعيدة (أو أن تكون قصة مثيرة جدًا، مثل وفاة خوسيه ألبرتو في أحضان خيال مأنة الحب الذي اختاره خوسيه ليكون

(4) مجلة كانساس سيتي ستار، 18 ديسمبر 2018. (جو روبيرتسون)

(5) كُتب في عدد كبير من الوثائق منذ 28 فبراير 2018 أن الممثلة العالمية باربرا ستريسند قد استنسخت كلبتها لأليفة التي ماتت. وكان اسمها سامنث (إنني أعتمد على abc net au، بتاريخ 28 فبراير 2018) لقد أرادت باربرا سترايسند أن تعوض خسارتها. ربما يمكن بالفعل تحقيق السعادة من خلال النماذج المتطابقة. ولكنها لم تحتمل باربرا سترايسند الانتظار

نسخة متماثلة منه). الغريب أننا قد نجد أن النسخ المتطابقة والسعادة من المكونات الرئيسة لقصة ما، والمزيد من الانتظار والاقتران بين فردين، كما هي الحال في الزواج، والارتباط الوجداني والعاطفي، وإنجاب الأطفال. ما أريد أن أوضحه لكم هو أن هذا الجانب غير المتوقع من المعرفة، وحياة الانتظار والزواج والسعادة، موجود حقًا، على الورق (ثقافيًا) وعلى اللسان (الحياة الحقيقية). وأنه موضوع شائع جدًا، وشائع بشكل غير متوقع، ويحتوي على قوة رائعة. إن النسخة المتطابقة في بورتريه «مارجريت إيفانز حاملًا» Margret Evans Pregnant يمكننا القول إنها ليست مبتورة: لذا فإن السعادة المكتسبة، والسعادة المفقودة، هي جزء من موضوع هذا الفصل، تمامًا كما كان في الفصل الماضي وأنا لا أعتقد أن هول بورترسينف كان يمكن أن يحد عزاءً على الإطلاق من ترقب لقاء نسخته المتطابقة. ومن ناحية أخرى، ربما كان سعيدًا جدًا لأنه أصبح والدًا لتوءم.

وبين يديك مكان جيد لتحديد عملية انتظار النسخ المتطابقة في الحياة. ويمكن أن تكتشف أن بين أطراف أصابعك على الإنترنت يمكنك إيجاد فرص رائعة من خلالها تعثر على نسختك المتطابقة[6] كل ما عليك فعله هو الكتابة والبحث الحثيث، وستبلغ السعادة التي تنشدها. يبدو أن هذه التجارة الرقمية تبين أن من يرجو إيجاد نسخته المتطابقة يعتقد إمكانية العثور على صورة متطابقة من أنفسنا في عالمنا، فإن ذلك يجعلنا أكثر رضًا وسعادة، ولكن يجب أن نجدها سريعًا. عليك أن تقلل من مساحة

---

(6) ويمكن الربط بين النماذج المتطابقة في الإنترنت ربطًا مذهلًا. مجلة دي New Scientist، العدد الصادر بتاريخ 10 فبراير 2018، ولكن بعني أكبر محركات اتخاذ القرار في يدي المستهلكين. في عام 2006، وفي الأيام الأولى في عالم التواصل الاجتماعي والمحتوى الناتج عن المستخدم كان رجل العام حسب مجلة التايمز هو «أنت». حيث وضعت مرآة على غلاف المجلة مكتوبًا عليها «مانشيت» يقول «أنت من يتحكم في عصر المعلومات. أهلًا بك في عالمك» وكان هذا الإعلان يبدو ساذجًا في ذلك الوقت، لكنه لم يعد كذلك الآن.

الانتظار. يبدو أنهم يعتقدون أنهم قد انتظروا فترة طويلة. ويبين هذا مدى انقضاء الصبر لدى صائدي النسخة المتطابقة عبر الإنترنت على ذلك الانتظار المخيف. نجد اليوم مواقع عبر الإنترنت تكلفك المال نظير الحصول على الخبرة الرقمية التي تمكنك من النظر في المرآة، من أجل إنهاء الانتظار، وإيجاد الصديق المتفهم القادر على توفير مستوى معين من الارتياح يجعلك تشعر بأنه يشبهك «لم أتمكن من تجاوز النظر إلى وجهها، وبعض التعابير البادية عليها»، وذلك التعليق صادر من نيامه جيني Niamh Geaney، وهي مذيعة تليفزيونية، وطالبة، كانت تبلغ من العمر وقت صدور هذا التصريح 26 سنة، وهي تعيش في مدينة دبلن في أيرلندا. «وبالطبع سيكون رد فعلي: يا إلهي إنه وجهي» لقد تطورت لدى جيني حماسة رائعة لإيجاد نسختها المتطابقة بعد أن عثرت على نسخة أولى، وهي كارين برانيجان Karen Branigan، التي تسكن على بعد ساعة واحدة فقط منها في مدينة دبلن ومنذ ذلك الحين، وجدت نيامه جيني نسختين أخريين من نفسها[7]، حتى إنها أجرت اختبار الحمض النووي لإحدى نظيراتها لمعرفة مستوى الارتباط بينهما. ولكن الاختبار أظهر عدم وجود تطابق، أو أفضل من ذلك أنها مرتبطة بشكل ما، بالرغم من أنهما غير مرتبطتين. وعندما تنظر جيني في المرآة يجب أن تتساءل ما إذا كانت تنظر إلى نفسها أو إلى واحدة من نسخها المتطابقة الثلاث. هناك اسم تقني لرؤية أكثر من صورة واحدة لنفسك، على الأقل في الدوائر النفسية. وهو ما يُطلق عليه ضلالات رؤية الذات، أو (heautoscopy). ويرتبط أحيانًا بوجود ورم دماغي، لكن ذلك أمر آخر لم يكن من المرجح وجوده في قضية نيامه جيني إن اكتشافها لكل هذه النسخ جعلها سعيدة جدًا بحيث شعرت برضا غير عادي، بالرغم من عدم تأكدنا تمامًا من السبب. والآن تتعجل مشاركة تجربتها مع بقيتنا. في رأيي

(7) مجلة دايلي ميل، 20 نوفمبر، 2015، «إنه أمر مريب ومخيف ومرعب»

الشخصي، كلما تجنبت الانتظار قلت سعادتك

جميع القصص الشبيهة لقصة نيامه لا تنتهي هنا. أعدت جيني صفحتها على فيسبوك مكرسة لهذا الاهتمام المحير في الإسراع في البحث عن الصور المتطابقة الخاصة بها. لقد كانت فكرتها هي تمكين الناس من التوقف عن الانتظار فترة طويلة للعثور على صورهم المتطابقة. وحتى هذه اللحظة (وأنا أكتب هذا الكتاب) لديها أكثر من 360.000 متابع على فيسبوك للتعامل مع الصور المتطابقة والسعي وراء السعادة. ولتجنب الانتظار أسست نيامه الآن موقعًا إلكترونيًا رائعًا، وهو موقع مخصص «للغرباء التوائم» Twin Strangers، يمكنك الانضمام إليه واستخدامه، مقابل 3.95 دولارًا، ويمكنك البحث عن صورة لتوءمك. وتذكر نيامه أرقامًا مختلفة عن تلك التي ذكرتها، فتقول: «الآن لدينا أكثر من ثلاثة أرباع مليون مستخدم على موقع «الغرباء التوائم» على تواصل يومي معي». ويعبر الصيادون الموجودون على الموقع من الباحثين عن نسخة متطابقة من أنفسهم عن سعادتهم عندما ينتهي الانتظار إلى إيجاد تلك النسخة في النهاية، ولكن ما السبب في دفع الناس 95 3 دولار على موقع نيامه لمجرد البحث عن «الغرباء التوائم» ممن يتطابقون معهم في الشكل. لا توجد إحصاءات دقيقة تشير إلى مدى شعبية عملية البحث عن الصور المتطابقة في الوقت الحاضر، لكن موقع نيامه جيني في عام 2017 يعطيك فكرة عن مدى اهتمام الجميع بهذا المسعى للتحقق من تلك النسخ.

لكن لنكن أكثر وضوحًا ليس من الضروري هنا أن نتعامل مع الحقيقة، حيث نتحدث هنا عن التعامل مع دافع ثقافي قد يكون من الممتع أن تعثر على شبيه لك، وقد تشعر بأهمية شخصية في قرارة نفسك إذا وجدت نسختين أو ثلاثًا متطابقة معك، وهذا يجعلك تخاطب نفسك فتقول لا بد

أنني أكثر أهمية مما كنت أعتقد. ولكن هل إدراك هذه الحقيقة سيجعل منك إنسانًا سعيدًا؟ يجب أن نلاحظ أن هذا بالضبط ما حدث بالفعل للسيد ريتشارد أنتوني جونز في مدينة كنساس. ولكنني أشك أن الأمر نفسه سوف يحدث لبقيتنا. سنكون أكثر تقاربًا من حالة مارجريت إيفانز. لكن كثير من الناس يصممون أن التوقف عن الانتظار، والبحث عن شريك، والعثور عليه، سوف يجعلنا أكثر إحساسًا بالرضا. ومحاولة إقناعهم بغير ذلك أمر صعب جدًا. ولكن من يريد أن يجادلهم؟ ربما هذا هو السبب الذي جعل قصة ريتشارد أنتوني جونز منتشرة انتشارًا جنونيًا.

وفي عالم النسخ البشرية الرقمية تتغير بعض الأشياء سريعًا إلى حد ما. وذلك بالضبط ما نتوقعه في عالم يرتفع فيه الدوبامين عندما تقفز النسخ البشرية التي نعثر عليها من خلال الإنترنت للغطس من أعلى برج حمام السباحة. كما رأينا في لوحة أونشي. ولكن يبدو الأمر أكبر من مجرد محاولة السعي ببساطة إلى إيجاد السعادة. إن العثور على صورة متطابقة، أو حتى العمل على إنتاجها، ربما يختلط بتأكيد أهمية الذات. التي أشرت إليها في الفقرة الأخيرة. هل يمكن أن يكون تأكيد الذات- في ذاته- نسخة من السعادة التي يمكن تحقيقها إذا تمكنت فقط من تجنب الانتظار؟ إليكم مثالين اثنين. في أحدث إصدارات جوجل، ظهر تطبيق Google Arts & Culture (الإصدار الأخير عندما كنت أكتب هذا الكتاب في منتصف فبراير 2018- تم إصدار التطبيق الأصلي مطروحًا به خاصية اصطياد النسخ المتطابقة عام 2016) ويحتوي على ميزة تسمح لك «بتفتيش أكثر من 1200 متحف في أكثر من 70 دولة للعثور على نسختك الفنية المتطابقة»[8]. «التقط صورة سيلفي ثم جرب أن تجد (بورتريه) لوجهك في أي متحف من المتاحف»، وكان ذلك اقتباسًا من صحيفة واشنطن بوست لوصف التطبيق. وقد

(8) واشنطن بوست، 15 يناير، 2018، (إيمي وانج)

أصبحت هذه الميزة منتشرة- لبعض الوقت- انتشارًا كبيرًا وسريعًا عبر الإنترنت. والآن يوجد تطبيق بادو Badoo بالنسبة إلى أولئك الذين هم أكثر اهتمامًا بالمواعدة من الذهاب إلى المعارض الفنية، وفي العثور على النسخ المتطابقة لأنفسهم، ولغيرهم. إن بادو هو تطبيق للمواعدة. مقره الرئيسي المملكة المتحدة. سوف يجعلك قادرًا على البحث عن شركاء وأصدقاء في المستقبل دون الحاجة إلى الانتظار فترة طويلة. ولكن الحيلة هي أن شركاءك المستقبليين هم أزواج متطابقة من مشاهيرك المفضلين فور أن تفرغ من الانتظار، وفور أن تجد نسختك من المشاهير، سوف تجد مكانك معهم، ثم تأمل أن ينخدع أصدقاؤك بمواعدة شخص شبيه بالمشاهير، وتجد نفسك سعيدًا. يستخدم تطبيق بادو تقنية التعرف على الوجه facial recognition لإنشاء قائمة كبيرة ومتنامية من نسخ المشاهير. في أحد التقارير الصادرة في صحيفة الجارديان، ادعى صناع تطبيق البوب the pop app أنهم تمكنوا من إيجاد 1,405 نسخة طبق الأصل من إد شيران Ed Sheeran، و345 نسخة من ديفيد غانديز David Gandys، و975 نسخة من جيك جيلينهالز Jake Gyllenhaals، و751 نسخة من إدريس ألبا Idris Elbas، و342 نسخة من كايلي جينيرز Kylie Jenners على المنصة. في حين يتصدر كارا ديلفين Cara Delevingne، وروبرت باتنسون Robert Pattinson، وفيرن كوتون Fearne Cotton المشاهير الأكثر بحثًا على جوجل في المملكة المتحدة[9]. مَن كل هؤلاء الناس؟ ولم يظهر بيتر توهي Peter Toohey على الإطلاق. ولن يتمكن أبدًا من إيجاد السعادة ومع ذلك أعتقد أن منطق هذا التطبيق أسهل في الفهم من «الغرباء التوائم» Twin Strangers. وتتحد مفاهيم الانتظار والعثور على النسخة المتطابقة والسعادة مرة أخرى لتكوِّن معًا أغرب مبدأ ثقافي. مبدأ؟ أجل. شخصيًا لا أعرف أي شخص وجد شبيهًا موثوقًا به.

(9) الجارديان، 10 يوليو، 2017، (هانا ديفيد)

تظهر النسخ المتطابقة والانتظار والسعادة في أكثر الأماكن غير المتوقعة، وذلك أمر مثير على الدوام. هناك دائما وسيلة للتخلص من الانتظار، فهذا ليس عالم آلان روبينوفيتس من السيروتونين الذي لا يتغير في بعض الأحيان، تلبي الجراحة التجميلية بشكل مثير الرغبة في صنع نسخة من نوع ما، فتشبع الحاجة إلى التخلص من الانتظار وتحقيق السعادة. فبدلًا من الانشغال في سعي ممل لإيجاد قرين شخصي، أو قرين أي شخص آخر، والاستمرار في البحث على محركات البحث على الإنترنت، قد يرغب بعضنا في أن يحزموا أمورهم بأيديهم، أو أيدي أطبائهم، وأن يجعلوا من أنفسهم نسخة بأسرع ما يمكن، ويغيروا أشكالهم ليجعلوا من أنفسهم نسخة مفيدة لشخص ما على تطبيق بادو وربما يعيدون تشكيل أجسادهم على غرار مواصفات الآخرين، أو بعض شخصيات الكتب الهزلية، أو حتى الدمى، مثل المصارع كين، والدمية باربي. إنهم منتظرون، وفي النهاية بعد الانتظار يأملون تجاوز حظ النسخ التي يصنعون أنفسهم منها، ويفكرون في المال والشهرة التي سوف تستتبع ذلك. ويمكننا التعرف على إحدى تلك المجموعات المحببة جدًا، واسمها «العمليات التجميلية من أجل هوليوود» Plastics for Hollywood. حيث أسست مارسيلا إغليسياس Marcela Iglesias وشريكها في العمل باتريك Patrik، وكالة للمواهب لتمثيل هؤلاء «البشر المعدلين» modified human beings، ويشرحون لنا أنه سيُعرَض برنامج تليفزيوني واقعي يشارك فيه 12 زوجًا من النسخ المتطابقة. «وسوف يشمل ذلك البرنامج رودريجو ألفيس Rodrigo Alves، وجاستن دجيدليكا Justin Jedlica المقلدين لشخصية كين[10] بيكسي فوكس المقلدة لشخصية جيسيكا رابيت Jessica Rabbit، وجينفر بامبلونا Jennifer Pamplona مقلدة كيم

(10) الذي تعرض لكثير من عمليات تجميل الأنف إلى درجة أن الأطباء كانوا يخشون أن يأتي يومًا يخسر فيها الرجل أنفه (دبلي ميل، 7 يوليو، 2017، كلمنس ميكالون Clemence Michallon)

كارداشيان وفيني أو Vinny Ohh المقلد للكائنات الفضائية» وربما يتوفر اخرون: «حتى إن بعض تلك النسخ الناتجة عن العمليات الجراحية التجميلية تستنسخ صورة جديدة من أصل ما، مثل ذلك الشخص الذي يقلد شكل بريتني سبيرز Britney Spears، واسمه برايان راي Bryan Ray، وأريا فيتش Area Veach التي تعد نموذجًا أوليًا للمتحولين جنسيًا، ومغني البوب المعروف شام إبراهيم Sham Ibrahim، والبرازيلي كين دول موريسيو غالدي Ken Doll Mauricio Galdi [الذي كان يستهدف استئصال أربعة أضلاع]، «وتلك الدمية المعروفة بالعروسة المطاطية Ophilia Vanity، والقزم الحي لويس بادرون Luis Padron»[11]. وجميعها نسخ ناتجة عن عمليات تجميل. إنهم ينسلخون من نسخهم الأصلية لإنشاء إصدارات أحدث من أنفسهم، ولكن أصبح الآن لدى بيكسي فوكس، التي بدأت مع استنساخ شخصية جيسيكا رابيت، أفكار مختلفة. إنها تريد أن ينظر إليها الجميع على أنها مثل البطلات الخارقات، وتنتظر حتى يتغير شكلها تمامًا، وأن تُصدر سلسلة خاصة بها من الكتب المصورة وتحقيقًا لهذا الغرض، خضعت بيكسي لسلسلة من العمليات- «أربع عمليات لتكبير الثدي، وعمليتين لشفط الدهون، ورفع الحاجب والمؤخرة، وزرع مخصوص لتغيير لون عينيها»، وكان آخرها تلك التي نفذها الطبيب المتخصص د/ بارك من مستشفى ID في مدينة سيول، في كوريا (مستشفى متخصص في ضبط المزدوجة للعملاء، حيث كانت عملية الفك مؤلمة لإعطائها ذقنًا مدببًا تمامًا مثل شخصية الكتب المصورة». وتسمى هذه العملية جراحة رسم الحرف V، وتعتقد أنها «ستحقق مظهرًا أكثر تماثلًا، وسيكون لها تركيبة فك يشبه البطل الخارق، فقالت إن تلك العملية ضرورية: «سوف تجعل جراحة الفك وجهي يبدو أصغر؛ مما سيجعل عيني تبدو أكبر». يا للهول، تبدو

(11) ديلي ميل، 26 مايو، 2017، (سيوفرا برينان) Siofra Brennan.

تلك العملية مفزعة إذا أطلنا التفكير فيها «لقد قمت بقطع عظام خدي، وإعادة ضبط الذقن، ثم نقل حلق الفك إلى مكانه مرة أخرى؛ لذلك وجبت إعادة بناء الوجه والعظام». حظًا سعيدًا، بيكسي الشجاعة[12].

وتصف مارسيلا إيجلاسيس Marcela Iglesias نسختها بهذا الشكل: «لقد أنفقت السيدات اللائي يريدن أن يتحولن إلى نسخة من بعض الدمى مبلغًا يزيد على ثلاثة ملايين دولار على العمليات الجراحية والإجراءات الأخرى، بهدف تغيير شكلهن» «وأنفق جاستن جيدليكا Justin Jedlica وحده خمسمئة ألف دولار، كما أمّن رودريغو Rodrigo على جسمه بمليون دولار». وتضيف مارسيلا Marcela قائلة: «إنني دهشة من الأشخاص الذين يمكنهم الوصول بمظهرهم إلى شكل معين، أو تحويل أنفسهم إلى أشكال شخصيات مشهورة». عاشت كثير من الدمى التي أمتلكها في الجسم الخطأ معظم أيام حياتها، ومن خلال تغيير مظهرها أصبحت أكثر قدرة على تحقيق أحلامها. مَن أنا لأحكم على تحقيق أي من هذه الدمى أحلامها أيضًا؟»[13]. ولكن سعيها إلى إيجاد نسخ من أنفسها لا يسمح بالانتظار. لست متأكدة من مقدار السعادة التي يمكن أن تحققها قطع البلاستيك المصنوعة على عجالة لتصبح ذات أشكال جذابة. ربما الكثير.

ربما من المخيب التحول من عمليات التجميل الملهمة إلى المبدأ الثقافي المتمثل في كيفية تطويع طب التجميل والطب البديل من أجل إنتاج نسخ من شخص ما. لن نجد بطلًا هنا. لكن يمكن للطب البديل أن يقدم- بحق- بديلًا عن البحث عن النسخة المزدوجة، مع أن ذلك الحل الذي يوفره طب التجميل والطب البديل أقل دراماتيكية بكثير. ولكن بالطبع هو حل أسرع

(12) ديلي ميل، 27 يونيو، 2017، (ستيفاني ليننج) Stephanie Lenning

(13) ديلي ميل، 26 مايو 2017، (سيوفرا برينان) Siofra Brennan

من البحث عن تلك النسخة بين الملايين من البشر، حيث يقدم لنا الطب نسخة متطابقة تحمل أعرب الأسماء كلها. المطابقة الحيوية bioidentical تكمن فكرة إيجاد النسخة المتطابقة. أو على الأقل الهدف من ورائه، في تسمية علاج مضاد للشيخوخة وانقطاع الطمث يسمى العلاج الهرموني بالمطابقة الحيوية bioidentical hormone therapy BHT. يبدو الأمر كما لو أن أي شيء متطابق (مستنسخ. كما يمكننا أن نقول) شيء جيد بالنسبة إليك. وربما يعيد السعادة. وسرعان ما ينهي الانتظار المؤلم لبعض الظروف، مثل انقطاع الطمث. أو وقوع مصيبة الموت. ويقول توم بلاكبورن Tom Blackburn إن: «الفكرة هي أن الهرمونات المستمدة من بعض أنواع النباتات، مثل فول الصويا. وتلك التي يركبها الصيادلة حسب الطلب للمرضى بشكل فردي، متطابقة تقريبًا في بنيتها مع تلك التي تنتجها أجسام النساء. وبسبب ذلك، يقول المدافعون عنها إنها أكثر أمانًا وفاعلية من العلاج الهرموني التقليدي»[14]. ويبدو أن BHT له أثر: لأنه نسخة مطابقة هرمونية، في خلق توءم متطابق مما هو موجود بالفعل داخل البشر. ومن يدري إذا كانت تلك النسخة الطبية ستنهي حالة الانتظار حقًا، وتوفر السعادة والرضا تمامًا كما تسبب السيد ريكي في السعادة لريتشارد؟ لكن الممثلة المليونيرة الخالدة سوزان سومرز Suzanne Somers، البالغة من العمر 71 عامًا في عام 2018، أقسمت أن هذا الأمر نجح معها، وهي التي كتبت اثنين من أكثر الكتب مبيعًا عن هذا الموضوع. وتقدم عناوين كلا الكتابين حماسة غير متوقعة لموضوع التعجل: «لا أشيخ» Ageless، و«أنا ما زلت شابًا» I'm Too Young for This. وأنا أيضًا[15]

(14) ناشيونال بوست، يونيو 28، 2017.

(15) في ديسمبر 2018، أجبر رئيس نيجيريا في ذلك الوقت، محمدو بوهاري، على أن يصدر إنكارًا عاجلًا للأخبار الواردة عن وفاته، وبأنه قد كان مستبدلًا به في منصبه نسخة منه لرجل سوداني شبيه به يُسمى جبريل. ربما صدرت تلك التقارير عن وفاته نتيجة تغيبه وعدم ظهوره للعلن منذ دخوله =

ربما ليس من المرجح إيجاد كثير من الحقيقة في أي من ذلك- فالأشخاص المستنسخون عبر الإنترنت أجسام معاد بناؤها، أو مستنسخون بيولوجيًا. لا يوجد سوى الحظ السعيد المفاجئ لرجل مثل ريتشارد أنتوني جونز من كانساس سيتي، ومارجريت إيفانز لبقية الوقت. لكن الحقيقة تنطبق على ذلك الأمر عندما تتعامل مع الممارسات أو الموضوعات الثقافية. كل ما أحاول توضيحه ببساطة، هو أن هذا التقليد الثقافي موجود، وأنه متكرر بما يكفي ليمثل جانبًا مهمًا من حياة الانتظار. ولكن هل تعمل هذه الطريقة كما تدعي أنها تفعل؟ يوصح الراحل روجر جرينييه Roger Grenier، الكاتب والصحفي والرائد الإذاعي (أيًا كان ذلك)، وراعي كلية باتافيزيك («جمعية ملترمة بالبحث»)، فكرة مفيدة في مقاله «الانتظار والأبدية» Waiting and Eternity فيما يتعلق بأخطار هذا السعي المتسرع لتحقيق الإشباع، التي سبق أن ناقشناها. ويمكن أن تنطبق ملاحظاته أيضًا على عناوين كتب سوزان سامرز. وتوصل جرينييه برؤيته إلى أن: «البؤس هو عندما لا يكون هناك مزيد من الانتظار» Misery is when no more waiting is possible. ومضى يقول: «كتب جان بولان Jean Paulhan في رسالة وجهها في سبتمبر 1923 إلى مارسيل بونج عن أحد المبشرين، أعتقد أنه كان الأب بريدين Bridaine، الذي ادعى أن الملعونين من الرب the damned فقط هم من لا يتوقفون عن السؤال «كم الساعة الآن؟»، وأن صوتًا مروعًا لا يتوقف أبدًا عن الإجابة قائلًا «إنها الأبدية!» Eternity. أفترض من هذا أيضًا أنه إذا كانت لا تزال لديك القدرة على الانتظار، فلا بد أن الفرصة لتحقيق السعادة ستكون متاحة أمامك. ليس هناك ما يسمى انتظار؛ لأن الأبدية

المستشفى في المملكة المتحدة لمدة خمسة أشهر في عام 2017، نقلًا عن تقرير صادر عن صحيفة جارديان بتاريخ (3 ديسمبر 2018). فقد كانت التغريدة التي صرح فيها الرئيس على حسابه، الذي يتابعه 1.76 مليون شخص، أكبر تغريدة حصدت استجابة من المغردين.

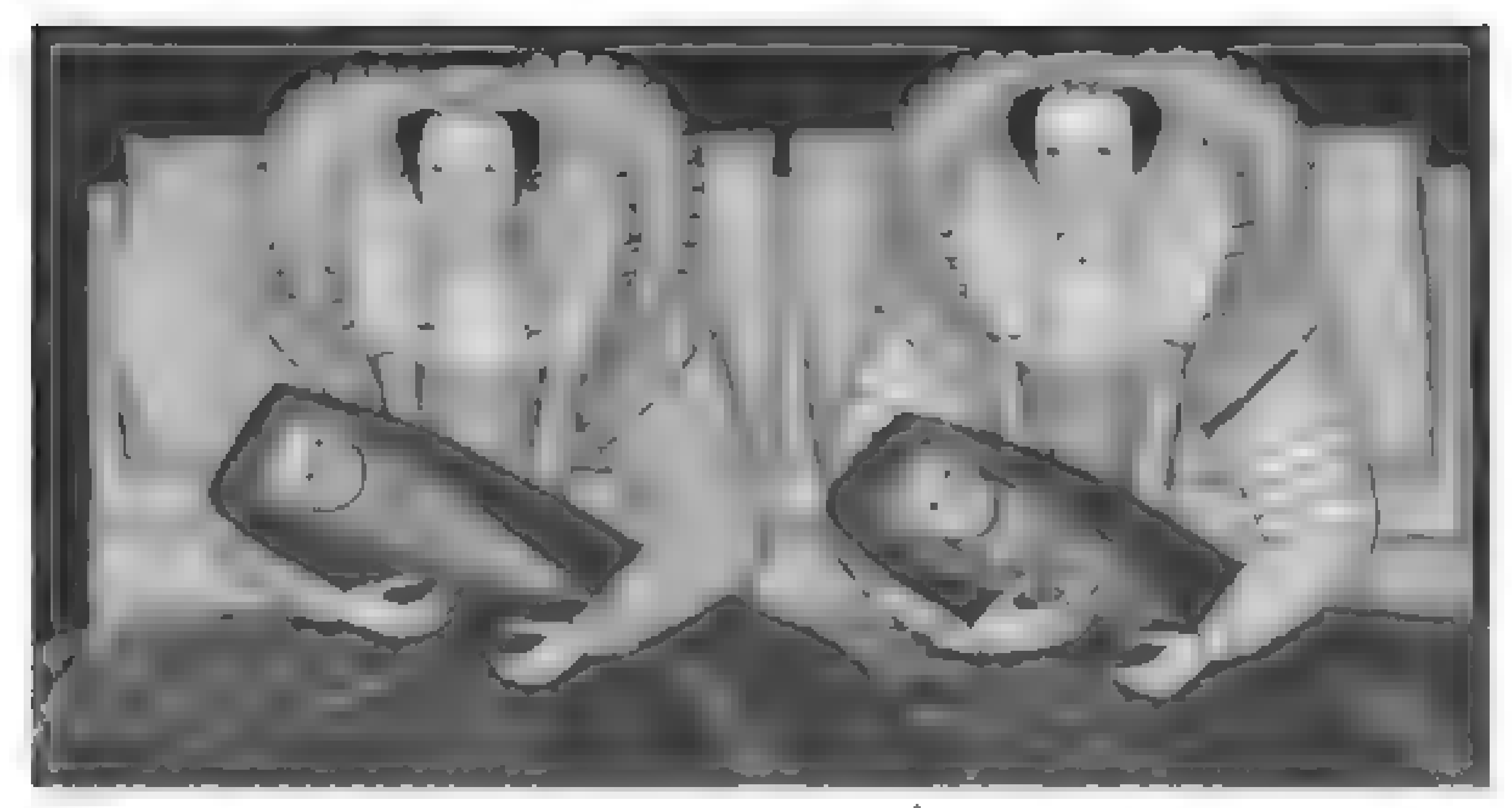
هي الباقية. وأريد أن أقول إنه إذا توافرت لنا محاولة لوضع شعار أخلاقي فيما يتعلق بإيجاد النسخة المناسبة لنا، والبحث عن السعادة، وتجنب الانتظار، وغيرها من الموضوعات المتعلقة بما ذكرناه سلفًا، فلن نجد سوى الصيغة التي قدمها لنا روجر جرينييه Roger Grenier. وتستند كل هذه النسخ المتسرعة إلى الرغبة في السعي إلى إدراك السعادة، أو كما يجب أن أقول أيضًا، الرغبة في الإشباع، التي هي محكوم عليها بخيبة الأمل بسبب نفاد الصبر مع طول الانتظار[16] فبماذا يمكننا أن نعرف الوقت الآن؟ كم الساعة الآن؟

إن القصص التي تنطوي على السعي إلى إيجاد نسخة من نفسك لا تتضمن انتظارًا ليست كلها ناتجة عن الرغبة في الإشباع. كما أنها ليست جميعها نتاج البؤس الصريح الذي مر به ريتشارد أنتوني جونز في السجن طوال 17 عامًا بسبب إدانة خاطئة: فإنه من المحتمل أن يصبحوا سعداء[17]. فقد يلتقط الزوجان في بعض الأحيان المتعة القائمة على السيروتونين التي أظهرها أشخاص مثل السيد هول بورتر سينف الذي يستعد لواجباته الأبوية. من أجمل الأمثلة وأهمها التي واجهتها فيما يخص موضوع البحث عن قرين، تلك اللوحة المجهولة من القرن السابع عشر لتوءم، فهي نابعة من الحياة الواقعية، مثل عالم السيد سينف، وهي أيضًا عن الأطفال.

---

(16) أصدر تشارلز ستانج Charles M. Stang، من معهد هارفارد الديني، كتابًا مثيرًا بشكل خاص جدًا بعنوان «*Our Divine Double*»، شركة جامعة هارفارد للنشر، عام 2016. وسأترك هارفارد بريس يعبر عن الكتاب بكلماتها «ماذا لو اكتشفت أنك نفسك لست نفسك، أو لست أنت بشكل كامل، بل أنت نصف قدر من شيء ما، وأنه يوجد قسم آخر مقدس؟ ولقد سادت هذه الفكرة الخيال لدى شرق المتوسط خلال القرنين الميلاديين الثاني والثالث».

(17) تصنع السيدة هولي مانياتي Holly Maniatty، حسب تقرير منشور للصحفية شيكاساناهوري Sheeka Sanahori، يو إس إيه توداي، 15 مايو 2007، نوعًا مميزًا جدًا من تجربة المزاوجة تنهي الانتظار الذي ينتظره المعاقون سمعيًا، حيث تستخدم الغناء لتوفير مرآة للأصوات الأصلية للأغاني في الحفلات الموسيقية التي يحبها محبو الراب والهيب هوب، مثل وو تانج كلان، وسنوب دوج، وبيستي بويز، وإمينيم، وجاي زي يمكن للسعادة والنسخ المتطابقة أن ترتبط هنا



الشكل رقم (4 1) أختان توءم وأُمان تنتظران بسعادة في سريرهما Twin mothers waiting happily in bed سيدات عائلة كولموبديللي 1600-1610. من أعمال فنان تشكيلي مجهول- بريطانيا ألوان زيت على خشب- مقاس 886 مم × 1723 مم قُدمت هذه اللوحة من أعمال فنان مجهول للمرة الأولى عام 1955. معرض تايت للفنون- لندن جميع الحقوق محفوظة. معرض تايت. لندن. 2019

في سياق الملاحظات المكتوبة على موقع معرض تايت Tate Gallery على الإنترنت، يُشار إلى تلك اللوحة بعنوان «سيدات عائلة كولمونديللي» Cholmondeley Ladies (الشكل 1 4). كما كُتب نقش بالحروف الذهبية أسفل يسار اللوحة قائلًا: «اثنتان من سيدات عائلة كولمونديللي، وُلدتا في اليوم نفسه، على السرير نفسه». «يا لها من مصادفة سعيدة أن تولد مع قرينك في اليوم نفسه، وتبدأ فترة حضانتك معه- إنها حالة رائعة من الاقتران السعيد هل السيدتان توءم متطابق. ربما زوجان من الحياة الواقعية؟ إنهما توءم بالطبع. لكن الأخت التي على اليسار أكبر قليلًا (وتلقي بنظرة ثقيلة على وسادتها) من تلك على اليمين ويداها موضوعتان بشكل مختلف. إنها بالتأكيد أكثر تأثرًا (عيناها وفمها أكثر انحدارًا قليلًا، كما أن الأختين التوءم لديهما لون أعين مختلف. إحداهما ذات عينين زرقاوين.

والأخرى ذات عينين بنيتين). الاختلاف واضح في ملابسهما ومجوهراتهما. فور النظر بقوة أكبر (فالأخت التي على اليسار مثلًا لديها فستان أكثر زخرفة، وقلادة أثقل وزنًا). ولكن عليك حقًا أن تبحث بقوة ودقة أكثر من ثلاث مرات لملاحظة هذه الاختلافات[18]. في النظرات الأولى والثانية والثالثة، تبدو الأختان مثل توءم متطابق تقريبًا بالنسبة لي[19]. إن لوحة سيدات عائلة كولموندليلي هي الاستحضار الأقرب للمثالية لانتظار السعادة بسماحة. وللبحث عن القرين، وكذلك للإشباع هاتان المرأتان متطابقتان تقريبًا، وهما متقاربتان في سرير واحد مع أطفالهما المتماثلين تقريبًا، وينتظران معًا حدوث الشيء الأفضل والأكثر إسعادًا حتى لو كان الأطفال فقط يغلقون أعينهم الشبيهة بأعين الحشرات من أجل البدء في إراحة أجسامهم المستيقظة منذ فترة هناك حياة لهاتين الأختين خارج هذا الإطار بالطبع، ولكن لا يبدو لي- ولو للحظة- أنهما تكترثان كثيرًا بالمكان الموجودتين فيه الآن. إن السعادة للمشاهد ولموضوع اللوحة (الموضوع الذي يحيط به إطار في الصورة) هي نتاج كون الأختين توءمًا، وانتظارهما المستسلم للوضع الحالي. لو سأل روجر جرينييه هؤلاء النسوة سؤال الانتظار، «كم الساعة؟» ربما نظرن إلى ساعة من أي نوع: ومن ثم أعطينه الجواب الصحيح.

(18) وينتهي الوصف الذي أورده تيت كما يلي: «لفنان غير معروف، ولكن الأعمال يُنظر إليها على أنها قد رُسمت بجوار مزرعة كولموندلي في تشيشاير Cheshire» وتلك الوقفة والنظرة إلى الأشخاص في الصورة لم تكن مألوفة بين الفنانين التشكيليين الإنجليز في ذلك الوقت، ولكن كثر استخدامها في منحوتات المقابر

(19) ويقدم معرض تيت سلسلة قصيرة عائلة كولموندلي التي ترتبط باللوحة. اللوحة كانت ضمن تشكيلة لوحات محفوظة ضمن تشكيلة لوحات عائلة كولموندلي لدى السيد توماس كولموندلي، وهو الابن الثالث للسيد هيو كولموندلي الراحل من زوجته ماري كولموندلي، واللوحة لسيدات عائلة كولموندلي ويرجح جون هوبكنز (1991) أن اللوحة تصور اثنين من بنات السيد هيو كولموندلي والسيدة ماري- السيدة ليتس، الزوجة الأولى للسير ريتشارد جروسفينور، البارونة الأولى وهي والدة للسير ريتشارد جروسفينور، البارونة الثانية، وماري كالفيلي التي توفيت عام 1616، وهي زوجة جورج كالفيلي

وماذا بعد عن التوائم المتطابقة، والانتظار، والسعادة[20]؟ هناك كثير من القصص عن المشكلات التي تحدث بين التوائم، ولكن يحدث العكس كذلك في كثير من الأحيان. الروابط بين التوائم مثالية في الغالب، كما رأينا مع الأخوات من عائلة كولمونديللي. وربما هذا هو السبب في إقامة مهرجان التوائم السنوي في الولايات المتحدة ويحضر هذا المهرجان جميع أنواع التوائم، المتطابقة وغير المتطابقة، وجميعها تعد من إصدارات العصر الحديث للأخوات من عائلة كولمونديللي، من جميع أنحاء العالم- بعد عام من الانتظار للإعداد للمهرجان حتى يتمكنوا من المشاركة في أنشطة التوءمة والعثور على مزيد من الإشباع مرة أخرى. يُطلق عليه مهرجان أيام التوائم Twins Days Festival، ويُقام هذا الاحتفال في عطلة نهاية الأسبوع للتوائم وأشباه التوائم في بلدة توينسبورغ، في ولاية أوهايو الأمريكية. سميت المدينة باسم التوءم المتماثل موسى وهارون ويلكوكس Moses and Aaron Wilcox، اللذين كانا مستوطنين للقرية. ولقد شهد عام 2016 الذكرى الأربعين للمهرجان الذي اجتذب أكثر من 2000 زوج من التوائم للاحتفال بأيام التوائم في توينسبورغ بولاية أوهايو. بدأ المهرجان عام 1976 (وهو العام نفسه الذي تصادمت فيه طائرتان نفاثتان للركاب في 10 سبتمبر تصادمًا كارثيًا فوق مدينة زغرب)، ويقام سنويًا في أول عطلة نهاية أسبوع في شهر أغسطس. ويقول بعض الناس إنه أكبر تجمع للتوائم

(20) وقد اقترح أحد ممن حكّموا هذا الكتاب أن حالات التوائم الواقعية الحقيقية التي يتم فصلهم عند الولادة، أو في أي وقت آخر، هي من الموضوعات التي سوف تعزز وتوضح الرابطة بين الانتظار والنسخ المتطابقة والسعادة من خلال حياة واقعية. ويقترح هذا القارئ كمثال، كتاب «الانتظار»، من تأليف كاثي لاجرو Cathy Lagrow، وهو كتاب عن امرأة اسمها مينكا Minka، تلد بعد اغتصابها في عمر السادسة عشرة، ثم تتنازل عن ابنتها الرضيعة للتبني، ولكنها تحب ابنتها تلك، وتتمنى أن تقابلها يومًا ما، وظلت على ذلك حتى بلغت سن التسعين وأخيرًا تقابل ابنتها عندما تبلغ الابنة سن السابعة والسبعين. ولقد كتب هذا الكتاب حفيدة مينكا. وهذا يدل على أن هذه الرواية مأخوذة من قصة حقيقية

في العالم. ونقل عن أحد المشتركين المنتظمين الذي ينتظر طوال العام هذا المهرجان المخصص للأقران قوله إن عامل الجذب الرئيس بالنسبة إليه في أيام التوائم هو «مقابلة أشخاص من جميع مناحي الحياة يفهمون ما يعنيه وجود نسخة طبق الأصل منك في هذا العالم»[21]

من المنطقي أن تكون حياة التوائم المتطابقة الأبرز على الصفحة، كما هي الحال في الحياة الطبيعية. لقد أُعدت كثير من المسرحيات والأفلام عن التوائم الملتصقين الذين تم فصلهم بعد الولادة. بالرغم من حقيقة أن ليس كلهم ينتهي بهم أمر لم الشمل إلى السعادة فكثيرًا منهم يحدث معهم ذلك، وتتحقق لهم السعادة المنشودة. من أقدم كتاب القصص المصورة في التاريخ الكاتب الروماني القديم بلوتوس. وقد كتب مسرحية باللغة اللاتينية في القرن الثاني قبل الميلاد عن توءم متطابق يطلق عليه اسم «الأخوان مينيشمي». وتصف المسرحية انفصال شقيقين في منتصف العمر، وكلاهما يدعى ميناخموس، وانتظارهما إلى الآن، بشكل مربك. وقد فُصل التوءم المتطابق عند الولادة، حيث انتهى المطاف بأحدهما في سيراكيوز، والآخر انتهى به المطاف فيما يعرف الآن بدوريس في ألبانيا (تسمى إيبيدامنوس، وهي مدينة ساحلية في المسرحية). وتنتهي لعبة الانتظار الطويلة باجتماع التوءم معًا وينتقل كلاهما إلى سيراكيوز في صقلية

(21) يمكن أن تصنف التوائم السيامية المصورة، حيث يبدو أن حياة تشانج وشقيقه إنج، أكثر التوائم الملتصقة شهرة في العالم؛ لأنهما حتى وقت قريب كانا الأكبر سنًا بين التوائم الملتصقين. لقد كانا قريبين جدًا أحدهما من الآخر، بشكل يشبه النسخ المتطابقة. وبالرغم من الفترة الطويلة التي ظلا ملتصقين فيها أحدهما بالآخر وقد سُردت حياتهما بالتفصيل في كتاب من تأليف يونتي هوانج Yante Hung بعنوان «*Inseparable The Original Siamese Twins and Their Rendezvous with American History*». كما يوجد فيلم وثائقي متاح على موقع الفيديو المجاني «Youtube» بعنوان «أبيجال وبريتاني هانسل التوءم الذي يشترك في جسد واحد» وأبيجال وبريتاني كانتا توءمًا ملتصقًا من ولاية مينيسوتا الأمريكية، وكانتا تشتركان في جسد واحد من منطقة الرقبة فما أسفل

مسقط رأسهما لقضاء بقية أيامهما معًا. العثور على السعادة من خلال العثور على توءمك المتطابق هو أيضًا موضوع يحتوي على كثير من «كوميديا الأخطاء» Comedy of Errors الشهيرة للكاتب الدرامي وليم شكسبير. ولا ينبغي العجب إذا قلنا إن بعضًا من مسرحية شكسبير مأخوذ من المسرحية الأصلية للكاتب بلوتس. هناك مجموعتان من التوائم المتطابقة في هذه المسرحية، وكلتاهما تنتهي بسعادة لم شملهما بعد انتظارهما في نهاية المسرحية في مدينة أفسس Ephesus الأيونية. وكانت القصة المفضلة لدي التي تتناول تبادل التوائم، بالرغم من أنني أحاول تدريس رواية بلوتوس بانتظام وكانت الإخوة مناحمي Menaechmi واحدة من المسرحيات التي نقرؤها في أثناء الدرس، هي قصة بالم بيتش لعام 1942. ويحتوي الفيلم على بعض أصداء من نسخة شكسبير عن الموضوع. وقد أخرج The Palm Beach Story السيد بريستون ستورج Preston Sturges، المخرج الأمريكي المتقطع في فترات عمله، الذي تخصص في أفلام لولبية مضحكة جدًا في ثلاثينيات القرن الماضي، وفي أوائل الأربعينيات. ويستخدم بريستون ستورجس فكرة الأزواج المتطابقة من التوائم في هذه القصة لإنهاء فيلمه بسعادة بعد انتظار طويل. ويبدو أن توم جويل ماكريا Joel McCrea أحد أخطر مدخري الأموال في تاريخ هوليوود (الذي كان انتظاره كله ماليًا) وروجته جيري الجميلة كلوديت كولبير Claudette Colbert التي كانت مثلية الجنس، وقضت معظم حياتها تنتظر بفارغ الصبر حتى لا يتم إخراجها على وشك إنهاء زواجهما بعد فترة من الانتظار والمحاولة - إنه مهندس لديه أفكار غير عملية، وغير قادر على دعم جيري، ولا يستطيع الطهي أو الخياطة، أو هكذا كانت شكواها مع تطور الفيلم، تصاحب جيري الساحر المليونير جون د. هاكنساكر الثالث Hackensacker الذي يؤدي دوره رودي فالي Rudy Vall، والذي يبدو في الحياة الحقيقية، حتى سقوطه، أنه لم ينتظر شيئًا،

خاصةً أي احتفال من أي نوع وشقيقته الأميرة سينتيميليا Centimillia (ممثلة الأفلام الصامتة ماري أستور Mary Astor التي لا تنتظر أبدًا في حياتها أي شيء) تسعى إلى كسب توم. لكن توم وجيري لا يمكن لأحدهما العيش بدون الآخر. والحل هو الاستعانة بالتوائم المتطابقة. ولدى كل من توم وجيري واحد. وعندما تفشل مطاردة هاكنساكر Hackensacker لتوم وجيري فإنهما يتخليان عن الانتظار، ويستقران على الاستعانة بالتوائم المتطابقة، حيث سأل هاكنساكر: «لا أفترض أن لديك أختًا» أجاب جيري: «فقط أخت توأم» «حسنًا، وبماذا تعمل؟» «حسنًا، لا تعمل بأي شيء». ينتهي الفيلم بتعاون حون ود هاكنساكر الثالث مع أخت جيري التوءم المتطابقة، والأميرة سينتيميليا مع شقيق توم التوءم المتطابق، ثم تزوج كل منهم بالآخر[22]. وعاشوا جميعًا في سعادة دائمة بعد ذلك، أو كما يقال في نهاية كل حكاية.

يمكن إدراك الغاية من الانتظار، ومن البحث والعثور على الصورة المتطابقة والسعادة في أماكن غير متوقعة. أتساءل: إذا لم يكن الأمر بعيد المنال، هل يمكن أن نجد بعض الكواكب تتطابق مع كوكبنا، أو يتطابق بعضها مع بعض؟ إن البحث عن رؤية أرض أخرى من بين الكواكب الأخرى التي يصلح السكن فيها مثل كوكبنا، تبدو حقيقية بما فيه الكفاية، وهو شيء يظهر في عناوين الأخبار كثيرًا هل يمكننا أن نفكر في وجود تلك الكواكب الخارجية كنسخة من كوكبنا؟ يبدو أن مزيدًا من هذه الكواكب يتم اكتشافها، وإليك مثالًا: «اكتشف العلماء ما يعتقدون أنه كوكب

---

(22) وكان آخر الأفلام التي تناولت موضوع التوائم هو فيلم فرانسوا أوزون بعنوان: «The Double Lover»، الذي تناول قصة امرأة صغيرة في السن «كليو»، مصابة بحيرة فيما يتعلق بأي التوءم تعشق. ومع الأسف لم يؤد انتظارها إلى النهاية السعيدة المرتقبة. وكان هذا الفيلم مبنيًا على رواية من تأليف جويس كارول أوتس (التي كانت تكتب قصصها خلال هذه الفترة تحت اسم روزاموند سميث). وكانت الرواية تحمل عنوان: «Lives of the Twins»

جديد، وهو أقرب كوكب اكتُشف خارج نظامنا الشمسي. إنه كوكب صخري صغير لا يختلف عن كوكبنا كثيرًا، يدور حول أقرب جار نجمي للشمس. يشتبه علماء الفلك منذ فترة طويلة في أن نجم Proxima Centauri سيكون موطنًا لكوكب، لكن الدليل كان بعيدًا تم العثور على نجوم قزمة حمراء خافتة، مثل بروكسيما، لاستضافة مليارات الكواكب الصغيرة التي تدور في مدار قريب في جميع أنحاء المجرة. والآن، وفرت إحدى الدراسات الحديثة أفضل دليل حتى الآن لهدف قريب بشكل محير للبحث عن حياة أخرى في الفضاء»[23].

هذه هي النسخة. لقد كنا ننتظر وقتًا طويلًا لنجد كوكبًا كهذا ولكن أين هي السعادة؟ وأين هو الإشباع؟ ربما كان بإمكانك توجيه هذا السؤال إلى العالم والفلكي الراحل ستيفن هوكينغ Stephen Hawking، حيث زعم هوكينج، عام 2017، في برنامج تليفزيوني علمي لهيئة الإذاعة البريطانية، وهو برنامج عالم الغد Tomorrow's World، أن أمامنا 100 عام فقط مهلةً لنخرج من كوكب الأرض، واستعمار كوكب أرضي آخر شبيه به إذا كُتب للجنس البشري النجاة. إذا انتظرنا طويلًا، قد يتعرض الجنس البشري للإبادة نتيجة وباء من نوع ما، وهذا أخطر تهديد وفقًا للكاتب ديرك شولزي ماكوش Dirk Schulze-Makuch، وديفيد دارلينغ David Darling، في كتابهما المشترك «الكارثة الكبرى» Megacatastropies! تسع طرق غريبة يمكن للعالم أن يفنى بها، أو «قد تستمر الانبعاثات الكربونية في زيادة الانحباس الحراري العالمي سوءًا، وهو ما قد يطلق العنان لإحداث تغيير حاد وخطير في المناخ». يعتقد ديرك شولزي- ماكوش Dirk Schulze-Makuch، المتخصص في جامعة برلين التقنية، أن ستيفن هوكينغ على حق، لكن يجب أن نسرع باستعمار كوكب جديد ونتوقف عن الانتظار، إذا

(23) واشنطن بوست، 24 أغسطس، 2016 (ريتشل فيلتمان).

أردنا أن نجد السعادة مع كوكبنا المستنسخ لكنه يخشى تلك النسخة من الحياة التوءمية التي يمكن أن تنتج عن محاكاة الكمبيوتر للحياة الحقيقية، والتي ربما تعوقنا. ويزعم شولزي أن من بين تلك الأخطار: «أتفق على أننا يجب أن نستعمر كوكبًا في غضون المئة عام القادمة، ولكننا نرى سببًا أكثر اعتيادية للمضي فيه: الخطر الذي يشكله إقامة عالم افتراضي متزايد في الأهمية والتعاظم في الحجم. لماذا نزعج أنفسنا ببناء سفينة فضائية والسفر في رحلة شاقة إلى المريخ ونحن نستطيع أن نمر بأي تجربة أو خبرة نريدها من خلال المحاكاة؟»[24]. حيث يصبح ذلك الكوكب الجديد إحدى النسخ الأرضية التي تشوقنا إلى رؤيتها، وتزداد جاذبية، وتزداد قدرتها على أن تصبح مصدرًا للسعادة. لن يكون هناك تحقيق للسعادة في الحياة في عالم مواز. وهذا يعني تسوية مسألة البحث عن نسخة متطابقة بدلًا من حقيقة الأزواج.

دعونا الآن نتطرق إلى تقرير صغير آخر عن الحياة، وعن البحث عن كوكب بديل. هل يؤدي ذلك حتمًا إلى السعادة؟ وهل يمكنك أن تكون الحكم؟ وهذا يستلزم الانتظار بالتأكيد. تبدأ القصة عندما حطمت رودا ويليامز Rhoda Williams سيارتها بعدما ثملت في إحدى الحفلات. لقد كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط. وقد حدثت هذه الحادثة خارج نيوهافن، في ولاية كونيتيكت، في صيف عام 2006 من بين الأشخاص الأربعة في السيارة التي صدمتها رودا ويليامز، رجل وزوجته وطفلاهما، قُتل ثلاثة. كانت الأم حاملًا، وكان طفلاها صبيًا وفتاة. ونجا الأب، السيد/ جون بوروز، رئيس جوقة الموسيقى في جامعة يال، من التصادم، لكنه بقي في غيبوبة. ومع أن رودا كانت قاصرة، وكانت هويتها محمية من أن يعرفها الجمهور، فقد حُكم عليها بالسجن أربع سنوات. في ليلة الحادث، كانت رودا تشرب مع أصدقائها

(24) نيوساينتست، 10 مايو 2017

في حفل للاحتفال بقبولها في الجامعة. ماذا حدث لرودا بعد الحكم عليها بالسجن؟ لقد حصلت على عمل كحارس في مدرسة محلية. أرادت «عملًا جسديًّا» physically؛ ربما حتى تعاقب نفسها على جريمتها. ربما يمكننا أن نخمن أن عدم الكشف عن هويتها في ذاته هو ما شعرت أنه يستحق. وبغض النظر عن المدة التي عاشتها رودا، فإنها لم تظن- ولو للحظة- أنها تستحق السعادة كما أراد رودا بشدة أن تعتذر لجون بوروز، الناجي الوحيد من العائلة. ولكن يبدو أن ذلك الرجل المتخصص في الموسيقى، قد فقد منذ الحادث كل ما كان يهتم به في حياته، وأصبح مكتئبًا، وأهمل نفسه، بالرغم من تعافيه من غيبوبته عاش بوروز وحده في اضطراب اكتئابي grimy disorder، واستقال من وظيفته في جامعة يال.

لن تجد هذه القصة منشورة على صفحات الصحف في مدينة كنساس مثلًا، ولكنك تجده في فيلم من إنتاج مستقل، عُرض عام 2011، بعنوان «أرض أخرى» Another Earth، من إخراج مايك كاهيل Mike Cahill (وكتبه بريت مارلينغ ومايك كاهيل، وكلاهما لا ينتمي إلى ولاية كنساس). واجهت رودا ويليامز (التي أدت دورها بريت مارلينغ) جون بوروز (الذي أدى دوره ابن العم الأكبر للنجم العالمي توم كروز، ويليام مابوثر)، لكنها فقدت أعصابها، ولم تستطع الاعتراف بهويتها، ولم تعتذر. بدلا من ذلك، باستخدام الحيلة، أصبحت رودا مدبرة منزل جون، وفي النهاية حبيبته. غير أن كل هذا كان جزءًا من القصة. يمكننا القول إن فيلم «أرض أخرى» من أفلام الخيال العلمي؛ فيمكننا أن نرى في السماء فوق رؤوسنا كوكبًا آخر ضخمًا يبدو أنه يدور حول الأرض. إنه كوكب الأرض 2، كأنه مرآة لكوكب الأرض، أو نسخة منه. إنه بالتأكيد المكان الذي كان يتحدث عنه ستيفن هوكينج، أو ديرك شولز ماكوش، ثم نعرف من أحد العلماء المحترمين أن كوكب الأرض 2 يشبه أرضنا في كل شيء. وهكذا ستكون الحال حتى اللحظة التي يتواصل فيها الكوكبان

فمنذ هذه اللحظة فصاعدًا. من المحتمل أن يبدأ الأفراد على الكوكبين في الارتحال تدريجيًا إلى الطرف الآخر. ولا يصبح الطرفان منفصلان بأي حال من الأحوال. إنني أعرف ما تفكر فيه. وأنني قد عدت إلى الحياة الخيالية، وذلك هو الأمر المغري في الموضوع. ذلك صحيح، وأنت على حق، ولكن حتى الخيال ينبغي أن يُبنى على أساس مناسب في الحياة الواقعية. وهذا هو ما أحاول اقتراحه (وأمل أيضًا أن تستمتع بالفيلم إذا تمكنت من الحصول عليه، فهو أحد أفضل الأفلام التي أُنتجت أوائل عام 2000).

يبدو الأمر سخيفًا؟ لا يبدو الأمر كذلك في الفيلم. ولكن تذكر أن ما نبحث عنه هو موضوع موازٍ للمأزق الذي تعرض له ريتشارد أنتوني جونز، وهو الربط بين إيجاد نسخة متطابقة والانتظار والسعادة. يقدم فيلم «أرض أخرى» هذا النوع من الموضوعات. حيث تدخل رودا مسابقة مقال برعاية إحدى الشخصيات العامة الشبيهة بشخصية إيلون ماسك، ولكن بلكنة أسترالية بدلا من لهجة جنوب إفريقيا. حيث يحصل الرابح على مكان على إحدى الرحلات لزيارة كوكب الأرض2. تخمينك مضبوط. نعم لقد فازت رودا بالجائزة. فازت رودا. ولكنها قامت بعمل نبيل. نعم تخمينك صحيح، لقد تبرعت بتذكرتها لجون بوروز ليزور كوكبه، ويطمئن أن عائلته ربما لا تزال على قيد الحياة على كوكب الأرض 2 ويقبل بوروز تلك الفرصة. ثم ينتهي الفيلم بعد أربعة أشهر. تعود رودا إلى منزل والديها وهي تشعر بالكآبة، ثم تنظر إلى السماء، غير أن كوكب الأرض 2 محاط بالضباب. ثم تعود بنظرها إلى الأرض. لتجد نسخة واقفة منها بالقرب من الباب الخلفي لمنزل والديها. لقد انتهى انتظار رودا الطويل أخيرًا. وهكذا نتعلم أن السعادة- كما رأينا- ليست قاب قوسين أو أدنى: إنها مجرد مسألة انتظار إلى أن تتمكن من مقابلة تلك النسخة منك[25].

(25) توجد حكايات محتملة عن الأرواح المحطمة، أو التي تنطوي على خيط خطير. وقد اقترح جون =

إن التوائم المتطابقة التي كنا نناقشها للتو قبل بضع فقرات هي جزء من الحياة الحقيقية، ولا شك في ذلك، ويبدو أن ارتباطها بالسعادة يعتمد بقوة على الانتظار: ربما لأن التوائم تصبح عاطفية بسهولة، حيث غالبًا ينزلقون إلى عالم الخيال في بلوتوس وشكسبير، إلى عالم خيالي أسميته عالم التفاهم، أو التراث، أو الفكرة الثقافية cultural motif. هذا بشكل خاص ما كنا ننظر إليه للتو في فيلم «أرض أخرى» Another Earth. في الفقرات التالية، سوف أستهدف أن يبقى تركيزي أكثر ثباتًا على الحياة اليومية، والصورة الحقيقية لموضوعي سنعود هنا إلى شيء أقرب إلى تجربة مارجريت إيماتز. أرجو أن يقنعكم هذا أكثر قليلًا بأهمية موضوعي. مَن ذاك الذي يثق بالحافز؟ من يثق بالتراث؟ ربما لا يجب أن تثق بأي أحد، حتى أنا.

وفي الدوائر العلمية، يُعتقد أن مقابلة نسخة أخرى شبيهة بك أمر ليس جيدًا[26] وتؤكد الأبحاث الطبية وجود اضطراب نفسي بحت sheer psychopathy عند تجربة مواجهة نسخة طبق الأصل. وربما يكون ذلك

– مولان John Mullan، وهو محاضر متخصص في اللغة الإنجليزية في يونيفرستي كوليدج – لندن، كما أن له عمودًا صحفيًا باسمه في صحيفة الجارديان، وقدم أخطر عشرة أزواج أو توائم أو صور متطابقة في خياله في العدد الصادر بتاريخ 2 مايو 2009. وسأضيف إلى هذه القائمة رواية النسخة للروائي الإسباني الحاصل على جائزة نوبل في الأدب جوزيه ساراماجو (ولقد استخدمت هذه الرواية أساسًا لفيلم سينمائي، إنتاج عام 2015) ولقد تولى إنتاجه المخرج الكندي دينيس فلنوف بعنوان «العدو الحميمي»، وهو فيلم أشبه بدراسة المرض النفسي، ولقد منح جائزة أفضل فيلم كندي من مهرجان تورونتو السينمائي. ويعد المخرج السينمائي البولندي كريستوف كيسلوسكي Krzysztof Kieslowski الراعي السينمائي لفكرة اضطراب توهم رؤية الذات، حيث أنتج فيلمًا مميزًا جدًا، مع أنه كان متقشفًا جدًا من حيث المؤثرات البصرية، وكان الفيلم بعنوان «The Double Life of Veronique» (1991)

(26) وذلك ما يرجحه أيضًا جيسون ماكلور من أن وجود أو إيجاد النسخ المتطابقة لن ينفعك في تحقيق السعادة، ولو بالقدر البسيط، بل إن ظهورها يرتبط غالبًا بوقوع وشيك لأزمة أو كارثة ما، أو حتى خطر الإصابة بالاضطراب النفسي. رسالة علمية بعنوان Doubling and the Theban Mythological Tradition in Roman Poetry، جامعة كالجاري، 2010. وقد قدمت لي هذه الرسالة العلمية كثيرًا عن الموضوع (وغيره من الحالات التي تتعلق بالنسخ المتطابقة)، وخصوصًا ما يتعلق بها من كوارث يمكن أن تصبح النسخ المطابقة أيضًا نذيرًا باقتراب مصيبة الموت

ما يتحدث عنه العلماء والأطباء كما ذكرت، وأنهم يطلقون عليه هلاوس رؤية النفس heautoscopy. ويا لها من كلمة رائعة وغير متوقعة لوصف هذه التجربة الخطيرة على ما يبدو- إنها ذات أصول يونانية، وتعني النظر إلى نفسك. إنه المصطلح الفني المستخدم في الطب النفسي، وعلم الأعصاب، الذي يُعرف باصطلاح «هلوسة الصور المتكررة» reduplicative hallucination (وهي عبارة مثيرة للإعجاب) لرؤية المرء لجسده عن بعد. هذه الصورة ليست انعكاسك في مرآة، أو صورة لك، أو انعكاس صورتك على شاشة الكمبيوتر، غير أنه شيء حقيقي. إنه أنت تتجول في المكان بدون أن تعلم ويمكن أن تحدث هلاوس رؤية النفس كعرض فصامي، وفي الصرع كما يشيع بين الناس. ويمكن أن يتحول الأمر إلى الأسوأ، حيث توجد حالة فرعية تسمى هلاوس رؤية النفس المتعددة. ربما لن تتمكن من التخمين هذه المرة. ويعني هذا مواجهة عدة صور من الذات- كما تقول نياماه جيني Niamh Geaney- أصيبت بهذا الاضطراب من قبل البروفيسور بيتر بروجر هو أحد علماء النفس من جامعة زيورخ، وهو معروف بربطه بين الخبرات والأحداث الخارقة للطبيعة paranormal experiences. مثل رؤية القديس بولس على الطريق المؤدي إلى دمشق، وعلم نفس الاضطرابات النفسية abnormal psychology وقد وصف بروجر Brugger مؤخرًا حالة رجل رأى ما لا يقل عن خمس نسخ من نفسه[27]. وسيكون ذلك حدثًا مربكًا حقًا، ومن المؤكد أنه لن يقدم دليلًا على السعادة، مهما طال أمد فترة الانتظار. ولم يكن بروجر مصابًا بالصرع epileptic، أو الفصام schizophrenic،

(27) بيتر بروجر Peter Brugger وآخرون «اضطراب رؤية الصورة الذاتية نابعة من الإصابة بنوع من أنواع الهلاوس: تقرير حالة ومراجعة للدراسات السابقة». مجلة كورتكس، (25)4 ، 2006. كما أن لدينا دراسة أولاف بلانك Olaf Blanke وكريستين موهر بعنوان «Out-of-Body Experience Heautoscopy, and Autoscopic Hallucination of Neurological Origin Implications for Neurocognitive Mechanisms of Corporeal Awareness and Self Consciousness». مجلة برين ريسيرش ريفيو، 50، 2005

ولم يكن الرجل سعيدًا جدًا برؤية صور متكررة عن نفسه. لقد كان يعاني ورمًا في المخ في المنطقة الجزرية من الفص الأيسر. حيث يكاد يكون الأمر في هذه الحالات أن إزالة فترة الانتظار بفعل المرض ترتبط بطريقة ما بتقليص القدرة على إيجاد السعادة.

كان سوشيا Sosia من عبيد اليونان القديمة، من مدينة طيبة اليونانية. وكما ترون، لقد عدنا الآن إلى الأفكار التراثية. ولكن من المستغرب أن هذا مثال مذهل للأفكار الثقافية (التفاهم) التي تتطابق مع الحياة الحقيقية. وسأريكم السبب بعد لحظة واحدة. انتظر فقط- سوف نجد الرابط في المرض الغريب الذي يسمى متلازمة كابجرا[28] Capgras Syndrome، والذي سمي باللغة الفرنسية على الأقل على اسم سوشيا، اليوناني من أهل طيبة[29]. عانى سوشيا أزمة عند حدوث مواجهة مفاجئة له مع نسخته الشهيرة. لقد عاد أمفيتريو Amphitryo لتوه من الحرب مع سيده الأسطوري. وعند الباب الأمامي لمنزله، نجده يقابل شبيهه المتطابق ليس هناك ما ننتظره في هذه المواجهة.

إنه الإله (ميركوري) Mercury وقد تقمص شكلًا متطابقًا للعبد سوشيا، ولكن الإله ميركوري، من خلال الإقناع مرة، والعدوان مرة، تمكن من إقناع سوشيا أنه ليس نسخة منه، أعني فقط ليس نسخة من نفسه.

---

(28) وهم كابجرا او وهم كابجرا أو متلازمة كابجرا، هو اضطراب يصاب به الشخص بحيث يتوهم أن صديقه، أو زوجته، أو والديه، أو أي شخص قريب من العائلة (أو حيوانه الأليف) استبدلهم شخص محتال يشبههم بمظهرهم. يصنف مرض وهم كابجرا من متلازمة عدم التعرف الوهمية، وهو نوع من المعتقدات الوهمية التي تتضمن عدم معرفة الأشخاص، أو الأماكن، أو الأجسام (عادة غير مقترنة) قد يكون حادًا أو مؤقتًا أو مزمنا. كذلك يتوهم الشخص أن هناك نسخة تشبهه تمامًا من المظهر الخارجي، وجميع سمات الوجه و الجسم، وكذلك سمات الشخصية (المترجم)

(29) داوي دررايزما Douwe Draaisma ارتداد صدى الصوت ولصور المطابقة والتوهمات، توهم استبدال أحد افراد الأسرة بشخص حر محتال يشبهه تمامًا. التحليل العلمي والدراسات السابقة، 43 (3)، 2009.

إنه الإله ميركوري في صورة سوشيا، وإن هذه النسخة هي العبد سوشيا، وليس العكس. يوافق العبد سوشيا على هذا الأمر، ويتفق على مضض على ذلك مع الإله، حيث لم يكن يُسمح للعبيد بالجدال. إذن، فمقابلة نسخة شبيهة بك- كما ترون في تلك الأسطورة اليونانية الشهيرة- لا تعني النجاح دومًا بالشكل نفسه الذي أنجح الأمر من قبل مع ريتشارد أنتوني جونر، أو حتى هؤلاء الأشخاص الذين عدلوا من أشكالهم، فبعض النسخ لا تحمل أخبارًا سعيدة كما أخبرني السيد جيسون ماكلور Jason McClure من قبل، إلا أنه لن يؤدي بالضرورة إلى الجنون، أو الإصابة بأورام المخ، ولكن عندما تحدث تلك المواجهة فغالبًا ما يكون الأمر مفاجئًا وخاليًا من الانتظار.

دعونا نظل مع تلك القصة الأسطورية، ولو للحظة واحدة فقط. أراد جوبيتر Jupiter، ملك الآلهة، أن يمارس الجنس مع ألكمن: الزوجة المخلصة للملك أمفيترو، ففكر جوبيتر أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو أن يتحول إلى نسخة طبق الأصل من الملك أمفيتريو نفسه، وبالفعل نجح الأمر؛ ولهذا السبب كان ميركوري يحرس الباب الأمامي. كان هذا لمنع الملك أمفيتريو من التطفل على الحدث في أثناء وقوعه، ولكن أمفيتريو التقى- في نهاية المطاف- ملك الآلهة جوبيتر عندما كان لا يزال متحولًا إلى نسخة منه، وكانت أحاسيسه متقلبة مثل سوشيا. وفي هذه الأثناء كانت ألكمين، زوجة الملك أمفتريو، صاحبة النيّات الحسنة، تمارس الجنس مع جوبيتر وكأنه زوجها، ولم تتمكن قط من فرصة يمكن من خلالها التشكيك في أن من ينام إلى جوارها في المضجع ليس زوجها. ولقد عُرف عن أمفيتريو أنه غيور، ولكن على أية حال، لا يمكنك أن تشعر بالغيرة من «نفسك»؟ أليس كذلك؟

الآن بالنسبة إلى نسخة الحياة الواقعية التناظرية، فسوف ترون أنه لهذا السبب أحضرت قصة سوشيا إلى الواجهة. عندما واجه الطبيبان

النفسيان الفرنسيان جوزيف كابجرا (1873 1950-Joseph Capgras)، وجان ريبول لاشو Jean Reboul- Lachaux «السيدة إم» أو "Madame M"، البالغة من العمر 53 عامًا في عشرينيات القرن الماضي، كانت يخيل إليها أنها ترى نسخًا منها في كل مكان[30]. لم يكن هذا مجرد هلوسة رؤية الذات؛ لأنها لم تر فقط صورًا منسوخة لنفسها، لكنها رأت أيضًا صورًا من بعض الأفراد من عائلتها حيث استُبدلت بأفراد عائلتها من زوجها، وأطفالها، وحتى جيرانها، وهي نفسها، نسخ متطابقة بالضبط، وكان كل ذلك جزءًا من مؤامرة تملؤها الغيرة، ولسرقة ممتلكاتها كما استنتجت بنفسها. كانت «مدام إم» في مأزق مشابه لمشكلة سوشيا، ويبدو أن رؤية الصور المتكررة كان شيئًا يأتيها بدون إنذار سابق. ما أحاول توضيحه مع هذه الأسطورة اليونانية، ومع «مدام إم» لجوزيف كابجرا، هو أولًا أنه ليس كل نسخة خاصة تعمل في الحياة الحقيقية بشكل يتناسب مع ريتشارد أنتوني جونز لقاء سوشيا و«السيدة إم» مع نسخة من نفسهما لم يجلب لهما السعادة قط. نقطتي الثانية تتعلق بالانتظار. بين كل هذه الأحداث غير السعيدة، يبدو أن الانتظار كان أمرًا غير وارد. ربما يكون الأمر صحيحًا حقًا أن الانتظار هو العنصر الذي يسمح بظهور السعادة والوفاء في لقاءاتنا مع النسخ المتطابقة. لو أزلنا أمر الانتظار، وأنت قادر على أن تنهي هذا الأمر، ينتهي بك الأمر إلى صراع.

العنصر غير المتوقع في هذه القصة الصغيرة يكمن هنا عندما التقى جوزيف كابجرا وجان ريبو لاشو «مدام إم»، رجعا إلى أسطورة أمفيتريو وألكمين وسوشيا لمحاولة تكوين تفسير ما للحالة المحيرة للمريضة. لا بد

(30) جاي بوستل J. Postel ، دي إف ألين، « The Delusional Misidentification Syndromes. Joseph Capgras، جوزيف كابجراس Joseph Capgras (1873-1950)، سايكوباثولوجي، 27، 1994

أنهم علموا بوجود النسخة الأولى من أعمال بلوتوس Plautus المكتوبة باللغة اللاتينية (التي يعود تاريخها إلى وقت ما بعد عام 200 ق. م) وكذلك نسخة جان بابتيست موليير Jean-Baptiste Molière لعام 1668، وأطلقوا على مرض «مدام إم» اسم العبد المسكين سوشيا poor victimized slave Sosia وفي عام 1923 أصبح المرض «ضلالات سوشيا» ("the illusion of the Sosias"). وفي أيامنا الحالية تأخذ تلك المشكلة النفسية اسمها من المؤلف الرئيس للدراسة والآن يطلق عليها متلازمة كابجرا. أو في بعض الأحيان، «متلازمة ضلالات الخطأ في التعرف إلى الاخرين» delusional misidentification syndrome. أو حتى «متلازمة النسخ الذاتية» syndrome of subjective doubles. ولكن «توهم النسخ» the illusion of the Sosias يثبت بالتأكيد أن التعرف المتعلق بتلك النسخ يمكن أن يتداخل فجأة في الحياة الواقعية.

ما الذي يمكن أن يتسبب في حدوث متلازمة كابجرا؟ وهذا أمر مثير للاهتمام في ذاته، ويستحق أن نتحدث عنه، مع أن هذا قد يقودنا- مؤقتًا- بعيدًا عن موضوع الانتظار، والسعادة، والسعي إلى إيجاد النسخ. بالنسبة إلى المحللين النفسيين في القرن العشرين، وخاصة آنا فرويد Anna Freud، ابنة سيجموند فرويد، يبدو أن متلازمة كابجرا تنطوي على شعور بالذنب بسبب الغيرة، أو-بشكل أفضل- الشعور بالذنب ناتج عن الإحساس بالغيرة. إذا أصبت بهذا الاضطراب فإنك تحاول تهدئة هذا النوع من الذنب من خلال صناعة نسخة كنوع من أنواع كبش الفداء، ثم البدء برفض تلك النسخة المزدوجة كنوع من أنواع الاحتيال، وتترك نفسك تشعر بالغيرة أو الذنب- دون وعي- لأن تلك النسخة ليست الشخص الحقيقي الذي يتسبب في الحزن سوف يكون من الجيد لو أن هذا التسلسل من الأدلة ضعيف، مع

أن التكهنات الرائعة كانت صحيحة، ولكن د. بيتر بروجر Peter Brugger لا يتفق مع ذلك، وأنا كذلك لا أتفق مع ذلك. في الآونة الأخيرة، كتب لي أحدهم أن زوجته عانت اضطرابًا ثنائي القطب bipolar Disorder، ومتلازمة كابجرا في الوقت نفسه، ولم يكن يعرف بالضبط كيفية التعامل مع ذلك الأمر. وربما تشير مشكلة زوجة الرجل أن علم البيولوجيا يرتكز على أعلى قاعدة من اضطراب كابجرا، وأن حالة زوجته ربما ارتبطت بالاضطراب الثنائي القطب. إن التكهنات الفلسفية التي ساقتها أنا فرويد لا تفيد في تفسير حالة عصبية معقدة كهذه وكان المخ، بدلاً من النسخة التي قدمتها أنا فرويد عن العقل الذي تحكم فيه المنطق، هو محور تركيز أحدث أعمال أنا فرويد. د. كريس فيكوني Chris Fiacconi، عالم أعصاب من جامعة جيلف في أونتاريو، درس مؤخرًا ما يحدث عندما يعتقد بعض الناس أن شخصًا ما قريبًا منهم- عادة ما يكون الروج، أو القرين- قد استُبدلت به صورة طبق الأصل[31]. ويخمن فيكوني أننا نعرف الأشخاص باستخدام نظامين عصبيين مترابطين، أحدهما يعالج مع المحتوى الهيكلي للوجه، والآخر في وجود صلة عاطفية من نوع ما بُنيت ونمت مع ذلك الشخص. يبدأ الوعي بالإحساس الداخلي للإنسان. وهذا الممر العاطفي هو الشيء الذي يُحتمل أن يتضرر لدى المصابين بمتلازمة كابجرا، وسوف يشعر أي شخص مصاب بمتلازمة كابجرا أن زوجة غيره تبدو مثل زوجته، ولكن لا يمكن أن تكون هي، هذا لأن «الهالة» glow العاطفية الخاصة بها ليست موجودة أو كاملة[32].

(31) كريس فياكوني Chris Fiacconi وآخرون «الطبيعة وحدود فقدان الشخص للقدرة على التعرف المرتبط باضطراب بوهم وجود محتال متنكر في المنزل»، دراسات في علوم المخ والأعصاب الإنسانية، 24 سبتمبر 2014

(32) استبيان بعنوان «اضطراب كابجراس وغيره من الاضطرابات التوهمية المتعلقة بفقدان القدرة على التعرف على الآخرين»، من إعداد إي بيريل A. Barelle، وجي بي لابوتي Laute، دراسات في علوم المخ والأعصاب الإنسانية.

إن متلازمة كابجرا، والصور المتطابقة، وهلوسة رؤية نسخ متعددة من الذات في هذه الحالات، لا يسعني إلا أن أعتقد أن إزالة الانتظار هو الأمر الذي يجعلها قادرة على إحداث صدمة قوية بحق وعندما أتحدث عن هذه الصدمة فإنني أعني ذلك حقًا وبدون أي إنذار مناسب. يجد من يعانون من هذه الحالات أنفسهم في وضع مربك جدًا، وهي الحالة التي تستدعي هذه الصدمة الناتجة عن ظهور غير متوقع تمامًا للنسخة المتطابقة. ويبدو الأمر كما لو أن إلغاء الانتظار الناتج عن متلازمة كابجرا، وهلوسة رؤية الذات، والضلالات البصرية، يعني إزالة العازل، وتزييت المفاصل بين الأحداث، كما أن ذلك هو ما يسمح بتقليل الصدمة أو حتى الحصول على السعادة. ولا أستطيع إثبات هذا بالطبع، ولكن هذا يتفق مع الطريقة التي كنا نرى بها عمل الانتظار حتى الآن.

وعلى ما يبدو، لا علاقة للانتظار بالنسخ المتطابقة عندما يتعلق الأمر بتلف الدماغ. وربما هذا هو السبب الذي يجعل تجربة التحول إلى هذه النسخ المتطابقة أمرًا مؤلمًا جدًا؛ لذلك دعونا نقضِ مزيدًا من الوقت مع بيولوجيا الأرواح، ونوضح هذه النقطة بشكل أكبر. وفي هذه الحالة، سوف يكون في الأمر مرآة، وكما كان الأمر بالنسبة إلى السيدة مارجريت إيفانز، توجد صورة متطابقة منعكسة في المرآة.

يمكن أن يقول أي شخص مصاب بمتلازمة كابجرا: توجد لدينا «امرأة أخرى هنا» You've got another woman here. في أثناء حالة غياب العقل التي يعانونها قد يتحدثون إلى القطط في خضم هذا كله. وفي الحالة التي سأتحدث عنها الآن، لا توجد لدينا قطة، أو امرأة أخرى، ولم تكن حالة نموذجية من متلازمة كابجرا، فقد كان الرجل يناهز من العمر 75 سنة، لكن زوجته كانت مقتنعة بأن زوجها لديه عشيقة تسكن معهما في المنزل بالرغم

من بلوغه أرذل العمر، حيث كانت في طريقها إلى الإصابة بحالة الخرف الوعائي «vascular Dementia» الذي أصيبت به في منتصف الستينيات بالتأكيد لا توجد امرأة أخرى في المنزل، ولا توجد قطط في الأمر أيضًا لقد كان الخرف الوعائي هو السبب في مرورها بتجربة رؤية نسخ متطابقة من نفسها، واستغرق الأمر ثماني سنوات حتى وافتها المنية، ولكن لماذا اتهمت أمي المسكينة، التي تشبه طباعها طباع قرود الفيرفت، أبي الصبور المتجلد بأنه يأتي بعشيقته إلى المنزل؟ لقد كان أحد أكثر الرجال اهتمامًا بأسرته، وكانت تعرف ذلك أيضًا. وقد اقترح عليّ أحد زملائي، ويدعى أندي بولوك Andy Bulloch، وهو متخصص في الطب النفسي الوبائي psychiatric epidemiology، الإجابة. والسبب لم تكن له علاقة قط بموضوع الانتظار؛ بل إن الموضوع يرجع في الأصل إلى تلف الدماغ الذي كانت تعانيه الزوجة. سألني أندي بولوك Andy Bulloch إن كانت هناك مرايا في الغرفة التي حدث فيها هذا التغير أم لا ولقد كانت هناك مرايا قريبة في الغرفة ولقد تساءلت صديقتي عما إذا كانت السيدة قد رأت صورة انعكاسها في المرآة قبل أن تتهم زوجها بتلك الاتهامات القاسية.

انعكاس المرآة؟ يبدو أن البروفيسور بولوك قد فهم الأمر بهذه الطريقة. عندما رأت أمي نفسها في تلك المرآة ربما لم تعرف نفسها. صحيح أنها في تلك المرحلة من حياتها تعرفت إلى عدد قليل جدًا من الأشخاص ممن عرفتهم في أي وقت مضى طوال حياتها. كما أنها تفكر عندما ترى صورتها على حد علمها، قد تكون كذلك بالنسبة إلى شخص آخر. كل ما رأته هو امرأة لم تعرفها، وكانت تلك المرأة في غرفة نومها. وكانت تلك السيدة هي العشيقة. والدتي كانت نفسها هي العشيقة، وقد نتجت تلك العشيقة من خلال الانعكاس في المرآة، وقالت إنها تريد أن تصبح شخصًا آخر وقد أصبحت عيناها غير قادرتين على التدقيق في ملامح الوجه، وأصبحت ضحية الإصابة

بعمى الوجوه، أو ما يسمى prosopagnosia [33] ولم يعد انعكاس صورتها في المرآة؛ بل أصبح الوجه نسخة حقيقية خاصة بنا جميعًا. لقد كانت نسخة حية وتتنفس. وبالرغم من عدم وجود أي قدر من الانتظار قادر على مساعدة والدتي، فإنها في الواقع لم يكن لديها خيار إلا الانتظار. وكانت تلك النسخة من متلازمة كابجرا ناتجة عن جميع تلك السكتات الدماغية التي دمرت دماغها[34]، حيث يصبح الخرف سيئًا بما فيه الكفاية، لا يمكنك أن تعرف الوقت، ولا يمكنك الشعور بأنك تنتظر. كانت رؤية النسخ من الأمور التي ظهرت فجأة في سياق مرضها، ولم تستمر طويلًا. وكانت تلك النسخة مصدرًا للتعاسة العميقة لنا جميعًا، وكانت أمرًا لم يكن في الحسبان.

---

(33) أو بدأت تشكو أمي من نوع من أنواع العمى المتعلق بالوجوه، لم تعد قادرة على التعرف على الناس من وجوههم، فيما يُعرف «بعمى التعرف على الوجوه» ويشرح أوليفر ساكس هذه الحالة فيقول «بالرغم من التعرف على الوجوه بشكل صحيح، فإنها لا تستدعي أي إحساس بالألفة الوجدانية، حيث لا يبدو على الزوج أو الزوجة أو الطفل ذلك الإحساس الخاص الدافئ من الألفة الوجدانية، وفي هذه الحالة يبدأ المريض المصاب باضطراب كابجراس باعتناق بعض الأفكار، مثل لا يمكن أن يكون ذلك الشخص هو حقًا زوجتي/ ابني/ زوجي، لا بد أنه شخص متخصص متقن للاحتيال أما المصابون بعمى التعرف على الوجوه فيعرفون بأن المشكلة بداخلهم، وأنهم يعانون مشكلة دماغية تؤثر فيهم، ولكن من ناحية أخرى فإن الأشخاص المصابين باضطراب كابجراس يصرون على أنهم لا يعانون أي مشكلة، وأن الشخص الآخر «النسخة» هو من يعاني مشكلة؛ بل يتهمون الغير بأنهم يعانون من مشكلة ما، وأنهم يجهلون أنهم يعانون أي مشكلة. ويناقش ساكس Sacks هذه المشكلة في كتابه بعنوان «Face-Blind Why Are Some of Us Terrible at Recognizing Faces»، شركة نيويورك للنشر، أغسطس 2010. وفي كتابه بعنوان «The Man Who Mistook His Wife for a Hat»

(34) إليكم تقريرًا طبيًا عن أحد المرضى المصابين بالخرف ستيفاني سوتون Stephanie Sutton وآخرون، وذلك بعنوان اضطراب كابجراس لدى أحد المرضى المصابين بالخرف، وكتاب دليل رعاية المرضى المصابين بالخرف وعدم القدرة على التعرف على الوجوه تقرير حالة، 13 فبراير، 2014 كما يوجد كتاب من تأليف إس جاي نساي، بعنوان « الأعراض الأكثر انتشارًا لاضطراب الخرف المصلي تقرير حالة». هاروود دي جي باركر. كاوسيوبخ جورنال للعلوم الطبية، (10) 13، 1997 وفيما يلي اثنان من المقالات الأكثر عمومية دي جي هاروود DJ Harwood، ود بليو داسيو باركر، و رال أوبي، وآخرون «معدل انتشار اضطراب كابجراس في مرض الزهايمر»، المجلة الدولية للأمراض النفسية في الشيخوخة 1999، كي إيه جوزيفس K. A. Josephs، «اضطراب كابجراس وعلاقته بالمرض العصبي التدهوري»، أرشيف الأمراض المخية العصبية (12) 64، 2007



الشكل رقم (2.4) ولدينا شخص آخر في لوحة أخرى هنا لوحة «لا ينبغي إعادة إنتاجه» الصادرة عام 1937 للفنان التشكيلي البلجيكي رينيه ماجريت (1898-1967). متحف بويمان فان بوينيجن، مدينة روتردام، هولندا © رينيه ماغريت/ 2019 SOCAN صورة بيتر هوري، تصوير السيد آلامي ستوك

ربما كانت الخبرات التي مرت بها والدتي شبيهة- إلى حد ما- برؤية الفنان البلجيكي رينيه ماغريت René Magritte (الذي انتحرت والدته غرقًا عندما كان الفنان المذكور يبلغ من العمر 13 عامًا فقط). ويستحضر ماغريت رجلًا ينظر إلى نفسه في المرآة في لوحته الشهيرة المعروف بها بعنوان «لا ينبغي إعادة إنتاجه» Not to be Reproduced (الشكل 2.4)[35]. وفي هذه

(35) لقد شهدت ثلاثينيات القرن الماضي ازدهارًا مذهلًا في تناول الأعمال الفنية من فنون تشكيلية ـ

اللوحة. ينظر الرجل (ويُقال إن الشخص الموجود في الصورة كان السيد إدوارد جيمس الوصي على ماغريت) في المرآة. فيرى انعكاس صورته عليها. ولكن صورته أدارت ظهرها لنفسها بشكل جنوني، حيث يبدو الشكل في المرآة مألوفًا، بقدر ما يبدو ظهرك مألوفًا. وبإدارتها ظهرها له، تعيش الصورة في المرآة حياة خاصة بها. لقد أصبحت لوحة لشخص اخر، تعادل- بشكل من الأشكال- عشيقة والدي. إن صورة ماغريت مضحكة ومحزنة في الوقت نفسه ودعوني أؤكد أيضًا أن هذه اللوحة ليست مثالًا على السريالية. إنها حياة واقعية. مع أن أمي لم تكن مهتمة بماغريت، فإن لوحة «لا ينبغي إعادة إنتاجه» تحاول تتبع الارتباك الذي ربما يعانيه. وكان سوء تمييزها نتاج الضرر الدماغي الذي أصيب به بسبب تلاحق تلك السكتات الدماغية الصغيرة التي عجلت بإصابته بالخرف الوعائي، حيث ما كان ينبغي إعادة إنتاج تلك العشيقة في غرفتها بالتأكيد.

وقد التقطت لوحة ماغريت الدراما التي كنت أتحدث عنها هنا، من فقدان الإحساس بالذات الذي يمكن أن يحدث بين تلك الصور عندما يتدخل المرض في الأمر. لم تر أمي الجزء الخلفي من رأسها عندما نظرت في المرآة، ورأت شخصًا آخر مختلفًا تمامًا عمن تعرفهم. ولكن ربما رأت أيضًا الجزء الخلفي من رأسها. ولقد تلقت لوحة ماغريت تلك المعلومة بشكل واضح جدًا. لقد ابتعدت تلك النسخة الخاصة جدًا منك. لذا لا يمكنها أن تكون أنت بنفسك، لكن مرة أخرى. لا بد أنك تنظر إلى نفسك، ولكن في ذلك الوقت لا بد أنه الجزء الخلفي من رأسك الذي تتمكن من أن تراه.

--- وحتى التصوير الفوتوغرافي فيما يتعلق بتناول الصور المتطابقة. ويحب بيكاسو كثيرًا رسم لوحات تحتوي على وجهين متطابقين، وربما كان من يلهمه في هذا هو زوجته خلال هذه الفترة دورا مار Dora Mar. حيث كانت دورامار موضوع كتاب صادر عام 2017 بعنوان «دورامار، باريس في العصر الذي اشتهر فيه المصور مان راي Man Ray وجون كاكتو وبيكاسو وريسولي». من تأليف لويس بارينجس Louise Barings.

ربما سوف يكون مفيدًا لو أن للصورة فمًا، حيث يمكنك أن تسألها عن بعض الأمور فترد عليك، لكن جميع الصور لا فم لها، وذلك المشاهد، أمي على سبيل المثال، لا يمكنه أن ينتظر؛ لأن دماغه لن يسمح بذلك بعد الآن، وبدون انتظار- ولو للحظة- تقول: «ألديك امرأة أخرى هنا».

يبدو الأمر وكأننا عدنا إلى عالم مارجريت إيفانز، أليس كذلك؟ وأتساءل لو أن لوحة «لا ينبغي إعادة إنتاجه» قد مرت في ذهن أليس نيل عندما رسمت بورتريه مارجريت إيفانز حاملًا؟ حيث وقفت مارجريت تنتظر، وأليس نيل كذلك، لكن أمي لم تنتظر، حيث أقعدها المرض عن ذلك، ولكن شبيهها كان غريبًا مثل مارجريت، ويبدو أن النسخة الإضافية من مارجريت إيفان تبكي الآن؛ لأنها لا تستطيع التواصل مع مارجريت، تلك المحبوسة في المرآة؟

وقد كانت تجربة ريتشارد أنتوني جونز Richard Anthony Jones مع النسخ المتطابقة والانتظار ذات نهاية سارة جدًا، ولقد كان الأمر عكس ذلك تمامًا بالنسبة إلى السيد ألكسندر جيفرسون ديلجادو هيريرا Alexander Jheferson Delgado Herrera عندما أُفرج عنه من مبنى السجن، وحدثت قصته في شهر يناير 2017، في مقاطعة ليما في بيرو، في أمريكا الجنوبية، حيث تمكن ألكسندر جيفرسون ديلجادو هيريرا، البالغ من العمر 27 عامًا، من الفرار من سجن بيدراس غورداس[36]، حيث قضى سنتين فقط من حكم بستة عشر عامًا طاله بعد إدانته في قضية سطو واعتداء جنسي ولكن، على العكس من حالة السيد جونز، كان ألكسندر مذنبًا تمامًا، وكان هروب هيريرا في هذه الحالة مؤلمًا لتوءمه السيد جيانكارلو ستيفن ديلجادو هيريرا Giancarlo Steven Delgado Herrera، ودعا ألكسندر شقيقه التوءم جيانكارلو لزيارته في بيدراس جورداس، وجلب معه بعض وجباته الخفيفة،

(36) ديلي ميل، 14 فبراير 2018، سارة مالم Sara Malm وجينيفر نيوتن Jennifer Neuton، والجارديان 14 فبراير 2018 (دانيل هورست)

والحلويات المفضلة، ولكن يبدو أن الزيارة سارت بشكل جيد، وبدون أي تدخل كبير من الحراس؛ لأن بعد ساعة من وصول جيانكارلو لزيارة أخيه التوءم في السجن، اصطحب ألكسندر توءمه لزيارته في زنزانته، وهناك قدم له مشروبًا مخدرًا. شربه جيانكارلو الغافل تمامًا عن بواطن الأمور. ولقد أتى المشروب بمفعوله، ونام جيانكارو بعد تناوله مباشرة، ثم تبادل ألكسندر الملابس على الفور مع شقيقه في أثناء غيبوبته، وتمشى متخفيًا في زي شبيهه جيانكارو، عبر «ستة أبواب داخلية يديرها حراس السجن، وكذلك البوابات الخارجية للسجن» ولقد استغرق الأمر بضع ساعات لينجلي الموقف، ويتضح الحدث ولم يصدق القائمون على السجن تلك القصة، إلا بعد أن حصلوا على بصمات جيانكارلو وأدركوا أن لديهم الرجل الخطأ في الزنزانة. ثم أُطلق سراح جيانكارلو بعد بضع ساعات، بعد اقتناع الحراس بأنه «لا يعرف شيئًا عن هروب أخيه» وبقي ألكسندر طليقًا بسعادة عامًا كاملًا. لست متأكدًا من أن هذه القصة التي انتهت نهاية سعيدة إلى حد ما- بالنسبة إلى السيد ألكسندر على الأقل، ولو لفترة- تقدم إجابة عن استفساري خلال هذا الفصل. لا أعتقد أن ذلك يوضح ما إذا كانت السعادة هي مجرد مسألة انتظار إلى أن تقابل الشخص الذي يمكن أن يكون نسخة أخرى منك. ولكن جميع هذه الأمثلة تقدم شيئًا عن موضوع الحظ السيئ الذي يمكن أن يرتبط بنسختين من الشخص نفسه، وعلاقة ذلك بالانتظار لقد تم القبض على ألكسندر، ولكن بعد أن حصل على إجازة لمدة عام من الحياة الكئيبة في سجن بيدراس غورداس. ربما لا يرى الأمر بهذه الطريقة الآن، لأن أمامه 14 عامًا على الأقل من الاعتقال داخل السجن. أفترض أن هذا يثبت ما يزعمه جايسون ماكلور Jason McClure، أن رؤية شخص ذي وجه نسخة شبيهة منك، ليس وحده قادر على توصيلك للسعادة، بالرغم من واقعة ريتشارد أنتوني جونز.

يوجد بالتأكيد عدد لا بأس به من الأشخاص المتطابقين في الولايات المتحدة. وفي الوقت الحالي يوجد نحو 5.5 مليون شخص يعانون الخرف dementia، والذين ربما شهدوا شيئًا من الضعف الذي مرت به أمي[37]. ليس عليك أن تكون مخرفًا حتى تلاحظ تشابه الأوجه. ويزعم أوليفر ساكس Oliver Sacks أنه «يؤثر العمى الوجهي الخلقي الحاد sever congenital prosopagnosia في ما بين اثنين إلى اثنين ونصف في المئة من السكان في العالم. ويعني ذلك ستة إلى ثمانية ملايين شخص في الولايات المتحدة وحدها». فإذا أضفنا الباحثين عن نسخ أنفسهم بشكل متطابق مع شخصيات مشهورة، ومجموعة التوائم التي تتجاوز 2000 زوج ممن يحضرون مهرجان التوائم في توينسبورغ، فربما يزيد الرقم على الملايين الثمانية[38]. ونرى أن بعض مواقف النسخ تلك تنتهي بموقف مشابه لحالة رودا وليامز، أو حتى ريتشارد أنتوني جونز. لكن بعضها ينتهي مثل حالة مارجريت إيفانز، وأليس نيل. وكما نرى، فإن إيجاد نسخة مطابقة على ما يبدو، ليس دواءً شاملًا ضد التعاسة، ولكن في بعض الأحيان يمكن أن يؤدي ذلك الدور على أكمل وجه، وربما هذا هو ما يجب أن ينطبق على الانتظار. الجميع ينتظر فحسب، ولكن عندما يتعلق الأمر بالارتباط والاندماج بين زوجين، فإن الانتظار قد يقدم مكافأة كما قد يجر علينا العقوبة.

(37) الأرقام من موقع alzheimers.net. ومع ذلك ثمة أرقامًا أخرى تدعي أنه يوجد الآن أكثر من 44 مليون شخص حول العالم ينتظرون.

(38) ويوجد عدد من الأمثلة لم أدرجها هنا يمكن أن يصبح الإحساس بالحزن الناتج عن مصيبة الموت ناتجًا عن الافتراق بشخص ما. مثلًا عندما توفي عازف البوق وموسيقى الجاز الشهير تشيت بيكر Chet Baker نتيجة حادث سيارة فُجع لموته عازف البيانو بيل إيفانز Bill Evans إلى درجة أنه اعتزل الفن فترة، حتى أنه ارتدى بعض ملابس بيكر (بحثًا عن السعادة كنسخة لصديقي تشيت بيكر) بيتر بيتنجر Peter Pettinger، بيل إيفانز: كيف يمكن لقلبي أن يغني؟، شركة جامعة يال للنشر، 1998.

وَقْفَـــة

5

مايلز ديفيز يستريح لتدخين سيجارة

القوة والمتعة الكامنة في التوقف

كان عمره في ذلك الوقت لا يتجاوز الثالثة والثلاثين. ويمكنك مشاهدته وهو يعزف في ذلك العام تسجيلًا مباشرًا كان اسم البرنامج «وماذا في هذا؟» على قناة الشبكة الأمريكية US Network TV عام 1959 لا بد أن تلك كانت لحظة مهمة جدًا في حياة مايلز ديفيز المهنية الموسيقية. حيث يستمع كثير من الجمهور إلى موسيقى الجاز، وإلى مايلز ديفيز ربما لأول مرة. وربما تكون صورة مايلز ديفيز في أثناء العمل الإذاعي أيقونية مميزة لهذا النوع من الفن الموسيقي (بلغ عدد مشاهداتها على تطبيق Vevo أكثر من 17 067.107 مشاهدة حتى وقت كتابة هذه السطور).

إنه يعزف ويرتجل في عزفه كعادته. وبينما هو يعزف تجد عينيه مفتوحتين على اتساعهما وكأنه ينظر ليرى ما يمكنه أن يفعل، ويرى الفرقة الموسيقية ويتحدى جمهوره أن يبرز له ردة فعله على الأداء الموسيقي[1].

---

(1) وقد تكون هذا الحماسي الموسيقي- باستثناء مايلز ديفيز- من فيلي جو جونز Philly Jo Jones (توفي عن عمر 62 عامًا نتيجة سكتة قلبية في منزله في فيلادلفيا) على الطبل. ووانتون كيلي Wanton Kelly (توفي عن عمر 40 عامًا في تورونتو كندا بعد إصابته بنوبة صرعية. وكان ذلك في عام 1971) على البيانو. وبول تشامبرز Paul Chambers (الذي توفي عن عمر 33 عامًا. حيث فاقم تعاطيه للهيروين والخمور من حالة السل التي أصيب بها) على الجيتار. وأخيرًا جون كولترين

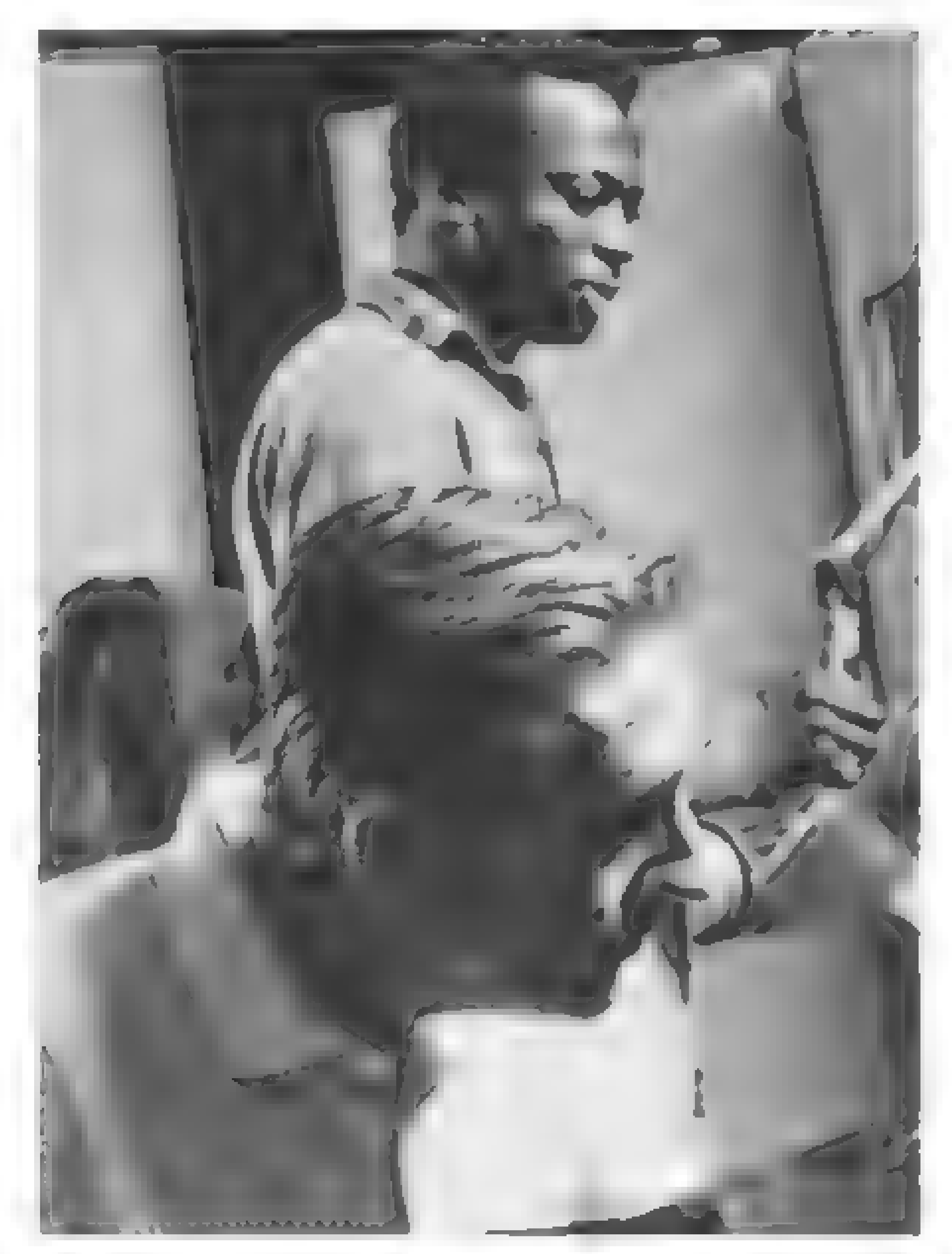
وبالرغم من فضول مايلز ديفيز فإنه لا يزال محافظًا على تركيزه، ولطالما كانت هذه هي طباعه على حد علمي. كما كان يحاول أن يقنع الجمهور أن ما يحاول القيام به هو في الحقيقة أمر سهل بالنسبة إليه. وكان ذلك أول ألبوم موسيقي يظهر بشكل حصري لموسيقى الجاز في التاريخ، وهو علامة بارزة في تاريخ الفن الأمريكي، وكان الألبوم بعنوان «قليل من الزُرقة» أو Kind of Blue، وقد صدر عام 1959،[2] وهو ما زال يكتسب قوة وتميزًا بشكل شبيه بلوحة جاكسون بولوك بعنوان «الأعمدة الزرقاء» Blue Poles، التي ظهرت عام 1952، وهو ما يُعتقد السبب في اختيار الاسم.

عندما ينتهي مايلز ديفيد من وصلة العزف المنفرد المخصصة له، يتسلم جون كولترين John Coltrane منه النسق الموسيقي. ولا يقل كولترين في قدراته الموسيقية أبدًا عن مايلز ديفيز. ربما توفي قبل أن يتمكن من بلوغ القدر نفسه الذي وصل إليه مايلز ديفيز. وربما كان كولترين أيضًا رجلًا مهذبًا أكثر من مايلز ديفيز[3] ولكن، هل كان هذا هو السبب الذي كان يجعله يغلق عينيه في أثناء العزف؟ إن المتوقع من أي عازف جاز أن يغلق عينيه في أثناء الارتجال الموسيقي، حيث يساعد ذلك على عملية التركيز، إلا إذا كنت مثل مايلز ديفيز. فربما أيضًا يكون جون كولترين رجلًا ماهرًا في إخفاء مشاعره فلا يحاول أن يقرأ رد فعل الجمهور نحو أدائه، ولا يهمه إن كان رد الفعل هذا إيجابيًا أم لا. والدليل على ذلك أنه تقلد درجة القسيس من الكنيسة الأرثوذكسية الإفريقية، وهي مرتبة لم يحصل عليها مايلز ديفيز قط. ونرى

– John Coltrane على آلة الساكسفون، إضافة إلى ذلك، فقد انضم إلى الفريق ثلاثة من عازفي الترومبون الذين لعبوا دور الكورس، وعن مصيرهم لا أعلم عنه شيئًا

(2) كان لدى أشلي كان كتاب عن قصتها بعنوان Kind of Blue: The Making of the Miles Davis Masterpiece، شركة داكابو للنشر، 2007.

(3) يمكنك أن تتعلم قليلاً عن كولترين في كتاب «أشلي كان» بعنوان A Love Supreme: The Story of John Coltrane's Signature Album، شركة بنجوين للنشر، معاد، 2003.



الشكل (5-1). مايلز ديفيز يدخن ويستعد لأداء مقطوعته (في مقدمة الصورة جيل إيفانز Gel Evans، وهو عازف بيانو ومنسق الفرق. الصورة من عام 1957)

مايلز ديفيز يخطو خطوات إلى الخلف، ثم إلى يمين الفرقة الموسيقية في أثناء عزف كولترين، ثم يشعل ويدخن سيجارة خلال هذه الوقفة، وفي أثناء الانتظار (الشكل 5-1) إنها لحظة مصيرية. وقد لاحظها المشاهدون على تطبيق Vevo، وعلقوا عليها. هل يشعل مايلز ديفيز سيجارة ويدخن بالفعل؟ ويسأل الجميع: لماذا يفعل مايلز ديفيز ذلك؟ أليس من الأحرى أن يجعل تركيزه على ما يعزفه كولترين؟. والإجابة السهلة البسيطة أن ديفيز

كان بحاجة إلى سيجارة، كما أنه قادر على أن يحافظ على تركيزه حتى أثناء تدخين سيجارة. ولكن تلك السيجارة شبيهة بفتحه عينيه في أثناء العزف المنفرد. إنه التحدي الذي يقوم به ديفيز لكل ما هو مألوف ومعتاد. فجميعنا يرى أن لكل شيء طريقة نمطية للقيام به، ولكن مايلز ديفيز يتحدى ذلك ويحاول مايلز ديفيز التحكم في كل شيء، بحيث يمكنه أن يتوقف، وينتظر، ويدخن سيجارة. ويبدو أنه لا يهاب البيئة المحيطة به. ولكن هل ينجح ذلك الأمر؟ الأمر المثير أن تلك اللامبالاة التي يُظهرها ديفيز هنا تتناسب- إلى حد كبير- مع اسم الأغنية: فإنك إذا أتيت شيئًا غريبًا بالنسبة إلى من حولك، وانتقدوك نقدًا لاذعًا بالكلام، وربما بالفعل، فإن ردك عليهم سوف يكون: «وماذا في هذا؟»؛ لأنك ترى أن ما فعلته طبيعي، وليس فيه أمر غريب، ولكن عليك مشاهدة الفيديو مرة أخرى. لقد تردد ديفيز قليلًا، وجميع من يتوقفون بشكل استعراضي يميلون إلى التردد.

إن هذه الوقفة التي يقوم بها مايلز ديفيز، وتلك النسخة من الانتظار، هي ما أطلق عليه إستراتيجية، إنها تضيف نكهة بسيطة من التعالي إلى الأداء، وتستفز الجمهور ليتفاعل ولا يسعنا أن نقول مزيدًا عن نسخة مايلز ديفيز من الانتظار والتوقف، لأن العينين المفتوحتين والتدخين كلها أمور تحوم حول الأداء، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى المتفرجين. إن التوقف وتلك النسخة من الانتظار هي تجربة من نوع ما بالنسبة إليهم، ويمكنها أن تكون أمرًا مثيرًا أو ممتعًا، أو حتى تحديًا بالنسبة إليهم هل يتصادم ديفيز مع جمهوره؟

سوف يتناول هذا الفصل موضوع «الوقفة» Pausing، وكيف يمكن لهذه الإستراتيجية أن تفيد الأداء، وكيفية مساعدتها للجمهور على استيعاب الأداء والاستمتاع بهذه التجربة، وكيف يمكن لسلوك التوقف أن

يجلب المتعة لدى المستمع؟[4]. ولكن ما معنى التوقف البسيط؟ لا أستخدم هذه الكلمة هنا بمعنى الاستراحة (دعنا نتوقف قليلًا لتناول طعام الإفطار، أو هكذا يقول عامل الفترة الصباحية. أو بأنها دقيقة من الراحة)، أو (دعنا نتوقف عن العمل ولو ساعة. أو هكذا يقول أحد العمال المرهقين)، أو دقيقة من التأمل (دعونا نتوقف قليلًا ونوازن بين الخيارات المتاحة. أو هكذا يقول أحد الجراحين في أثناء عملية جراحية). أو مجرد التوقف من أجل التوقف نفسه (دعونا نتوقف. دعونا لا نفعل مزيدًا من هذا الأمر، أو هكذا يقول أحد كبار الموسيقيين لفريق العزف في أحد المسارح). إن التوقف يسبق معاودة النشاط. وهو فترة من الانتظار تحدث من الداخل، وأحيانًا في البداية قبل الشروع في عمل ضخم. وربما يكون ذلك التوقف على سبيل المثال لمايلز ديفيز ينتظر في الخارج ليدخن سيجارته (أو ارتجاله بعينين مفتوحتين)، في حين يؤدي الأعضاء الآخرون في فرقته عزفهم المنفرد عند تسجيل أغنية «وماذا في هذا؟». ويتميز هذا النوع من التوقف بأنه طوعي، ويخضع لدرجة ما من التحكم الفردي. لقد اختار مايلز ديفيز لنفسه أن يتوقف، واختار طريقة توقفه ومدته؛ لأنه كان قائد الفرقة الموسيقية، وكان كل شيء تحت سلطته. ويبدو أن هذا النوع من التوقف يتميز أيضًا بالتركيز، حتى عندما يدخن، يبدو مايلز ديفيز أنه عاقد النية. ويتميز هذا النوع من التوقف أيضًا بالترقب anticipation، وهذا شيء قد يشعر به المؤدي، ولكن يبدو أن الجمهور يشعر به بالقدر نفسه، وفي بعض الأحيان قد يشعر به الجمهور أكثر. وهذا التوقف يشبه إلى حد كبير رؤية بورتريه الغطس المتوقف (هذا البورتريه يوحي بأنه إطار متجمد لصورة أُخذت في

(4) توجد قصص غريبة أخرى متعلقة بالتوقف؛ لدينا مثلًا تلك القصة المؤثرة عن ذلك الرجل البالغ من العمر 30 سنة، الذي توقف نموه ويعيش في جسم طفل ويبلغ طوله قدمين و7 بوصات فقط، والذي توقف نموه الجسمي عند سن سنتين بسبب حالة مرضية غير معروفة. ولقد شرح هذه الحالة السيد ترايسي يو Tracy You في الديلي ميل، بتاريخ 13 نوفمبر 2017.

أثناء إقدام الغطاس المحترف عند نزول حوض الاستحمام)، وأثاره الفنان الياباني كوجيرو أونشي. وهذا النوع من التوقف المؤقت هو في الواقع من الخبرات المثيرة جدًا للمستمع والمشاهد، في نوع الموسيقى والفن، وحتى بالنسبة إلى الماء.

وفيما يتعلق بلون الموسيقى يمكن للتوقف أن يسهم في طريقة أداء القطعة الفنية، ويمكن أن يلتقط التوقف المؤقت المزاج السائد في أغنية مثل أغنية «وماذا في هذا؟» بقدر ما يمكن أن يعرض موقف عازف البوق من الحياة. ربما هناك، أو كان هناك، شيء ما معادٍ للمجتمع في عنوان أغنية مايلز ديفيز يمكنك أن ترى الآن تأثير الانتظار والتوقف في أداء مايلز ديفيز عند تسجيل أغنية «وماذا في هذا؟» ونسلط الضوء هنا على احتقاره لجمهور التليفزيون، والمكان الذي كان يعزف فيه بطريقة تؤكد وجود هذا الاحتقار وكأنه لا يبالي بأن الطريقة التي يتوقف بها مع تلك السيجارة في يده ربما تحمل بعض الإهانة وأعتقد أنه قد أشعل سيجارة أخرى، لكنه لم يمهله الوقت لإنهاء تلك السيجارة الأخرى. الموسيقى رائعة، ولكن الأداء في النسخة التليفزيونية من الأغنية، والإستراتيجية المتبعة، كانت بالقدر نفسه من الروعة، حيث نُقل أداء العزف بشكل مثالي في أثناء تدخين سيجارة الانتظار تلك، وكذلك عينا العازف المفتوحتان.

وربما تتفق وقفة مايلز الدرامية تلك مع عنوان أغنيته، لكنه يثير رد فعل مختلفًا من الجمهور ويعمل هذا النوع من التفاعل بطريقة معاكسة: إنه يشجعهم على التركيز بشكل أكبر عند الاستماع. ويبدو أنها تثير تساؤلاتهم، ماذا سيفعل مايلز ديفيز بعد؟ سوف يكون من الرائع أن نعرف الطريقة التي يتفاعل بها الجمهور حقًا. ولكن كيف يمكن لأدمغة الجمهور تجربة التوقف الإستراتيجي الذي تلاعب به مايلز ديفيز بقوة هناك بعض الأدلة

التي يمكن أن تساعدنا على الإجابة عن هذا السؤال. وهي أدلة مقدمة من فالوري إن. سالمبور Valorie N. Salimpoor. كانت فالوري باحثة شابة في مركز بايكرست في جامعة تورنتو عندما نشرت تقريرًا في مجلة *Nature Neuroscience* عام 2011. تبحث فيه عن الطريقة التي يتم من خلالها إفراز الدوبامين عندما يستمع الناس إلى الموسيقى، أو مجرد توقع الاستماع إليها[5] وقالت. (يجهزك الدوبامين للحصول على مكافأة مستقبلية من خلال تقديم مكافأة ممتعة فورية) واكتشفت سالمبور، باستخدام التصوير المقطعي للدماغ، أن أجزاء مختلفة من الدماغ أظهرت كيفية عمل الدوبامين عند تشغيل الموسيقى، حيث اكتشفت أن تأثير الدوبامين كان موجودًا في المقام الأول في جزء من الدماغ يسمى النواة الذنبية، أو caudate، عند توقع تشغيل قطعة موسيقية مفضلة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالاستماع الفعلي، يكون تفاعل الدوبامين مع النواة المتكئة في المخ تفاعلًا مؤثرًا. وتوضح أيضًا أن في تلك النقطة تحدث «ذروة الاستجابات العاطفية للموسيقى» Peak Emotional Responses to Music. ينتمي هذان الجزآن من الدماغ إلى النظام المخطط، وكلاهما أبرز نشاط الدوبامين في أثناء تجربته، ولكن ليس في الوقت نفسه. ولتلخيص استنتاج سالمبور هذا يمكننا القول إنه: «يمكن أن يؤدي توقع مكافأة مجردة إلى إفراز الدوبامين في مسار تشريحي ذي طابع مميز عن ذلك المرتبط بذروة المتعة نفسها». فبالنسبة إلى المستمع، فإن تجربة الانتظار - ذلك التوقف المؤقت - مكافأة في ذاتها، ولا عجب إذن أن تترك سيجارة مايلز ديفيز هذا الانطباع.

ولأن الدوبامين يتسبب في الشعور بالمتعة، فإنه يعمل على أجزاء مختلفة

(5) فاليري إن سايمبور Valorie N Salimpoor وآخرون Anatomically distinct dopamine release during anticipation and experience of peak emotion to music، نيتشر نيوروساينس، 2011

من الدماغ عندما يتعلق الأمر بالمتعة الموسيقية، ولكن الأمر يتوقف على ما إذا كنت تترقب الاستماع. وهذا ينطبق على الطريقة التي تفكر بها في ذاتها، والتي تسببت فيها سيجارة مايلز: فقد أجبرتك على توقع انفراده بالعزف المنفرد الأخير، بالرغم من عزف القديس جون كولترين. وكانت هناك تجربة أخرى مفيدة جدًا يمكن أن نجترمها عبرة رائعة، وهي تتعلق بتوقف مؤقت حدث في جامعة ماكجيل في مونتريال، حيث حصلت فالوري ساليمبور Valorie Salimpoor على درجة الدكتوراة، حيث صعد طبيب الأعصاب الكندي والخبير الموسيقي دانيال ليفيتين وزملاؤه خطوة أعلى في العمل الذي قدمته سالمبور[6] أظهر ليفيتين كيف يمكن لإشارات المواد الأفيونية عند تفاعلها مع الدوبامين أن تزيد شدة «ذروة الاستجابات العاطفية للموسيقى». حيث أظهر الدكتور ليفيتين من خلال التجربة أنه إذا مُنعت الإشارات الأفيونية في الدماغ في الوقت نفسه الذي يستمع فيه المفحوصون إلى الموسيقى، ربما كان لذلك تأثير في تقليل المتعة التي يشعرون بها عند تجربة الموسيقى. وللتحقيق من هذه النتيجة أعطى أفراد عينة البحث الذي أجراه بنفسه نوعًا من العقاقير يوصف للمساعدة على التحكم في إدمان المواد الأفيونية والكحول إنه عقار باسم نالتركس Naltrex، وهو يعمل على خفض معدل متعة مستمعي موسيقى ليفنتين Levetin، من خلال تقليل إشارات المواد الأفيونية لديهم لذلك يشرح ليفيتين أنه عندما تستمع إلى الموسيقى فإنه ليس الدوبامين فقط الذي ينشط في الدماغ، ولكن بالإضافة إلى ذلك تصدر إشارات تشبه الأفيون أو الهيروين داخل النواة المتكئة. ولم تنته تجربة ديفيد ليفيتين عند هذا الحد. فما الذي يحدث عندما تتوقف

---

(6) أدين ماليف Adiel Mallik، موناليزا تشاندا Mona Lisa Chanda، بالاشتراك مع دانييل ليفيتين Daniel J. Levitin «علاقة الكآبة بالموصلات العصبية عند سماع الموسيقى»، ساينتيفيك ريبورتس، 7، رقم المقالة/ 41952، (2017)

مؤقتًا قبل تشغيل أغنيتك المفضلة؟ هل هناك إشارة أفيونية تعمل في تلك اللحظة في المنطقة المذنبية؟ لكشف هذا اللغز، قدم ليفيتين وفريقه عقار Naltrex لعينة البحث عندما تم إيقاف استمتاعهم مؤقتًا عند الاستماع إلى إحدى أغانيهم المفضلة. كان هناك كثير من الدوبامين في المذنبات عندما تم إيقافهم مؤقتًا بالانتظار. وتمكن من التأكد من هذه الظواهر باستخدام المسح والتصوير الدماغي بالطريقة نفسها التي تمكن من خلالها فريق سالمبور من التأكد من نتائج أبحاثهم. لكن إحساس أفراد عينة البحث بالمتعة في أثناء توقفهم، وعند توقع الموسيقى، لم تتضاءل بأي حال من الأحوال بسبب تناول النالتريكس. وخلص إلى أن مانع المواد الأفيونية Naltrex قد يتسبب في حفض معدل المتعة التي يحصل عليها المستمعون عند الاستماع الفعلي إلى أغنيتهم المفضلة. لكنهم ما زالوا يستمتعون بها بالقدر نفسه عند التوقف المؤقت بانتظار سماع أغنيتهم المفضلة، وكل ذلك بفضل إفراز الدوبامين. ألا يجعلك ذلك تفكر مرة أخرى في تلك القطط الجائعة على رصيف الميناء التي التقيناها في الفصل الثاني؟

ربما كان الموسيقيون، من أمثال مايلز ديفيز، يفهمون دائمًا غريزيًا قوة التوقف المؤقت، وكيف يمكن أن تنتج عنه تجربة شيء ممتع وجديد بالنسبة إلى المستمعين. وربما كان هذا هو السبب في أن مايلز ديفيز كان يدخن بلا مبالاة على خشبة المسرح في أثناء عزف الفرقة الموسيقية. لقد كان يداعب النواة المتكئة لجمهوره من مشاهدي التليفزيون. وليس من المستغرب أن ليس الموسيقيين فقط هم من يستخدمون التوقف المؤقت لتحسين الأداء. فعندما أخرج المخرج السويدي إنغمار بيرغمان Ingmar Bergman نسخته السينمائية عن أوبرا موزارت، في عام 1974، «الناي السحري The Magic Flute»، التي حازت كثيرًا من الجوائز، استخدم خدعة تشبه- إلى حد كبير- طريقة مايلز ديفيز مع السيجارة. وفيما يلي شرح للطريقة التي سار

بها الأمر: كانت هيلين فريبرغ Helene Friberg، التي كانت تبلغ من العمر آنذاك 13 عامًا، تجلس بين جمهور المسرح الباروكي القديم، مسرح قصر دروتنينغهولم في القرن الثامن عشر، في وسط مدينة ستوكهولم. توقفت هيلين لحظة، وانتظرت بترقب بداية عرض الأوبرا. وعلى وجه هذه الممثلة الشابة ابتسامة باهتة، لكنها أيضًا كانت تجلس متوترة ومنتظرة في أثناء العرض الافتتاحي «الناي السحري» The Magic Flute. وأستطيع أن أقول لكم هذا بثقة لأن بيرغمان صور ردود فعل هيلين ومزجها في بداية نسخته من العرض الأوبرالي. لم يتصمن بيرغمان فقط هيلين المتوقفة مؤقتًا؛ بل توجه إلى الأعضاء الآخرين من داخل الجمهور ممن توقفوا أيضًا. يقدم المعهد السويدي للأفلام بعض الأشخاص الآخرين ممن يظهرون فترة وجيزة جدًا حلال الافتتاحية، وكان إنعمار بيرغمان نفسه موجودًا هناك، وكذلك ابنه دانيال وزوجته إنغريد. بالإضافة إلى ذلك، هناك صديقه القديم الممثل إيرلاند جوزيفسون Erland Josephson، والممثلة ليزابيث زاكريسون Lisabeth Zachrisson. كما أن لدينا المصور السينمائي للفيلم سفين نيكفيست Sven Nykvist، ويانوس هيرسكو Janos Herskó، وماغنوس بلومكفيست Magnus Blomkvist، ومصممة رقصات الفيلم دنيا فيوير Donya Fewuer، والمنتج السيد لارسو كارلبرغ Lars-Owe Carlberg. جميعهم متوقفون مؤقتًا ينتظرون الشيء نفسه. في بداية الأوبرا يظهرون بين أعضاء الجمهور وهم متوقفون تمامًا. إنه ذلك الاستحضار الملحوظ للمتعة بين الناس المتوقفين المنتظرين بدء العمل الدرامي. وبالطبع، هذه التجربة الممتعة تنتقل إثارتها بقوة إلى مشاهدي نسخته السينمائية من الأوبرا، بالطريقة نفسها التي نقل بها مايلز ديفيز ذلك النوع من الإثارة من خلال أغنية «وماذا في هذا؟» إلى الاستوديو والجمهور في المنازل. ويعود إنغمار بيرغمان بانتظام بالكاميرا إلى وجه هيلين فريبرغ الشاب في أثناء الأداء

الأوبرالي. وأحيانًا تعبر هيلين فريبرغ عن سعادتها، حتى إنها تبتسم، ولكن في معظم المناسبات، يبدو أنها تظهر سرورها مما هو على وشك أن يحدث، فتوقفت مؤقتًا منتظرة للقصة والغناء. فظهرت هيلين فريبرغ بعد عام واحد ممثلة في فيلم بيرغمان بعنوان «وجهًا لوجه» Face to Face (الذي عُرض عام 1975). لقد كانت تؤدي دور أنا، ابنة الدكتورة جيني إيزاكسون (ليف أولمان Liv Ullmann). الشخصية الرئيسة في هذا الفيلم. ولقد عرف (بيرجمان) ذلك عام 1974، ويعرف أننا نعرفه الآن. هل يحاول أن يغرينا لمشاهدة فيلمه «وجهًا لوجه» Face to Face؟

لنَعُد إلى مسألة السجائر مرة أخرى، دعونا نتحدث عنها مرة أخرى. إن استخدام السجائر حجةٌ للتوقف، وخلق شعور بالانتظار، ليس شيئًا اخترعه مايلز ديفيز، بل فعله أفضل من الآخرين. وفي العام نفسه الذي سجلت فيه أغنية «وماذا في هذا؟»، سجل فرانك سيناترا أغنيته الكلاسيكية «ها قد أتانا اليوم الممطر» Here's That Rainy Day، من إنتاج جيمي فان هيوسن Jimmy Van Heusen (من كلمات جوني بورك Johnny Burke). ولقد طُبعت أسطوانات من هذه الأغنية عام 1953، وسُجلت نسخة فرانك سيناترا في 25 مارس 1959، وكانت لنسخة ألبوم الكابيتول بعنوان «لا أحد يبالي» No One Cares ولقد أدى سيناترا «ها قد أتانا اليوم الممطر» في برنامج برعاية تايمكس Timex بعنوان «الليلة تايمكس شو مع فرانك سيناترا»، وفي برنامج «المساء مع فرانك سيناترا» The Frank Sinatra Timex Show، وبُثت في 13 ديسمبر 1959. وإذا كنت تحب صوت سيناترا يمكنك مشاهدته على يوتيوب في النسخة التليفزيونية ترى سيناترا يدخن ويغني، ويستخدم السيجارة لخلق وقفة درامية داخل الأغنية. إنها تتخلل أداءه كعلامة تعجب بسيطة إنها نسخة عاطفية جدًّا من الأغنية، لا شك في ذلك، لكن التدخين يبدو مصطنعًا تمامًا- لا يمكنك الغناء بفم

مملوء بدخان السجائر. ويمكنني أن أقول إنه كان من الممكن أن يفسد صياغته للأغنية في هذه النسخة، لكنه لم يستنشق نفسًا من السيجارة قط، كما سترى عندما تشاهد أداءه. لقد كان مايلز دايفز أكثر حذرًا عندما أخذ استراحة لتدخين سيجارة، واستنشق دخان السيجارة فقط عندما لم يكن يؤدي في الواقع. لقد اختلف الأمر بالنسبة إلى مايلز ديفيز: لقد كان عليه أن يكون حذرًا في أثناء محاولته اقتحام العمل بوصفه شخصًا مشهورًا، في حين كان سيناترا، بعد دفعة قوية من الشهرة من خلال نجاح أعماله مع إيفا جاردنر وسوف نعود إلى ذلك لاحقًا. في أغنية «لا أحد يبالي» No One Cares.

لو أنك انتظرت أو توقفت مؤقتًا في داخل مقطوعة موسيقية، مثل فرانك سيناترا، فهل يتم إنتاج نفس ردود الفعل العاطفية المثيرة للسعادة والمتعة عندما تنتظر بدء قطعة موسيقية مفضلة؟ هل يمكن أن يحدث إفراز الدوبامين نفسه عند الانتظار الذي يغذيه الدوبامين عند الاستماع إلى قطعة موسيقية كما كانت قبلها؟ يبدو الأمر كذلك. وسوف يكون لدى الجميع مثالهم المفضل لهذا النوع من التوقف المؤقت الصادر عن الدوبامين. إنهم أحيانًا يطلقون عليها «أغنية وقف وبدء التشغيل» stop-start ولقد أجرت الصحيفة اليومية الإنجليزية «الجارديان» The Guardian استطلاعًا للقارئ عن موضوع «كتابة الأغاني الكلاسيكية [التي] غالبًا ما تستخدم أحد العناصر الرئيسية في صندوق أدوات المؤلف، مثل الإيقاف المؤقت تحديدًا»، وكان ذلك عام 2014. وسوف أعيد صياغة قائمة أغاني الفائزين، ولو أتى هيرب ألبرت Herb Alpert على رأس القائمة[7].

(7) الجارديان، 20 فبراير، 2014 (رالف براون)

مذاق العسل–هيرب ألبرت وتيجوانا براس *A Taste of Honey*

أريدك بشدة–جيمس براون *I Want You So Bad*

الشرطة لروكسان *Roxanne– The Police*

حصان وبخار الندى المتجمد 1&2 روي وارد/ إيدي بو– *Horse with a Freeze Pts. 1&2*

وداعًا صديقي–جوني أوسبورن/برنس جامي *Buddy Bye*

مغامرات جراند ماستر فلاش على عجلات الصلب- جراند ماستر فلاش والخمسة الغاضبون

The Adventures of Grandmaster Flash on the Wheels of Steel

تنفس وتوقف–كيو تيب *Breathe and Stop*

طائري الصغير–22 بيستيبيكو- ديفيد باوي *Birdy*

يصعب شرحه–دا ستروكس *Hard to Explain*

تنفسني داخلك–سيا *Breathe Me*

سأحبك دائمًا– ويتني هيوستن *I Will Always Love You*

حيط في منزل كبير–فريق «ذا جوك»- جوزيف هايدن *String "Quartet in E Flat Major: "The Joke*

يمكنك أن تختار من هذه القائمة كما تشاء، لكن التوقف المفضل لديّ يأتي من الحركة الأخيرة لسوناتا باخ رقم 6 على مستوى جي ماجور للكمان والبيانو (بالضبط أخشى أن هذا هو نوع الموسيقى الذي أستمع إليه) وسط ثلثي الطريق قبل نهاية هذه القطعة (من فضلك لا تطلب مني أن أكون أكثر دقة- أنا جاهل بهذه الأمور الفنية مثل ضبط حسابات الحانات). البيانو والكمان، كلاهما يعزف مقطع جيد، فجأة بدأ الإيقاع، ثم التوقف عن العزف تمامًا، وأنت تعلم أنه سوف يُستأنف قريبًا: لذلك

هذا بالتأكيد يتضمن وقفة. عندما سمعت هذا التوقف أول مرة، اعتقدت أنه كان مثيرًا جدًا ويبدو أن هذا ما تنتجه تلك القطعة بعد ذلك، ويبدو أن هذا هو تأثير التوقف المؤقت؟ لقد ذكرت هذا التوقف ذات مرة لأحد أصدقائي، بازا سيمبكنز Pazza Simkins، وهو أيضًا متحمس للموسيقار باخ، حيث قلت إن هذا التوقف استمر نحو 10 ثوان طويلة، وكان مثيرًا جدًا، وقد اتفق معي على أن الإيقاف المؤقت كان نابعًا بالفعل من إفرازات الدوبامين. وبهذا الشكل نصل إلى الإجابة عن السؤال الذي وضعناه في بداية هذه الفقرة، ولكن يمكننا أن نستغرق إلى أبعد من ذلك مع هذه الملاحظة. ولقد كان سيمكنز حائرًا قليلًا بشأن مدة هذا التوقف، وذهب للتحقق. إنها عشر ثوانٍ! إن التوقف موجود في النسخة التي كنت أستمع إليها، أو هذا ما أخبرني به. لقد استمر التوقف ثانيتين بالكاد، وربما حتى ثانية واحدة، لكنني أشعر أن الأمر أطول من هذا بكثير بالنسبة إليّ، ولكني كنت مخطئًا بالتأكيد وأنا أعرف هذا لأنني ذهبت وحسبت توقيت التوقف بنفسي بعد أن تم تصحيح تقديري للزمن. لا يسعني إلا أن أستنتج أن هذا مثال آخر على التمييز بين ما أسماه الأخصائي النفسي مارك ويتمان Marc Wittmann «الوقت المحسوس» felt time، وهو الوقت الذي تقيسه الساعات[8]. ويعمل التوقف المثير، الذي لا يمكن قياسه حقًا، كمثال على الوقت المحسوس، حيث يمكن أن تشعر بأن الوقت قد أصبح طويلًا عما هو في الحقيقة. ربما يكون الإحساس بالوقت مرتبطًا بالإحساس بالدوبامين أيضًا الذي يتحكم في إثارة ما هو مُنتج؛ لذلك، نعم، يمكن أن تكون فترات التوقف في قطعة موسيقية مثيرة مثل فترات التوقف قبل أن تبدأ القطعة في بعض الأحيان، من الممكن أن تتحول الصور إلى شيء أكثر إثارة.

---

(8) مارك ويتمان Mark Wittmann: الوقت المحسوس، 2016

راجعت فكرة «الزمن الاصطناعي» artificial lengthening of time في كتاب كلوديا هاموند. ولا تتعامل هاموند مع المقطع الموسيقي الذي أشير إليه سلفًا. ربما هي لا تحب باخ كما أحبه. كلوديا هاموند لديها الكثير لتقوله عن كيف يمكن لتجربة الإحساس بالوقت أن تؤدي إلى الإحساس بتباطؤ الوقت، والشعور بتباطؤ الوقت. إنها ترتبط هنا- ارتباطًا خاصًا- بالإحساس بالرعب، ولكن ربما بالعكس «الإحساس بالسعادة المفرطة» strong pleasure، وفسرت ذلك قائلة:

نحن نعلم من كثير من الدراسات والأبحاث المعملية التي أجريت أن العواطف تغير إدراكنا للوقت: فالشعور بالخوف مثلًا يجعل الوقت يمضي ببطء، كذلك النظر إلى صور الجثث المشوهة. أو سماع صوت امرأة تبكي يبدو أنه عندما تواجه صورًا مؤلمة. فإن جسمك وعقلك يعدّان نفسيهما للقتال أو للهرب: لذلك تسير الساعة بشكل أسرع، ويتراكم مزيد من النبضات، ويبدو أن الوقت يمضي ببطء

وأتساءل إن كان ما تتحدث عنه كلوديا هاموند هنا يمكن تطبيقه بسهولة على التشويق suspense بشكل عام؟ ربما يمكننا أن نعتقد الأمر بهذا الشكل: فالتشويق يجعل ساعة الجسم تعمل ببطء أكثر، أو على الأقل نتصور الوقت يمضي ببطء أكبر إذا كان التشويق ينطوي على شيء خطير، فيبدو أن الرهبة أو الخوف له عامل كبير في الإحساس بتباطؤ الوقت ولكن إذا كان التشويق ينطوي على شيء ممتع، مثل الموسيقى، فإن الإثارة والمتعة تبدوان مسؤولتين عن الإحساس بتباطؤ الوقت. وربما يمكن أن يكون هذا هو تفسير الوضع الذي واجهته في سوناتا باخ رقم 6 في مفتاح G. وهذا قد يفسر أيضًا شكوك صديقي: فهو لم يسمع المقطوعة الموسيقية مؤخرًا، لكنه كان يعلم أن التوقف 10 ثوانٍ أمر غير شائع إلى درجة ما. وربما

كل هذا يقدم مزيدًا من المساعدة على فهم استراحة مايلز ديفيز للتدخين، وربما يوضح ذلك كيفية شعورنا بالوقت. إن ذلك يجعل التوقف الممتع pleasurable pause يبدو وكأنه يدوم فترة أطول.

هل يمكن تصوير تجربتي مع باخ بصريًا؟ قد يبدو هذا سؤالًا غريبًا، لكننا رأينا بالفعل نسخة كوجيرو أونشي من التوقف المثير في تجربة الغطسة. هل يمكنك تكرار ذلك من خلال مشاهد لا تحتوي على الغطس؟ هل يمكنك الإحساس بالوقت يتوقف في أثناء الاستماع إلى الموسيقى؟ كان إدجار ديجاس حقًا سيد كل الأشياء العاطفية. وقدم صورة متوقفة رائعة لمغنية تبدو وكأنها واقفة تؤدي وصلتها الغنائية (وهي أكثر واقعية بكثير من غطسة كوجيرو أونشي المتوقفة في أثناء السقوط الحر). ويبدو من شكل فم المغنية، وذراعها المرتفعة، والقفازات التي ترتديها المرأة، وكأنها ملاحظة طويلة جدًا. وهذا- إذا أمكننا القول- نوع من التوقف في أثناء الأداء الموسيقي. إن مستمعي المغنية، وأنا أعترف بأنني أخمن، ينتظرون انتهاء هذا التوقف واستئنافها للغناء. وهذا ليس بالضبط ما حدث في باخ، حيث توقفت الموسيقى تمامًا، ولكنها قريبة جدًا. وعلى أي حال، إذا توقفت المغنية، حسنًا، فإنها بطبيعة الحال لن تغني. ويحب ديجاس صورًا مثل هذه، صورًا كان من الممكن أن تلتقطها الكاميرات اليوم، ولكن لم يكن ذلك ممكنًا عام 1878.

في لوحة «المغنية ذات القفاز» The Singer with the Glove (رقم 5-2) لا نرى كثيرًا من التأكيد أن تلك الخبرة التخيلية تنطوي على وجود جمهور يستمع إلى المغنية. لقد ضغط ديجاس على زر التوقف لتجميد هذه التجربة للشخص الذي يشاهد تلك اللوحة. ما الذي سيخرج من فم المغني عندما يعود الصوت؟ هل سوف تكون أغنية نحبها جميعًا؟ إننا نتوقع أن تستمر تلك المغنية في عملها، أو على الأقل هذا ما نتوقعه ونشعر به عندما ننظر إلى



الشكل رقم (5-2) هل يتضمن الشكل نوعًا من التوقف الموقت لقطعة موسيقية تحيلية؟ هيلبرجيرما إدجار ديجاس (1834-1917) لوحة «المغنية ذات القفاز». وهي لوحة اشتهرت في أواخر القرن التاسع عشر، أي نحو عام 1878. ألوان باستيل على كانافا 2 53 سم × 41 سم، متاحف هارفارد للفنون، متحف الضباب، هبة بناء على وصية من مجموعة موريس فيرتهايم، فئة عام 1906 الصورة © رئيس وزملاء كلية هارفارد.

ذلك العمل الفني. لا يمكن للمغنية بالطبع أن تستأنف غناءها لأنها مجرد صبغة على القماش. لكنها تشعر كما لو أنها حقًا وفجأة يمكن أن تنفجر مرة أخرى بالغناء. يخلق هذا العمل حالة مصطنعة artificial، غير أنها معقولة believable، وذلك جزء مما يقترب منه ديجاس هنا. إنها التجربة الشائقة للمشاهدين الخياليين الساقطة علينا كمشاهدين لهذه اللوحة. إن العمل كله يتركز في التوقف المؤقت، والتشويق، والتطلع إلى المستقبل الذي يمكن

أن يتخلل الانتظار أو فترة ما في أثناء غناء أغنية، أو عزف قطعة موسيقية، لكن بدأت تنمو لديّ النزعة إلى التنبؤ والتخمين أكثر من اللازم.

دعونا نظل مع العروض الموسيقية والتوقفات بعض الوقت، حيث توقف السير بوب جيلدوف خلال حفل موسيقي مع فرقته فئران بوم تاون Boomtown Rats في أثناء أداء أغنيتهم الشهيرة من نوع البوب بعنوان «لا أحب أيام الاثنين» I don't Like Mondays، عام 1979. وكان الرجل يبلغ من العمر آنذاك 64 عامًا، فقد توقف وبقي صامتًا 90 ثانية كاملة وكان هذا الأمر في يوليو من عام 2016، خلال احتفال موسيقي مدته يومان، كإحدى فعاليات مهرجان برينتوود في إسيكس في المملكة المتحدة. ثم اتهم جيلدوف، الذي أفادت تقارير أن ثروته كانت تساوي 32 مليون جنيه إسترليني في عام 2012، ومن يعرف كم كانت ثروته تبلغ عام 2016؟ هذا الحدث العائلي الذي كانت فرقته تتصدر عناوينه بأنه «ممل وجامد» boring and tame ربما كان الحفل كذلك، وربما كان الجمهور يشعر بالسعادة مثلي لهذا الأمر. وقبل أن يتوقف جيلدوف عن الغناء، أوضح للجمهور، بلغة واضحة، أنه لا يحب الملابس التي ترتديها عائلة المحتفلين في المهرجان، حيث لم يكونوا في حالة هياج وإثارة كافية بالنسبة إليه، أو بما فيه الكفاية لمهرجان موسيقي و [كانوا جميعًا] يرتدون ملابس رخيصة من متاجر بريمارك في أيرلندا» وكل هذه الأشياء لا تعبر أبدًا عن جيلدوف. كان السير بوب يرتدي «جاكيت» باهظ الثمن، مصنوعًا من جلد الأفعى، قيمته 350 جنيهًا إسترلينيًا، مصنوعًا خصيصًا على يد خياط على طريق بريك لاين في لندن»، فاشتكى إلى جمهوره في الضواحي: «أنا أرتدي بدلة لعينة من جلد الأفعى و[أنتم] ترتدون قمصان رعاة البقر اللعينة مع أنكم تسكنون في مدينة لندن»[9]. ربما يجب أن يعيش السير بوب في وكر الأفاعي.

(9) يمكن قراءة المزيد من صحيفة ديلي ميل، العدد الصادر بتاريخ 21 يوليو، 2016 (إيما جلانفيلد)

وقمة موسيقية لمدة 90 ثانية جاءت بعد هذه الشكوى ربما لم يتمكن السير بوب جيلدوف وفرقته «فئران بوم تاون» Boomtown Rats من إثارة جمهور إسيكس بما يكفي. ولدفعهم للدخول في الحالة المزاجية اللازمة لبومتاون، وجه إليهم بعضًا من الإهانات، وعندما لم ينجح ذلك توقف لقد استخدم ما يمكنك التفكير فيه كمتغير متطرف جدًّا للتوقف عند سيمفونية سوناتا باخ رقم 6 عند مفتاح G أو BMV 1019 . هووف. ويا للعجب! فذلك لم يفلح أيضًا، مع أنك تتخيل أن هذا كان يمكن أن يفلح مثلما أفلح الأمر مع مايلز ديفيز «وقال أحد زوار المهرجان: كنا نفكر فقط. ربما لم نكن نكترث بالبقاء لسماع أغنية (لا أحب أيام الاثنين) لأنه بالأحرى، لم يكن ذلك يستحق الانتظار عندما بدأ بوب بإطلاق الشتائم. حيث بدأ في أداء أغنية أخرى مفزعة في مستواها الفني بدأت أتجه مع الآخرين للبحث عن المخرج، ووجدت نفسي أقف في طابور من البشر يخرج من المكان في منتصف هذا المهرجان الذي تصدر بعض عناوين الصحف».

تسعون ثانية من التوقف. إذا سألتني. ربما لن تعمل حقًا جيدًا. وبحلول نهاية الثواني التسعين كان الدوبامين العصبي قد استنزف كل شيء، والمستمعون يشعرون فقط بأنهم يستهلكون حرفيًا. يشجع الإيجاز المفاجأة والتشويق فيما يلي مثال آخر على توقف موسيقي طويل آخر. وتختلف الآراء بشأن فعالية هذا التوقف. لكنك ستعرف أنني لا أعتقد أن مفعول هذا التوقف مؤثر بالفعل. ربما سيخمن بعضكم بالفعل أنني أشير إلى جون كيج John Cage ومقطوعته الشهيرة من عام 1952، وكان عنوانها (4:33) لأداء هذه القطعة الموسيقية الكلاسيكية. كل ما يحتاج إليه الموسيقيون هو رفع الكمان على مستوى أكتافهم، وحمل الأقواس المستعدة للعزف لمدة أربع دقائق وثلاث وثلاثين ثانية. أو ربما كان عليهم ألا يفعلوا أي شيء، وفعل هذا الأمر على أي آلة موسيقية أخرى يختارونها.

ويعطي الموسيقيون انطباعًا بانتظار بدء الموسيقى. وبالتأكيد الجمهور ينتظر حتى يبدأ العرف. ولكن العرف لا يبدأ أبدًا. يزعم البعض أحيانًا أن هذه القطعة ليست «أربع دقائق و33 ثانية من الصمت». ولكنها فرصة للجمهور للاستماع إلى الأصوات التي تحيط بهم، ربما. وأظن أن معظمنا يسمع تلك الأغاني مهما كان الأمر. ولا يحتاج الأمر إلى موسيقار، أو ملحن ليعلمنا، أو يقول لنا هذا الشيء يتم بتلك الطريقة، وأنها هي الطريقة الصحيحة لفعل هذا أو ذاك. وقد كتب كيج هذه المقطوعة خلال عقد من الزمن كان ممتلئًا بالأعمال التي تنطوي على الانتظار (وليس الأمر مقتصرًا على مايلز ديفيز، أو في انتظار جودو لصامويل بيكيت التي أتيحت للبث أول مرة عام 1953). ويحتاج كيج بشدة أن يوضع في تصنيف الأعمال التي تنطوي على الانتظار، كما أنه كان بوذيًا صلبًا، وربما كان يسمع في أثناء الصمت ما لا نستطيع نحن أن نسمع (نشر كيج كتابًا عام 1961 بعنوان «Silence» أو «الصمت»: محاضرات وملاحظات)[10]. ويُقال عن مايلز ديفيز إنه قد اشتهر بما يلي: «حالة من الصمت القصير الذي له تأثير درامي في الأداء، وكانت المعزوفات التي لا يختار عزفها ذات معنى أكبر من تلك التي يفضل عزفها»[11]. وأتمنى لو أمكنني أن أقول إنني أفهم معنى أي من هذا، ولكن مع الأسف لا فكرة لدي عن معنى كل ذلك. ومن ناحية أخرى، فإن السيد كيج يعمل بشكل أفضل إذا

(10) قدم آدم شاتز Adam Shatz، في نيويورك ريفيو أوف بوكس، 8 فبراير، 2018، كما قدم استعراضًا لرأيه في ألبوم عازف البوق الأمريكي وادادا ليو سميث (عزف منفرد: تأملات في أفكار كاهن) ويستخدم وادادا الصمت، أو ما أسميه الوقفة كثيرًا، ويطلب أن لا ننتقل من الصمت إلى الموسيقى العادية المسموعة يمكن أن يجعلها تحدد دنًا منتبهة لها ويروي شاتز عن سميث من قوله عن عازف البيانو ثيلونياس مانك «لقد تفهم مانك بحسه المتميز أن الفراغات بين الألحان لا تعد مساحة تغيب فيها النغمات، وإنما هي حقل مهم، حيث توجد وتنمو نتيجة لما تم عزفه قبل الصمت» ويتحدث سميث عن المساحة الفارغة بأنها «صمت أكبر من أكبر طاولة في الأثاث»

(11) مرة أخرى، آدم شاتز Adam Shatz، قدم في نيويورك ريفيو أوف بوكس، 29 سبتمبر 2016، فيلم دون شيدلر Don Cheadles بعنوان «شرح مايلز ديفيز»، وكتاب جورج جريلا جونيور «*Bitches Brew*»، بلومزبيري، 2016

كانت مقطوعته ذات الدقيقة والثلاث والثلاثين ثانية محاطة بقطع أخرى عند العزف. ربما من الأفضل إذا لم يتم الإعلان عن (4:33) على البرنامج، وترك الحكم للمستمع. وتُعزف مقطوعة كيج وسط بيئة من الضوضاء، ولن تُعزف جيدًا من تلقاء نفسها. فبالتأكيد لا تحتمل المقطوعة (4:33) التكرار وفور أن تعرف السر، ربما لن يكون هناك مزيد من الدوبامين. هذا إلا إذا كنت تعتقد أن الدوبامين يمكن إنتاجه من خلال اكتساب القدرة على تحمل سماع شخص ما يمسك براديو إلى جوارك ويبحث لمدة ساعة عن برنامج ما. إن المقطة (4:33) لا تنطوي على الصمت بقدر ما هي مرتبطة أكثر بالتوقف. عندما أواجه فكرة (4 33) للسيد جوني كيج لا يسعني سوى التفكير في غرفة مملوءة بالبشر، هي عبارة عن ديسكو. ولكنّ الراقصين يرقصون داخلها بدون موسيقى. يمكن للراقصين سماع الموسيقى، وفهمها، والتفاعل معها بالتأكيد، لكن هذا لن ينجح مع شخص غير متواصل بهذه المناسبة، يدخل إلى غرفة مملوءة بالأنهار الصامتة. على ما يبدو، أصبح الديسكو الصامت شائعًا هذه الأيام في منازل كبار السن[12]. ويُعتقد أنه علاجي، وكل ما أعرفه على الأرجح هو ذلك، مع أنني لا أستطيع القول إنني أتطلع إلى ممارسته عندما أنتقل إلى منتجع Autumn Lodge تخيل أن أحد زوار عائلتي يدخل إلى Autumn Lodge ويراني أرقص بعنف، على ما يبدو بدون صوت على الإطلاق، سينظر حوله ويتساءل: ما هذا التوقف الغريب والقوي؟ متى ستبدأ الموسيقى؟ لا يوجد دوبامين هنا؟ لقد فقد السيد توهي المسكين عقله.

يبدو أن الخدعة هي معرفة المدة التي يمكنك فيها التزام الصمت دون فقدان انتباه الجمهور. من المستغرب، أو ربما ليس من المستغرب، أنه

(12) «تنتشر حمى الديسكو الصامت عبر مراكز الرعاية المدعمة، وتساعد على علاج الخرف»، في مقال ساماثا تيرنبول، ايه بي سي نيوز، 24 فبراير، 2018

يمكنك الحصول على قليل من المساعدة في هذا الموضوع من بحث عن الخطابة العامة، أو التحدث إلى جمع غفير من الحضور. ليس هذا هو الموضوع الذي بحث جون كيج فيه، بشكل مفهوم. ومع ذلك، أعدكم بأن يثير هذا الأمر الاهتمام أكثر مما يمكن توقعه؛ لذا يرجى الانتظار. دانيل دويز Danielle Duez، عالم فرنسي متخصص في علم الأصوات، مرتبط بالمركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، يفحص خلال التسعينيات أساليب بعض السياسيين الفرنسيين في أثناء إلقائهم خطابًا ما، وطريقة كل منهم في استعمال التوقف المؤقت بين الجمهور[13]. وكان تحليل دويز عن الرئيس فرانسوا ميتران- بالذات- رائعًا، حيث تناول ثلاثة خطابات بلغ كل منها 4 دقائق. وجد دانيل دويز أنه في عام 1974، كان ميتران مستعدًا، ولكنه فقد تسلسل أفكاره، فتحدث بشكل أسرع نسبيًا، وسيطرت الوقفات على 30% من خطابه. بعد عشر سنوات كان رئيسًا، لكنه كان يحاول تجاوز أزمة ما حول التعليم. في هذا العام سيطرت الوقفات على 40% من خطاباته، وبعد ذلك بأربع سنوات كان يقاتل من أجل إعادة انتخابه رئيسًا، فسيطرت الوقفات على 36% فقط من خطاباته.

بالنسبة إلى دانيل دويز Danielle Duez، فإن التوقف هو كل شيء عن السلطة- وليس المتعة. خلال اليوم نجد التوقفات عن الكلام ليست طويلة، وتُستخدَم فرصة لنا لجمع أفكارنا، أو لتوضيح ما نحاول قوله. والأمر ليس كذلك بالنسبة إلى السياسيين الأقوياء. وتقول تارا باتيل Tara Patel في تقريرها عن عمل دويس: «أعماله تعكس الاختلافات [في طريقة استخدام التوقفات] التي تبدو جلية في حالة ميتران المتغيرة وفي عام 1974

(13) لقد اهتمت تارباتل بكتابات دويز في مقالاتها في New Scientist، 16 بريل 1994. كما يمكننا أن نجد كتاب للسيدة تارا باتل بعنوان: دانيلا دويز La pause dans la parole de l'homme politique، سي إن آر إس، 1991.

أجبر أن يجادل حزبه بخصوص هذه الحالة لبضع دقائق، حيث إنه في عام 1984 بلغ قمة قوته السياسية». ويعتقد دويز أن السلطة الرئاسية التي يتمتع بها ميتران في الانتخابات «يُرمز إليها بصمته المتقطع» symbolized by his silence ويمكنك مقارنة تكرار الإيقاف المؤقت عند الدقيقة 74' و84'. ويوضح باتل: «في عام 1974، توقف ميتران في نهاية كل جملة لمدة 0 8 ثانية في المتوسط، وفي عام 1984 توقف لمدة 2.1 ثانية». في عام 1988، لجأ ميتران إلى التوقف بشكل أقل. ويوضح دانييل دويز أن ميتران كان يحاول أن يبدو راسخًا وواثقًا أكثر مما كان عليه عام 1974 كان يهدف إلى أن يبدو وكأنه «رئيس ثم تصادف أن أصبح مرشحًا».

أو ربما لا يكون لاستعمال التوقف المؤقت أي علاقة بممارسة القوة وكل ما يتعلق بالمتعة. يستمتع المستمعون حلال مواجهة التوقف إذا كانت مدتها مناسبة، وهذا يشجع على إنتاج الدوبامين داخل أدمغتهم، وهذا هو ما يولد المتعة: لذا فإن الأمر نفسه لباخ، ويمكن أن يكون لفرانسوا ميتران أيضًا. والسر هو التوقف الطويل بشكل صحيح الذي يوفر مساعدة. وأظن أن جورج بومبيدو، رئيس فرنسا من عام 1969 حتى وفاته عام 1974، ربما اكتسب سمعته الثقيلة بقدرته الضعيفة على تحقيق المتعة في استخدام التوقف المؤقت. ويؤكد باتل «في خطاب ألقاه عام 1973، سيطرت الوقفات على 53% من الخطاب، وتدوم 2 2 ثانية في المتوسط». وهذه هي نقطة قوة جيلدوف.

هل يمكننا أن نجد توقفًا مثاليًا نحصل منه على متعة من نوع ما؟ ربما لا نعرف الإجابة عن ذلك بعد، لكن كريستينا لوندهولم فورس Kristina Lundholm Fors من جامعة غوتبرغ في السويد، تعتقد أن الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما يؤدي التوقف في أثناء الأداء بشكل صحيح

تقريبًا، كما تعتقد أن لديها الإجابة عن هذا السؤال، على الأقل عند التحدث[14]. وقد جادلت من أجل ذلك في أطروحة الدكتوراة في غوتنبرغ عام 2015، حيث استخدمت «تتبع حركة العين لدراسة معالجة الجمل ذات الوقفات الطويلة، والجمل التي تحتوي على فترات توقف نموذجية، والجمل التي لا تحتوي على وقفات. وتظهر نتائج البحث أن الجمل ذات الوقفات الطويلة بشكل غير عادي تميل إلى أن تكون أكثر صعوبة عند المعالجة. كانت فترات التوقف الطويلة في دراستها تستغرق أربع ثوان»[15]. وتقول كرستينا لوندهولم فورس: «أربع ثوان لا تبدو وكأنها وقت طويل، ولكن عندما تتحدث إلى شخص ما يمكن أن تشعر وكأنها أبدية. وتستمر فترة التوقف النموذجية في الكلام نحو ربع إلى نصف ثانية فقط»، وتعتقد أن أوباما يستخدم التوقف بالشكل الأمثل؛ إنه يتجنب الوقفات الطويلة التي يفضلها ميتران والسير بوب جيلدوف، والتي «يمكن أن تؤثر سلبًا في قدرته على التواصل». وأوسع فترات توقفاته كانت لا تتجاوز نصف ثانية فقط.

إذا كان التوقف أربع ثوان، أو حتى التوقفات الكبيرة التي تستمر 90 ثانية ترعجك بقدر ما تزعجك كرستينا لوندهولم فورس، فإن أحد الحلول هو التدريب المؤدي إلى إدارة أفضل للانتظار. إحدى الطرق غير المتوقعة، أو يجب أن أقول المثيرة للقلق، لتحقيق ذلك هي تناول المنشطات. هل تساعد الأمفيتامينات على تحقيق التوقف الأمثل؟ لم أجربها بالفعل؛ لذلك لا يمكنني الإجابة عن هذا الاستفسار، لكن الآخرين لديهم بعض الآراء. يُقال

(14) أولا جليسيت سكيولبرج Ulla Gleset Sciolberg، سايس نوردك، 25 سبتمبر، 2015، و Science Daily، 30 سبتمبر 2015 (يمكن للوقفات أن تفتح الباب لمزيد من المحادثات، أو تنهيها)

(15) توماس ميلين Thomas Melin، جامعة جوتبرج، كلية الآداب، الأخبار والفعاليات، 7 سبتمبر 2015

إن بعض الأنواع من الأمفيتامينات تساعد بعض عازفي الموسيقى وبعض الكتاب والعلماء المتخصصين في الرياضيات. كيف يمكن أن نتأكد من هذا؟ من أقوال كثير من المختصين. والأمر بهذه البساطة إن التوقف المؤقت بالنسبة إليهم ليس ذلك الشيء نفسه الذي تهتم به لوندهولم فورس Lundholm Fors. وفي حالتهم، يبدو أن الوقفة المؤقتة توفر حالة عقلية من التباطؤ تعمل على تحسين قدرتهم على التأليف. كما يمكن أن تخلق المنشطات، مثل الأمفيتامينات، نوعًا من التوقف الفكري أو العقلي، وهي تجربة يمكن للمبدعين من خلالها التخطيط المسبق لعملهم. والمستفيدون من هذه الحالة العقلية الناتجة عن التوقف هم المتفرجون والمستمعون: هم نحن. ويضع الموسيقيون والكتاب وعلماء الرياضيات إستراتيجية للتوقف المؤقت، واستخداماته للانتظار، حتى يمكن توفير تجربة أفضل بالنسبة إلى الجمهور أو القراء.

لقد كنت أتحدث من حين إلى آخر إلى أشخاص من الموسيقيين المتخصصين في موسيقى الجاز، وأخبروني عن أهمية تناول المنشطات حتى يأتي عزفهم في أجمل صورة، بالشكل الذي يرونه. كيف يفترض أن تساعد هذه الأنواع من المخدرات على أي شيء؟ لا يعزف هؤلاء الموسيقيون تلك المقطوعات الموسيقية من الذاكرة، أو من أوراق النوتة الموسيقية؛ بل عليهم أن يسهبوا في العزف، حتى يمكنهم ارتجال أغانيهم المنفردة بإسهاب كبير على الأغنية الأصلية التي بدأوا بها. هذا يتطلّب كثيرًا من المهارات، وضرورة السيطرة على الآلة الموسيقية التي يعزفون عليها حتى يكونوا قادرين تمامًا على عزف الموسيقى التي تسمعها في رأسك، وترجمة الأصوات إلى ألحان. يبدو أن مع تحقيق المهارة اليدوية، والقدرة على «العزف عن طريق الأذن» play by ear، يصبح الوقت حاسمًا للشخص الذي يرتجل. يجب على الموسيقي الفذ أن يؤلف الموسيقى بسرعة وفورًا، وهذا ما يفعله مايلز ديفيز وجون كولترين

في أغنية «وماذا في هذا؟». ولكن ماذا لو لم يحضرهم شيء؟ أو ماذا يحدث لو لم يحضرهم شيء محترم ليقدموه؟ قد تظن أنه إذا كان الوقت يمكنه أن يتباطأ بالنسبة إلى هؤلاء العازفين. وإذا كان بإمكانه منحهم وقفة لوضع ملاحظات في أثناء العزف المنفرد قبل أن تخرج الألحان من آلاتهم الموسيقية، فإنهم سيعزفون بشكل أفضل. ربما سيقل عدد المرات التي لا يحضرهم فيها لحن لائق، أو عندما لا يأتي أي فكر لائق على الإطلاق. أو هكذا أخبروني، أو هذه هي الطريقة التي يفكر بها المبدعون. ويزعم البعض أن الأمفيتامينات يمكن أن تساعد من خلال منح عازف الجاز مزيدًا من الوقت للقيام بمزيد من التخطيط. يحتاج الموسيقي إلى الإحساس بدقيقتين، في حين يستمع الجمهور لمدة دقيقة فيزيقية واحدة على الساعة التقليدية. إن تباطؤ الوقت المحسوس من شأنه أن يمنح الموسيقيين الوقت اللازم للانتظار. ومضاعفة الوقت في هذا السيناريو ستتيح لهم التوقف المؤقت للتخطيط للمتعة التي سيعاملوننا بها. أو ربما يمكنك أن تفهم الأمر بالترتيب التالي: إبطاء الوقت والتوقف المؤقت، سوف يسمحان لهم بالتأليف في نوع من الحركة البطيئة، ولكن العزف يتم في الوقت الفيزيقي والأمر كله يتركز على ضرورة ضبط الوقت إن أردت أن تعيد ترتيب أولويات التوقف في أثناء الأداء، ويُقال إن المنبهات، مثل الأمفيتامينات، يمكنها أن توفر لك مزيدًا من الوقت».

هل يمكن للوقت أن يتباطأ حقًا بهذا الشكل؟ هل يمكن للأمفيتامينات أن توفر حقًا هذه الميزة من خلال هذه النسخة من التوقف؟ أم أن هذا كله مجرد أفكار وأماني للهواة مثلي الذين يحاولون شرح وتخيل كيف يتمكن المتخصصين في موسيقى الجاز من الارتجال بهذه السهولة؟ يمكن أن تتوافر لدينا بعض المساندة من خلال السيدة كلوديا هاموند التي كانت توفر المساعدة لنا طوال الوقت، وتشرح لنا كيف كانت زوجة عالم النفس الأمريكي هدسون هوغلاند Hudson Hoagland مريضة في سريرها ومصابة

بإنفلونزا حادة، وكانت تشكو أن زوجها لم يكن منتبهًا لها بما فيه الكفاية، وأصبحت فترات غيابه أطول وأطول في مدتها. ويشرح هوغلاند، في تقريره، أن المدد لم تكن تطول: فتولد لديه الشك أن ارتفاع درجة حرارة جسم زوجته يغير من طريقة شعورها بالطريقة التي يمر بها الوقت. ومع ارتفاع درجة حرارتها، أقنع زوجته بأن تحسب الثواني التي تشعر بها على أنها دقيقة واحدة، فقرر أن يجري تجربة صغيرة بالوقت، فجلس هوجلاند بجوار زوجته ومعه ساعة رقمية لقياس الوقت. ويشرح لنا هاموند أنه كلما كانت درجة حرارتها تعلو قل معها اتساع الزمن. وظنت أن الوقت يمر بطيئًا، إلى أن بلغت درجة حرارتها 103 درجات (أي ما يساوي 39 درجة سيليزيوس)، إلى أن ظنت أن دقيقة كاملة قد مرت خلال 34 ثانية فقط. وتصر كلوديا هاموند على وجود بعض الأساليب التي يمكن من خلالها جعل الوقت يمر بطيئًا بشكل شبيه بهذه الطريقة. لقد حصلت زوجة هودسن هوجلند تقريبًا على ضعف قيمة الوقت عندما تصاعد مرضها إلى القمة. وتلك الميزة هي بالضبط ما يبحث عنه الموسيقيون عند تعاطي المخدرات، ولكن بالطبع لن يساعدهم المرض: لأنهم لن يتمكنوا بهذه الطريقة من العزف. ولكن يبدو أن التركيز أو «الانتباه» Attention (أو «هيمنة المهمة» Task Salience كما يصفها بعض العلماء) يمكن أن يوفر بعض المزايا نفسها[16]. التركيز هو ما يحتاج إليه هؤلاء الموسيقيون. تحاول عالمة النفس أميليا هانت Amelia Hunt تفسير «الانتباه» إلى التركيز على النحو التالي: «عندما نركز انتباهنا على حدث ما، ولو كان قصيرًا مثل النظر إلى الساعة، فإن ذلك يخلق انطباعًا بأن ذلك الأمر قد استمر فترة أطول مما هو عليه»[17].

(16) عن التركيز: إم جروبر M Gruber، وبي جيلمان B Gelman، وسي رانجانات C Ranganath حالة من الفضول تنعكس على التعلم القائم على الأجزاء المتحكمة في التعلم في المخ من خلال الدورة الدوبامينية، نيورون، 84 (2)، 2014.

(17) مأخوذ من كتاب «*Time Warped*»، للمؤلف كلوديا هاموند

ربما يكون التركيز هو الحل الأمثل للمعضلة التي يبحث المتخصصون في موسيقى الجاز عن حل لها، والتمكن من الارتجال، واهتمامهم المزعوم بالأمفيتامينات، وكيف يعمل التوقف على زيادة قدرة العازفين وإمتاعنا. ما يسعى إليه هؤلاء الموسيقيون هو إبطاء وتيرة الوقت، التوقف العقلي الذي يأتي مع التركيز والاهتمام. بالطبع هم حريصون على الحصول على هذا عندما يكونون في أمس الحاجة إليه؛ لذلك يشترونه من تجار المخدرات، وهذا يوفر لهم القدرة على التوقف عقليًا، والانتظار وقتما يشاءون، والسماح لأفكارهم بالتشكل، والعزف بوتيرة بطيئة عند الطلب، ولكن لا تعد الأمفيتامينات فحسب هي المساعد الوحيد على الأداء؛ الريتالين بوجه خاص (الذي يستخدم لمن يعانون اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه ADHD)، وكذلك الكوكايين والهيروين، يمكن أن يساعد على إبطاء وتيرة الوقت. كان هناك تحليل منهجي للأدبيات الحالية المتعلقة بالتحسن المعرفي المحتمل الذي يوفره تناول الأمفيتامين وميثيل فينيديت (الريتالين)، أجراه فريق من قسم علم النفس بجامعة ويسكونسن في ماديسون، عام 2015، بقيادة روبرت سبنسر Robert Spencer،[18] وكانت نتائج عينة البحث إيجابية. يمكن التوصل إلى تحسن في الإدراك والذاكرة، وفي التحكم في النفس لدى الأشخاص البالغين نتيجة تناول المحفزات النفسية. كما تزيد المخدرات من إحساس الشخص بالإثارة وأعتقد أن هذا يترجم- إلى حد

(18) ار سي سبنسر، ودي إم ديفيلس، وسي دبليو بريدج، العوامل المؤثرة في تطوير وتحسين مهارة التعرف لدى المثيرات النفسية التي تتطلب تدخلًا مباشرًا في الفص قبل الجبهي في المخ، بيولوجيكال سايكاتري، 77 (11)، 2015، رسي ماليكا، اي جي نيستلر، اس اي هيمان، الفص الثالث عشر وظيفة التعرف العليا والتحكم السلوكي، في مقالة أي سايدور، اروي براون، مجلة موليكيولار نيوروفارماكولوجي، أسس دراسة علوم المخ والأعصاب الاكلينيكية (ط 2)، ماكجرو هيل الطبية، 2009، اي بي إيليميا، سي جاي هوول، إم جاي فرح، تأثير وصفات أدوية المثيرات العصبية، الذاكرة العامة والذاكرة التسلسلية تحليل متعدد الأوجه، مجلة علم المخ والأعصاب المعرفي

بعيد- القدرة على التركيز بفعالية. كما تحسن الأمفتمينات وميثايلفنيدات (الريتالين) أيضًا القدرة الوظيفية على أداء المهام الصعبة والمملة بالكفاءة نفسها (يستعمل بعض الطلبة تلك المواد لحسين أدائهم في الاختبارات[19]). ويستخدم الأمفتمين والريتالين تأثير صديقنا القديم الدوبامين لتأمين تأثيرهما في الجسم. هذه الحبوب تمنع امتصاص الدوبامين، ونتيجة لذلك تسبب تركيزًا في الدماغ (فهي بمنزلة مثبطات إعادة امتصاص الدوبامين). من المحتمل أن يكون هذا التركيز هو ما يجعل إبطاء الوقت ممكنًا، وليس من المستغرب أن يؤدي إلى اكتساب القدرة على الانتظار، أو التوقف، وربما تلك الوتيرة البطيئة لمرور الوقت هي ما تساعد بعض الموسيقيين على الارتجال. هذا هو التوقف الذي يمكن أن يكون مفيدًا جدًا من أجل التلحين، وإذا سارت الأمور على ما يرام، فهو ممتع للمستمع أيضًا.

الموسيقيون ليسوا هم فقط من يستعملون المخدرات لزيادة قدرتهم على الأداء، وتحسين قدراتهم، واكتساب القدرة على التركيز، وتحقيق التوقف الفكري والتخطيط وتنفيذ ما خططوه بشكل سريع[20] استخدم الروائي البريطاني جراهام جرين Graham Greene الأمفيتامينات لمساعدته على إتمام روايتين في وقت واحد. كان هذا عام 1939 عندما كان يكتب رواية بعنوان «القوة والمجد» The Power and the Glory، للأجيال القادمة كما يقال، ورواية «العميل السري» The Confidential Agent وكان يحاول إتمامهما في أقرب وقت ممكن من أجل المال ووفقًا لكتاب سيرته الذاتية،

---

(19) سي جي تيتير C J Teter وآخرون. الاستخدام الممنوع لبعض أدوية المثيرات العصبية من جانب بعض طلاب الجامعات: معدل الانتشار والدوافع ومسارات الدفاع والتحكم. العلاج الدوائي، 26 (10)، أكتوبر 2006

(20) وقد أتى كثير من هذه البيانات من كتاب من تأليف ماسون كوري Mason Currey: « What Do Auden, Sartre, and Ayn Rand Have in Common? Amphetamines»، سلايت للنشر، 22 أبريل، 2013.

كان جرين يمتاز بالسرعة وقوة التحمل عام 1939، وقد تمكن من إتمام رواية «العميل السري» في ستة أسابيع، حيث كان يعمل على إنتاج 2.000 كلمة كل صباح (وكانت الفترة المسائية مخصصة لرواية «القوة والمجد»)، وذلك- على الأرجح- أقرب إلى الارتجال مما هو الأمر بالنسبة إلى الكلمة المكتوبة. وليحقق هذه الطفرة الارتجالية كان جراهام يتناول حبة عند تناول الفطور، وحبة عند تناول الغداء. البنزيدرين، أو «البنسات» Bennies كما كانت معروفة، هو الاسم التجاري للأمفيتامينات، وكان متاحًا بدون وصفة طبية في الولايات المتحدة الأمريكية مثلًا حتى عام 1959، وأعتقد أنها إصدارات أقل فاعلية من مجموعة الميثامفيتامين المؤقتة التي يمكن تناولها بالتدخين، أو الشم، أو الحقن، أو بلعًا عن طريق الفم وتعرف هذه التشكيلة بعدة أسماء في الولايات المتحدة، والدول الأوروبية، والمملكة المتحدة، ومن بين تلك الأسماء «سرعة» speed « أو مث» meth أو «الطباشير» chalk. وقد أدت الحبات التي اعتاد جراهام جرين تناولها عملها المطلوب منها، وكان يمكن أن يتوقف عن تناولها تمامًا عقب إتمامه كتابة الروايتين.

ولكن كما يمكن أن تتوقع، تلك الحبات ليست جيدة للصحة عندما تؤخذ على المدى البعيد، وهي السبب- من بين أمور أخرى- في فقدان الروائي والفيلسوف الفرنسي الشهير جون بول سارتر Jean-Paul Sartre بصره. «في الخمسينيات، استنفدت كل طاقتي بالفعل في كثير من العمل، مع قليل من النوم- بالإضافة إلى كثير من النبيذ والسجائر»، ثم تحول الفيلسوف إلى الكوريدران، وهو مزيج من الأمفيتامين والأسبرين، وهو ما شاع استخدامه بين الطلاب والمثقفين والفنانين الباريسيين. الجرعة الموصوفة كانت قرصًا أو قرصين في الصباح وفي الظهر، ولكن سارتر أخذ 20 قرصًا في اليوم مع قهوته الصباحية، وكان يمضغ ببطء حبة تلو الأخرى في أثناء عمله، لكن مع كل حبة أو اثنتين، كان ينتج صفحة أو اثنتين من عمله الفلسفي الثاني

الرئيس «نقد التفكير العقلي» The Critique of Dialectical Reason. ولم تكن الروائية والفيلسوفة المحافظة آين راند Ayn Rand أفضل أو أسوأ مع تناول حبات عقار البينزيدرين Benzedrine. «في عام 1942 أخذت آين راند (بنزدرين) لمساعدتها على إنهاء روايتها (النافورة) The Fountainhead، وقد أمضت سنوات في التخطيط والتأليف خلال الثلث الأول من الرواية على مدى الاثني عشر شهرًا التالية. بفضل الحبوب الجديدة. كان متوسط عملها فصلًا كاملًا كل أسبوع. لكن سرعان ما أصبح المخدر مثل العكاز. سوف تستمر راند في تناول الأمفيتامينات للعقود الثلاثة المقبلة، حتى مع أن الإفراط في استخدامها يؤدي إلى تقلبات مزاجية، وحالة تهيج، ونوبات مزاجية، وسمات من جنون العظمة التي كانت راند معرضة لها حتى بدون تناول المخدرات» لا يبدو أن البنزيدرين والريتالين قد أزعجا عالم الرياضيات المجري الشهير بول إردوس Paul Erdos. لقد قيل إن «مصدر قدرته الكبيرة على التحمل كان هو جرعات الإسبرسو وأقراص الكافيين والأمفيتامينات، حيث كان يتناول من 10 إلى 20 ملليجرامًا من البنزدرين أو الريتالين يوميًا» وهناك قصة جيدة تروى عن عاداته في تناول المخدرات، حيث راهنه صديق له يدعى رون جورمان Ron Gorman على مبلغ 500 دولار بأنه لن يستطيع أن يتخلى عن الأمفيتامينات شهرًا، وكان أمله حينئذ إقناع إردوس بالإقلاع من عادته. ولكن مع أن إردوس فاز بمبلغ الـ 500 دولار فإنه استأنف عادة تناول الأمفيتامينات، وأوضح لجورمان تفسيره بأن قال له: «لقد أظهرت لك أنني لست مدمنًا، «لكنني لم أنجز أي عمل. كنت أستيقظ في الصباح وأدخل مكتبي لأحدق في صفحة فارغة من الورق لقد أصبحت مثل الأشخاص العاديين، ولم أتمكن من استخراج أي فكرة. لقد رجعت بعلم الرياضيات شهرًا إلى الخلف»[21].

(21) مايسون كوري مرة أخرى؟

كان بول إردس محظوظًا: فهو لم يتحول إلى مدمن، ولم يصب بالعمى مثلما حدث مع جون بول سارتر. ويبدو أن الجرعة الصحيحة تساعد على إيجاد التوازن، ولكن كيف تعرف ذلك؟ وما الجرعة الصحيحة؟ أجرى عالم النفس الألماني مارك ويتمان الذي التقيناه عدة مرات من قبل في هذا الكتاب (لقد استخدمت مصطلح «الوقت المحسوس» felt time مرارًا وتكرارًا) تجربة على العلاقة بين الوقت والمنشطات النفسية. واستنتج أن هذه التجربة: «أظهرت أن الأشخاص المعتمدين على المنشطات Stimulant Dependent Subjects أو SDS يظهرون عجزًا في إدراك الوقت، وفي التوقيت الحسي الحركي»[22]: لذلك يبدو أن فكرة تباطؤ الوقت والتوقف الفكري تعمل لديهم، لكن ويتمان يواصل تأكيد الضرر الذي يمكن أن يحدثه ذلك. لقد عانى مايلز ديفيز، وبيل إيفانز، عازف البيانو في فيديو «قليل من الزرقة»، وجون كولترين، كلهم عانوا إدمان المخدرات في أوقات مختلفة. لا يبدو أن المخدرات لم تؤدِ إلى إيذاء أغنية «وماذا في هذا؟»، ما عدا أنها ألحقت الضرر بحياتهم. مسيرة مايلز ديفيز المهنية كانت في حالة ركود بسبب الهيروين قبل ظهور أغنية «قليل من الزرقة». لقد كان مايلز ديفيز قادرًا على التعامل مع إدمانه بشكل منتظم، وعاش حتى بلغ من عمره 65 عامًا. كان عازف البيانو بيل إيفانز يبلغ من العمر 51 عامًا عندما توفي، ويقال إنه كان يعاني قرحة هضمية، وتليفًا في الكبد، والتهابًا رئويًا قصبيًا، والتهاب الكبد لا علاج له. لقد زعم البعض أنه في وقت وفاته كانت يداه متورمتين من كثرة حقن مخدر «كرات السرعة» speedballs فيها. ووصف الغنائي الكندي جين ليز Gene Lees حياة إيفانز مع المخدرات بأنها «أطول محاولة

---

(22) مارك ويتمان Marc Wittmann وآخرون «Impaired Time Perception and Motor Timing in Stimulant—Dependent Subjects»، مجلة تعاطي المخدرات والكحوليات، 90 (2-3)، أكتوبر 2007.

انتحار في التاريخ «the longest suicide in history».[23] يبدو أن التهاب الكبد كان السبب الرسمي لوفاة جون كولتران. لكن التهاب الكبد كان مرتبطًا بإدمانه للهيروين. ولم يكن «نالتريكس» قد اختُرع بعد عام 1959 يا لها من تجربة بالنسبة إلى السادة مايلز ديفيز، وبيل إيفانز، وجون كولترين وربما كان يمكن أن يساعد «نالتركس» السيد جاكسون بولوك Jackson Pollock أيضًا. كانت لوحته الشهيرة عام 1952، بعنوان «القطبان الأزرقان» Blue Poles - كما قلت- جزءًا من الإلهام لعنوان ألبوم «قليل من الزرقة». وفي 11 من أغسطس عام 1956، في تمام الساعة 10:15 مساء، توفي جاكسون بولوك في حادث سيارة لقد كان يقود سيارته تحت تأثير المسكرات.

عاش بول إردوس إلى أن بلغ من عمره 83 عامًا على هذا النظام من الأمفيتاميات والريتالين والقهوة الإسبرسو، ولم يمس النالتركس. ربما لا يتمكن معظمنا من العيش إلى عمر مثل هذا، لكن الخبر السار هو أنه من الممكن إنجاز هذه الأعمال المميزة من التوقف والانتظار والتركيز بدون تعاطي المنشطات. فالتدريب يبدو أنه يساعد على ضبط دماغ الموسيقي بشكل أفضل إلى أن يحقق الارتجال، وأفترض أن الأمر نفسه يحدث أيضًا بالنسبة إلى الكتاب وعلماء الرياضيات، وآمل ذلك. ويبدو أن أجزاء الدماغ التي تمكن من ضبط النفس- والتي قد ترتبط بوضع إستراتيجية للانتظار والتوقف المؤقت- تختفي من المشهد عندما يرتجل الموسيقيون أمثال مايلز ديفيز. وقد تعرض هذا الأمر للجدال عام 2008 في تجربة مشهورة تمت في مستشفى جامعة جونس هوبكينس، أجراها تشارلز ليمب Charles Limb، وقد كان فنانًا متخصصًا في موسيقى الجاز، وعالمًا متخصصًا في

(23) نيويورك تايمز، 13 سبتمبر 1998، مقالة سريعة من بين إيفانز Bill Evans كيف يعي فني، بقلم بيتر بيتنجر، شركة جامعة يال للنشر، 1998

الأذن والحنجرة، وكان لهذه التجربة علاقة بألان براون[24]، حيث اعتقد أن الفص الجبهي الظهراني dorsolateral prefrontal cortex الموجود على جانبي المخ من ناحية الأمام يبطئ نشاطه في أثناء الارتجال «ومنطقة الفص الجبهي الظهراني هي منطقة دماغية ترتبط أحيانًا بإجراءات التخطيط والرقابة الذاتية» واقترح كل من ليمب وبراون أن إغلاق هذه المنطقة يمكن أن يؤدي إلى تقليل موانع التركيز؛ ومن ثم زيادة القدرة على الارتجال. هذا يجعل الارتجال يبدو وكأنه صياح موسيقي دون ضبط للنفس، لكنه طريقة أخرى للنظر إلى الأشياء. ربما يؤدي ذلك دورًا مهمًا جنبًا إلى جنب مع تباطؤ الوقت ويلاحظ التقرير عن العمل على حالة ليمب وبراون أيضًا أنه: «رأى الباحثون أيضًا زيادة في نشاط القشرة الأنسية قبل الجبهية medial prefrontal cortex، التي تقع وسط الفص الجبهي للدماغ وقد ارتبط هذا المجال بالقدرة على التعبير عن الذات والأنشطة التي تنقل الأحاسيس الفردية، مثل سرد قصة عن نفسك». لكن ما ينقص البحث في حالة ليمب وبراون هو تلك السيجارة المشتعلة، والتوقف الدرامي الذي يتلاعب به الفنان لإرضاء جمهوره، وزيادة قوة موسيقاه، أو حتى خطابه السياسي. إنه يترك التوقف بعيدًا عن الإلهام

وقد حظي موضوع السيطرة على الوقت بكثير من الاهتمام في هذا الفصل. يقدم التحكم في أثناء الأداء نسخة محددة من الانتظار، وهو

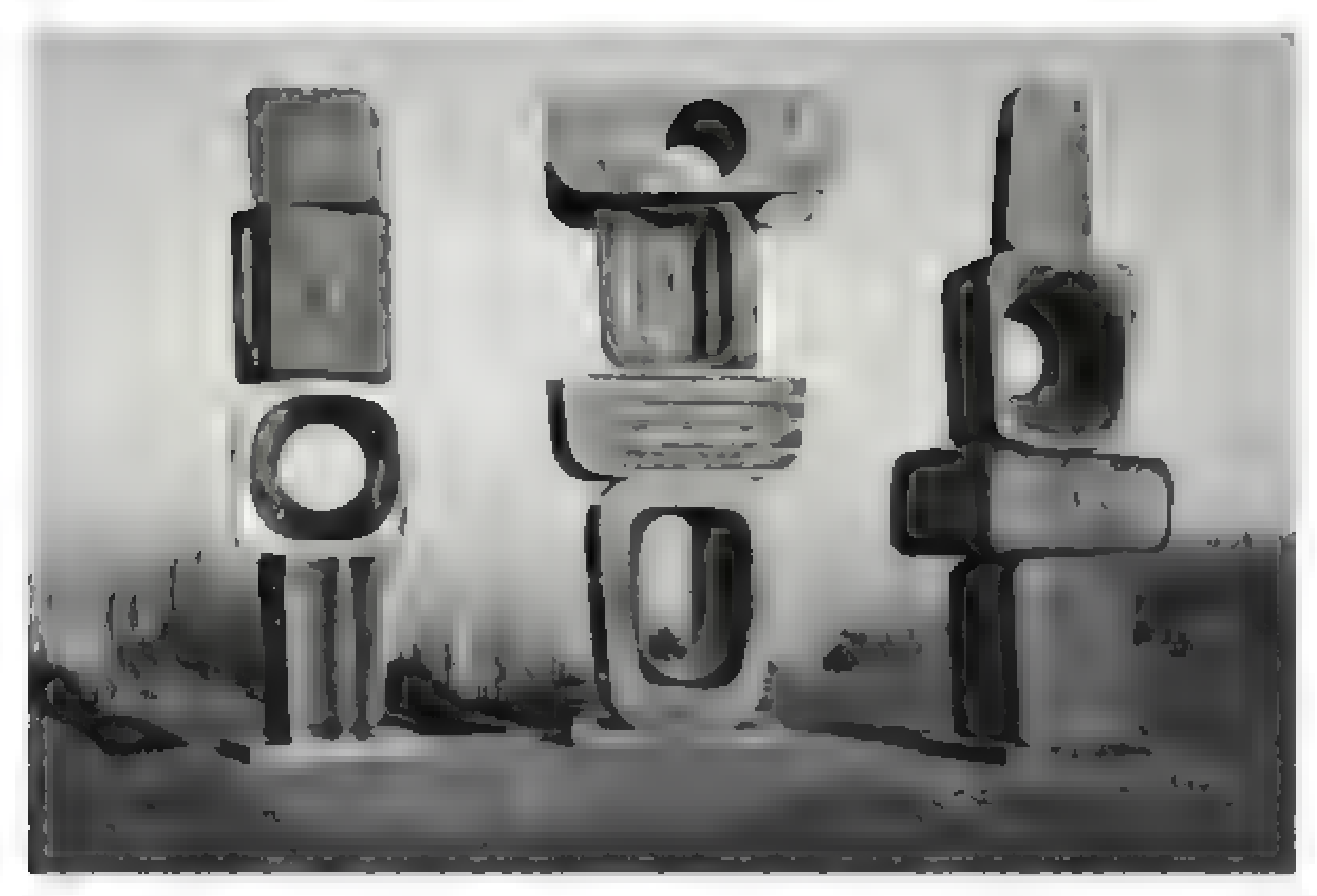
(24) يمكنك الاطلاع على المقال المنشور في مطبوعات جونز هوبكنز، 26 فبراير 2008 (هكذا يبدو مخك عند سماع موسيقى الجاز) ويمكنك أن تجد المقال الأصلي لكاتب تشارلز جاي ليمب وألان براون بعنوان «Neural Substrates of Spontaneous Musical Performance: An fMRI Study of Jazz Improvisation»، منشور على موقع بلوس وان، 3 (2)، فبراير 2008. ولقد ظهرت بعض المقالات الأخرى التي التقطت الخيط بعد ذلك، مثل ميليندا جاي ماكفرسون Malinda McPherson وآخرون «Emotional Intent Modulates the Neural Substrates of Creativity: An fMRI Study of Emotionally Targeted Improvisation in Jazz Musicians»، نيتشر، 4 يناير 2016

الإيقاف المؤقت الذي يمكن أن يقدم للجمهور قدرًا غير متوقع من المتعة. وهذه هي الطريقة التي أثرت بها سيجارة مايلز ديفيز المشتعلة في الجمهور في أثناء عرض فيديو مقطوعة «وماذا في هذا؟» على موقع فيفو. لننهِ هذا الفصل بالفم المفتوح للمغنية ذات القفاز في لوحة الفنان إدجار ديجاس. اقترحت في لوحة ديجاس أن الفنان يجمد الوقت لمشاهد عمله، وأنه يبدو أن المشاهد يتساءل عما سيخرج من فم المغني حين يعود الصوت، عندما ينتهي التوقف المؤقت هل سوف تكون أغنية نحبها جميعًا؟ لقد علقنا ونحن ننتظر هذه المغنية لتستأنف. لكن المؤدية لا يمكنها بالطبع أن تستأنف لأنها مجرد صبغة متوقفة على اللوحة، وقليل من هذا هو ما نشعر به كذلك مع لوحة «الغطسة» لأونشي. ونتساءل: كيف سيكون الأمر عندما يصل الغواص إلى الماء؟

بربارة هبوورث Barbara Hepworth من أكثر النحاتين البريطانيين شهرة في القرن العشرين. غالبًا ما تضمنت إبداعاتها الكبيرة المجردة المصنوعة من الأحجار الكريمة، أو البرونز، أو الخشب، ثقبًا دائريًا، وعينًا كبيرة، داخل كتلتها. يمكنك رؤية هذا بنفسك في الشكل رقم (3 5)[25]. هناك ثلاث أو أربع أعين في لوحة «عائلة الإنسان» The Family of Man. يبدو أن العيون أو الثقوب في تمثال باربرا هيبوورث تأخذ الشكل نفسه الذي كنت أقترحه «O» من فم المغنية في لوحة ديجاس وربما يتساءل المشاهد لأعمال بربارة هبوورث وأعمالها: ماذا يمكن أن يخرج من فتحات تلك العيون المنحوتة عندما تعود الصورة إلى الحركة بعد التوقف؟ لقد تسبب الانتظار في

---

(25) في عام 1931، وبعد عام من ولادتها أول مولود لها، نحتت هيبوورث أول منحوتة لصور الفجوات، ثم قدمت هذا النوع من النحت للفن البريطاني. تلك المساحة السلبية التي لجأت إليها هيبوورث حتى تتمكن من إيجاد الاتساق في حياتها، أصبحت علامة فارقة في حياتها العملية بالكامل، وتعد أول إسهام مهم منها في تاريخ الفن المجرد. بعض الأعمال مثل أربعة مربعات (أربع دوائر) تميز اهتمام الفنان بالفضاء الدائري. مأخوذ من مجلة كريستي، 6 نوفمبر، 2018.



الشكل رقم (35) هل هذا توقف موسيقي من الحجر؟ باربرا هيبوورث (1903-1975)، عائلة الإنسان Family of Man، نحت في من عام 1970، سناب مالتينغ، سوفولك، إنجلترا

تعطيلنا عن استئناف شيء ما. ولكن انتظر، غالبًا تكون القوة والمتعة التي تثيرها ثقوب هيبوورث النحتية ناتجة عن التوقف الذي تجسده، وعن سكونها، وعن الانتظار الذي تثيره.

6

التردد

فصل عن المزايا الإستراتيجية للانتظار المتردد

في شارع طومسون، بنديجو، أوقفت الشرطة سيدة تبلغ من العمر 53 عامًا في سيارتها في موقع عشوائي؛ لاختبارات قياس درجة الكحول في الجسم من خلال التحليل العشوائي للتنفس (RBT Random Breath Testing). وتهدف هذه الاختبارات إلى التحقق- عشوائيًّا- من مستويات الكحول في أجسام سائقي السيارات على الطريق[1]. ويمكن أن تحدها في أي مكان على أي طريق، في أي وقت في أستراليا، وأنت ملزم بالتوقف وإجراء اختبار التنفس عن طريق النفخ في أداة «التحليل العشوائي للتنفس» التي تسجل مستويات الكحول لدى السائق. في هذا المساء بالتحديد في بنديجو، نفخت السيدة البالغة من العمر 53 عامًا في جهاز تحليل التنفس، وسجلت نسبة كحول في الدم قدرها 0.098، وهذا يعادل ضعف الحد القانوني المحلي

---

(1) لقد عدلت بعض أعمالي القديمة في هذا الفصل «The Celebrating the Ordinary Advantages of Being Dull»، سيكولوجي توداي، 30 أبريل، 2016 عبر الإنترنت «Why Would Anyone Build Their Own Coffin?»، مدونة على موقع سيكولوجي توداي، بتاريخ 18 يوليو 2017، بريمانس، العبرة، والعمل، وبعمد الحضارة، مدونة على سيكولوجي توداي، عبر الإنترنت، 27 مايو، 2015

البالغ 0.05%. إنها تعادل ستة كؤوس صغيرة من النبيذ في ساعة واحدة. كانت هذه المرأة المسكينة (لم تفصح التقارير الصحفية عن اسمها) توصل زوجها إلى البيت، ولم يكن زوجها الواثق منها يمتاز كثيرًا بالبراءة، وكان يبلغ من العمر 55 عامًا. وعقابًا للمرأة، ألغت الشرطة رخصة قيادتها لمدة ستة أشهر فورًا، وغرمتها 443 دولارًا لاقترافها جريمة القيادة تحت تأثير الكحول، ولقد كان هذا الحادث الباهظ الثمن في تمام الساعة التاسعة مساءً يوم السبت 7 مارس 2015. وأعتقد أن الزوجين كانا في طريقهما إلى المنزل بعد قضاء بعض الوقت في النادي الاجتماعي، لكن لا يمكنني التأكد من ذلك تمامًا. ومدينة بنديغو هي مدينة تقع في أستراليا، في ولاية فيكتوريا، في وسط أستراليا. ولا أعتقد شخصيًا أنهما ذهبا إلى مكان مفتوح خصيصًا لبيع الخمور، مع أنني قد أكون مخطئًا[2].

كان على الزوج أن يتردد ألف مرة قبل أن يركب السيارة مع زوجته المخمورة، وربما كان عليه أن يحاول منعها من القيادة. لكنه كان مخمورًا أيضًا، بل كان مخمورًا أكثر من زوجته. وربما لهذا السبب اختارت زوجته قيادة السيارة بنفسها. وأظن أنه لم يتردد أو ينتظر لمحاولة منع زوجته من قيادة السيارة. وبدلًا من التوقف قليلًا، صعد مباشرة إلى السيارة، وسمح لزوجته بالقيادة. ربما، بعد تناول الكحول، لم يكن تفكيره سليمًا، وأنا متأكد من أنه لم يكن واعيًا تمامًا. وعلى أي حال، كان ذلك خطأه الكبير الأول: موافقته على استقلال تلك السيارة مع زوجته بعد أن قبضت الشرطة على زوجته وإعادتها إلى مركز الشرطة لإجراء مزيد من الاختبارات، اتصل ذلك الشخص غير المكترث، البالغ من العمر 55 عامًا، بسيارة أجرة لتوصله إلى المنزل، بعد أن تُرك بمفرده في سيارته. لا بد أنه انتظر وقتًا

(2) نيوكاسل هيرالد، 11 مارس 2015 (جرايمي ميلر)

طويلًا؛ لأن ذلك هو المكان الذي ارتكب فيه خطأه الثاني. فبعد بعض التردد، ولكن حجم التردد لم يرقَ قط إلى حد التوقف، قرر أن يقود سيارته بنفسه إلى المنزل. وكان ذلك لأنه فشل في إيجاد سيارة أجرة لاصطحابه إلى المنزل، وكان ذلك في تمام الساعة العاشرة مساء، بعد ساعة واحدة من القبض على زوجته. وكان ذلك على بعد 50 مترًا فقط من شارع طومسون من موقع اختبار الكحوليات العشوائي. حيث رصدته الشرطة في موقع الاختبار العشوائي وهو يدخل سيارته على الفور وأوقفته. ثم تم فحصه وتسجيل معدل الكحول في الدم لديه، فوجدوه 125 0 %. وهو معدل كبير حتى بعد انقضاء ساعة أو أكثر من تناول المشروب الكحولي. لا بد أن هذا المعدل من الكحول في الدم كانت نتاج نحو تسع كؤوس صغيرة من النبيذ. لقد أوقفت الشرطة رخصة السائق المخمور لمدة 12 شهرًا، وغرّمته 627 دولارًا. تم القبض على الزوج والزوجة في المكان نفسه. وفي الشارع نفسه في بنديجو، وفي خلال ساعة واحدة تفصل بين الحادثين. ويبدو ذلك مثالًا رائعًا على إيجاد نسخة من الذات. كما أفادت الصحيفة أن ذلك الخروج البسيط للتنزه في تلك الليلة الباهظة انتهى بتركيب جهاز إجباري لقياس مستوى الكحول في السيارة لفترة لا تقل عن 6 أشهر من تاريخ إعادة تفعيل رخصة القيادة للزوج والزوجة»[3].

---

(3) وذلك منتشر بشكل أكبر مما تتصور، على الأقل في أستراليا. فبعد سنتين بالضبط من ميلبورن في فيكتوريا حدث ما يلي: «أوقفت الشرطة سيارة يوم الأحد بعد منتصف الليل مباشرة، بتاريخ 14 مايو 2017، بعد ملاحظة أنها تمشي بطريقة تنطوي على قيادة متهورة، فإذا بالسائق سيدة في سن الثانية والخمسين من عمرها، وعندما خضعت لاختبار الخمور وجدت الشرطة النتيجة إيجابية. ولكن بعد ساعتين، ضبطت الشرطة السيارة ذاتها للسبب نفسه، ولكن هذه المرة كان السائق رجلًا، إنه زوج السيدة التي سبق أن قُبض عليها بسبب القيادة تحت تأثير الخمور. وعندما أجرت الشرطة اختبار الخمور على الرجل كانت النتيجة إيجابية أيضًا». مجلة ذا كورير، بتاريخ 15 مايو، 2017 (القبض على رجل وزوجته بتهمة القيادة تحت تأثير الخمور بفارق زمني ساعتين بينهما)

إن المترددين لا يتخذون قراراتهم بسرعة. إنهم يترددون أكثر. وعرضة للتوقف المؤقت المشوش. ويبدو أنهم ينتظرون كثيرًا إلى أن يقرروا ما يجب عليهم القيام به. لم يكن يوجد في بنديجو كثير من ذلك. ولكن ما علاقة بنديجو بالمزايا الإستراتيجية للتردد؟ يمكن بحق الحصول على بعض العزاء من خلال التردد، ومن التوقف Pausing أيضًا. إذا كان بإمكانهم إبعادك عن سيارة مثل تلك الموجودة في شارع طومسون. أكبر خطأ ارتكبه الزوج المخمور لم يكن مجرد الإفراط في شرب كثير من الخمور: ولكن كونه حاسمًا بما يكفي ليجعل زوجته تقود، فلقد استقل سيارته مع زوجته المخمورة بثقة، في حين أنه كان مخمورًا أكثر منها. ربما كان من الأفضل له ألا يتخذ أي قرار بهذا الخصوص لم يكن الحل هنا هو اتخاذ أي نوع من أنواع التصرف، وهو قرار يسهل اتخاذه إذا كنت مخمورًا ربما كان القرار الأفضل هو عدم اتخاذ أي قرار منذ البداية، والانتظار، ومحاولة البقاء بدون أي تغيير إلى حين زوال مفعول الخمور والإبقاء على حالة التوقف والسؤال، متى يجب على هذا الرجل العالق في الظلمة أن يتخذ قرارًا بالتصرف؟ ليس في حينه، لأن حالة السكر جعلت أي شكل من أشكال القرار المعقول أمرًا يصعب الوصول إليه. ربما كان السيد فرانك بارتنوي Frank Partnoy، الذي سوف نقابله فيما بعد، سينصحه بأن أمامه الليل كله لينتظر لو أراد، أو أن السيارة الأجرة كانت سوف تأتي بالتأكيد في النهاية. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فعلى أي حال، ربما كان في الإمكان أن تقله الشرطة إلى المنزل، أو كان بإمكانه أن ينام في سيارته إلى أن تغادر الشرطة، وعندما يصبح الساحل آمنًا ليقود السيارة بنفسه إلى المنزل بشكل غير قانوني- ربما كان رصينًا بما فيه الكفاية بحلول تلك النقطة من الزمن، مع أنني أشك في ذلك. غالبًا ما يمثل التردد المسار الأكثر حكمة في هذا الموقف. غالبًا ما يكون التردد إستراتيجية مفيدة جدًا؛ لذا يمكنكم هنا أن تروا أول مثال على واحدة من المزايا الغريبة للتردد

وتقدم مدينة بنديجو الرائعة ثلاثة دروس مفيدة حقًا فيما يتعلق بالتردد: الدرس الأول يتعلق بما يسمى بالتسامي Proception، والدرس الثاني يتعلق بتقليص التأخير delay discounting. والدرس الثالث يتعلق بالإعاقة الذاتية self-handicapping. وجميع تلك الأساليب المهمة في عملية صنع القرار، مع أنها لا تستلزم التردد بوضوح، تساعد بشكل حاسم من خلال التوقف. دعونا نبدأ بالتسامي proception (أو الإشباع المتأخر) delayed gratification. أول أسلوب من الأساليب الثلاثة الأكثر شهرة[4]. إنها قدرة عاطفية، جزء متعلم فطري، تحفز الإنسان وتجعله يتقبل فكرة الانتظار استعدادًا للاستفادة من مكافأة أكبر سوف تأتي لاحقًا، بدلاً من الاستعجال والحصول على مكافأة فورية أصغر. اختار الزوجان من بينديجو مكافأة فورية أصغر، ورحلة سريعة إلى المنزل، وكوبًا من الشاي، وليلة مبكرة، بدلًا من السعي للحصول على مكافأة أكبر لرحلة أقل سرعة، وأكثر تكلفة، إلى المنزل، دون القلق المؤلم بشأن فقدان رخصة القيادة، والتعرض للغرامات، والتعرض لربط جهاز قياس نسبة الكحول بالسيارة فترة طويلة بالطبع لم يكن التردد الإستراتيجي إحدى الصمات الطاغية لهذين الزوجين من بنديجو. تفضيل تقليص التأخير هو العكس لعملية التسامي. تستند هذه النسخة من صنع القرار أيضًا إلى فكرة الأشخاص الذين يتطلعون إلى تحقيق أقصى قدر من الفائدة في المستقبل. غالبًا يُقال إنه عندما يواجه معظم الناس موقفًا صعبًا وعنفًا (دفع أجرة سيارة أجرة، على سبيل المثال، بدلًا من القيادة إلى المنزل مجانًا، أو المخاطرة بالقيادة تحت تأثير الخمور)، أو عقوبة (1.070 دولارًا في الغرامات، و18 شهرًا إجمالًا

(4) من الكتب المفيدة والممتعة جدًا عن التنبؤ هو كتاب مارتن سليجمان، بالاشتراك مع بيتر رايلتون، وروي بوميستر، وشاندرا سريبادا بعنوان Homo Prospectus، شركة جامعة أكسفورد للنشر، 2016

من تعليق رخصة السيارة، والتعرض لهذا الموقف المحرج). فإنهم يميلون إلى اختيار التعامل مع حالتهم الصعبة تلك عاجلًا وليس آجلًا كما يُقال أيضًا إن معظم الناس يحبون تجنب العقاب، ولكن إذا كان لا بد منه، فإنهم يفضلون نزول هذا العقاب عاجلًا وليس اجلًا. ربما كان علينا أن نقدم هذه الأفكار لهذين السائقين من بينديغو. ففي حالة تقليص التأخير delay discounting ربما كان من الأفضل للثنائي ترك سيارتهما في النادي أو في شارع طومسون، والاستعانة بسيارة أجرة، بغض النطر عن المدة التي سوف يستغرقها ذلك. ربما كان بإمكانهما حتى المشي إلى المنزل. كانت بنديجو مدينة آمنة في آخر مرة رأيتها فيها.

وتمثل الإعاقة الذاتية ثالث الدروس المستفادة من ذلك الموقف في بنديجو. إن ذلك يوفر وضعًا غريبًا يمكن من خلاله للبشر والحيوانات السعي للحصول على ميزة شخصية. بعض البشر وبعض المخلوقات يتعمدون إعاقة أنفسهم، ويتسببون لأنفسهم في خسارة متعمدة، ودائمًا، أويظهرون عمدًا أقل كفاءة، ومن خلال ذلك يحاولون الحصول على منفعة شخصية. يزداد احتمال التعرض لكم كبير من التردد عند حدوث الإعاقة الذاتية. هذا التكنيك المتعلق بالإعاقة الذاتية هو أحد الأنواع المفضلة لديّ من التردد الواضح ربما كان أحرى للزوج أن يحاول استخدام هذا الأسلوب يوم السبت 7 مارس 2015. كان بإمكانه الاقتراب من الشرطة في موقع نقطة الفحص العشوائي في شارع طومسون، ثم يقول: «أنا مجرد سكير غبي، أيها الشرطي، والآن لا أعرف ماذا أفعل. فأنا أحمق. أنا عالق هنا، لا أستطيع الحراك. هل يمكنك مساعدة بعض المخطئين التائبين؟»

يمكن توضيح معنى التسامي بشكل أبسط من خلال مثال المارشميلو. كان الراحل والتر ميشيل Walter Mischel خبيرًا في هذا الموضوع، مع أنه كان يبلغ من العمر 88 عامًا ولا يزال يعمل أستاذًا في مجمع روبرت جونستون

نيفن المتحصص في العلوم الأدبية الإنسانية في قسم علم النفس في جامعة كولومبيا. أعتقد أنه كان يحب المارشميلو، وربما كانت من الأشياء التي جعلته مشهورًا وعلى أي حال، لما لا يشتهر وقد اختار المارشميلو موضوعًا لتجربته المشهورة باسم اختبار المارشميلو[5]؟ وقد أجريت هذه التجربة على 5 أطفال في أوائل ستينيات القرن الماضي، وهو عصر ربما كان أكثر استقامة من عصرنا الحالي، وكان يحتوي على المارشميلو، وتجربة كبرى لاختبار قدرة الإنسان على التسامي[6]. وفي تجربة السيد ميتشل، تضمن الأمر اختبارًا للأطفال أصبح اليوم اختبارًا معروفًا جدًا (وهو اختبار أطلق عليه عالم النفس وعالم الاقتصاد السلوكي دانيل كهمن Daniel Kahneman، الحاصل على جائزة نوبل، مصطلح «الورطة القاسية» cruel dilemma). حيث يتم تقديم المارشميلو للأطفال، ثم يخيّرون بين السماح لهم بأن يأكلوها الآن، أو إذا استطاعوا الانتظار 15 دقيقة سيحصلون على قطعة مارشميلو ثانية، ثم يمكنهم أكل قطعتين من المارشميلو ولم يتمكن معظم الأطفال من الانتظار، ولكن والتر ميشيل اكتشف أن أولئك الذين تمكنوا من الانتظار، أولئك الذين كانوا مباركين ليس فقط بقوة الإرادة للحفاظ على أفواههم مغلقة، ولكن مع قدرة أفضل من المتوسط على التنبؤ، كانت حياتهم أفضل فيما بعد. لقد احتفظ ميشيل، ومن خلفه في التجربة، بسجلات بيانات أطفال المارشميلو وشاهدوهم وهم يكبرون، حيث اكتشفوا

(5) والتر ميشيل، اختبار المارشميلو، The Marshmallow Test Mastering Self-Control، ليتل، براون سبارك 2014 و كيلي ماكجونيجل (لدي حظ منذ ولادته بأخ توءم متطابق)، The Willpower Instinct How Self-Control Works Why It Matters and What You Can Do to Get More of It، شركة بينجوين للنشر، 2011

(6) والتر ميشيل وإيب إيبسين «الانتباه لتأخير الإشباع»، مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، 16، 1970. بالإضافة إلى واي شودا، ودابليو ميشيل، وبي كاي بيك «التنبؤ بالكفاءات المعرفية والمهارات الخاصة بتنظيم الذات عند تأخر الإشباع لدى أطفال ما قبل المدرسة، التعرف على الحالات التشخيصية، علم نفس النمو، 26 (6)، 1990.

أن أولئك الذين تمكنوا من انتظار القطعة الثانية من المارشميلو يتمتعون بنتائج أفضل في الحياة الواقعية، ونتائج أفضل في المدرسة، ويحظون بمزيد من الأصدقاء، ولا يتعاطون المخدرات أو حتى الكحوليات. وكانت معدلات الذكاء لديهم أعلى. يبدو أن أطفال قطعتي المارشميلو قد عاشوا حياتهم تمامًا مثل تلك القطط المشحونة بالدوبامين المنتظرة على جانب الرصيف البحري[7]. لقد فطنت تلك القطط إلى أنه من الأفضل انتظار وصول القوارب بدلًا من التجوال في محاولة للإمساك بالفئران على الرصيف. وهكذا يفوتها الحصول على المكافأة الكبرى: لذا فقد بقيت في مكانها وانتظرت الحصول على قطعة ثانية من المارشميلو. لقد ساعدهم الدوبامين على فعل ذلك، وأنا متأكد- إلى حد بعيد- أن الدوبامين قد ساعد قليلًا هؤلاء الأطفال الذين فضلوا الحصول على قطعتين من المارشميلو ما لم يخدعنا أستاذهم البروفيسور ميتشل.

ماذا كنت لتفعل أنت بقطعة المارشميلو الأولى التي يقدمها لك البروفيسور ميتشل؟ إن الشخص الموهوب ذا الفطنة سوف يتردد في قبول القطعة الأولى ثم يقول «لا». أعتقد لو أنني في مكانه كنت سأبتلع قطعة المارشميلو الأولى بدون تفكير، لكن في هذه الحالة، حيث قللت الأبحاث الحديثة من أهمية هذا الاختبار على أية حال. إن عجزي الفطري في طفولتي عن إيجاد إستراتيجية أتمكن من خلالها من التردد والتفكير قبل اتخاذ القرار، ربما لا علاقة له بالتنبؤ بمستقبلي من الأحوال، خاصة وأنا ما زلت أتردد في الحياة. حاول البحث الأخير الذي أجراه تايلر واتس Tyler Watts، من جامعة نيويورك، وارفين جريج دنكان Irvin Greg Duncan،

(7) سوف يغالط البعض بأن السيروتونين هو المسؤول عن مساعدة الناس في عملية التوقع بالطريقة نفسها التي تسبب فيها في جعل الآخرين ينتظرون حدوث أمر ما مرغوب، كما في الفصل الثاني؛ ولذلك فمن الواضح أن الإدارة الجيدة والفعالة للانتظار في المواقف الاجتماعية وحتى المالية، تبدو مرتبطة بإفراز السيروتونين. مايتال نينا وتيين تي تويج، «ألا تحب ما ترى؟ دع الأمر للزمن: الزمن الأطول اللازم للاستجابة المرتبط بالتأثير الإيجابي المتزايد»، *Emotion*، 16 (5)، أغسطس، 2016.

وهوانان كوان Hoanan Quan من جامعة كاليفورنيا، بعنوان «إعادة النظر في اختبار المارشميلو» Revisiting the Marshmallow Test، تكرار تجربة ميشيل[8]. هذه المرة، بدلًا من استخدام 90 طفلاً من مرحلة ما قبل المدرسة في جامعة ستانفورد، استعانوا بعينة من أكثر من 900 طفل يدعون أنهم يمثلون- بشكل أكثر دقة- عموم السكان من حيث الأصول العرقية وتعليم الوالدين. وقد كان استنتاجهم بعد تكرار التجربة هو أن «القدرة على الصمود وعدم الاهتمام بقطعة المارشميلو الثانية تتشكل- إلى حد كبير- من خلال الخلفية الاجتماعية والاقتصادية للطفل، وليس من خلال القدرة على تأخير الإشباع، وهذا ما كان سببًا في نجاح الأطفال على المدى الطويل»[9]. كما يؤكدون أن ميزة أطفال تجربة ميشيل، التي تم اختبارها مقابل تاريخ عيناتهم الأكبر، لا تدوم[10]. ربما يكون من السهل قليلًا فقدان رؤية الأمور المهمة في الأمر عند الاهتمام بالتفاصيل وسواء أردنا تناول المارشميلو أم لا، فهناك ميزة في الانتظار من خلال الاستفادة من المكافأة الآتية في المستقبل. وجّه هذا السؤال فقط لهؤلاء السائقين من بنديجو. وما زلت أميل إلى الثقة في مزايا التردد الإستراتيجي، وأود القول إن أطفال المارشميلو يستحقون المكافأة بعد أن أتقنوا الفن

---

(8) سايكولوجيكال ساينس، 25 مايو، 2018.

(9) جيسيكا مكروري كلاركو Why Rich Kids Are So Good at the Marshmallow Test، ذي أتلانتك، يونيو، 2018.

(10) ولقد تم تناول التحدي الخاص بميشيل من خلال كتابات كل من سي كيد، وإش بالمري، وإر إن أسلين «التفكير العقلاني لدى تناول الحلويات: عملية اتخاذ القرار لدى الأطفال من خلال مهمة المارشميلو وضبطها بالاعتقاد في الكفاءة عند التعامل مع البيئات الجديدة المختلفة»، *Cognition*، 126 (1)، يناير 2013. لقد انتظر الأطفال الأكثر قدرة على الاعتماد على النفس فترة أطول من هؤلاء الأطفال غير القادرين على الانتظار؛ مما يعكس أن قدرة الأطفال على الانتظار وزمن هذا الانتظار يتحددان بالأفكار التي يحملونها عن الانتظار. وإن كان الانتظار حقًا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة طيبة كما أن لدينا أيضًا مثلًا للكاتب إي إن جارون «اتخاذ القرارات المتعمدة بما يجب عمله الآن وما الذي يمكن أن يؤجل لما بعد: تطور التحكم في الذات المدفوع ذاتيًا»، مجلة *Cognitive Development*، 27 (3)، يوليو – سبتمبر، 2021.

ولم يكن واتس ودنكان وكوان أول من ألقى نظرة متفحصة على الإدراك، وعلى المزايا الإستراتيجية للتردد، بل قرأنا عن ذلك في الكتاب الأكثر مبيعًا لعام 2005: ويقدم كتاب «التفكير في غمضة عين: قوة التفكير بدون تفكير»، Blink: The Power of Thinking Without Thinking تأليف الكاتب الكندي الغامض من محلة نيويوركر، مالكولم جلادويل Malcolm Gladwell، انفجارًا دراميًا جدًا وغير متوقع تمامًا عن فكرة الفراسة والتنبؤ بالمستقبل. إن ذلك يساعد على رفع أهمية المساعدة الذاتية إلى مجال يمكن أن نسميه الفلسفة الأخلاقية Moral Philosophy، ويجادل بلينك من أجل قوة وموثوقية القرارات الآنية Instant Decisions، وردود الفعل الناتجة عن فراسة الحس الأمني إن شئنا أن نطلق عليها هذا الاسم. يجب عليك أن تذهب إلى هناك بسيارتك، لا تستخدم سيارة أجرة! بل يجب عليك الاستغناء عن سيارتك اليوم واللجوء إلى تاكسي! كن حذرًا في بديجو! لا يوجد منزع للتردد هنا. الأمر يتعلق بالقرارات السريعة ويهتم كتاب جلادويل بقرارات تخرج في غمصة عين. إنها بالتأكيد ليست من أنواع القرارات النموذجية بالنسبة إلى المترددين، ولا داعي للتفكير في أي من الجائزتين هي الأفضل، المكافأة الأصغر الحالية أم الأكبر اللاحقة؟ فقط قرر ما عليك اختياره، وسوف يجعلك ذلك بالتأكيد تحصل على المكافأة الأكبر. إن وصف جلادويل نفسه لبعض محتويات كتاب «قرار اتخذته في طرفة عين» Blink سوف يقدم لك أفكاره عن هذا الكتاب. «لقد قابلنا عالمًا متخصصًا في علم النفس قادرًا على أن يتوقع إمكانية استمرار زواج من نوع ما فور ملاحظة سلوك الزوجين، إنه مثل مدرب التنس الذي يعلم جيدًا متى سوف يفشل اللاعب الذي يدربه في إرسال الكرة للمرة الثانية على التوالي حتى قبل أن يلمس المضرب الكرة، إنه خبير المقتنيات الثمينة الذي يتعرف على الأثر الزائف بمجرد النظر».

يريد مالكولم جلادويل أن يثبت أن البشر، بدون أي تردد أو انتظار، وبدون إدراك واعٍ، قادرون على الوصول إلى استنتاجات صحيحة من خلال مجموعة ضيقة من المعلومات والخبرات[11]. يعتمد مصطلح «الشرائح الرقيقة» thin slicing على تلك العملية التي تنطوي على اتخاذ قرار مفاجئ. التقطيع الرقيق هو وصف يستخدمه أحيانًا بعض علماء النفس والفلاسفة لوصف الموهبة الخاصة بالقدرة على العثور على أنماط منطقية تستند فقط إلى «شرائح رقيقة»، أو نطاقات ضيقة، وشظايا من المعرفة أو الخبرة. ويعتقد جلادويل أن القرارات المفاجئة تعمل جيدًا، مع أن الكراهية والأحكام المسبقة والصور النمطية يمكن أن تفسد أحيانًا قدرة الشخص على التقطيع الصحيح للشرائح الرقيقة، تمامًا كما لو أن الشخص لديه كثير من المعلومات، أو محاولة تقطيع شيء ما باستخدام سكين غير حاد، وهذا قد يؤدي إلى حدوث شلل، أو توقف للقدرة التحليلية يطلق عليها عملية «الشلل التحليلي» analysis paralysis، وهو أمر يزعج دائمًا الأشخاص غير الحاسمين في حياتهم مثلي. إن الأحكام المفاجئة تكون في الغالب هي الأكثر موثوقية، كما يؤكد جلادويل. ولكن بالإضافة إلى كونه رجلا طيب القلب جدًّا، فإن جلادويل رجل صادق. إنه يوثق لما يسمى «الإخفاقات العظيمة» great failures لعملية اتخاذ القرارات في طرفة عين « blink» مثلاً انتخاب وارن هاردينج Warren Harding [الذي كان حتى وقت قريب يصنف على أنه الأسوأ بين جميع الرؤساء الأمريكيين]، طرح «نكهة كوكاكولا الجديدة» في الأسواق [لم يُبع منها شيء]، وإطلاق الشرطة النار على أمادو ديالو Amadou Diallo [حين أطلق أربع ضباط شرطة 41 رصاصة بمنتهى الثقة على الرجل الخطأ]». كما أود أيضًا أن أخبر جلادويل عن تلك اللحظة التي

(11) جون بارج *Before You Know It: The Unconscious Reasons We Do What We Do*. وليم هاينمان، 2017، قد يقدم بعض التعليمات غير المباشرة على أساس من المقطع لرقيقة

قررت فيها سريعًا أن أتداول في التعاملات اليومية في الفوركس بثقة [كدت أخسر ملابسي بعد أن خسرت كل ما أملك].

غالبا ما يكون جلادويل متحمسًا في كتاباته لإثبات أن الشخص الصغير، ربما الذي يمثل داود بالمقارنة بجالوت الحكومة أو التجارة أو الأكاديمي، يمكن أن ينتصر بشكل غير متوقع تستند شعبية كتبه التي يتسم معظمها بالجودة الممتازة، وحججه الحديثة، إلى الرسالة الحماسية التي تنقلها إلى الناس بأنك، بالرغم من كونك شخصًا عاديًا تمامًا، من الممكن أن تصبح داود في بعض الأحيان، فقط إذا كان لدينا إيمان، وإذا قطعنا شرائحنا بشكل أدق وأرق من ذلك إن كنت تفهم ما أعني: لذا فإن أحد كتبه الأكثر مبيعًا، الذي يهدف إلى إظهار هذا الحلم المستحيل، يسمى داود وجالوت، ويُظهر كيف يمكن لداود أن يبلي بلاءً حسنًا في عالم تنافسي من عدد كبير من أشباه جالوت، في حين أن كتابًا آخر يسمى «المبعدون» Outliers، يحاول إظهار كيف يمكن للأشخاص الذين لم يرثوا أي امتياز بالمولد، ولم يكونوا يومًا في مركز الأحداث، أن ينتصروا في عالم من الدخلاء، أو كما تحب أن تقول بنديجو تتغلب على نيويورك ويُقال الآن عن جلادويل، وهو أحد أشباه داود من مدينة تورونتو الأمريكية، إن ثروته تبلغ عدة ملايين من الدولارات ينتصر داود وينتقل إلى نيويورك ليكسب رزمة من الأموال. وكذلك الأمر بالنسبة إلى عملية اتخاذ القرار. ويعد كل من الغريزة وبعض التدريب، من الأساليب الناجحة إذا أردنا أن نفعل أمرًا ما سريعًا، والتوصل إلى قرار سريع بشكل يضاهي الاستعانة بالرأي الفعال للخبراء، وكان هذا قليلًا مما يمكن أن نتعلمه عن عملية اتخاذ القرار في طرفة عين[12].

(12) يناقش كتاب بعنوان "داود وجالوت David and Goliath"، "للكاتب Malcolm Gladwell"، آليات اتخاذ الأفراد القرارات السريعة، مع شرح الاستراتيجيات لاتخاذ هذه القرارات المبنية على بعض الحقائق والتوقعات، وهذا ما حدث مع "داود" في مبارزة "جالوت"، وبتحليل هذه الواقعة استنتج الكاتب في كتابه عدة مبادئ، منها أن المزايا والعيوب ليست بالشيء الثابت؛ الثبات =

ولكن فرانك بارتوني Frank Partony لا يؤمن بأي من ذلك، ويشغل فرانك حاليًا وظيفة أستاذ قانون في جامعة بيركلي، وكان سابقًا أستاذًا في جامعة جورج بيريت للقانون والمعاملات المالية، والمدير المؤسس لمركز قانون الشركات والأوراق المالية. وهو يقترح أن مُنظري عمليات اتخاذ القرار يترددون أكثر من غيرهم، كما أن لديهم ألقابًا وأسماءً مرتبطة بهم. ويستنكر بارتوني نظرية جلادويل عن اتخاذ القرارات في طرفة عين، ويؤسس لنظرية تمنح أملًا لجميع المترددين في هذا العالم المتوتر[13] عام 2012، كتب بروفيسور بارتوني كتابًا بعنوان: «انتظر الفن والعلم وراء التأجيل» Wait: The Art & Science of Delay، وضع خلاله نظرية جلادويل التي تؤيد اتخاذ القرار في طرفة عين في بورة النقد[14]. ويقول بارتوني: «لقد أجريت مقابلات مع عدد من المديرين التنفيذيين لدى شركة ليمان بروذرس، واكتشفت قصة مذهلة. حيث أعدت شركة ليمان بروذرس برنامجًا دراسيًا تدريبيًا

— المطلق، لكنها تعتمد على الإطار، وأسلوب التعامل مع التحديات التي تواجهنا. كما استنتج الكاتب أهمية اتخاذ القرارات سريعًا، على أساس سليم إدراكيًّا للموقف والظروف التي تحيط باتخاذ القرار. وتعرف من الأفكار المتعلقة باتخاذ القرارات وينطبق هذا على القرارات التي تتخذها الدول والحكومات في حالات الحروب. والجدير بالذكر في هذا الصدد وصف الرئيس الراحل أنور السادات آليات اتخاذ قرار حرب أكتوبر 1973. حيث ذكر هذا في خطابه يوم الثلاثاء 16 أكتوبر 1973، بقوله "عاهدت الله وعاهدتكم على ألا أتأخر عن لحظة أجدها ملائمة ولا أتقدم عنها. لا أغامر، ولا أتلكأ. وكانت الحسابات مضنية. والمسؤولية فادحة" ونستخلص من هذا الوصف الدقيق صعوبة اتخاذ القرار، وانتظار الوقت المناسب (المترجم)

(13) إن العمل الذي قدمه بارتوني هو الامتداد الطبيعي للعمل الذي بدأه الكاتب الحاصل على جائزة نوبل دانييل كانيمان. ويمكنك أن تحصل على بعض من تلك المادة من كتاب كانيمان بعنوان التفكير البطيء والسريع، Anchor، 2011.

(14) وهو ليس وحده في هذا، فقد أصدر كارل أونوري كتابين ضد القرارات السريعة، وذلك في كتابه *In Praise of Slowness. Challenging the Cult of Speed*، كنوف 2005 والترتيب البطيء من الأزمات. اعمل بشكل أكثر ذكاءً وعش أفضل في عالم سريع، كنوف، 2004 كما لدينا كتاب مايكل لاجالت *Think! Why Crucial Decisions Can't Be Made in the Blink of an Eye*، سايمون وشوستر، 2006 وأكثر الكتب شهرة على الإطلاق هو كتاب دانييل كانيمان بعنوان Thinking, Fast and Slow

عن مهارات اتخاذ القرار وُضع خصيصًا ليتناسب مع العاملين في الشركة، وكان ذلك في خريف عام 2005». «وفي أهم وأفضل محاضرة أحضروا السيد مالكولم جلادويل ليحاضر الموظفين، وكان في ذلك الوقت في خضم ردة الفعل على كتابه الصادر بعنوان (قرار اتخذته في طرفة عين) أو Blink». ومع الأسف، كان السيد جو جريجوري Joe Gregory أحد أبرز ضحايا انهيار شركة ليمان بروذرس خلال فترة الأزمة الاقتصادية عام 2008. وكان السيد جريجوري مهوزًا بنظرية جلادويل تلك، إلى درجة أنه كان يوزع نسخًا مجانية من كتاب «قرار اتخذته في طرفة عين» على جميع من يعمل في مجال إدارة الأعمال. «لقد اجتاز عدد كبير من أصحاب الشركات هذا البرنامج التدريبي: ومن ثم هرعوا إلى مقار عملهم وبدأوا باتخاذ أكثر القرارات المتسرعة سوءًا في تاريخ سوق الأعمال التجارية»[15]

وإذا كان البروفيسور بارتوني يعارض نظرية جلادويل لاتخاذ القرارات في طرفة عين، فما البديل الذي يقدمه لنا؟ وهل سيبرر هذا البديل الأهمية الإستراتيجية للانتظار والتأجيل؟ يقدم لنا بارتوني شكلًا جديدًا من التأجيل النشط المفيد بدلًا من اتخاذ القرارات في طرفة عين[16]. إنه التأجيل، أو ما يسمى Procrastination. الآن نتحدث عن النجم الذي يهتدي به المنتظرون والمترددون في الأساس. وهو مبدأ جيد بالنسبة إليّ، حتى إذا كان مبدأ بارتوني عن التأجيل يختلف عن تلك الطريقة الفاشلة التي يتعامل بها أشخاص مثلي في جميع شؤونهم. بل إن طريقته في التأجيل يمكن أن ترقى إلى مستوى الإستراتيجية أكثر منها نوعًا من أنواع الخبرة. وتتكون إستراتيجية بارتوني للتأجيل واتخاذ القرار من خطوتين: الخطوة الأولى هي تحديد أطول مدة

(15) مأخوذ من كتابات ميجان جامبينو «لماذا يمكننا اعتبار المماطلة شيئًا جيدًا لنا؟»، Smithsonian.com. 12 يوليو، 2012

(16) يوجد فصل كامل عن التردد بقلم أندريا كولر في كتابها بعنوان *Passing Time An Essay on Waiting*. 2017، والفصل المفصل لديّ عن التردد

يُسمح من خلالها اتخاذ قرار من نوع ما. وخلال تلك المرحلة يؤكد بارتوني أنك سوف تتمكن من جمع أكبر قدر من المعلومات المتعلقة باتخاذ قرار من نوع ما. وللتوسع إلى ما بعد مرحلة جمع المعلومات يقترح السيد بارتوني التأجيل. إنها تأجيل الاستجابة أو القرار حتى اللحظة الأخيرة الممكنة: فإذا كان الوقت المتاح أمامك قبل اتخاذ القرار هو سنة مثلًا. فعليك أن تنتظر 364 يومًا وإذا كان الوقت المتاح أمامك هو ساعة. فعليك الانتظار 59 دقيقة. ويضيف أن هذه هي الإستراتيجية الأكثر فاعلية التي يستخدمها أنجح متخذي القرارات في العالم. مثل الرياضيين المحترفين على مستوى أقل من الثانية. والعسكريين على مستوى الدقائق. ومديري مواقع تنظيم خدمات المواعدة بين العشاق على مستوى الساعات. إن ما يريد بارتوني أن يبرزه هنا هو أن جميع تلك المجالات بالتأكيد تسمح بنافذة ما- كبرت أو صغرت- يمكن من خلالها جمع المعلومات قبل الاستجابة الفعلية. ويقدم مثالًا على ذلك من خلال لاعبي التنس. حيث تشير بعض الدراسات إلى أن أكثر اللاعبين سرعة هو أكثرهم بطئًا. حيث إنهم يتمكنون من ضبط قوة ضربهم للكرة بحيث يتمكنون من توفير أكبر قدر ممكن من الوقت لأنفسهم بين إرسالهم للكرة واستقبالهم لها. وهذا من وجهة نظره أكبر مثال على التأجيل الفعال. ويعتقد أنه بإمكاننا جميعًا الاستفادة منه في النهاية. وأن الأمر ليس مقتصرًا على متخذي القرارات فقط: «تنفس بعمق فحسب، وتمعن واسمح لنفسك بمزيد من الوقت. ثم حدق أمامك نحو المجهول، ووجه إلى نفسك هذا السؤال: ما أقصى مدة زمنية متاحة أمامي قبل القيام باستجابة؟». وتكون تلك هي أولى خطوات اتخاذ القرار.

هذان الزوجان من مدينة بينديجو، يبدو أنهما قد اعتمدا أكثر على إستراتيجية اتخاذ القرارات في طرفة عين. أكثر من لجوء أي منهما إلى إستراتيجية التأجيل الفعال Productive Procrastination. أو ما يُطلق

عليه إيجازًا Proception. وأغلب الظن أنهما كانا مخمورين إلى درجة أنهما لم يتمكنا من معرفة الفرق في التعامل بهذه الطريقة أو تلك، وبالطبع توجد نسخة أخرى من إستراتيجية التأجيل كان بإمكانها أن تساعدهما لو أنهما لجأ إليها. فلو كنت مترددًا وتكثر من إفساد الأمور، فإنه من الممكن أن تلجأ إلى نسخة أخرى من التردد، لو شئنا الدقة: فقد كان من الممكن لهما مثلًا أن ينتظرا في النادي إلى حين أن تأتي أي سيارة أجرة، أو إلى أن يحضر أي من أصدقائهم غير المخمورين للمساعدة في طريقه إلى الانصراف. وهذه النسخة من التردد ربما تكون الأكثر شهرة وأوسعها انتشارًا. إنها عادة أو تجربة مكروهة ربما. وربما توجد مسحة من انعدام الأخلاقيات بالنسبة إلى هذا النوع من إستراتيجية التأجيل يجعلها أشبه بالفشل في التحكم بالذات. ويوضح فرانك بارتوني أن النقد العنيف الموجه إلى هذا النوع من التأجيل يرجع إلى العصر التطهيري Puritan Era، حيث كافح جوناثان إدوارد Jonathan Edward الفكر الأمريكي الذي ساد في ذلك الوقت أنك إذا حللت مشكلة ما الآن بأي شكل، فإنك ستوفر على نفسك كثيرًا من المشقة والوقت لاحقًا، وربما لو أنهما تمهلا لكان ذلك أفضل لهذا الرجل وزوجته، ولما خسرا مبلغ 1,070 دولارًا أمريكيًا.

جسد الفنان إدجار ديجاس Edgar Degas إستراتيجية التأجيل من حيث فوائدها وأخطارها (وكذلك إستراتيجية اتخاذ القرارات في طرفة عين)، وذلك خلال لوحته الفنية بعنوان «السيد إدوارد مانيه وزوجته سوزان» Monsieur and Madame Edouard Manet، كما في الشكل رقم (6-1)، التي ربما لو رآها هذان الزوجان لتعلما الكثير. وبالنسبة إليّ، ربما كنت قد استفدت كثيرًا. وتلك اللوحة المجسدة لمعنى التأجيل ترجع إلى الستينيات من القرن قبل الماضي (1860) في مدينة باريس الجميلة، ويمكن أن تكون تلك الصورة هي الأغرب عن موضوع التأجيل.



الشكل (6-1) «تقبل الأمر ادجار» (Get on with it, Edgar) هيلار جيرماند ادجار ديجاس (1834-1917) السيد/ ادوارد مونيه وحرمه – (1868-1869) – لوحة بالزيت على ورق كانافا – متحف البلدية للفن – كيتاكيوشو اليابان

وإذا نظرنا إلى هذه الصورة سنجد أحد أصدقاء السيد ديجاس، وهو السيد إدوارد مانيه، وزوجته سوزان ليبوف، وهذا هو مانيه مضطجعًا على الأريكة، ويبدو أنه يشعر بالاسترخاء التام، وإلى جواره تجلس سوزان.

ويبدو أنها تعزف البيانو في الصورة. وكان يقال عنها فيما مضى إنها عازفة بيانو بارعة، ولكن بعضًا من شكل سوزان مختفٍ في الصورة. وجهها ومعظم ذراعيها والجزء الأمامي كاملاً من جسمها غير موجود في الصورة،

لقد أزيلت من لوحة الكانافا ولقد قدم ديجاس هذه اللوحة إلى صديقه مانيه هدية. ولكن مانيه لم يحب ما فعله ديجاس بوجه زوجته، وظن أنه رسم زوجته لتبدو قبيحة جدًا. وبعد انصراف ديجاس اتخذ مانيه قرارًا في طرفة عين، ومزق الجزء الأيمن من اللوحة بغضب ليحتزئ صورة زوجته من اللوحة، وترك الصورة على هذه الحالة وفي أول زيارة من ديجاس لمانيه بعد ذلك، لاحظ ديجاس ما فعل مانيه بلوحته، فإذا به ينزلها عن الحائط ويضعها تحت إبطه ويخرج بها غاضبًا من المنزل، وكان في نيته أن يفعل ما يلي حسب أقوال أحد تجار اللوحات الذين كان ديجاس يتعامل معهم: «قال لي سأعيد رسم صورة زوجة مانيه». ولكنه لم يقترب حتى من إعادة رسم السيدة سوزان، حيث أجل الأمر فيما بعد، وترك البورتريه ليصبح صورة مشوهة «mutilated relic» للصداقة ين فنانين من الجيل نفسه (وبالفعل عادت صداقتهما كما كانت). ومن الصعب ألا تحب اللوحة على الحالة التي هي عليها. سوزان وإدوارد وإدجار وصداقتهم المهتزة تعود إلى الحياة بالرغم من النيات المختبئة خلف لوحة الكانافا[17]. فاللوحة- مع كونها شبه ممزقة الآن- تخبرنا قصة مشوقة، وأعتقد أن هذه اللوحة ما كانت لتباع بسعر أكبر مما هي عليه الآن لولا هذا التشويه. وربما أدى هذا التأجيل من ديجاس إلى هبوط ثروة من السماء على بائعي الأعمال الفنية فيما بعد، بشكل غير متوقع.

لا يسعني سوى أن أصف مانيه بأنه ساذج. وهذا هو الجانب الآخر للوحة الذي يجب أن أذكره. إنها لوحة للسيد مانيه نفسه، ويصعب عليّ أن أصف الطريقة التي يتصرف بها الرجل. ويتساءل السيد أوتو فريدريش Otto

(17) يمكنك أن تقرأ قصة لعن في أعمال ديجاس ومانيه، نيويورك تايمز، 22 مارس، 1992. وهذه المقالة مأخوذة من كتاب أوتو فريدريش، *Olympia Paris in the Age of Manet*. شركة هاربركولينز للنشر، 1992

Friedrich إن كان مانيه يجلس متكئًا حالمًا وهو يستمع إلى عزف سوزان، أم أن الرسام يشعر بملل حاد فحسب؟

ولقد استُخدمت هذه اللوحة لتوضيح المبدأ الأدبي وراء شخصية أوبلوموف في رواية إيفان جونشاروف Ivan Goncharov، الصادرة عام 1859 بالعنوان نفسه[18]. وتحتوي رواية جونشاروف على إحدى أكثر الشخصيات كسلًا وترددًا ومللًا وتأجيلًا في تاريخ الأدب الغربي. ومَن ذاك الذي لا يحب أوبلوموف؟ وفي رأيي الشخصي أن كثيرًا من الناس كانت لهم النظرة نفسها عن مانيه في لوحة السيد ديجاس كما فعل أوتو فريدريش، وهو أمر يجعلك تفكر مليًا. هل دخل السيد ديجاس في حالة انتظار عندما رسم لوحته تلك؟ لا يمكن التأكد إن كان السيد مانيه من النوع المتردد بالفعل أم لا[19].

إن التأجيل في صورته البسيطة، قد يكون من أهم تجارب ديجاس بدلًا من أن يكون إستراتيجية أو عملية صُممت خصيصًا ليتمتع بها السيد بارتوني. والتأجيل بهذا المعنى أمر مثير للأعصاب أحيانًا بالنسبة إلى من يقوم بفعل التأجيل، ومن يقع ضحية له على حد سواء. ولا يتطلب الأمر كثيرًا من الكلام عن طبيعة هذه العادة، ولكن هذه النسخة من الأشياء التي ينتهجها ديجاس وجدت من يدافع عنها بكثافة في كتابات الفيلسوف الأمريكي جون بيري John Perry، الذي كتب كتابًا تجرأ ووضع له عنوانًا مستفزًا، وهو: «فن التأجيل: الدليل الإرشادي للتقدم المتأني الناجح والانتظار بلا حراك والتأخير» The Art of Procrastination: A Guide to Effective Dawdling,

---

(18) فيتريبيلي هي من نشرت صورة لوحة مانيه، ولم يظهر من سوزان سوى طرف فستانها

(19) أو ربما تؤلمه رجله، فعزم على اتخاذ هذه الوضعية الغريبة بعد أكثر من عقد من رسم هذه اللوحة آلمته رجله بالفعل. وقيل إن هذا الألم كان نتيجة إصابته بمرض الزهري والروماتيزم، مما أوجب بتر الرجل اليسرى بالكامل عام 1883، إلى أن توفي بعد ذلك بأحد عشر يومًا فقط

Lollygagging and Postponing شاملًا برنامجًا مذهلًا نحو إنجاز جميع الأمور من خلال تركها بلا تدخل[20].

إن الدفاع الذي قدمه لنا بيري عن إستراتيجية التأجيل أمر بسيط يسهل توضيحه عمليًا. فإذا علمت أنك من النوع الكثير التأجيل الذي لا يقطع أمرًا ضروريًا تحذر من أن تُلزم نفسك بكثير من الأشياء: لأن هذا يصبح في هذه الحالة فكرة سيئة جدًا ويرجع السبب في هذه الحالة إلى أن الشخص الكثير التأجيل يميل إلى اختيار القيام بالأمور السهلة فقط دون غيرها. مما يشغله عن القيام بالمهام الضرورية أو الأكثر أهمية. ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن كل شيء في سبيله إلى الضياع. فبالرغم من تجاهلك لأكثر المهام أهمية، فإنه من المرجح أنك سوف تنطلق للانتهاء منها في الوقت المناسب وأنت تلاحظ اقتراب الوقت المسموح لك من النفاد. وهذا الأمر يحدث بطريقة لا شعورية في كثير من الأحيان. وبهذا الشكل ستجد أنك تنتهي من كثير من المهام السهلة والصعبة كذلك (ربما لأنها ضرورية. وهو يسمي هذه الإستراتيجية الجديدة «التأجيل المنظم» structured procrastination. أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الانتظار الإستراتيجي» strategic dithering)

«فإن كان عليك مواجهة الموت فربما من الأفضل أن تجهز تابوتك من الآن» كما يقول راسل جيم Russell Game للمذيعة اللامعة Carla Howarth من قناة أي بي سي نيوز أستراليا[21]. حيث يقدم راسل جيم

(20) يوجد في الفصل الرابع من كتاب من تأليف آدم جرانتس، وشيريل ساندبرج *How Non-Conformists Move the World*، بينجوين للنشر، 2016 (الأغبياء يدفعون الانتظار الإستراتيجي، ومشكلة أول المتحركين)، حيث دومًا يتعرض أول من يعترض على الواقع الطبيعي للأمور للعاصفة من الظروف حتى يأتي الوقت الذي يتحرك باقي المجتمع في الاتجاه نفسه الذي بدأه أول مرة

(21) موقع abc net au. 15 يوليو 2017 – كارلا هورث توجد مقالة جيدة أخرى عن تجارة التوابيت على الموقع نفسه، 4 فبراير 2017 (سايمون رويال).

إحدى أقوى النسخ من عملية «تقليص التأخير» delay discounting، حيث يميل معظم الناس إلى استعجال التعرض لأمر ما في منتهى السوء بدلًا من الاضطرار إلى التعامل معه فيما بعد، أو حسب المثل القائل «نزول المصائب أفضل من انتظارها» prefer it sooner than later. كما يؤكد أن معظم الناس يحبون تجنب التعرض للعقوبة، ولكن إذا تحتم التعرض لهذه العقوبة لا محالة فإنه من الأفضل التعرض لها الآن عن التعرض لها فيما بعد ولقد كان جيم راسل وكارلا هيوارث يتحدثان عن الموت، وعن التوابيت، ونحن نعلم جميعًا أنه في المجتمعات الغربية يفضلون شراء التوابيت عند الوفاة فقط، وقد ذهبا إلى نادي جمعية التوابيت في ألفارستون، وهي مدينة مثيرة للاهتمام وجذابة، كما أنها مشهورة، وتقع على الساحل الشمالي من تسمانيا، ويقطنها 14.000 نسمة. لقد مللنا سماع كثير من الحكايات عن بينديجو، وربما حان الوقت لنتحرك نحو الجنوب قليلًا يقدم نادي جمعية التوابيت في ألفارستون توضيحًا مثيرًا للفضول عن موضوع «تقليص التأخير». كما سوف نعرف لاحقًا أن موضوع تقليص التأخير لا يبدو بهذه الكيفية.

ويشير التقرير الذي أعدته كارلا هيوارث عن نادي التوابيت أنهم لا يبيعون أو يشترون التوابيت، بل إنهم يصنعونها لأنفسهم بأنفسهم وهم لا يزالون يتمتعون بصحة جيدة، وبهذه الطريقة يصبح مستخدم التابوت هو في الوقت نفسه صانعه، وليس الحانوتي. تُرى لماذا قد يختار أحدهم هذه الهواية الغريبة؟ وذلك ما يجيب عنه راسل فيقول: إن أي عضو في نادي التوابيت يستفيد عندما يصنع التوابيت لأنه يبدأ باعتياد فكرة الموت إن البدء بالترتيب لإجراءات وفاتك ليس فقط من الخبرات الممتعة إلى حد بعيد؛ بل يعد وسيلة للاستعداد للحدث الحقيقي عند حدوثه ولو لم يكن هذا الموقف مجسدًا لإستراتيجية تقليص التأخير، فليس لديَّ أي اسم آخر

له. لقد اختار راسل جيم الحصول على بعض من الموت الآن، حتى يتمكن من تحمل الجرعة كلها فيما بعد، ولكن بالطبع مثل جميع من اعتادوا إستراتيجية تقليص التأخير، فإن راسل جيم قد اهتم أيضًا بتوفير كل مليم لديه، حيث يؤكد راسل أن صناعتك تابوتك بيديك توفر لك كثيرًا من المال عند الوفاة، إذ إن صناعة التابوت يدويًا لا تكلف أكثر من عُشر تكلفة شراء التابوت من متعهدي الجنائز. بالتأكيد لا يشعر متعهدو الجنائز المحترفون بكثير من الارتياح لهذا الأمر. حيث سوف يصنع السيد راسل تابوته بنفسه، وسيكلفه ذلك 200 دولار أسترالي، ويوفر هذا كثيرًا من المال إذا علمنا أن متوسط سعر التابوت من أي متعهد جنائز عادي في أمريكا الشمالية هو 2000 دولار أمريكي، وإذا حسبت أمر التضخم الاقتصادي فإن تلك صفقة ممتازة حقًا، في حين يفضل بعض أعضاء هذا النادي التفكير أكثر في فائدة صناعة هذا التابوت أكثر من التفكير في المبلغ الذي سيوفرونه من خلال صنعهم توابيتهم بأنفسهم. ولقد تحدثت كارلا هيوارث إلى السيدة شيري ويتنجتون Sheree Whittington التي لا يبدو عليها أنها قد وصلت إلى سن الستين بعد. إنها تخطط لاستخدام التابوت الذي تصنعه بأيديها الآن كحافظة للسيديهات الصوتية والمرئية إلى حين أن يأتي أجلها، وأعتقد شخصيًا أن هذه شجاعة منقطعة النظير. السيد ديكلان بانيم Declan Banim عضو آخر متحمس لنادي التوابيت سيستخدم تابوته كخزانة للكتب، «سوف أضعه في غرفة مكتبي» بهذه البساطة. كما نوه السيد بانيم أنه إذا وجد أن أحدًا من أصدقائه يحتاج إلى تابوت فإنه سوف يسعده أن يمنحه تابوته، وذلك يعد التراجع الوحيد عن إستراتيجية تقليص التأخير.

وحسب علمي، بدأت فكرة نوادي التوابيت بالظهور في نيوزيلندا. وربما هنا ستشعر بقوة حضور الانتظار والتردد، حيث يشير تقرير في صحيفة

الجارديان، صادر في 22 سبتمبر عام 2016 للصحفية إلينور أينجي Eleanor Ainge، أن أندية التوابيت قد بدأت في نيوزيلندا في إحدى الجزر الشمالية، وتحديدًا في مدينة روتوروا، وكان ذلك عام 2010. لقد أسست السيدة كايتي وليامز Katie Williams حركة أندية التوابيت في نيوزيلندا، وهي تبلغ من العمر 77 عامًا، وكانت تعمل ممرضة في الخدمات التخفيفية Palliative care، وكانت تستعمل أسلوب بناء كل شخص للتابوت الخاص به كوسيلة ليألف كبار السن فكرة الموت[22]، وكان هدف كيتي الأول أن تضفي طابعًا شخصيًا personalize على الجنازات. أما هدفها العملي فهو أن في نيوزيلندا قد يكلفك صنع تابوتك الشخصي 250 دولارًا نيوزيلنديًا فقط، هذا إن أردنا التوفير تمامًا مثل الجيران في أستراليا. ولكن بالنسبة إلى السيدة كيتي، لم يكن المقابل المادي فقط هو عامل الجذب الأكبر بالنسبة إلى الأعضاء الجدد في النادي من كبار السن، وليس الاستفادة من إستراتيجية التقليص المتأخر؛ بل كانت الصحبة هي عامل الجذب الأول.

وتقول وليامز: «يعاني كثير من كبار السن من الوحدة، ولكن في نادي التوابيت يشعر الناس بأن لهم فائدة أخيرًا في هذا العالم، وذلك أمر اجتماعي جدًا، فنحن لدينا الشاي الصباحي الذي نقدمه للجميع، ونجتمع معًا يوميًا، كما نفعل الأمر نفسه في ساعة الغداء، ويستمع بعضنا إلى العزف الموسيقي للبعض الآخر» ألم يكن من الأفضل والأكثر فائدة لهم أن يصنعوا من الخشب شيئًا آخر؟ ألعابًا مثلًا؟، فأجابت كايتي قائلة: «لم يعد أطفال هذه الأيام يهتمون بالألعاب المصنوعة من الخشب، وخاصة في الوقت الذي تنتشر فيه متاجر لعب الأطفال البراقة، مثل تويز آر أس، وغيرها» ويبدو أن فكرة مدينة المارستون عن صنع التوابيت مرتبطة

(22) الرعاية التخفيفية هي أحد أنواع الرعاية الطبية التي تقدم للمرضى المصابين بالأمراض المستعصية، وهي لا تهدف للشفاء (المترجم)

بحدث، ولكن فكرة مدينة روترو عن الأمر نفسه يبدو أنها مرتبطة بالمتعة التي يجدها الإنسان في العمل اليدوي عندما يصنع تابوته بنفسه، إلى جانب الرفقة الطيبة والأصحاب. ولا بأس من توفير بعض المال، ولا بأس من التعرف إلى مزيد من الأصدقاء الطيبين: وبذلك تأتي الدوافع للانضمام إلى نادي التوابيت في الرغبة في الصحبة، والإحساس بالفائدة بعد صنع شيء ما من الخشب، مع أنها هواية غريبة إلى حد ما، وفي نهاية الأمر تأتي الرغبة في التخلص من الشعور بالكآبة عند التفكير في الموت «الذي يقترب»، وذلك من خلال الاستعانة بإستراتيجية تقليص التأخير. كما أن بعض الأعضاء في نادي التوابيت في نيوزيلندا غير قادرين على تحديد السبب في الانضمام إلى هذا النادي. إنهم من المترددين.

ويبدو أن الكثيرين مرحبون باستخدام إستراتيجية تقليص التأخير، حيث يزعم بعض المتخصصين في علم النفس أنهم عندما جربوا تقديم خيارين على مجموعة من المفحوصين من التعرض لصدمة كهربائية فورية، أو التعرض لصدمة كهربائية بعد فترة وجيزة، فوجئوا أن أغلبية المفحوصين فضلوا الصدمة الكهربائية الفورية. يفضل معظم الناس التعرض للعقوبة والانتهاء من ذلك الأمر سريعًا، ولكن هل هذا الأمر صحيح فعلًا؟ أذكر أنني عندما كنت تلميذًا في مدرسة الملكة فيكتوريا الأولى تعلمت في إحدى أكثر المدارس تشددًا، وكان معظم النُظار من رجال الدين المتشددين، وكان معظمهم الأقل ذكاءً والأكثر تشددًا، على الرغم من ضعف الوازع الأخلاقي لديهم، وكانوا في غاية العنف، وكانت متعة هؤلاء الميالين إلى العنف هي ضربنا بالحزام، إما فورًا أو عند الانتهاء من اليوم الدراسي، وكنا على وعي أن العقاب آتٍ لا محالة، ولم يكن أي شخص أعرفه يفضل التعرض للعقوبة فورًا، أي إنهم لم يفضلوا اللجوء إلى إستراتيجية تقليص التأخير: بل كان الجميع يفضل انتظار العقاب في نهاية اليوم الدراسي، أو عند نهاية اليوم

التالي، أو ربما في نهاية الأسبوع. ولقد كان أملنا مرتبطًا بأمر وحيد: أن العقاب سوف يُلغى، أو يُنسى، أو ربما تحصل على سماح من نوع ما. فيسامحونا على الذنب الذي اقترفناه. المهم أنه كان يوجد احتمال- ولو ضئيلًا- أن مع التأجيل ربما لن يقع هذا العقاب أبدًا. وأحيانًا كان هذا الأمر يتحقق عندما ينصرف انتباه النظار والمعلمين ورجال الدين في المدرسة إلى هدف جديد، أو طالب مستجد يصبون جام غضبهم عليه. أليس معظم الناس يراودهم هذا الأمل؟ تلك النسخة من الانتظار إذن ربما تصلح من خلال هذه الإستراتيجية الواقعية لتصبح أسلوبًا لمواجهة المشكلات المستقبلية. مرة أخرى، يأتي الانتظار، أو التردد، أو التأجيل ليساعد في إنقاذنا وتقديم قيمة لها أهمية إستراتيجية بالنسبة لنا عام 1966. ظهرت رواية الكاتب والروائي الروسي ألكسندر سولستنيتسين Alexandre Solzhenitsyn. بعنوان «عنبر السرطان» Cancer Ward. وتقدم لنا هذه الرواية قصة العنبر رقم 13، وهو أحد العنابر المخصصة لعلاج مرضى السرطان في أحد المستشفيات في العهد السوفيتي في روسيا: ومن ثم نقابل السيد بافيل نيكولايفيتش رومانوف Pavel Nikolayevich Rusanov. وهو شخص عكر المزاج ومتنمر، وهو ليس من أنصار فكرة تقليص التأخير، ولقد اتضحت مظاهر ذلك في عدم تفضيله الحل الجراحي الفوري، وموافقته على أي حل علاجي آخر طويل الأجل، مع أن الحل الجراحي ربما يبدو أكثر حسمًا فيما يتعلق بتحقيق الشفاء. فكان رده عندما عُرض عليه الأمر: «عملية جراحية؟ كلا بالطبع». ويعلق قائلًا: «خلف هذا السؤال تجد الخوف الكامن في النفس الذي يتجاوز في قوته الخوف على الحياة ذاتها. وهو الخوف من أن يوضع تحت يد جراح وأعلى محفة الجراحة. ولكنه يفضل الطريقة الأطول زمنًا» إنها طريقة التأجيل والانتظار التي يحبها أطفال المدرسة التي كنت أرتادها في طفولتي، وكذلك السيد بافيل روزانوف. فإن الانتظار

والتأجيل من الأشياء الطبيعية. وهي مفيدة جدًّا لتجنب حدوث الأسوأ، حيث قد يساعدك الانتظار والتأجيل على التخلص من العقاب الفوري الذي قد يتسبب تقليل الانتظار في التعجيل بوقوعه. وبالتأكيد يمكن أن يتسبب إبعاد العقاب عنك في جعلك شخصًا أكثر سعادة. كما يمكن أن نجد فائدة إستراتيجية أخرى للتأجيل. وهي تقليص التأخير المعكوس .inverted discount delaying

إن إعاقة الذات self-handicapping من الأشياء التي تجيدها حيوانات الغوريلا. وهي النسخة الثالثة من الانتظار. وهو أمر لا يختلف كثيرًا عما يفعله البشر: فعندما تلعب تلك الحيوانات معًا فهي تستخدم التواصل بالإشارات وبالعيون. كما تدعو صديقاتها الأخريات. وقد لاحظت عالمة الرئيسيات جوان تانر Joanne Tanner من كاليفورنيا وريتشارد بيرن Richard Byrne الأسكتلندي[23] أن تلك الحيوانات تشترك في إطار سلوكي واحد في أثناء اللعب، حيث ترجع إلى اللعب بعد الاستراحة... وأحيانًا تتشارك في اللعب التعاوني... كيف يفعلونها؟ وهذا هو الجزء الذي أفضله.

وتكثر المرات التي تحاول فيها حيوانات الغوريلا الكبيرة الحجم والسن أن تشجع صديقاتها الأصغر سنًا. وذلك عن طريق تعمد إعاقة نفسها «Self-handicapping» عند ممارسة نشاط معين، حيث ستتعمد القرود الكبيرة أن تخسر في اللعبة التي تلعبها مع الصغار حتى تحافظ على معنوياتهم وتحفزهم على مزيد من الإنتاج. إنه جزء من لعبة الانتظار. ولكن مع بعض الحسابات calculated form of dithering من الانتظار العقيم. كما يبدو أنه شيء من التأجيل على ما أظن، حيث يمكنك أن تؤجل النصر الحتمي-

(23) جي أي تانر، آر دبليو بيرن، Triadic and Collaborative Play by Gorillas in Social Games with Objects، التعرف الحيواني، (13) 4، يوليو، 2010

عن عمد- فقط للحفاظ على الإحساس بالمتعة في أثناء اللعب. فإذا أمكن للحيوانات أن تؤجل النصر- عن عمد- لتحصل على فائدة شخصية، فماذا يمكن للبشر أن يفعلوا؟ أكثر من ذلك. فإنه من الممكن- قياسًا بما تفعله القرود- أن نتوقع ما قد يفعله البشر أليس الأمر كذلك؟ إن اللعب بالنسبة إلى السيدة جوان تانر والسيد ريتشارد بيرن- حسب مقالهما- هو عبارة عن خبرة ثلاثية، أو بالأحرى مثلثة. حيث يشارك في اللعب شخصان يلعبان بلعبة من نوع ما، وبهذا الشكل يصبح اللعب مثلًا عبارة عن شخصين يلعبان بالكرة، ويجب أن يكون هذان المخلوقان أو الشخصان على دراية بما يجب عمله في أثناء اللعب. وعلى ذلك، يجب أن يعرف هذا المخلوقان ما عليهما أن يفعلا بالكرة، فمثلًا تكون قاعدة اللعب هي أن تحافظ على استحواذك على الكرة، والمهم هو أن تخلق أي نوع من أنواع المنافسة

ولكن تانر وبيرن يؤكدان أن بالنسبة إلى الغوريلا، لا وزن للانتصار في اللعبة، بل الأهم هو الحفاظ على استمرارية اللعب أطول فترة ممكنة continuation of the game، وهذا السبب يجعل تلك الرئيسيات تتعمد الخسارة، فهي تريد أن تجعل الكرة تتدحرج أطول فترة ممكنة، وذلك النوع من تعمد إعاقة الذات ليس شائعًا في أنواع الرئيسيات والقرود الأخرى، أو في الحيوانات الأخرى، مثل الكلاب. فالكلاب تحرص دومًا على الفوز عندما تلعب أي لعبة مع أصدقائها البشر؛ ففي لعبة شد الحبل مثلًا لا تترك الكلاب الحبل أبدًا؛ بل تتشبث به بأسنانها إلى أن يستسلم غريمها البشري، فتخطف ذلك الحبل وتجري مبتعدة، وهذا بالضبط ما يفعله كلبي معي، وهذا ما يحرص عليه كثير من البشر أيضًا. إلا المترددين بالطبع، حيث يفضلون الانتظار على جانب الطريق، والحفاظ على الأمر الواقع، فنجد حيوانات الغوريلا تتلكأ وتؤجل- بشكل متعمد- إلى أن تخسر اللعبة كما هو مدون في تقرير جوان تانر وريتشارد بيرن ويبدو أن حيوانات الغوريلا

تطن اللعبة في ذاتها أكثر متعة من الانتظار. فمادا إذن عن البشر؟ هل سبق أن فعلوا أمرًا مشابهًا لتستمر اللعبة؟ فيما يلي مثال على ذلك. أسس ليلاند كارلسون ناديًا مع 17 من أصدقائه، وأسموه نادي الرجال الخاملين «Dull Men's Club»، وذلك داخل نادي إثليتيك في نيويورك. ويشرح ليلاند كارلسون السبب قائلًا: «بدأ نادي الرجال الخاملين في الأساس في مدينة نيويورك، عندما كان جروفر كليك Gover Click جالسًا على المشرب ويقرأ الصحيفة المحلية، وعنوانها القدم المجنحة Winged Foot، وفوجئ بأحدهم كتب مقالة عن الأندية الفرعية التي تتأسس داخل الأندية الأكبر» وكان معه أحد أصدقائه يحتسيان الشراب معًا، ورأيا كيف يمكن أن تجد ناديًا للجودو مثلًا داخل أحد الأندية الكبيرة وغيرها، وقال لنفسه، لماذا ليس لدينا مثل هذا الأمر؟ ورد عليه آخر: «نعم، يبدو أننا خاملون إلى درجة لا تسمح لنا بالقيام بأي نشاط»، فجاءه الجواب من صاحبه، فقال له، «هيا بنا نبدأ بتأسيس نادٍ داخل هذا النادي للرجال الخاملين، وقال برونر: «سوف يكون النادي بدون بهرجة، وبدون ضجيج، ولن تقع عليه أي ضغوط، ولن يطمح إلى أن يكون سباقًا في المتابعات على مواقع التواصل الاجتماعي، ولا يريد ذلك، بل إنه يحب التمتع بما هو عادي وطبيعي وهادئ». وتبع ذلك وضع مجموعة من القواعد في النادي التي وضعت حظرًا على كثير من الأنشطة، مثل الإصرار على استخدام الأصوات الهادئة، وعدم استخدام صيغة التعجب، ورفض وصول أي عضو في النادي إلى منصب يتعدى مساعد نائب المدير. ماذا يسعني قوله؟ غير أن نادي الرجال الخاملين لا يصر على الخمول فقط؛ بل على تعمد الخسارة في العمل. إنهم مجموعة من المترددين، يحصلون على استفادة عظيمة من خلال عدم وجود رئيس عليهم يتحكم في حياتهم، فلا يربح أحد، جميعهم مصرون على تعطيل أنفسهم عمدًا، ولكن اللعبة تستمر.

إنه ليس عدلًا لسوء الحظ أن نقول إن نادي الرجال الخاملين قد تردد بشكل غير حاسم: بل إنه نادٍ متخصص إلى حد ما. ويبدو أن عضويته ثابتة، ولا تزداد بشكل واسع. ولكن ليلاند كارلسون هو النسخة الحية من السيد/ جروفر في نادي الرجال الخاملين. حسب موقع إلكتروني على الإنترنت. إلى جانب عضويته الممتازة في حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي، وفي عام 2017 ألف كتابًا يعرض عددًا من القصص لعدد من المنتظرين والمترددين الناجحين، ويعرض قصصًا أخرى على النقيض توضح فشل المترددين ومن هم عاجزون عن اتخاذ القرارات المختلفة في الوقت المناسب وقدم لهذا الكتاب بعنوان «رجال خاملون في بريطانيا» Dull Men of Great Britain. ومن أمثلة هؤلاء المنتظرين والمترددين والخاسرين السيد كيث جاكسون Keith Jackson. وهو من المنتظرين (هذه القصص نفترض أنها حقيقية، ولكنها جميعها كانت في كتاب ليلاند الساعي لإثبات أهمية الانتظار وفائدته، وربما فيها بعض الشك). وكان كيث يعمل أخصائي تجميف دهانات (وهي وظيفة يود جميع أعضاء نادي الرجال الخاملين أن يعملوا بها). كما نجد السيد نيك ويست Nick West. وهو من جامعي علب البيرة المصنوعة من المعدن، الذي يحمل معه الآن 7522 علبة بيرة. وعندما يتحدث عن الأمر يقول: «لا يمكنني أن أصف لك شعوري بالسعادة عندما أجد علبة جديدة من البيرة». والسيد آرشي وركمان Archei Workman، الذي يهوى جمع الأغطية المعدنية للبلاعات. ومارتن فالانس Martyn Vallance. وهو جامع لكرات الجولف، جمع ما يناهز 000 70 كرة جولف حتى الآن من حديقة منزله، ومن أعلى الأسطح. وستيف ويلر Steve Wheeler، الذي يجمع زجاجات الألبان، ويؤكد بدون خجل أنه لا أحب اللبن، ومع ذلك فقد جمع نحو 20.000 زجاجة لبن. وديفيد مورجان David Morgan الذي يعتاد جمع الأقماع المرورية. فليس هناك هواية للسيد ديفيد مورجان أفضل

من هوايته في تكديس أقماع المرور، وجيمس براون James Brown الذي يهوى جمع المكانس الكهربائية، حيث كان طفلًا يحب كثيرًا اللعب بالمكانس، وبدأ هوايته في الرابعة من عمره، وأصبحت له مكنسة خاصة به في سن الثامنة. ولم يقتصر الأمر على الرجال فحسب: فالسيدة إيمي لويس آلان Amy-Louise Allen ليست عضوًا في نادي الرجال الخاملين: بل إنها تعمل مصممة أحذية في وولثامستو، شمال شرقي لندن، وهي تهوى جمع دمية القطة ميمورابيليا Hello Kitty memorabilia، وجميع ما يرتبط بها من ملحقات، مثل أكياس اللعب، و150 لعبة وتشكيلة من أدوات الطعام، ونحو 40 دمية للقطط من النوع نفسه، وذلك منذ أن كان عمرها 11 سنة، وترجح أنها خلال العشرين عامًا الماضية أنفقت 30.000 جنيه إسترليني على هذه العادة الغريبة، كما أنفقت 800 دولار لتجعل دراجتها البخارية تبدو بنفس شكل هذه الدمى، وتقول: «أعتقد أن دراجتي تبدو رائعة الآن، وأعترف أن حياتي بها مسحة من الخبل، وبأنني- إلى حد ما- مخبولة، ولكنني بالطبع لست بلهاء»[24].

يوجد مزيد من الأمثلة التي تجسد كثيرًا من الأمور أكثر من مجرد مجموعة من نوع معين من الدمى لدى إيمي لويس آلان، أو تلك القائمة من الأعضاء في نادي الرجال الخاملين التي يحتفظ بها السيد ليلاند كارلسون. ويبدو أن ذلك العدد من الأعضاء الخاملين والسيدة إيمي جميعهم يحاولون إضفاء نوع من أنواع الفضيلة على عادة تعمد إعاقة النفس على الملأ، ولا يتمكنون- في المعتاد- من التفاخر بهذه المناقب في العمل، أو في صفقات العقارات التي يعقدونها في عالم طموح يمتلئون فيه بالإخلاص. ونتيجة لاختياراتهم المترددة المؤجلة يتعرضون كثيرًا للسخرية والاستهزاء من الآخرين، وكل ما يكتسبونه في هذا العالم هو نوع من أنواع الأمانة، نوع

(24) ديلي ميل، 21 يوليو 2016 (مارثا كليف)

ضائع في هذا العالم المليء بالطموحات والأحلام. إن احتفال ليلاند كارلسون بالناس العاديين المهمشين ليس أمرًا غير طبيعي أو خارقًا للعادة كما تظن، ولا يعد سابقة في حد ذاته، بل إن هذا حدث من قبل، بل هناك أيضًا السيد جيمس وارد James Ward، الذي أسس مؤتمرًا سنويًا مملًا في لندن، «إنه يوم الاحتفال بالمهمشين والمتروكين والعاديين، يوم الاحتفال بالأشخاص الأكثر مللًا وتفاهة» وحتى يتمكن جيمس وارد من شرح غايته، التي لا غاية منها، كتب ونشر وطبع كتابًا بعنوان «مغامرات في مكتبة الأدوات المكتبية: رحلة داخل مقلمتك» Adventures in Stationery: A Journey Through Your Pencil Case. إنهم يؤكدون أنه ليس بالضرورة أن يكون كل فعل يأتي به الإنسان مدفوعًا بحافز أو غاية، حيث يحدق وارد في المحبرة والأقلام والمسطرة، ويؤكد أن كتابه هذا يمثله؛ لأنه لا يتناول إلا الأمور التافهة الوضيعة، ويمجد كل ما هو عادي وطبيعي. مثال آخر، شخص يدعى بيتر هيوكسام Pieter Hoexum، ألف كتابه الأخير عن الأمور الطبيعية للأشياء، ويتحمس مثل ليلاند كارلسون وجيمس وارد لكل ما هو عادي، والكتاب بعنوان «فلسفة البيت الأساسي» the Row House (2015)، وهو مثال صارخ لكل ما يمثل الاعتيادية ويعيش بيتر في منزل مزود بشرفة في ضاحية بورميريند في هولندا، وهو يكتب بحس عن الأمور الاعتيادية في الحياة اليومية: «عن بوابة الحديقة، ومعنى وجود الرصيف، والفارق بين الحارة والشارع، وعلاقة ذلك بأساس المنزل»

يبدو أن عملية جمع المقتنيات يمكن أن تخرج عن السيطرة، وعندما تخرج هذه العملية عن السيطرة، مثل حالة جمع دمى القطط التي اعتادتها إيمي لويس آلان، ففي هذه الحالة نتوقف عن استخدام مصطلح «جمع المقتنيات» collecting، ونستبدل به مصطلح «تكديس المقتنيات

والانتظار»[26] أو hoarding. ويبدو أن عملية الجمع التي تواظب عليها إيمي لويس آلان ما زالت على الحدود بين هواية الجمع وعملية التكديس، فهي ليست هواية بقدرما هي رغبة نقية لا هدف منها سوى الاقتناء. «أحيانًا تعتاد سلوكًا لا طائل منه، مثل شراء الصحف، ولكنك تجد نفسك تشتريه رغمًا عن ذلك، وبلا وعي: لأنها عادة استحوذت على عقلك، وكما يقول المؤلف إنك تنتظر إلى أن تستفيد من هذه العادة كما فعلت مرة في الماضي» إن تلك النسخة من عملية الجمع التي تواظب عليها إيمي هي ما يمكن أن نطلق عليه ببساطة «التكديس» hoarding. إنك تكدس عددًا كبيرًا من الأشياء التي لا طائل منها، ربما فترات طويلة. وأحيانًا أفعل أنا الشيء نفسه مع موسيقى مريم فيوريزنجر Mariam Feuersinger، ومارجوت أويتزنجر Margot Oitzinger. وهذا النوع من جمع المقتنيات يمكن أن يتحول إلى النقيض، ويصبح تكديسًا لا هدف منه «get out of hand». والتكديس تخرج معه كمية الشيء المقتنى عن السيطرة، فهي تظل محفوظة في المكان نفسه الذي يعيش فيه من يقتنيها، فتحتل حياته وتؤثر فيها، وبهذا الشكل يصبح الانتظار والتردد أمرًا مؤذيًا وخطيرًا، ويصبح أفضل مصطلح يمكن استخدامه لوصف هذه الحالة هو «التكديس القهري للمقتنيات» Compulsive Hoarding. كما يوجد بعض المصطلحات الأخرى التي يمكن من خلالها وصف هذه الحالة، ومنها- مثلًا- اضطراب تكديس المقتنيات hoarding

(26) عندما تكون التشكيلات متباعدة يجب التفكير في التجمع القهري. توجد أسماء أخرى لهذا النوع من الاضطراب، يمكن أن يُطلق عليه اضطراب التجمع في قطيع، أو متلازمة ديوجينيز. بي لافين وآخرون، اضطراب ديوجينيز واضطراب التجمع في قطيع، هل هما شيء واحد أم أنهما مختلفان؟ جي روليابي Diogenes Syndrome or Isolated Syllogomania? Four Heterogeneous Clinical Cases - 25 (4)، أغسطس 2013، الخوف من التخلص من الأشياء العديمة القيمة (أنا لا أمزح). اضطراب الفقد Messie (ويستخدمه الألمان كثيرًا، شكرًا للرب حتى لا يختلط الأمر على القارئ فيظن أنه باسم ليو ميسي الأرجنتيني الذي يعمل في إسبانيا) أصحاب التشكيلات أشبه بأصحاب المجموعات، لكنهم يترددون بطريقة مدمرة للذات.

disorder، أو متلازمة ديوجانس Diogenes Syndrome، أو السيليجومانيا Syllogomania (الشائعة أكثر بالفرنسية)، أو الديسبوفوبيا (لا أمزح بهذا الشأن) Disposophobia، أو متلازمة ميسي Messie Syndrome (الشائعة أكثر بالألمانية)، ولكني شخصيًا أفضل مصطلح «التردد القهري» obsessive compulsive dithering (OCDi) الذي اخترعته توًا. وسوف أقدم عددًا من حالات التردد والانتظار هنا، لأوضح وأشرح خصائص هؤلاء المتحمسين للانتظار والتردد، وتكديس المقتنيات إلى أن تخرج الأمور عن السيطرة، ومن أجل ذلك عليهم أن يحتاطوا ويحذروا بشدة، وهي درجة من درجات تحول إستراتيجية جمع المقتنيات إلى تجربة عصيبة (إفلات الأمر عن الأوضاع الطبيعية لجمع المقتنيات)، وفي هذه الحالة تتحول محاولة اكتساب ميزة من خلال جمع المقتنيات إلى أمر يصعب السيطرة عليه

وعند مناقشة موضوع تكديس المقتنيات، توضح مصحة مايو كلينيك الدولية أنه «يمكن أن يؤدي تكديس المقتنيات إلى خلق أوضاع معيشية مشدودة في المنزل، حيث لا يبقى سوى مساحات ضيقة في الحياة يمكن العيش من خلالها». كما يمكن لهذا النوع من اعتياد جمع المقتنيات أن يتحول إلى تجربة تهدد الحياة نفسها بسبب احتمال التعرض لخطر النيران التي يمكن أن تندلع بسبب كثرة وجود المواد القابلة للاشتعال، أو تلك القابلة للفساد بسهولة، فضلًا عن التعرض لبعض الأمراض التي يمكن أن يجلبها تكديس تلك المواد التي تكون معًا تركيبة من الأكياس المستخدمة في التسوق مثل مادة الفيرمين كما أن بعض ملاك المنازل يبذلون أقصى جهدهم في التخلص من السكان المزعجين غير الحريصين إلا على تكويم القذارة في ممتلكاتهم الشخصية، من أجل ذلك قد تؤدي عادة جلب المقتنيات وتكويمها إلى خطر التعرض لدعوى طرد من السكن، فيجد صاحب تلك العادة نفسه بلا مأوى. وأنا أتساءل: إذا كانت تلك

العادة تمثل واحدًا من أهم الفوارق بين الإنسان والحيوان، ولا سيما أن الإنسان قادر على تلك النسخة المقيتة من الاقتناء، مدفوعًا ببعض الأفكار السلبية مثل استعجال الخسارة، وإعاقة الذات، فيلجأ إلى جمع الطوابع والأموال في البنوك، وجمع الكتب، وغير ذلك، ولكن عندما يحدث خطأ ما في تلك النسخة من جمع المقتنيات فإنها تصبح عملية «التكديس القهري للمقتنيات» Compulsive Hoarding.

إن المصابين باضطراب تكديس المقتنيات يشبهون- إلى حد بعيد- هؤلاء المعتادين جمع المتشابهات وتكميل المجموعات، ولكن بشكل مدمر للذات[26]. إنهم يعوقون أنفسهم، ولكن بدون قصد، وبلا هدف، وبدون تحصيل أي متعة من هذا الأمر، أو جني أي استفادة من تلك المجموعة التي يعكفون على استكمال جمعها حتى آخر مكون لها. والمبدأ الأساس لهذه العادة هو أنهم ينتظرون وينتظرون طويلًا لعل الاستفادة أو الميزة تأتي من هذا الأمر. إن هواة جمع المقتنيات، مثل هؤلاء الأعضاء في نادي الرجال الخاملين ممن يتعمدون إعاقة أنفسهم، يختلفون- إلى حد بعيد- عن هؤلاء المكدسين للمقتنيات الجامعين لها، ولكن يجب أن أخبركم أنه تصعب التفرقة بين رجل جمع سبعين ألف كرة جولف متناثرة في الحديقة وعلى السطح، وبين شخص ما من هؤلاء المكدسين للمقتنيات بشكل مرضي. لو أنك قرأت تعريف تكديس المقتنيات الذي قدمته مثلًا لمايو كلينيك، سوف تستسيغ أن تفرق بين شخص جمع سبعين ألف كرة جولف وهؤلاء المهووسين بتكديس المقتنيات. وتقدم مايو كلينيك تعريفًا لتكديس المقتنيات يوضح أن تكديس المقتنيات عبارة عن: «التعرض لصعوبات بالغة عند تفكير الشخص في

(26) كتبت سورانا ووكر مؤخرًا مذكرة عن إصابة والدتها بالاضطرار إلى التجميع في قطيع، *The Life of Stuff: A Memoir about the Mess We Leave Behind* Doubleday، 2018 يبدو أن ميل والدتها إلى تجميع الأشياء العديمة القيمة له علاقة بالاكتئاب

احتمال الافتراق عن مقتنياته التي سبق له تجميعها، والشعور بحاجة شديدة ومسيطرة إلى الاحتفاظ بها». وغالبًا ما يشعرون بإحساس شديد الوطأة بالأزمة والضيق عند التفكير في ضرورة التخلص من تلك الأشياء التي كدسوها طوال سنين. كما يحدث تكديس كبير للمقتنيات بغض النظر عن حجمها. وكثير من الأشخاص لا يحتفظون بالأشياء فقط؛ بل يكدسونها بكميات كبيرة، وبشكل خارج عن السيطرة، وبشكل قهري، حيث تستحوذ عليهم الرغبة في التكديس بلا هدف، أو مغزى. ولكن جامع كرات الجولف لا يزال يسيطر على الأمور، ويرى قيمة لما يفعل من أمور، ولو أن هذه القيمة- إلى حد ما- تتمثل في قيمة اجتماعية فحسب. إن الفرق بين الجمع والتكديس هو تكويم المقتنيات بنشاط (مثل جمع المكانس الكهربائية) مثلًا، وعدم القدرة على التوقف عن إتيان أي نوع من أنواع تلك الأفعال القهرية، بغض النظر عن مدى تفاهة ذلك الفعل القهري. فلو أنك فرزت مكونات بيتك نفسها، فسوف تلاحظ الفرق بين جمع المقتنيات وتكديسها. إن التكديس هو خليط من الفعل القهري والاضطراب النفسي في الوقت نفسه. وهو أمر لا يتحكم فيه المرء بسهولة، ولكنّ الرجال الخاملين بالتأكيد يسيطرون على الأمور.

وتوضح اللوحة النحاسية copperplate فيما يلي كيف هي بالضبط حياة الشخص المهووس بتكديس المقتنيات، كما في الشكل (6-2)، وهي صورة قاتمة جدًا لهذا الشخص، وذلك لا يعد أمرًا جللًا بالنسبة إلى غرفة نوم إيمي لويس آلان. وقد وصف رولاندسون عملية التكديس بأنها أمر خطير يمكن مقارنته بالموت مثلًا، وقد تجسد ذلك في الهيكل العظمي عند نهاية طرف سرير ذلك الشخص النائم، الذي يتضح من هيئته أنه واحد من هؤلاء المهووسين بتكديس المقتنيات، ولكن لا يمكن أن أنكر أن للانتظار فوائده ومميزاته التي تضفي عليه بريقًا، ولا يمكن أن أنكر أن تلك الغرفة



الشكل (6-2) هذا الهيكل العظمي المجسد للموت يهاجم ذلك الشخص النائم في سريره، الذي تتضح عليه علامات تكديس التحف والأنتيكات، وتمتلئ الغرفة ببعض الآلات الموسيقية، والكتب، والرسائل، والمخطوطات، ودرع في الركن، ومجسم للكرة الأرضية، وتمثال لرأس إنسان، وغير ذلك من المقتنيات - لوحة نحاسية مرسومة ومنقوشة بيد توماس رولاندسون Thomas Rowlandson، ضمن مجموعة رقصة الموت الإنجليزية The English Dance of Death، أكرمان، لندن.

الرئة فيها بعض الأشياء المميزة، ولكن هذه مشكلتي وليست مشكلتك، ويمكنك الآن أن ترى لماذا أكتب هذا الكتاب. وأنا لا أفهم السبب الذي يجعل البعض، لا سيما جامع التحف المرسوم والمنقوش في هذه اللوحة، يمتنعون عن التخلص من بعض ممتلكاتهم لماذا يكدسون المقتنيات؟ ولماذا يترددون وينتظرون؟ ولماذا تصبح تلك الرغبة في الانتظار مدمرة للذات بهذا الشكل؟ ويظن بول سالكوفسكيس Paul Salkovskis، وسيناد لامبي Sinead Lambe أن «بعض الناس يتعلمون مبكرًا جدًا في حياتهم أن الأشياء التي يكتسبونها من الآخرين هي في الواقع أكثر موثوقية من هؤلاء الذي أخذت منهم تلك

الأشياء»[27]؛ وبذلك فإنهم يكدسون المقتنيات ليكتسبوا إحساسًا بالأمان، ويجمعون المقتنيات بغرض الحصول على بعض الإحساس بالأمان.

إنهم يلجؤون إلى تكديس المقتنيات حتى يمكنهم أن يحدوا بعض الترضية والعزاء لأنفسهم. ويقدم سالزونسكي ولامبي أيضًا ثلاثة أسباب أخرى لهذا النوع من الهوس بالانتظار، حيث تأتي بعض السلوكيات الوسواسية القهرية في شكل أنماط سلوكية، مثل الإكثار من غسل اليدين، أو عمل قوائم للمقتنيات التي يشترونها، أو الاستمرار في عدها مرات ومرات، والتأكد أن الباب محكم الغلق- إنها سلوكيات تكرارية بلا هدف، الذهاب مرارًا وتكرارًا للتأكد من أن الباب مغلق، وهي جميعًا سلوكيات عقيمة، ولا طائل منها بالطبع توجد صعوبة كبيرة في التخلص من أشياء يجب التخلص منها لانقضاء فائدتها[28]. ربما يعاني 1.2% من مجموع سكان العالم هذا الاضطراب، وربما يعاني هؤلاء المصابون بالوسواس القهري أفكارًا تؤكد لهم أن فضلاتهم إن ألقوها فإنها سوف تتسبب في أذى للآخرين، أو أن التخلص من ممتلكات الآخرين سوف يؤدي إلى إيذائهم، أو احتمال حدوث أمر سيئ لهم، ويأتي الخوف من الخسارة في المركز الثاني. «أحيانًا يفكر البعض أنه من الأفضل عدم امتلاك الشيء عوضًا عن امتلاكه ثم فقده»؛ فعدم الإنجاب أقل ضررًا من الإنجاب ثم خسارة الطفل لموته، أو بأي شكل آخر مثلًا. وثالثًا: جرب البعض الخسارة عندما كانوا أعضاء في عائلاتهم فيما مضى في فترة الطفولة «وبالنسبة إلى هؤلاء، فإن التمسك بما يمتلكه المرء يمكن أن يوفر بعض التأمين ضد تقلبات المستقبل»، فبالتأكيد لا يخبئ لهم المستقبل سوى

(27) كتب بول سالكوفسكيس وسيبيد لامب لصحيفة الجارديان، 9 يناير 2015.

(28) تتراكم الكراكيب عندما تصبح الطاقة راكدة، وبالمثل تكون الطاقة راكدة حينما تتراكم الكراكيب، وبذلك تبدأ الكراكيب عرضًا لما يحدث معك في حياتك، ثم تصبح جزءًا من المشكلة نفسها؛ لأنه كلما ازداد قدر الكراكيب لديك، ازدادت الطاقة الراكدة التي تجتذبها تلك الكراكيب- كارين كينجستون (عبودية الكراكيب)، ترجمة مروة هاشم، المركز القومي للترجمة، القاهرة (المترجم)

مزيد من المنع والحرمان. ومع أن تكويم المقتنيات أو تكديسها قد يتسبب في أذى، فإنه في الوقت نفسه يوفر عزاءً للأشخاص المصابين بجروح وآلام وبالرغم من غرابة الموضوع فإن لهذا النوع من الانتظار ميزات وإيجابيات؛ فالجميع يتعاطف مع المنتظرين والمترددين. حتى لو لم ترغب في أن تصبح مترددًا، فلو عرضنا على عينة من الناس الاختيار بين اكتساب صديق حازم وحاسم وآخر متردد ومتأنٍ، فسوف نجد أن معظم أفراد العينة سيفضلون اكتساب صديق متردد متأنٍ، وربما لن يفضلوا الآخرين المتأنين زيادة على الحد، ممن قد يتسبب ترددهم في إشعال غيظ البعض وغضبهم ومع ذلك، يشعر كثير منا بالتعاطف مع أصدقائنا المترددين، حتى المترددين منا بشكل زائد عن الحد. توجد بعض الإيجابيات الوجدانية العاطفية التي يمكن اكتسابها من خلال التردد، أو حتى من خلال جمع المقتنيات وتكديسها، ولكن لا يمكن أن نحرؤ على الادعاء بأن هذا التردد يمكن أن يكون فضيلة. وعندما يصبح هؤلاء الأشخاص منفتحين وصرحاء، فإنهم يتحولون إلى أشخاص خطيرين ومستفزين. ولكنَّ الأشخاص المترددين يتميزون بأنهم متواضعون، وربما خجولون، وهي من المناقب المحمودة في أي شخص. فقط اقرأ كتاب البروفيسور بيري عن الانتظار إن كنت تشكك في الأمر

كما أن هناك أمرًا آخر جيد في الأشخاص المترددين: إن التردد يبطئ حركة الزمن، ويمنحنا مزيدًا من الوقت للتفكير في جميع الاحتمالات، أو ما هو مرجح حدوثه؛ ومن ثم الخروج بالقرار في الوقت المناسب. وهذا الوقت المناسب غالبًا يأتي في الدقيقة الأخيرة. وهذه هي النتيجة التي خلص إليها بارتوني فيما يتعلق بعملية اتخاذ القرار. ويتعلق الأمر بأن يصبح المرء ذا ثقل وعقل حاد فيما يتعلق بالأعمال التجارية. وتلك النسخة من الانتظار والتأني هي تجربة وجدانية أكثر من مجرد عملية متأنية. ويمكن أن تشكل إستراتيجية تنافسية. وهذا سبب كافٍ لكي يدعي بعضنا أن التأني شيء

مقلق، ولكن هدفي في هذا الكتاب مختلف كثيرًا عن ذلك: لأنني مهتم أكثر بالتأني كتجربة، وليس كعملية منظمة: فأنا أعتقد أن معظمنا معرض للتأني والانتظار، مثل أي شخص آخر. ويبدو أن كل تلك الخبرات التي مررنا بها من الفشل، تجعل منا نسخة أفضل. ويبدو أنه يجب علينا أن نتسامح قليلًا مع حالات الفشل التي نمر بها، ولا أعتقد أنه يجب أن نقلق- ولو دقيقة- بشأن قرارات العمل التي نتخذها، سواء أكانت جيدة أم سيئة، فمعظمنا لا يعيش في هذا العالم الخالي من الهموم؛ بل إن معظمنا يفضل أن يعيش حياة يملؤها الإحساس بضرورة اكتساب نوع من الكفاءة، أو حياة مملوءة بالانتظار والوقفات، وعندما نتقن هذه الأشياء نظن أن هذا هو العالم الذي يجب أن نعيش فيه لأنه العالم الأفضل.

كانت فكرة التوقف هي الفكرة الرئيسية في الفصلين الأخيرين، ولقد حاولت أن أوضح أنه يمكن للتوقف أن يصبح أمرًا جيدًا في بعض الأحيان وفي الفصلين التاليين سأربط بين التوقف والانتظار والخوف والموت والخسارة لقد سبق أن ذكرت في الفصل الأول أن الكرسي الفارغ يمكن أن يرمز إلى تلك الأمور التي ذكرتها وسوف يركز الفصل التالي على الكراسي الشاغرة في الروح الإنسانية، والنفس البشرية- الموت، والدين، والخوف.

الموت والدين والجزع

7

الجنة تنتظر

ذلك المقعد الشاغر والانتظار والعالم الآخر

يقدم لنا الفنان الموسيقي البولندي ويلهيلم سنسنال Wilhelm Sansal وصفًا رائعًا لهذه اللوحة في الشكل (7-1). وكان هذا ما يفكر فيه ساسنال عندما ينظر إلى لوحة لوسيو فونتانا Lucio Fontana عن المفهوم المكاني «للانتظار»:

> إن ما يفاجئني عندما أنظر بتمعن في هذه اللوحة أنني لا أرى الحائط عبر ذلك الثقب في لوحة الكانافا التي عُلقت عليه. فمن الطبيعي أنك إذا علقت لوحة مثقوبة من الكانافا على الحائط فسوف ترى الحائط المعلقة عليه هذه اللوحة عبر هذه الثقوب. ونرى في هذه الحالة لون وهيئة الحائط بوضوح عبر تلك الثقوب. ولكن هذا لا يحدث في هذه الصورة يوجد حاجز، شيء ما خلف اللوحة، سواد أو ظلام يظهر خلف هذا الثقب. يبدو أن اللوحة ليست مفتوحة من الخلف أو أن بطانة سوداء من القماش قد أضيفت إليها. يجب أن أقول إنني أشعر بالإحباط لطالما فكرت في وجود فراغ ما خلف هذا الثقب –هذه الفجوة-فراغ ما غير متعلق

بالواقع، وبدلاً من ذلك قدم لنا فونتانا هذه الطلمة[1].

أعتقد أنني أعلم ما يفكر فيه ساسنال، يبدو أنه يعتقد أن خلف هذه اللوحة يوجد واقع خرافي أو موازي للواقع الذي نعيشه بالفعل. إنه يلمح إلى احتمال وجود قوة من نوع ما خلف هذه اللوحة تختلف عما نعرفه. فالواقع الذي نعرفه هو أحداث الحياة اليومية بكل ما فيها من أمور طبيعية «reality»، ولكن يوجد واقع آخر قد يفرض نفسه علينا أحيانًا فنرى أمور عجيبة تحدث لكنها طبيعية «Reality» من نوع غريب. لا أعني هنا أن الأمور غير العادية تحدث، بل أنها أمور عادية ولكنها مختلفة. ويقول إنه تمنى أن يرى الفراغ الذي يفترض أن نراه خلال هذا الثقب في الكانافا. ولا تعكس هذه اللوحة واقع الأمور فما هو خلفها ليس بطانة سوداء أو الحائط الأبيض المعلق عليه فلا يمكننا أن نرى أي مهما عبر ثقب اللوحة وحسب ما يتخيله السيد/ ساسنال فربما يرى أنه من السهل عليه أن يتخيل نفسه يمدد أصابعه عبر هذا الثقب ليصل بيده إلى الفراغ الموجود خلفها فتنتقل يده إلى الواقع الموازي.

نعم يعلم ساسنال أنه لا يوجد واقع حقيقي خلف الكانافا. ومثل ساسنال تطلعنا جميعًا إلى أن نرى ما هو خلف هذه اللوحة عبر هذا الثقب في وسطها، ولكنه عندما عرف أن ما خلف هذا الكانافا هو مجرد بطانة من الكانافا الأسود أحس بالإحباط لأنه إذا أدخل يده عبر هذا الثقب فإن يده لن تذهب إلى الواقع الموازي[2]. وربما كان هذا ما أراد فونتانا للمعجبين بفنه

(1) ميكرو تيت 34، عن تيت وخلافه، العدد 34، صيف 2015

(2) لقد تكررت تجربة عدم الذهاب إلى أي مكان في وقت الفراغ من جانب النحات البريطاني المولود في الهند السير أنيش ميخاي كابور، وذلك من خلال صنعه هوة أو فجوة لا قرار لها من الفراغ. وتبدو تلك الفجوة المنحوتة (هي منحوتة فنية على شكل ثقب). ويمكننا أن نقرأ عن فجوات السيد كابور في مقال سارة كسكون بعنوان: رجل يسقط في أحد أعمال أنيش كابور من الفجوات اللانهائية في أحد متاحف البرتغال، أخبار ارت نت، 20 أغسطس 2018. وفي هذه الحالة لقد كسر الواقع رجل الرجل.



الشكل (7-1) لوحة من أعمال الفنان لوسيو فونتانا 1899) Lucio Fontana-1968م)
المفهوم المكاني للانتظار 1960 "Spatial concept "Waiting - معرض تيت – لندن

أن يظنوا وأن يعتقدوا بوجود عالم خيالي وراء الكانافا. ويبدو أن ساسنال وفونتانا يومنان بوجود عالم انتقالي non-ephemeral موازي لعالمنا. ويلمحان لوجود واقع آخر مغاير لما نحن فيه ويحاول فونتانا أن يوضح أن أسفل السطح الطبيعي العادي للوحته يوجد عالم آخر. وبالمثل فإن أسفل هذا السطح الطبيعي لعالمنا يوجد عالم آخر مغاير لما نحن فيه ولكن لا نعلم بوجوده.

قد يبدو ذلك كله أمر من محض الخيال. ولكن لا تحاول إجباري على قول أشياء لا يمكنني البوح بها. وظيفتي تقتصر على الإشارة إلى حالة العمل الفني ونوعية الأداء المقدم ومن ثم أطلعكم إن كانت تلك الأفكار ممكنة أم لا. والآن دعونا نكمل مع هذه الحالة من سبر أغوار الواقع ونرى إن أمكننا أن نجد شيئًا أم لا. ربما أمكننا أن نفهم الواقع الذي يقدمه لنا ساسنال لو

أمكننا أن نشبه هذا الواقع بالحياة الأخرى أو ما وراء حياتنا الدنيا. فكثير من الناس يعتقدون في وجود الحياة الأخرى كما يؤكد البعض على وجود عالم موازي لما نحن فيه. عالم ينتقل إليه جميع أقاربنا المتوفين وأصدقاءنا والحيوانات الأليفة الذين خطفهم الموت منا وجميعهم هناك بانتظارنا. وربما يشاهدوننا الآن من ذلك المكان الذي يقيمون فيه. وسوف نجتمع بهم هناك في نهاية رحلة حياتنا. لست متأكدًا إن كنت أصدق هذا الكلام ولكن الكثير من الناس يصدقونه وأتمنى لهم حظًا سعيدًا مع هذه الفكرة. وهذه الفكرة التي تزعم وجود حياة أخرى تشبه إلى حد ما تلك الأفكار القديمة عما وراء الحياة أو الواقع أو العالم السفلي. وأعتقد أن هذه هي الفكرة التي يحاول أن يصل إليها ساسنال ومونتانا هنا. هذا الثقب وتلميح ساسنال بهذا الفراغ يدعم أو ينكر احتمال وجود الواقع الحقيقي. ربما يكون الدافع وراء هذه الفكرة هو الخوف من الموت – ذلك الكرسي الشاغر الذي يوجد في المنزل في عنوانه 30 شارع ستراند جيت في كوبهاجن. وربما هو الخوف من انقطاع سلسال شخص ما فلا يجد له ذكر أو خلف في الدنيا، وأيضًا الخوف من عدم قدرتنا على رؤية أحبابنا وأصدقاءنا وأقاربنا مرة أخرى ولو في العالم الآخر وذلك يجعل ساسنال وفونتانا ينتظران أن يأتي ذلك الواقع المفترض. وربما هذا ما كان يقصده ساسنال عندما عبر عن حزنه لوجود بطانة سوداء خلف اللوحة مما تسبب في ذلك اللون الأسود الواضح خلف ذلك الثقب. ولقد كان ساسنال متشوقًا ومنتظرًا للحصول على نظرة أو لمحة من ذلك الواقع الافتراضي الماورائي أو السفلي وأعتقد أن هذا هو ما كان يعنيه عند الحديث عن «الفراغ» void. وربما كان هذا مقصد فونتانا أيضًا. وعندما علم ساسنال ورأى هذا القماش الأسود أصيب بالخوف من احتمال عدم وجود عالم ماورائي وأنه من المستحيل إيجاد أي فقيد عزيز عليه من أقربائه أو حيواناته الأليمة. وبهذا الشكل يصبح الانتظار بدون

طائل، فبمجرد أن تنفذ بيدك عبر هذه اللوحة، طاخ، سوف تصطدم بجدار معرض اللوحات.

والآن ما علاقة كل ذلك بالانتظار waiting الذي يتضمنه عنوان لوحة فونتانا وذاك الانتظار موضوع هذا الكتاب؟ سوف يكون من المغري جدًا مقارنة تلك العيون المحدقة عن آخرها في لوحة باربرا هيبورث Barbara Hepworth بعنوان عائلة من البشر The Family of Man. عندما تنظر في كل هذه العيون فإنك ستفكر بأنه يوجد عالم آخر واسع وراء كل عين منها. ولكن نحن لا نريد هذا العالم الواقعي، هل يخبرنا فونتانا المزيد عن هذه اللمحة وعن الواقع الآخر «Reality». وفي الوقت نفسه هل يمكن أن ينبؤنا ذلك بأي شيء عن الانتظار – فنصبح بانتظار ما يقصده فونتانا عن العالم الآخر وما نفهمه نحن عن هذا العالم. أنا أعتقد أن فونتانا قد أراد أن يقول إن البشرية بأسرها تنتظر تكوين فهمًا موحدًا عما وراء الواقع عن العالم السفلي وعن الحقيقة المختبئة خلف الحقيقة إنهم بانتظار مكان يساعدهم على التصالح مع الموت وذلك الكرسي الشاغر. إن الوصف الذي قدمه ساسنال للثقب في لوحة فونتانا هو بالضبط ما يفسر ويجسد هذا النوع من الانتظار. ويبدو أن تجربة المشاهد لهذه اللوحة تتضمن الانتظار. إنه انتظار لواقع يتضمن المزيد من الفراغ، وبانتظار أن يكشف هذا الواقع عن نفسه. وربما يكون ساسنال منزعج لأنه قد أُجبر على أن يتخلى عن فكرة انتظار الواقع الحقيقي. وفي رأيي كان وصف ساسنال لهذه اللوحة أكثر الكتابات التي فضلها فونتانا عن لوحاته على الاطلاق وأقربها إلى المغزى الذي أراد أن يعبر عنه.

عندما تحاول أن تفهم لوحة لوسيو فونتانا ومحاولتها لتجسيد الانتظار، فإن التفرقة بين الانتظار كخبرة والانتظار كموقف تكتسب أهمية من نوع

خاص. وإنني أذكر هذا الان لأن لوحة السيد/ فونتانا هنا تحاول أن تستدعي موقف يشجع كل من يشاهد هذه اللوحة إلى أن ينتظر ويتمعن في معنى الحقيقة الكبرى (الحقيقة التي يُرمز لها بحرف R كبير) والتي تختفي بشكل ما وراء الحقيقة الصغرى (الحقيقة التي يُرمز لها بحرف r صغير) هل تتذكر طابور الزبائن المنتظرين أمام محل بيع الأسماك في روتشيستر؟ كان جميع هؤلاء الناس في مدينة كنت منتظرين بلا شك. ولكن كيف كان شعورهم؟ بعضهم كان يشعر بالملل والبعض الآخر كان يشعر بالسعادة والبعض الآخر لا يبدو عليه أي انفعالات في ذلك الوقت. إن الانتظار كموقف situation لا يخبرنا بأي شيء عن الانتظار كخبرة experience. وبالعودة إلى السيد/ فونتانا ربما ينطوي الموقف الذي يحاول تجسيده عن الانتظار، إذا أصر على ذلك وإن بدى علينا القناعة بما يحاول أن يخبرنا به. وربما تخبرنا اللوحة أيضًا شيئًا عن الإحساس بالخوف من الموت الذي يعتبر البوابة النهائية للواقع الماورائي. ولكنه بالتأكيد لا يجسد بالضرورة الانتظار كخبرة. إلا إذا قدم فونتانا وساسنال لنا شرحًا يتضمن هذا المعنى ومن ثم نقتنع نحن بهذا الأمر كمشاهدين لهذه اللوحة. ربما كانت طريقة وصف نسخة الانتظار التي يروج لها فونتانا هي، كما يمكن أن نقول، استراتيجية عقلانية ولا تختلف عن استراتيجيات الانتظار الأخرى التي يروج لها فرانك بارتوني أو دانيال كينمان أو جيسون فارمن وتحاول استراتيجية الانتظار في حالة السيد/ فونتانا أن تساعد المشاهد على رؤية الحقيقة الماورائية Beyond Reality. ولا علاقة لها بالانتظار كخبرة. أو عن أحاسيس الناس نحو الانتظار ولا تحاول أن تقنعنا بأن الناس تتوق للعيش في الواقع الماورائي أو أنهم قد ضاقوا بهذا الواقع الذي نعيشه (الواقع الذي نعيشه هو الواقع الصغير وهو الذي يرمز له بحرف «r» صغيرة وهو جميع ما يمثل ما يحصل الآن في هذا الحيز الذي تحتله بجسدك. وهو الأمر الذي يبدو أن المزيد من

الناس قد ضاقوا به) وكما أقول دائمًا هذا الكتاب عن الانتظار. وتنطوي فكرة الانتظار كخبرة في الأغلب على أحاسيس وجدانية مثل الحداد على من راح والندم على ما راح والسعادة من بين أشياء أخرى ويمكن أن يودي بك الإحساس باللامبالاة في أفضل الأحوال إلى القيام بوظيفة من نوع ما مثل محل هيل وأولاده لبيع الأسماك. ولكنك لن تشعر بإحساس طيب نحو هذا المكان فربما تشعر أن السمك يبدو عفنًا أو يمكن حتى أن تحب مذاقه.

وتوجد ملاحظتان أخيرتان عن المفهوم المكاني Spatial Concept للانتظار. حيث ارتبطت لوحات فونتانا التي تتضمن تلك الثقوب الطولية بالأعضاء التناسلية للمرأة. ويرى البعض أن هذا استخدام جيد ومثمر لموضوع الرغبة الجنسية Sexualization. وانقسام البشر إلى رجل ومرأة تجمعهما الرغبة الجنسية. وذلك عن طريق تصوير هذا الأمر في شكل ثقب طولي في الكانافا يبدو مثل الأعضاء التناسلية الأنثوية[3]. وتقول إحدى زميلاتي من النساء أنه يمكن تصنيف لوحات فونتانا عن المفهوم المكاني على أنها لوحات تجارية موضوعها الجنس من الباطن commercial sub-pornography ولها الحق في ذلك وسأشرح فيما يلي كيف دللت على هذا الرأي. وأنا أيضًا أرى أن رأيها يقدم شيء ما عن قيمة كل هذه العمليات من صياغة استراتيجيات سفلية transcendental strategizing لا علاقة لها بالدين. والنقطة الثانية والتي ربما أكثر أهمية هو أن نظرة فونتانا عن الانتظار ربما هي في الأساس فكرة ترتكز على الجنس. وسأعود إلى هذه النسخة أيضًا فيما بعد. ولكن الآن دعونا نعود إلى الخلف لنرى تجسيدًا أخر للثقب المكاني. ولكن هذا التجسيد سوف يحدث هذه المرة في شبه الجزيرة الاسكندنافية.

(3) فيليب شو Sublime Sexuality: Lucio Fontana's Spatial Concept Waiting. بايجل لوليمد، وكريستين رايدنج، الفن الراقي، منشورات تيت البحثية، يناير، 2013

كارين Karin سيدة تعيش في منزل في جزيرة فورو في بحر البلطيق، وهذه الجزيرة تابعة للسويد وهي من الجزر العتيقة في بحر البلطيق. وتقول كارين، «لقد أتي انتظارنا ثماره والان حان وقت الفرح والبهجة». وهذه الكلمات كلها تصدر عنها وهي تعنيها لأنها تظن أنها رأت ربها عبر ثقب طولي. لا يوجد في أي لوحة هذه المرة بل هو شق طولي في حائط الحجرة العلوية بالمنزل. واجهت كارين ربها عبر هذه الفتحة ليس مرة واحدة فقط بل مرتان، وفي المرة الأولى نزلت على الأرض بركبتها ثم سقطت على وجهها. ومن الناحية الدينية يمكن القول إن هذا الموقف ينطوي على إحساس بالنشوة، ولكن ربما أيضًا نشوة من الناحية الجنسية كالنشوة التي نشعر بها عند ممارسة الجنس orgasm بالرغم من أن الرب لم يظهر لها بشكل قاطع على الأقل في المرة الأولى ثم فقدت الوعي عندما أحست بأن أصواتًا تتكلم من خلف الشق الطولي في نطاق هذا العالم الموجود فقط في رأس فونتانا وساسنال وفي المرة الثانية التي رأت فيها ربها أتى إليها عبر هذا الشق. وتقول كارين (موجهة كلامها للشق)، «لقد أتيت بأسرع ما يمكن ولكن لم يكن الأمر سهلاً، هناك الكثيرون ممن قد يحاولوا إيقافي. إنني سعيدة للغاية وأفهم كل شيء. نعم لن يطول الأمر الآن وأنا أشعر براحة كبيرة ولقد كان انتظارنا فرصة للفرحة والسعادة» our waiting has been a time of joy وتلك الكلمات الأخيرة التي قالتها كارين تلخص الأمر كله. وهذه هي ببساطة شديدة ماهية الانتظار كخبرة. «لقد كان انتظارنا فرصة للسعادة». ليست تلك هي استجابة الجميع للانتظار، بالرغم من أنها ردة الفعل التي نحب أن نسمعها ونمر بها جميعًا دون غيرها من أنواع الانتظار. وتتحدث كارين هنا عن الانتظار كخبرة وليس كموقف إن هذه الاستجابة من كارين لا تتطابق مع استجابة أي من هؤلاء المنتظرين في طابور أمام محل الأسماك في كنت. إلا أنه ربما استجابة بعضهم مشابهة لاستجابة كارين إن كانوا يحبون الأسماك الطازجة للدرجة

التي تجعلهم لا يستعجلون الحصول عليها. لا وجود للاستراتيجيات هنا في فورو، لذلك ففي نفس اللحظة التي كانت فيها كارين تتحدث إلى الحائط كانت ضلفتي الخزانة في أحد جدران الغرفة يفتحان على مصراعيهما. فإذا بزوج كارين، د. مارتن، يقول «لا داعي للجزع لن يدخل إلينا الرب عبر هذه الخزانة» ولكنها ردت عليه، «سوف يأتي الآن إلى هنا في أي دقيقة، وعلي أن أكون موجودة لاستقباله». إن كارين مقتنعة تمامًا أن الرب سوف يأتي ويدخل هذه الغرفة ولكن ما ظهر بالفعل عبر هذا الشق المكاني كان عنكبوتًا أسودًا كبيرًا. كانت كارين تصرخ وأصبت أنا بالهلع. لقد انفتح الباب بالفعل ولكن بدلاً من أن يظهر الرب ويدخل الغرفة أتانا هذا العنكبوت الكبير. لقد أتى باتجاهي ورأيت وجهه. لقد كان وجهًا صخريًا مرعبًا وقد زحف صعودًا ليفرض نفسه علي ولكنني قاتلته. وكنت أرى عينيه طوال الوقت لقد كانتا باردتان وهادئتان. وعندما لم يتمكن من النفاذ إلى أسفل ملابسي زحف صعودًا حتى وصل إلى صدري. وعلى وجهي ثم هرب عبر الجدار. وعندما هدأت نفس كارين وجدتها تقول، «لقد رأيت الرب»[4] I've seen God.

هذا الحدث المثير ذو الطابع الجنسي من تجسد الرب حدث في نفس العام الذي أكمل فيه فونتانا مفهومه المكاني عن الانتظار. هذا الظهور وذلك الشق الطولي في الجدار الذي واجهته كارين، ظهر في فيلم شهير جدًا كما في الشكل (7-2) والفيلم بعنوان «خلال الزجاج الداكن» Through a Glass Darkly من إنتاج عام 1961، وبالطبع أخرجه المخرج السويدي نفسه انجمار بيرجمان Ingmar Bergman الذي أخرج فيلم الناي السحري

(4) قصص قصيرة من تأليف تولستوي، الله يرى الحقيقة ولكنه ينتظر، 1872، الانتظار بصبر يتعلق بالقدرة على انتظار الخلاص الإلهي بمنتهى الصبر. ولقد بنى ستفن كينج روايته الرائعتين هايوورث وشاوشنك ريديمبشن على قصة تولستوي (وقد أصبحت الأخيرة من الأفلام الشهيرة)، فالرب منتظر في روايتي تولستوي وكينج، وسوف يأتي إلى هؤلاء القادرين على الانتظار.



الشكل (7-2) هذه اللقطة مأخوذة من (الدقيقة 29 – الثانية 15)، من فيلم «عبر زجاج داكن»، وفيها تنصت كارين (مجسدة شخصيتها الممثلة هارييت أندرسون) إلى ذلك الصوت الذي تظنه صوت الرب، في أولى مواجهاتها المقدسة مع ربها، ويصدر الصوت من ذلك الشق في الجدار بجوار يدها اليمنى. كارين ليست في الواقع جيني ديديه ولكنها قريبة الشبه منها. واسم الفيلم باللغة السويدية هو «Sasem i En Spegel»

«The Magic Flute» وهو الفيلم الذي تطرقنا إليه في الفصل الخامس. ولعبت هارييت أندرسون Harriet Andersson دور كارين. وقد فاز فيلم «عبر زجاج داكن» بإحدى جوائز الأكاديمية في شهر أبريل عام 1962 عن أحسن فيلم ناطق بلغة أجنبية.

هل كان بيرجمان يقتبس ذلك الشق من فونتانا؟ أحب أن أصدق فكرة أنه قد فعل، بالرغم من أنه لم يصرح بذلك في مذكراته بعنوان «المصباح السحري» The Magic Lantern. هل يساعدنا الربط بين ذلك الشق لدى

بيرجمان وذلك الذي قدمه فونتانا على فهم الفكرة وراء المفهوم المكاني للانتظار؟ بالطبع سوف يجعله أكثر وضوحًا. إنه يوضح مرة أخرى الرابطة بين الانتظار ورؤية الواقع السفلي. أو «الرب» كما تقول كارين كما توضح أنه لا سبيل لتفادي الجنس عندما تواجهك صورة الشق هذه كمشاهد. والأكثر أهمية هو أن فكرة لوسيو فونتانا عن وجود واقع خلف الواقع الذي نعيشه هو بالضبط ما توصلت إليه كارين. ولكن الحقيقة بالنسبة لها أكثر دقة من تلك التي يشير إليها فونتانا. فبالنسبة لفونتانا هي الحقيقة الماورائية أو الحياة الأخرى أو الحياة السفلية – أو أي شيء مما سبق - أما بالنسبة لكارين فهي الرب، وهو الحقيقة المختبئة خلف الحقيقة التي نعيشها.

ولا يفكر السيد/ انجمار بيرجمان كثيرًا في هذا النوع من الرؤية المقدسة للرب. بل إن بيرجمان يربطها بالمرض العقلي. ولا يرى أنها طريقة للتصالح مع الكرسي الشاغر والتغلب على تلك الأزمة. بل يُقال في الغالب أن كارين تعاني من حالة فصام Schizophrenia من نوع ما. ويقول زوجها في الفيلم (الذي كان يلعب دوره ماكس فون سيدو Max Von Sydow) أن مرضها لا علاج له. ولا يؤيد بيرجمان الحكم الذي أطلقته كارين بأن مدة الانتظار كانت فرصة للفرح. ولا تتناسب أفكار كاتب الزبور في العهد القديم مع عقلية بيرجمان حيث ينص العهد القديم على الآتي: «لقد انتظرت الرب بصبر وقد نظر إلي وسمع دعائي» I waited patiently for the lord: and he inclined unto me, and heard my calling. ولقد كانت نهاية انتظار كارين لربها أن فوجئت بعنكبوت أسود كبير قبيح يظهر لها عبر هذا الشق البائس محاولاً الهجوم عليها. وفي نهاية فيلم عبر زجاج داكن، نُقلت كارين إلى مصحة للأمراض العقلية بطائرة هليوكوبتر، وكان ذلك بطلبها الخاص. وتريد أن تبقى في المستشفى لأنها تقول أنها غير قادرة على الاستمرار في التنقل بين الواقع الأول والثاني طوال الوقت (الواقع الذي نعيشه يُرمز له بالرمز «г» والواقع

الماورائي يُرمز له بالرمز «R») فهي تفضل المصحة على تلك الحياة العادية التي تعيشها مع عائلتها: زوجها وأباها ديفيد وشقيقها ميناس. ولا يبدو أنها تعلمت أي شيء في تجربتها المتعلقة بهذا الشق. ولقد عانت شقيقة أنجمار بيرجمان أيضًا، وكان اسمها مارجاريتا Margareta، من اضطراب عقلي أيضًا ولكن هذا لم يؤدي إلى أن تمر بتلك التجربة المثبطة عن رؤية الرب التي مرت بها كارين. ولكن يبدو أن مارجاريتا بيرجمان قد استغلت المشاكل العقلية التي تمر بها كخلفية لكتابة روايتها «مرآتي . يا مرآتي» ... Mirror Mirror عن المرض العقلي الذي تعاني منه جيني ديديه. ويمكننا القول أن جيني ديديه قد جعلتنا نتحمس أكثر. وكانت الرواية التالية لمارجاريتا والتي تُرجمت إلى الإنجليزية بعنوان «كارين» Karin. وكان اسم كارين هو أيضًا اسم والدة انجمار ومارجاريتا[5]. لقد كانت مارجاريتا، بغض النظر عن فكرة انتظار الرب، هي الوصي الذي استمد منها انجمار شخصيته كارين في فيلم «عبر زجاج داكن».

لقد صدر فيلم «عبر زجاج داكن» بعد عام واحد فقط من ظهور المفهوم المكاني للانتظار ويقدم تعليقًا مؤثرًا وحادًا على لوحة لوسيو فونتانا في عام 1960. حيث أكد المخرج السويدي انجمار بيرجمان أنه لا يمكن لأي كمية من الانتظار أو الدعاء أن تجعل الرب والحقيقة يهبطان إلى الحياة دفعة واحدة. وربما تنطوي هذه التجربة على الكثير من اللذة أو يمكن وصفها بأنها تثير الغرائز الجنسية حتى. ولكنها لن تكشف عن مكنونات الإله أو الحقيقة الماورائية». The Reality behind reality. وبذلك يُعزي السيد/ بيرجمان تلك التجربة التي مرت بها كارين إلى اضطراب عصبي ولا شيء آخر سوى مجرد عنكبوت مخيف بعض الشيء.

(5) يمكنك مقابلة أمهم في فيلم بيلي أوجست الصادر عام 1992 بعنوان «فصل البنات»، والتي تسرد بعض القصص المتعلقة بأبوي بيرجمان. ولقد كتب النص إنجمار بيرجمان.

لم تكن سيمون فيل Simone Weil شخصية من شخصيات أحد أفلام السينما مثل كارين. ولا تتحدث عن تلك الشقوق والعناكب السوداء التي تبرز من الجدران. ولكنها تتحدث عن تجربتها مع الانتظار. إن لم تكن تتحدث عن استراتيجيتها المضادة للانتظار إن تجاربها مع الانتظار كانت أوقات للفرحة وهي مكرسة للرب أو الحقيقة الماورائية بالفعل ولا أصدق أن يكون للسيدة/ سيمون فيل مشاعر بالشفقة إلى هذا الحد نحو كارين. ولكن يمكن أن تشعر بالأشفاق على شخص مثل لوسيو فونتانا. كانت سيمون امرأة فرنسية يهودية شابة توفيت عام 1943 في أشفورد - كنت في إنجلترا. وهو مكان لا يبعد كثيرًا عن افلين دانبار في روشيستر، وكانت سيمون تعمل مع المقاومة المرنسية للاحتلال النازي إبان الحرب العالمية الثانية وقد توفيت بمرض الدرن بينما كانت تحضر نفسها للسفر إلى فرنسا للعمل مع المقاومة في باريس ولقد احتُفي بهذا العمل الأدبي بعنوان «بانتظار الرب» Waiting for God بعد وفاة سيمون ونُشر عام 1951أي بعد أن وافتها المنية بحوالي 8 سنوات كاملة وقبل 10 سنوات من رؤية كارين للرب في جزيرة فورو. ويوضح كتابها الشهير أن المرء لا يواجه ربه مباشرة في الأفلام والمسلسلات فحسب وقد ترعرعت سيمون في منزل يهودي ملحد، ولكنها مرت بمراحل ازداد فيها إيمانها بشكل مضطرد عبر سنوات عمرها المتعاقبة ولقد كانت منتظرة ربها بطريقتها الخاصة وكما حدث مع كارين، حيث فوجئت بلحظة صفائية من اللذة مع ربها. وقد فرض هذا الانتظار نفسه من خلال ثلاث تجارب دينية قوية وليس اثنتين كما حدث مع كارين[6].

وكانت أولى هذه التجارب، على ما يبدو، في عام 1935، حيث دخلت قرية برتغالية صغيرة، «في اليوم الموافق ليوم مهرجان قديسها المخلص»

(6) وهي تحكي القصة بنفسها في الخطاب رقم 4، «Spiritual Autobiography»، عن انتظار الله. وقد استخدمت ترجمة من إعداد إيما كروفورد. وقد أعيد طباعتها في نيويورك عام 2009

ولقد تحركت عاطفيًا من دقة وعذوبة غناء زوجة الصياد. «يا إلهي لم يسبق لي أن سمعت شيئًا بهذه العذوبة وبالشكل الذي يمكن أن يترك في النفس كل هذا الأثر» كما أكدت «في هذه اللحظة أدركت فجأة أن المسيحية هي دين العبيد ولا مفر للعبيد من إتباعه وأنا معهم» ولقد كانت فيل من الناحية السياسية ميالة أكثر لليسار السياسي وربما هذا هو السبب لحبها في العبيد. ففي عام 1932 مثلاً زارت ألمانيا لمساعدة الماركسيين الألمان ضد قوة النازيين الصاعدين حديثًا لقمة الهرم الساسي. وفي عام 1936 زات كتائب قوات المتمردين الجمهوريين في إسبانيا وشهدت نضالهم ومعاركهم ضد الفاشيين الاسبان. وقد كان عام 1937 هو العام الذي شهد تلك الهبّة الصمانية الدينية في إيطاليا في مدينة أسيسي. «لقد كانت الكاتدرائية الرومانية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي هو أول مكان أُجبرت فيه على أن أجثو على ركبتاي» وكانت هذه اللحظة شبيهة بما حدث للسيدة/ كارين أثناء رؤيتها الأولى للشق في ذلك الحائط. لقد كانتا سيمون وكارين كلتيهما بانتظار الرب، وانتهى الأمر بهما جاثيتان على ركبتيهما. وكانت التجربة الثالثة التي مرت بها فيل عام 1938 في كنيسة سولسميس، وهي جمعية دينية فرنسية تشتهر بالأناشيد الدينية الجورجيانية. لقد كان الوقت في عيد الفصح وكانت سيمون فيل تعاني صداعًا نصفيًا حادًا. ويبدو أن الصداع النصفي مرتبط إلى حد ما بالخبرات والتجارب الروحانية. حيث كان يعاني القديس جريجوري من الصداع النصفي وتدعي سيمون أنه عند الاستماع للموسيقى كان يجعلها قادرة على «إيجاد فرصة نقية وتامة في الجمال غير المعقول أثناء ترديد الكلمات ذات التعبير الإنشادي». وفيما تصف هذه الخبرات أنها «ذلك الاستحواذ الذي ملكني بها المسيح». لقد كان

---

(7) أحيانًا يرتبط الصداع النصفي ببعض الطقوس الروحانية. وقد راجع أوليفر ساكس في كتابه «الصداع النصفي» كتاب هيلدجارد ببنجين «الطريقة القديمة». وهو من قدامى الروحيين

انتظارها فرصة للمرح. ولكن هل تمكنت من إيجاد الواقع الماورائي الذي أرق ساسنال ولوسيو فيما يتعلق بالمفهوم المكاني للانتظار؟

وقد حدث أمر معجز آخر في اسبانيا في الآونة الأخيرة. أمر يضاهي تلك التجربة الدينية التي تنطوي على الكثير من اللذة التي مرت بها كارين عبر الزجاج الداكن في جزيرة فورو عام 1961 والتي مرت بها كذلك سيمون فيل في البرتغال في عام 1935 وفي إيطاليا عام 1937 وفي شمال غرب فرنسا عام 1938. حيث نُشر تقرير في مجلة «لايف ساينس» عن سيدة ستينية من اسبانيا ادعت أنها لا تتحدث مع السيدة العذراء مريم فحسب بل وتراها وتشعر بوجودها أيضًا[8]. وقبل التعرض لهذه التجربة الدينية، كان يُعرف عن هذه المرأة أنها: «سعيدة في العموم ولا تعاني من أي منغصات ولم تكن متدينة بشكل كبير ولكن كانت مشاعرها إيجابية في العموم». ولكن قبيل شهرين من تصريحها بهذه التجربة الروحية التي تمر بها بدت المرأة أنها «حزينة ومنسحبة من كافة الأنشطة وأصبحت مهتمة بالإنجيل بشكل خاص وربما تقضي ساعات طويلة من وقتها اليومي في قراءته وإنشاد الترانيم». وقد أجرها لها الأطباء تصويرًا اشعاعيًا وظيفيًا بالرنين المغناطيسي واكتشفوا أورامًا سرطانية في أنسجة المخ. وأجروا لها مسحًا آخر واكتشفوا نوع آخر خبيث من الأورام السرطانية في المخ وتبع ذلك جلسات علاج اشعاعي وكيماوي على المخ (لقد كان الورم كبيرًا لدرجة أنه لم يكن مؤهلاً لاستئصاله من خلال التدخل الجراحي). حتى أنهم وصفوا لها تناول المضادات الذهانية Antipsychotics والتي قيل أن لها تأثيرًا مضادًا للأورام السرطانية[9]. وقد استمر هذا الأسلوب العلاجي المتبع معها لمدة خمسة

---

(8) ولقد قدمت رينشل ريتر كتابها «كيف يمكن أن يشعل الورم الدماغي الشعور الديني لدى النساء؟»، في 15 فبراير، 2017.

(9) حسب التقرير المقدم من الفريق الاسباني فإن نحو 22% من جميع أنواع الورم المخي تظهر إلى جانب الأورام الدماغية، وربما أدت تلك الأعراض إلى حدوث الهوس الديني.

أسابيع، وخلال هذه المدة توقفت التجارب الروحانية مع السيدة العذراء. وللأسف لم يتوقف السرطان بالتزامن مع توقف هذه الهبّات الصفانية. وأصيبت السيدة بسكتة دماغية بعد شهرين من العلاج وبعد ثماني أشهر من تشخيص إصابتها بالسرطان وتوفيت نتيجة مضاعفات إصابتها بالورم السرطاني.

كانت كارين مصابة بالفصام Schizophrenic، ولم تكن سيمون فال تعاني من ورم سرطاني في المخ ولكنها كانت تشكو من الصداع النصفي ولقد كثرت المناسبات التي تم من خلالها الربط بين الصداع النصفي والهبّات الدينية الصفانية. هل يُرجح أن تكون تلك التجارب فيزيقية حقيقية بالفعل بدلاً من أن تكون خارقة للطبيعة؟ وهل يمكن أن تكون تلك الحالة المرضية الغامضة التي كانت تشكو منها ذات أساس جسمي؟ هكذا كانت سيمون فال مريضة مثل كارين وتلك المرأة الاسبانية؟ عوضًا عن رؤيتها للواقع الماورائي. دعونا نعود إلى تلك المرأة الاسبانية الستينية صاحبة الهبة الصفانية الدينية. ففي حالتها جاءت تلك الهبّة الصفانية المفاجئة وكونت فاصلاً غير متوقع لأنماطها السلوكية السابقة. حيث «لم يكن لهذا السلوك الديني انعكاسًا على سلوكها أو طريقة تصريفها للأمور» وأضاف الباحثون في المستشفى الجامعي في مدينة مرسية في اسبانيا[10] ما يلي: «لا يبدو أن هناك أي سبب واضح للأنماط السلوكية التي أتتها المريضة سوى تلك الحالة المرضية التي كانت تمر بها، ومن أجل ذلك يجب اعتبار الأمر كله مجرد تجربة مرضية أخرى عادية»[11]

(10) كارمونا بابوناس وآخرون. ازدهار الوازع الديني. نيورو كابس. 23 (1). يمكن الرجوع في هذه الحالة إلى كتابات هيلين فيليبس، مجلة New Scientist، 22 يوليو، 2002، عن تأثير الدوبامين، واستيعاب الاحداث و لاشياء غير الطبيعية

(11) أي أن مرضها هو ما صور لها جميع هذه الأوهام والهلاوس ورسخ في عقلها الذي يعاني تحت وطأة المرض أفكارًا دينية لها خلفية من معتقداتها و ربها الدينية السابقة (المترجم)

كما لاحظ فريق البحث الاسباني أن تلك السيدة قد أصيبت بالورم السرطاني في الفص الصدغي الأيمن وهي منطقة في المخ ارتبطت أحيانًا بالتجارب والخبرات الصوفية والدينية: ولكن كانت هناك نقطة أخيرة: «قبل تشخيص إصابتها بالسرطان تعرضت المريضة ربما إلى نوبات غير تشنجية non-convulsive seizures من المحتمل أن السبب في إصابتها بهذا الورم الدماغي، ولقد رجحوا ذلك بسبب بعض التغيرات في صورة الأشعة التي أجروها على المخ كما لوحظت بعض الحالات من المغالاة الدينية لدى بعض مرضى الصرع»[12] وربما يكون من التسرع أن نُرجع السبب الرئيسي وراء تلك التجربة التي مرت بها سيمون فيل من الانتظار للورم الدماغي حيث يرى الكثير من المسيحيين أن هذا الانتظار الذي مرت به يقدم الكثير من الإلهام لهم ولا توجد لدي النية لأن أطلب منهم تفسيرًا لذلك. فأنا أكسب رزقي من عملي في أحد أقسام الجامعة التي تمثل الدراسات الدينية أحد أهم الأقسام بها ويكن الكثير من زملائي معزة خاصة للسيدة/ سيمون فيل، كما أكن لهم نفس القدر من المعزة ولكن أعتقد بأننا مدينون للعلوم الفسيولوجية بنفس القدر من الاحترام الذي يجب أن يتوازن مع حبنا لهذه التجربة الدينية الصوفية.

تعتبر الرواية المسرحية «بانتظار جودو» Waiting for Godot للكاتب الفرنسي صامويل بيكيت من أهم ما كُتب في القرن العشرين عن موضوع

(12) وهذا تقرير آخر: شهار أرزي Shahar Arzy، وروي شار Roey Schurr «لقد أرسلني الرب إليكم: الصرع الناجم عن خلل في الفص الصدغي الأيمن، والفصام الناجم عن خلل في الفص قبل الجبهي الأيسر». الصرع والسلوك، 60، يوليو 2016 «ولقد سُجلت كثير من التجارب الدينية لعدد من مرضى الصرع بالرغم من جهلنا بالآليات العصبية المؤدية إلى تلك الحالة. وهنا أُتيحت لنا فرصة نادرة لتسجيل حالة تبديل ديني واقعية لشخص مصاب بحالة صرع ناجمة عن خلل في الفص الصدغي الأيمن وقياسها من خلال اختبار الفيديو بالنسبة لهذا المريض. فقد حدثت هبة مسيحية لتصبح ساعات بعد الإصابة بنوبة معقدة وشديدة أشبه بهذيان ما بعد النوبات الصرعية

الانتظار. ولكن هل تتناول هذه الرواية أي نوع من أنواع الخبرات الصوفية أو الدينية؟ كلا على الاطلاق؟ أم أن هذا الرفض سطحي؟ ولكن بالرغم من هذا العنوان الذي يخفي الكثير من المعاني بداخله، إلا أن هذه الرواية تعتمد بشكل خفي على مصادر الإلهام نفسها التي نلاحظها في قصة سيمون فيل وربما فيما يتعلق بلوحات لوسيو فونتانا التي يكثر فيها تناول هذا الشق كموضوع لها. ولقد طُبع كتاب «بانتظار الرب» Waiting for God من تأليف سيمون فيل في فرنسا عام 1947. وهي النسخة الفرنسية من رائعة الأديب الأيرلندي صامويل بيكيت «بانتظار جودو» التي ألفها خلال الفترة من أكتوبر 1948 و29 يناير 1949 وعُرضت بتاريخ 5 يناير 1953 على مسرح بابلون في باريس. وعُرضت النسخة الانجليزية من المسرحية ذاتها بتاريخ 3 أغسطس 1955. وربما كانت مسرحية بانتظار جودو من أشهر ما كُتب عن الانتظار على الاطلاق[13]. وإليكم ما أحاول أن أعنيه بهذه المقدمة. حيث طُرحت رواية بانتظار جودو للنشر بعد ثلاث سنوات ونصف من طرح رواية بانتظار الرب والتي نُشرت بعد وفاة مؤلفتها سيمون فال وأنا شخصيًا لا علم لي: هل نُشرت رواية بانتظار جودو بالرغم من العلم بوجود رواية أخرى تتشابه في عنوانها بانتظار الرب؟. ولقد أقام الكاتب صامويل بيكيت الحاصل على جائزة نوبل في الأدب في باريس خلال الفترة من بداية الثلاثينيات وحتى وفاته عام 1989. ولا يمكن أبدًا تجاهل ذلك التأثير الثقافي عندما تعيش وتقرأ عن

---

(13) يعد كتاب «القلعة» The Castle للمؤلف فرانز كافكا Franz Kafka هو الكتاب الأفضل بين جميع الكتب التي تناولت موضوع الانتظار بالنسبة لعدد ضخم من المتابعين. وتغلب على الرواية صورة القلعة التي يُطرد منها السيد كي (بطل الرواية) ويعد موضوع الواقع المختبئ خلف الواقع الذي نعيش فيه، أو الواقع الماوراني، من أهم الموضوعات التي تناولها الكاتب فرانز كافكا في روايته «القلعة» ومن السهل أن نعرف السبب من الواقع الماوراني الذي رمزنا إليه في هذا الكتاب بالرمز R، هو الحياة الغامضة أو الخفية التي تحدث داخل القلعة. إنه الحقيقة إن أردنا التعبير؛ لأنه الطريقة التي يتحدد من خلالها جميع الجوانب المحيطة بالطرق التي سوف يمضي بها الناس القاطنون حول القلعة حياتهم. وقد حدث ربط متكرر بين القلعة والرب.

عملين يشتركان في هذا النوع من التقارب الوطني والثقافي. وبناءًا على ذلك توجد تلميحات للاجابة عن هذا السؤال عن العلاقة بين الصوفية وأشهر الأعمال الأدبية في القرن العشرين عن الانتظار.

ولكن ما هي قصة الرواية المسرحية بعنوان بانتظار جودو؟ إليكم هذا الملخص عن المسرحية والذي كتبه السيد/ ديبدربه باير Deidre Bair's الكاتب والأديب المتخصص في الكتابة عن السيرة الذاتية لبيكيت والتي جاء فيها[14]:

> إنها قصة عن رجلين فلاديمير واستراجون، اللذان يحاولان تسلية بعضهما البعض من خلال حديث لا ينقطع. حديث يتنقل بين الأمل واليأس بينما ينتظران وصول شخص ما يدعى «جودو» والذي يحفظ دومًا وعوده ويظهر في موعده. وخلال فصلين من المسرحية يقابلان شخص اسمه «بوزّو» وعبده الذي يتبعه دومًا واسمه «لاكي»... وفي كل فصل يأتي صبي صغير يخبرهما بأن جودو لن يأتي اليوم ولكنه سيفي بوعده ويأتي بالتأكيد غدًا. وفي الفصل الثاني تخضر الشجرة العجوز التي صاحبت كلا الرجلين منذ الفصل الأول وبدأت في الاكتساء بأوراق خضراء.

ولكن ما لم يرد ذكره هنا هو كم يمكن لهذه الرواية أن تكون مضحكة وكوميدية بالفعل. لقد ترجم بيكيت بنفسه الرواية إلى اللغة الانجليزية وقدمها بعنوان «كوميديا تراجيدية من فصلين» A Tragicomedy in Two Acts. إن تلك السخرية السوداء لرواية بانتظار جودو ربما هو ما يجعل من تلك الجزئية الضئيلة من التراث المسرحي ممتعة للغاية. ولكن هذا ليس كل شيء، فكما أورد إلينا د/ سوس من قبل «الجميع بالانتظار Everyone is

---

(14) ديدر باير، Samuel Beckett: A Biography، شركة ساميت بوكس للنشر، 1990.

Just Waiting». ربما تجد أنه من الوضاعة أن نقارن بين أحد أهم الأعمال المسرحية لكاتب حاصل على جائزة نوبل في الأدب بعمل شعري معمور لأحد الكتاب المتخصصين في الكتابة للأطفال والذي تفوز كتبه دومًا بلقب الأكثر مبيعًا أكثر من مرة بين أقرانها ولكن يقدم كلا الكاتبين نفس الموضوع بنفس الفكرة وبنقاط متشابهة.

ولو أردنا عملاً أدبيًا يمكنه منافسة د/ سوس فإن مسرحية بيكيت «بانتظار جودو» ستقوم بهذا الدور بلا جدال. ألا يفعل كل صديقين تمامًا ما يفعله فلاديمير واستراجون في رواية بانتظار جودو؟ ألا يتحادلان ويتعاتبان ويتصالحان؟ «استراجو: والآن لنتصالح، فلاديمير: جو جو، استراجون: دي دي، فلاديمير: صافحني يا صديقي، استراجون: صافح يدي، فلاديمير: تعال أضمك إلى صدري يا صاحبي. استراجون: ذراعيك؟، بل إلى صدري قريبًا من قلبي. استراجون: هيا لنفعلها يا صديقي. يتعانقان بحب الصداقة ثم يتباعدان. ثم يخيم الصمت. فلاديمير: يا إلهي، كم يمر الوقت سريعًا عندما نقضيه في فعل شيء ممتع. استراجون: ماذا نفعل الآن في هذا الصمت؟ فلاديمير: بينما ننتظر. فلاديمير: بينما ننتظر. استراجون: نعم بينما ننتظر. فلاديمير: دعنا نؤدي التمارين الخاصة بنا».

أليس فلاديمير واستراجون قريبين الشبه منا؟ وأليس معظم المشاهدين قريبين الشبه من هذا الاستراجون المتشكك دومًا والمتشائم دومًا؟ أم أن هذا الإحساس ينتابني وحدي؟ كما أن هذه المسرحية تتمتع بالكثير من الشعبية بين الشباب والمراهقين ممن يرون أن هذا العالم لا ينفك أن يكون ساحة للانتظار إلى ما لا نهاية بدون أمل. حيث كانت تلك هي الفكرة المستحوذة على تلك الرواية المسرحية (فمثلاً يشير ديدر بير Deidre Bair إلى المعزى من الاسم: لاكي Lucky في رواية بانتظار جوجو فيقول: أعتقد أن

اسم لاكي ومعناه «محظوظ». أن الرجل محظوظ لأنه شخص لا يحمل أي تطلعات نحو المستقبل، وهو خانع وخاضع لإرادة سيده). حيث تقدم الرواية المسرحية بانتظار جودو تجسيدًا لذلك الأمل بعيد المنال والذي لا يبدو لنا ولو بعيدًا في الأفق. وربما هذا هو السبب الذي يجعل هذه الرواية مستساغة على اختلاف الأجيال وإلى الأبد ولكن ما شأنها بالصوفية وبالسيدة/ سيمون فيل؟

وهذه هي الطريقة البسيطة لفهم تكوين رواية بانتظار جودو، وربما يكون هذا ما يساعدنا ببساطة للاجابة على المسألة المتعلقة بالصوفية الدينية. فإن اسم جودو بالرغم من أنه لا يعني شيء بالنسبة لكلمة «الرب» بالفرنسية إلا أنه يشبه كثيرًا منطوق كلمة الرب باللغة الانجليزية[15].

ولو لاحظنا، فإن ذلك الصدى في الأذن والعقل لعنوان رواية سيمون فيل «بانتظار الرب» Waiting for God يصعب إغفاله. إن شخصية جودو في رواية بيكيت لن تأتي أبدًا لزيارة كل من فلاديمير واستراجون، وكلنا يعرف ذلك. وربما يقدم ذلك تلميحًا من بيكيت أن فرصتنا في رؤية الرب أو مجيئه إلينا أو ذهابنا إليه هي أشبه بفرصة فلاديمير واستراجون في زيارة من جودو. أي أن لا طائل من ذلك وهذا هو ما يحاول أن يقوله كذلك السيد/ انجمار بيرجمان بطريقته الحادة في الفيلم «عبر زجاج داكن». ويمكننا أن نبتعد بالموضوع أيضًا عن نقطة الدين والآلهة والأرباب ونجعل الأمر مستساغًا أكثر لو أننا استبدلنا انتظار الرب، أو (جودو)، بانتظار الواقع الماوراني، وهو ذلك الواقع الذي يرمز له بحرف «R» كبير الذي طالما أرق لوسيو فونتانا وجعله يمزق لوحات الكانافا من حوله. ويؤكد لنا بيكيت في روايته المسرحية

(15) الرب بالفرنسية تعني "Dieu" وبالانجليزية تعني "God" لهذا كان منطوق كلمة "جودو" Godot في بيكيت قريبة الشبه من منطوق كلمة الرب بالانجليزية فقط وليس بالفرنسية (المترجم)

المضحكة للغاية أن التواصل مع الواقع الماوراني «R» أو الحياة الآخرة «مثل التواصل مع الأموات وخلافه» هو في الواقع عشم ابليس. ومعظم البشر مثلما أكدت لكم من قبل يعتقدون في وجود الحياة الآخرة بالتوازي مع الحياة الدنيا التي نعيشها الان.

وعلى ذلك يمكننا القول أن فكرة وجود الحياة الأخرى بعد الموت مساوية بعض الشيء لما يسميه البعض العالم السفلي أو الماوراني. وبناءً على ذلك يعتقد بيكيت أن جميع البشر تنتظر جودو ولكن جودو، مهما كان وأيًا كان، لن يأتي أبدًا وربما في هذه الحالة على الجميع أن يعتاد على فكرة الموت. وعلى ذلك يخبرنا بأن هذه الهبات الصفانية الثلاثة التي مرت بها سيمون فيل كانت هراء أو خيال أو أنها ترجع لسبب آخر سوى التواصل مع الرب أو مع الذات العلية أو أيًا كان الأمر. وأيضًا يمكننا أن نقول أن صامويل بيكيت يتفق تمامًا مع ذلك التشخيص الطبي للسيدة الاسبانية المسكينة والذي ينص على أن: تلك الرؤى الصفانية هي لا شيء سوى ضلالات ناتجة عن المرض وأن الرؤى كانت رؤية واقعية أكثر منها ربوبية أو خارقة للطبيعة. كما يلمح بيكيت أن ذلك التشخيص ربما يطبق على الكثير منا. لن يأتي الرب. واحتمال مقابلتنا للرب يساوي احتمال زيارة جودو لصديقيه ديدي وجوجو وأرجوكم، لا يوجد واقع مختفي خلف الواقع الذي نعيشه، وما هي إلا حياتنا التي نعيشها. ومن أجل ذلك فإن استجابة بيكيت لسيمون فيل يسهل أن نستشفها لو أمكننا أن نفترض تلك الاستجابة وأن نخمنها. ولقد أدرك أن الصلة الصوفية مع الرب التي كانت تنتظرها والتي كانت على يقين أنها سوف تحدث سوف تنتهي إلى لا شيء. فجودو لن يأتي أبدًا، ولهذا يستحسن أن تعتادين صحبة فلاديمير.

بالطبع تحمل الرواية المسرحية «بانتظار جودو» ما هو أكثر من مجرد التعليق على الهبات الصفانية للواقع الذي نعيشه. فقد ظهرت مسرحية

بانتظار جودو في فترة كان البشر فيها منتظرين بلا أمل. حيث كان الناس يعانون الإحساس بالغربة والانتظار السرمدي existential waiting[16] ومن أمثلة ذلك تلك الرواية المسرحية الضخمة للكاتب المسرحي Eugene O'Neil يوجين أونيل بعنوان «ها قد أتى رجل الثلج» The Iceman Cometh. وهي ضخمة لأنها رواية مسرحية طويلة قد يستمر عرضها مدة أربع ساعات وهي عند انتظار شخص آخر ولكن اسمه هذه المرة وهو هيكي Hickey (مهما اختلفت أسمائهم فجميعهم يرمزون للحقيقة الماورائية) ونُشرت هذه المسرحية عام 1946.بالاضافة إلى الرواية المسرحية الأخرى عند الانتظار بعنوان «الرجل المتأرجح» The Dangling Man للكاتب المسرحي سول بيلو Saul Bellow وهي عن شاب عاطل اسمه جوزيف ينتظر قبوله في الخدمة العسكرية إبان الحرب العالمية الثانية. ويعود تاريخ نشر هذه الرواية إلى عام 1947 أي قبل سبعة أعوام من بداية عرض مسرحية بيكيت. وكذلك تلك القطعة الفنية الرائعة للكاتب مالكولم لوري Malcolm Lowry عن إدمان الكحوليات التي تجسد توقعًا لا طائل منه للموت والبعث.

وهي الرواية بعنوان «تحت البركان» Under the Volcano التي تتناول موضوع التعود على الموت وفكرة البعث كما صدر في العام نفسه رواية ألبرت كامو Albert Camus بعنوان «الطاعون» The Plague عن مواطني إحدى المدن المصابة بوباء الطاعون وانتظارهم للمصل أو الموت – وكان اسم هذه المدينة (مدينة أوران) – وربما كان هذا العام هو العام الذي ازدهر فيه الحديث عن الانتظار بلا أمل. وكان ذلك واضحًا في مذكرات أن فرانك The Diary of Ann Frank. وكان عام 1947 هو العام الرهيب الذي تنبأ فيه عدد من علماء الذرة بالساعة التي سوف تفنى فيها البشرية

(16) معنى سرمدي الدائم أو الأبدي. ومعناه في الفلسفة مالا نهاية أي ما ليس له أول ولا آخر (المترجم)

ونصبوا لذلك ما يُعرف الآن بساعة الفناء Doomsday Clock كعداد زمني للساعة التي سوف يتسبب فيها الإنسان في دمار الأرض. وكانت هذه الساعة استجابة من العلماء المتخصصين في مجال الدرة للتطور الدي واكب هذه الفترة في أساليب وإنتاج الأسلحة النووية في العالم. وحاولوا تحسيد أقرب وقت يتوقع أن تأتي فيه النهاية للعالم كما نعرفه. ويزعم البعض إلى أن هذه الساعة تستند إلى حسابات دقيقة تتعلق بتدرج الضعف الذي يمر به الكوكب نتيجة التعرض للسلوك الإنساني المدمر المتمثل في تطوير الأسلحة النووية والتغيرات المناخية والأساليب التكنولوجية الأخرى الصارة في العلوم الحياتية. وكانت تلك بداية الحرب الباردة، وكان ما يسمى الإبادة النووية للكوكب بالكامل أقرب مما كان يظن الكثيرون. لم يقتصر الأمر على الدمار النووي العالمي فحسب، بل كان الإحفاق الاقتصادي العظيم في الثلاثينيات ملهمًا لظهور رواية الرجل المتأرجح Dangling Man ورواية يوجين أونيل بعنوان «قدوم رجل الثلج» The Iceman Cometh حيث ينتظر عدد من المدمنين على الشراب قدوم مخلصهم «هيكي» إلى أحد بارات مدينة باوري.

ويبدو أن حدة الانجذاب إلى مشاعر اليأس قد خفتت قليلاً بالرغم من استمرار ساعة يوم الفناء في عملها المعتاد. من ذا الذي يمكن أن يقول أن الحياة بلا تطلعات أمر سعيد الحظ؟ ومن قد يجد العزاء عند جون كيدج؟ حيث يبدو أن الانتظار كنشاط ذو غاية ومبرر هذه الأيام يتعلق بالسمات الشخصية أكثر من تعلقه بالحالة الإنسانية وحالة البشر عمومًا. واليوم أضحى بيكيت مصدرًا كبيرًا للإحباط. والعمل الأدبي «بانتظار جودو» عملاً في منتهى الإحباط. ألم يكن بيجي جاجينهايم Peggy Guggenhaim هو من أطلق على بيكيت اسم «أوبلوموف» نسبة إلى شخصية أوبلوموف في رواية

إيفان جونشاروف التي تحمل نفس الاسم[17]؟ أو أن هذا الأمر جاء بعد بروز اسم ادوارد ماتيه.

وربما يكون السيد/ مارتين هايديجر (1889-1976). ذلك الفيلسوف الألماني سيء السمعة، هو الأقوى أثرًا بعد سيمون فيل وصامويل بيكيت من حيث الفكر. وبينما تردد فيل صدى أفكار هايديجر فإن أفكار بيكيت تتنافر معها. ولهذا الفيلسوف الألماني نظرة شديدة التأثير عن الانتظار (والتي يفضل أن يراها عبر عدسة الملل والسأم)[18]. وتستند أفكاره عن الانتظار على فهمه الفلسفي لفكرة الوقت أو الزمن. وقد انشغل هيديجر طوال حياته بالإجابة على سؤال واحد، «ما هو الوجود Being؟» ويُرمز له بالرمز حرف «B» كبير، وفي الغالب يُقصد به نفس المعنى الذي أوردته سلفًا عن الواقع الخفي ورمزنا له بالرمز «R» كبير. وقد جاءت أكبر مساهمة اهتم بها الفيلسوف عن «معضلة الوجود» Being Problem في العام 1927 وذلك من خلال كتابة الأكبر أثرًا بعنوان «الوجود والزمن» Being and Time. ولقد كان لهذه الدراسة أثرًا في طريقة فهم كل من الانتظار والزمن والملل على وجه الخصوص[19]. وهي الدافع خلف أفكار ليس فقط سيمون فيل

(17) ديدر باير Deidre Bair صامويل بيكيت وعن موضوع اولوموف يمكنك مراجعة كتابي «Boredom: A Lively History».

(18) ويناقش لارس سفيندسن موضوع علاقة هايدجر بالملل في كتابه «*A Philosophy of Boredom*»، شركة رياكشن للنشر (ما زال افضل الكتب التي تناولت موضوع الملل) ولقد اعتمد في هذه النقطة على كتابات لارس سفيندسن

(19) إن الفهم الذي يقدمه هايدجر للعلاقة بين الانتظار والوقت يضاهي تلك الطريقة التي تناول بها الفيلسوف الفرنسي هنري بيرجسون (1859 1941) الموضوع نفسه و فضل طريقة للتعرف على رؤيته هو من خلال كتابه الزمن والإرادة الحرة موضوع مكتوب عن المعلومات الحاضرة والوعي (صادر عام 1889، وصادر بالإنجليزية عام 1910) ولمناقشة أكثر حداثة لكتابات بيرجسون عن الزمن والانتظار يمكن مراجعة كتب من تأليف هارولد شفايزر بعنوان «عن الانتظار»، شركة روتليدج، 2008 لقد تغير المفهوم لعلمي للزمن تمامًا عندما تناوله بيرجسون وهيدجر في كتاباتهما لقد رأيت مقالة حديثة جيدة في مجلة نيوسايينتست بتاريخ 27 ابريل، 2018، حيث يمكننا أن نلاحظ من خلال العنوان وحده ما يلي «What Is Time: You're Living a Moment —

وصامويل بيكيت بل أيضًا الفنان التشكيلي المتخصص في الشقوق لوسيو فونتانا. وكما يمكننا أن نتوقع من ذلك الفيلسوف الألماني الحاد فقد قتل موضوع «معضلة الوجود» بحثًا وهي فكرة كان لها أثر كبير على السياسيين من اليسار الليبرالي وحتى السياسيين الاشتراكيين. ولست متأكدًا من أين أتى ذلك التأثير على المعسكر اليساري. كان هايديجر حتى عام 1915 ممكرًا كاثوليكيًا متشددًا ولولا حالته الصحية لربما انضم إلى خدمة الجيزويت المسيحية. ويقال أنه كان مصابًا بمرض سيكوسوماتي في القلب وقد حظي هايديجر بحياة عملية ممتازة في الجامعة كأحد أعضاء هيئة التدريس وقد اختير عام 1933 عميدًا لجامعة فرايبورج.

وقد أدى حماس هذا الفيلسوف للقائد الألماني في أدولف هتلر إلى انضمامه في نفس العام لحزب العمال الاشتراكي الألماني (فيما كان يُعرف فيما بعد بالحزب النازي). وقد عبر عن اهتمامه بجميع مبادئ حزب العمال الوطني الألماني في خطابه الذي ألقاه عند اختياره عميدًا للجامعة عام 1933 وقد استمر هايديجر في منصبه لمدة عام واحد فقط بالرغم من بقائه عضوًا بالحزب النازي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945 والتي انتهت بهزيمة النازية. أما فترة ما بعد الحرب فقد حُرم هذا الفيلسوف من التدريس في الجامعة بسبب تورطه في نشاطات واعتناقه أفكار الحزب النازي ويُقال إن في عام 1952 دفع مارتن هايديجر تعويضًا ماليًا ومن ثم سُمح له بالاستمرار في التدريس في الجامعة. ثم توفي في عام 1967 وأجرى له المعزيين ما يشبه الجنازة الكاثوليكية. ولكن يبدو أن شهرة الفيلسوف هايديجر مستمدة من الفيلسوف والكاتب الفرنسي جون بول سارتر Jean-Paul Sartre حيث يبدو أن الكاتب الفرنسي الشيوعي جون بول سارتر كان

= «That Science Says Does Not Exist».

أحد الأوائل بين الكثيرمن المفكرين الفرنسيين اليساريين الذين تأثروا بأفكار هايديجر كما تلعب المفكرة الأمريكية من أصل ألماني حانا أردنت Hannah Ardent دورًا هنا. حيث كان لها أشد الأثر في تبني أفكار الفيلسوف الألماني هايديجر بالإضافة إلى سارتر والمفكرين اليساريين والميالين لليسارية. (وكانت أردنت معجبة بالسيدة/ سيمون فيل والفيلسوف الألماني هايديجر)[20] وكان ذلك هو تأثير هايديجر الذي لا يمكن إنكاره بين المعارضين قبل المؤيدين لأفكاره.

مرة أخرى يساعدنا طابور الانتظار عند محل بيع الأسماك في كنت، ولكن هذه المرة يساعدنا في فهم مارتن هايدجر بشكل أفضل قليلاً. وأنا أقصد أن أقول قليلاً لأن أفكار هايديجر من الصعوبة بحيث يصعب فهمها. وهذا أمر مشهور في أفكار هذا الفيلسوف الألماني. تخيل لو أنك تقف في طابور عند محل بيع الأسماك هذا وحيدًا الوقت يمر. ويبدو أنه يمر ببطء أكبر. فكلما طالت مدة الانتظار في هذا الطابور سوف ينمو لديك الشعور بالملل، ولكن دعنا نتخيل هذه التجربة فحسب. ربما يطيل مدة الانتظار بشكل يجعلك تظن أن الانتظار لا طائل منه. فتبحث عن أي شيء تقتل به الوقت وتتغلب على هذا الإحساس بالملل – ربما عن طريق هاتفك ولكن قد يطول بك الوقت في هذا الطقس البارد لدرجة أنك لن تستطيع أن تتوقف منتظرًا طوال هذه المدة تعبث بهاتفك بأطراف أصابعك – أعلم أن الهواتف المحمولة لم تكن قد اختُرعت بعد عام 1944، ولكن لعلك

(20) ويوضح روبرت زريتسكي Robert Zaretsky في مقال في مجلة تايمز (الملحق الأدبي) أنه بعد خمسة وسبعين عامًا على وفاتها، يؤكد عدد متنامٍ من الكتاب والمفكرين، بدءًا من هانا أريندت، وإيريس موردوك، إلى ألبرت كامو، وأمارتيا سين، أن فكر فيل ملهم لهم. بل أكثر تعقيدًا وإرباكًا من ذلك، حيث يعتبرها عدد كبير من القراء أشبه بملاك، بل ذهب تي إس إليوت إلى القول إنك إذا قرأت كتابات فيل فسوف تتعرف على شخصية امرأة تمتاز بالعبقرية، وربما عبقريتها تضاهي عبقرية الأنبياء والرسل

فهمت قصدي الآن. يظن هايديجر أن هذا النوع من الانتظار والملل الذي قد يخلفه ذلك سيساعد في فهم أنفسنا على حقيقتها. كيف ذلك؟ ففي حالة حرماننا من أي وسائل إلهاء «الهواتف التي لن نتمكن من استخدامها بسبب البرد القارص»، وعدم وجود صديق نتحدث معه فأنت إما تنتظر وحيدًا أو تنتظر في صف لا تعرف فيه أحدًا. ففي هذه الحالة نشعر بالقلق نتيجة تجربة إبطاء الزمن لعجلة دورانه ومواجهته لنا بكل ثقله وقوته. في هذه الحالة يقول هايديجر أننا نواجه الزمن الخام raw time نتيجة التعرض للانتظار والملل. ويقول لارس سفينسون Lars Svendson أن في هذه الحالة فإن النفس تصبح في مواجهة عارية مع ذاتها وهي لحظة تحررية للنفس «Liberation». أو كما يقول هايديجر «لحظة تبصرية»

ويضيف سفينسون أن «هذا الموقف من الانتظار عند محل بيع الأسماك وما يتبعه من انتظار وإحساس بالملل يكشف النقاب عن بعض الأشياء ويجعلها تبدو فارغة ومؤقتة ومتغيرة باستمرار». وما يبقى بعد كشف النقاب عن الأشياء التافهة المحيطة بنا هو الوجود الخام بدون رتوش» nothing less than being.[21] لقد عدنا إلى الواقع ذو حرف «R» كبيرة ولم يشر أبدًا هايديجر أبدًا إلى هذا الواقع بأنه الرب، ولكن يسهل ملاحظة التشابه حيث يمكنني أن أجزم بأن سيمون وهايدجر ربما ليحاولوا المقارنة. ويؤكد الناقد الأمريكي البريطاني جورج ستاينر George Steiner أن استبدال كلمة الوجود «sein» لدى هايديجر بكلمة الرب «God» من سيمون فيل يبدو معقولاً إلى حد بعيد[22]

(21) ويوضح سفيندسن أنه بعد دراسة فلسفة هايدجر عدة سنوات، توصلت إلى النتيجة: أن مسألة الوجود لا تعد مسألة أصيلة

(22) كما يفعل جورج ستاينر في كتابه «*Martin Heidegger*»، جامعة شيكاغو للنشر، 1987 (1978)

ربما كان الفضل يرجع إلى رؤية هايديجر عن الوجود، التي تتمحور حول مفهوم الانتظار والملل، في السماح له في التصالح مع فكرة الموت بشكل ينطوي على الرضا وربما كان ذلك الحال نفسه بالنسبة للفيلسوف الفرنسي الشهير جون بول سارتر (1905-1980)[23]. حيث درس سارتر في ألمانيا قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية ويبدو أنه تواصل مع أعمال هايديجر خلال هذه الفترة وكذلك أثناء الفترة التي قضاها كأسير حرب ألماني من 1940-1941. وقد كانت فكرة الوجود أو الواقع Reality في الغالب هي المؤثرة في معظم النصوص الفلسفية التي قدمها سارتر ومن أشهرها نص فلسفي بعنوان «الوجود والعدم» Being & Nothingness (1943) حيث يؤكد سارتر مثلما زعم هايديجر من قبل، أن في سياق حياتنا اليومية يوجد نقاب من الأشياء التافهة veil of triviality يمنعنا من رؤية طبيعة وجودنا في حد ذاته. وخلال تلك الأوقات كل ما نفعله هو تقمص بعض الأدوار تمامًا كما يتقمص الممثل شخصية ما ويمثلها على المسرح وبناءً عليه فإن الوعي بقيمة الذات يمكن أن يتحقق من خلال الانتظار والملل، تقريبًا كما أقر هايديجر من قبل. كما أضاف أنه توجد فجوة بين ما يمكن أن ينتجه التعرف على الذات من خلال الانتظار والملل وما نخسره. عندما نكتفي فقط بالقيام بأدوارنا ويمكن أن نجد هذا النوع من تقدير الذات مؤلم أو مقزز حسب ما يؤكده سارتر. كما جسد جون بول سارتر فكرته عن فهم الوقت والانتظار والملل في روايته «الغثيان» Nausea ولا يعتبر سارتر أن التوقف

(23) في عام 1950، نشر كتاب للمؤلف إميل كيوران بعنوان «*A Short History of Decay*»، شركة أركيد للنشر، 2012، وهو أول كتاب يصدر لسيد كيوران باللغة الفرنسية، وهو يتكون من مجموعة من الموضوعات القصيرة التي تتناول الطبيعة الدنسة للحياة الحديثة، أو على الأقل الحياة في منتصف القرن العشرين. إن الانتظار يتوسط اهتماماته في هذا الكتاب. ماذا ننتظر؟ والإجابة موجودة في الفقرة الأخيرة من كتابه بعنوان: «كم من الوقت يتوقع أن تبقى الأمور على حالها؟» إلى الأبد، حسب توقعات كيوران؛ ولهذا ينبغي لك الإقلاع عن الانتظار.

عن الوجود يمكن أن يوفر العزاء عند مواجهة الحقيقة الخفية Reality. بل إن إدراك قيمة الذات هو العزاء الحقيقي، وذلك يوضح أن الموت ما زال يشكل معضلة حقيقية.

وفي نفس العام الذي ظهر فيه هذا العنكبوت المقدس للسيدة كارين على جزيرة فورو وقبل عامين من منح جون بول سارتر جائزة نوبل، ظهرت رواية جديدة قصيرة بعنوان «بانتظار النسيان» Awaiting Oblivion للكاتب المثير للاعجاب موريس بلانشو Maurice Blanchot.[24] وهذا ما كتبه كيركس Kirkus عن هذه الرواية الممتازة:

> نجد رجل وامرأة معًا في نفس الغرفة في أحد الفنادق والمبعثرة محتوياتها ولكنهما تائهان ويحاولان تذكر الأحداث التي أدت إلى وجودهما معًا في هذا المكان بينما ينتظران بقلق بالغ لما سوف يحدث فيما بعد. ثم يطبق عليهما ذلك الصمت ويحيق بهما التوتر (وبنا كذلك). إدراك أن الخيال (أو كما نشاء أن نسميه الكتابة الأدبية) يمكن أن يقدم العزاء عن التناقض الذي يظهر في كتابات بلانشو Blanchot وأن الخيال قد يصنع الواقع، والاحساس بأن اللغة حتى التي تمثل إنعدام المعنى لا يمكنها أن تفعل أي شيء سوى أن تورد معنى.

وحتى بعد استعراض هذا الملخص الصغير يجب أن يصبح واضحًا لنا الآن أنه مهما اعتقدنا أن الرواية القصيرة بعنوان «بانتظار النسيان» هي عمل خيالي، فهي تستخدم الانتظار كاستراتيجية، بالضبط كما يفعل باقي الكتاب

(24) مقاربة بكتاب من تأليف إيمانويل ليفناس بعنوان *«Totality and Infinity: An Essay on Exteriority»*، شركة سبرينجر للنشر، 1991. ان كتابات ليفناس عن الانتظار هي انتظار لاستيعاب اختلاف «otherness» الآخرين عن أنفسنا، وهي نوع من أنواع التجلي الأخلاقي البسيط إن هذا الانتظار سوف يستتبعه أمر، وإن هذا الأمر يشجع على السلوك الأخلاقي

الآخرين في هذا الفصل والاستراتيجية التي استخدمها الكاتب مصممة لتخبرنا بأمر ما عن الفجوة بين اللغة وما تعنيه بالضبط والكآبة التي يمكن أن تتسبب فيها تلك الفجوة. (فكر في أبسط شيء ممكن في الطريقة التي يمكن من خلالها تطويع اللغة في السياسة أو حتى في العلاقات الإنسانية) لا أعتقد شخصيًا أن لدى بلانشو أي مصلحة خاصة فيما يتعلق بالانتظار كخبرة. حيث تنتظر الشخصيات من روايته القصيرة تلك (الرجل والمرأة) إلى أن يظهر لهما «المعنى»، ولكن هذا المعنى لا يأتي فعلاً على الاطلاق، بالرغم من أنهما يدركان أخيرًا أن حتى الهمهمة تحمل معنى من شيء معين. وقد ذكرت بلانشو هنا لأنه يبدو أن ما سوف نصطدم به هنا هو الفكرة التي تطرح نفسها كل مرة عن وجود حقيقة «R» كبرى وراء الحقيقة «r» الظاهرية. إن هذا الانعدام لأي معنى للغة والذي يساهم في التشويش على بطلي الرواية (الرجل والمرأة) هو الواقع الظاهري «r» وخلف كل هذا التشويش يوجد شيء ما من النظام، بعض المعنى حسبما يدعي بلانشو. وكما اقترحت من قبل فمع هذا الواقع الخفي نصبح في معية الرب – أو نوع ما من أنواع الالوهية – الحياة الأخرى أو الحياة الماورائية أو السفلية المختفية خلف لوحة فونتانا وتظهر لنا عبر هذا الشق.

إن من أقرب الأشياء التي تجمع كل الشخصيات المذكورة في هذا الفصل هو فكرة السفلية والاهتمام الزائد بها، والخوف من الموت هو نقص اهتمامهم بالأشخاص الآخرين. والأمر على هذه الحال مثير للتساؤلات في حالة سارتر. فمن أحد نقاط الضعف في روايته المسرحية واسعة الانتشار (حيث كان كاتبًا دراميًا إلى جانب كونه فيلسوفًا) هو أن شخصياته لا تأتي من الحياة أي أنه يصعب تخيل شخصياته في الواقع. ويتناول أحد أفضل أعماله الأدبية غير الفلسفية موضوعًا عن نفسه وهو الرواية المسرحية بعنوان «الغثيان» The Nausea. وينحصر موضوع هذه الرواية حول الفترة

التي قضاها سارتر في عمله كمدير مدرسة في مدينة لاهافر Lahavre علاوة على عمله الذي يتناول سيرته الذاتية بعنوان «كلمات وأشياء» words & things. كما أعتقد أنه يمكنك أن تتغاضى عن هذا العيب لو قارنته بشخصيات رواية موريس بلانشو بعنوان «بانتظار النسيان» حيث قد تبدو لك الشخصيات ضئيلة وضحلة. إن أفكار بلانشو مثيرة أكثر للاهتمام، ولكن تنظيمها في أحداث درامية لا يرق لنفس المستوى وأفترض أنه لو أن هذا هو المستوى الذي يعجبك من الكتب فلا بأس، ولكن يرتبط معظمنا بتفصيلات الحياة البشرية لجميع البشر. وتعتبر الحقيقة الخفية هي التصور الديني الذي يحرك كل من لوسيو فونتانا وهايديجر وفيل وسارتر وبلانشو وإذا كنت لا تؤمن بهذا النوع من الواقع، ولا ترى إثبات ظاهري واحد عليه، ولو كنت، مثلي، قد سئمت من هذا العالم السفلي، فربما هذه المادة ليست مصنوعة لمن هم على شاكلتك[25]. توجد أساليب أخرى للتعامل مع موضوع الخوف من الموت بطرق أخرى تختلف عن طريقة صناعة الموت الماوراني «R»: قالت لي بازا سيمكنز Bazza Simpkins ما علاقة كل هذه الافتراضات بالعظات المنسوبة للسيد المسيح بعنوان «العظات على الجبل» Sermon on the Mount.[26]

(25) باستثناء وحيد هو قصة إيزاك دينسين Isak Dinesen عام 1958 بعنوان «وليمة بابات» Babette's Feast (ويمكنك أيضًا أن تطلق عليها اسم «انتظار الرب في جوتلاند») وقد أتت هذه الرواية بعد فيل بثماني سنوات، وبعد جودو بخمس سنوات. وفي هذه القصة (التي تحولت إلى فيلم سينمائي، أنتج عام 1987) ترمز قصة وليمة بابات إلى المسيحية، ومن خلال قبول تلك الوليمة (فإن ذلك يعد قبولًا لهبة غير مستحقة، وهو أمر غير مستحب لأتباع الكنيسة اللوثرية، وهي جماعة دينية صغيرة في جوتلاند) لقد تحولت بابات إلى رمز أشبه بالمسيح عيسى؛ وذلك بسبب تضحيتها بنفسها من أجل هذه الجماعة الدينية الصغيرة (وذلك من خلال إنفاق جميع ما لديها من أموال على تلك الجماعة الدينية)

(26) ويمكننا أن نقول إن «في انتظار هاري» وليس «في انتظار جودو» كانت جزءًا من دراما عرقية تمثل جزءًا من طقوس بعض السكان الأصليين في أستراليا (متاح عبر منصة الفيديو يوتيوب مع التعليق عليها في ويكيبيديا)، مما يوضح جانبًا آخر من الربط بين الانتظار والدين، وهي سرد لقصة حياة فرانك جورمانديا، المسؤول عن الطقوس الجنائزية النهائية لأخيه المتوفى منذ 6 سنوات —

وأثناء ثمانينيات القرن الماضي ولمدة بسيطة كان هذا الإعلان عن السجائر موجود على لوحات الإعلانات في كل مكان في المملكة المتحدة. وكانت هذه الصورة واسعة الانتشار لدرجة أنها كانت موضوع ساخر مطروح للنقاش في رواية ديفيد لودج David Lodge الشهيرة بعنوان «عمل رائع» Nice Work ونُشرت عام 1989. وتناولت هذه الرواية حياة السيدة/ روبن بينروز Robyn Penrose وهي محاضرة مؤقتة تعمل في جامعة راميدج في إنجلترا (متخصصة في النسوية والروايات التي تتناول الثورات والحركة الصناعية الحديثة). حيث ظن أن إعلان ذلك القماش الحريري المشقوق إعلانًا ماجنًا فاسقًا. وفيما يلي نجدها تناقش فيك ويلكوكس Vic Wilcox مدير شركة جاي برينجل آند سانس Pringle and Sons J للهندسة العامة والتي طُلب منها أن تعلق على أعماله كجزء من أحد الأنشطة المنزلية في الجامعة. وفيما يلي جزءًا مما كانت تتناقش فيه السيدة/ روبن مع السيد/ فيك:

> كل بضعة أميال وجدت أنهم قد علقوا هذا الإعلان الضخم على جانبي الطريق. (اعلان يتناول قطعة حريرية مشروطة من القماش القاني اللون كما في الشكل 7-3) وفيها قطعة ممددة من القماش القاني وكأنه شق قُطع بآلة حادة لم تكن الصورة مصحوبة بأي كلمات فيما عدا تحذير حكومي من مخاطر التدخين ... ويبدو بوضوح أن هذا القماش المخملي يمثل جسد المرأة وهذا الشق في وسطه وهذا اللون الفاتح في الخلفية كلها رمز للعضو التناسلي الأنثوي.

— ولكن تم تعليق الطقوس، لأن السيد هاري ديما، وهو أقرب الناس إلى المتوفى من حيث قرابة الدم والمسؤول عن الجنازة، قد تعطل بسبب متابعته لإحدى المشكلات المصابة في لندن، المتورط فيها ابنه



الشكل (7-3) إعلان عن السجائر من نوع سيلك كات الشهيرة في المملكة المتحدة Silk Cut – المملكة المتحدة – أرشيف الإعلانات

الصورة مكتوب أسفلها «التدخين ضار للجنين والمرأة الحامل – تحذير من رئيس الأطقم الطبية – ملجم قطران + 0.5 ملجم نيكوتين»

لا ألوم السيدة/ روبن على تسبب هذه اللوحة في إصابتها بالغضب والغيظ. فالصورة واضحة أمامنا. وهذا الأمر لا يمكن الاستفادة منه في أي نوع من أنواع الدعاية لأي سبب. ولكن الأمر أكبر من مجرد انتشار محتوى إباحي. حيث تحمل هذه الصورة من الحرير المشقوق تاريخ أعمق من ذلك. حتى لو نظرت إليها بعين الاستياء، ويحق لك هذا، فإنك لن تستطيع أن ترى كيف تطور الأمر منذ مفهوم لوسيو فونتانا المكاني عن الانتظار منذ عام 1960. بينما ترجع لوحة إعلان التدخين هذه إلى سنة 1983، أي بعد 23 سنة فقط من تقديم لوسيو فونتانا عدد لا حصر له من اللوحات المعادة عن ذلك الشق. حيث أصر فونتانا على تقديم هذا الشق مئات المرات في لوحاته وجميعها تقريبًا متطابقة. وهذه النسخة من الشق تتسبب في الاحمرار

خجلاً بسبب مغزاها ولونها الأحمر القاني. هل كانت الوكالة الاعلانية التي استخدمت هذا الشق على علم بلوحات فونتانا المتعددة. هل سبق لأي من أفراد طاقم العمل في تلك الوكالة الاعلانية أن رأى لوحات فونتانا عن الانتظار؟ لقد اشترى معرض تيت لوحة فونتانا Tate Gallery عام 1964 وهي ما تزال هناك حتى اليوم. ولكن كما أسلفنا لقد صنع فونتانا نسخًا كثيرة طبق الأصل من هذه اللوحة المعروفة[27]. لقد كررها مرات عديدة، وبعدة ألوان وبأدوات وأساليب مختلفة. وغالبًا بلوحات تتضمن عددًا متنوع من الشقوق. وهذا الحماس الذي يحمله فونتانا لهذا الشق يذكرنا بالسيد/ بافيل والاندر Polvel Wallander الذي رسم نفس اللوحة للمنظر الطبيعي نفسه بنفس درجة النجاح تقريبًا عدة مرات

وقد بيعت جميع لوحات والاندر أيضًا وهذا دليل على أن مستوى جودة جميع لوحاته كان متقاربًا بالرغم من أن المنظر واحد. وكان السيد/ بافيل الأب الروحي لفكرة المسلسل التليفزيوني المبني على كتاب «المحقق كيرت والاندر» Detective Kurt Wallander وهي شخصية من تقديم هينتج هانكيل Henning Hankell. ويبدو أن لوحات لوسيو فونتانا عن الانتظار قد باعت بشكل ممتاز خلال الستينات. ويبدو أنها قد أدرت الكثير من المال لدرجة أن السيد/ انريكو كاستيلاني Enrico Castellani صديق فونتانا قد استغل الأمر واندفع نحو انتاج المزيد من هذه اللوحات عن الانتظار[28]. حيث كانت لديه أفكار متطابقة مع أفكار ذلك الرجل الأرجنتيني من أصل إيطالي

(27) عرض فرانك دنمي، المستشار المالي السابق للمبدع الفنان الواسع الشهرة داميان هورست، بعض أهم أعمال لوسيو فونتانا، مثل «الانتظار» (1961) بمبلغ تقريبي من 000 600 إلى 000 800 جنيه إسترليني في مزاد في ساداي عام 2018. وكانت اللوحة لأعلى بين الاعمال المعروضة في المزاد– هنري نيوسوروف– أخبار الفن، عام 2018

(28) إنني أفكر في لوحة السيد إنريكو كاستيلاني بعنوان «Superficie nera» عام 1961. التي يمكنك أن تجد صورتها بسهولة عبر الإنترنت

لوسيو فونتانا. وقد أطلق كاستيلاني على اللوحات التي أنتجها عن لوحات فونتانا اسم «مجموعة لوحات لا حراك فيها» zeromovement painting. فباعت وتبيع بشكل جيد حتى اليوم. يبدو أن تمثيل فكرة الانتظار من خلال الأعضاء التناسلية الأنثوية يدر الكثير من المال.

ولا عجب أن مؤسسة ساتشي ساتشي Satch Satchi، المؤسسة التسويقية المسئولة عن الحملة الدعائية التي استخدمت صورة الحرير ذو الشق، كانت حريصة على استخدام تلك الصورة في حملتها الإعلانية[29]. وربما كان هذا هو السبب في نجاح تلك الحملة الإعلانية. فلقد استمر هذا الملصق للوحة ذات قطعة الحرير المشقوق باقية لمدة على هذا الملصق في كل مكان وبالفعل تراجع الكثير من الناس عن التدخين في الأيام التي لم يتوصل العلم بعد لدليل على تسبب التدخين في الإصابة بأمراض سرطانية. ربما هذه الأيام لن تتمكن أي شركة من الهرب من المساءلة إذا استخدمت صورة لقطعة مشقوقة من القماش في الحملات الإعلانية. لقد كانت روبن على حق بالرغم من عدم معرفتها بقصة لوسيو فونتانا واتريكو كاستيلاني. ودعونا الآن نعود إلى الجدال الذي دار بين روبن وفيك. حيث شرحت روبن ما تقصده بهذا الشكل:

> روبن: عندما نتحدث عن ذلك الملصق الذي يحتوي على قطعة مخملية ناعمة من القماش فإن ذلك استعارة للجسد الأنثوي: أما ذلك الشق الطولي في القماش فهو العضو التناسلي الأنثوي.
> فيك: (يحفل قائلاً) إلى ماذا ترمين بهذا القول؟
> روبن: نعم جميع الثقوب والشقوق والشروخ هي استعارة للعضو

(29) هل كان القماش الممزق جزءا من العصر الذهبي لدعاية للسجائر، أو كما يقترح بيتر يورك في مقاله بعنوان: «The Final Cut»، رجل الدولة الحديث، 3 مارس، 2003؟

التناسلي الأنثوي.

فيك: برهني على كلامك هذا.

روبن لقد أثبت فرويد وجهة نظري عند تقديم تحليلاته النفسية الناجحة للأحلام ولكن إعلان السجائر الأمريكية من نوع مارلوبورو مثلاً لا يستخدم هذه الاستعارات. وربما هذا هو السبب في حبك لتدخين سجائر مارلبورو تحديدًا.

لقد كان استخدام روبن لتحليلات فرويد في غير محله. ولكن أعتقد أن كلامها صحيح بخصوص الشقوق والشروخ. ولو كان الأمر كذلك ربما صح كلامها على لوحات فونتانا كذلك. ولكن أين يضعنا هذا؟ وكيف حالنا الآن؟ أعتقد أننا أمام حملة إعلانية تستخدم المحتوى الإباحي في الترويج لمنتجات تجارية.

ولكن يوجد المزيد لدينا لنتحدث عنه. لقد ناقشنا في هذا الفصل مسألة الواقع الماوراني (R) أو العالم السفلي أو الحياة الأخرى بعد الموت أو حتى فكرة الرب وعلاقتها بالواقع الذي نعيشه. ويلجأ الكثيرون للانتظار كطريقة للتواصل مع الواقع. وكما أورد فيلهيلم ساسنال من قبل، هذا هو التقليد الذي ينتمي له المفهوم المكاني للسيد/ فونتانا وهذا أيضًا هو التقليد الذي ينتمي له ذلك الإعلان الذي يتضمن قطعة مشقوقة من القماش. كيف انتهى الأمر إلى هذا الشكل؟ هل هو أمر متأصل في الانتظار على أساس ديني؟ أمر مستهلك وفارغ ومخلوق فقط ليقتل أي قيمة للعلم والعمل؟ أم أنه مجرد حادث طرأ في تاريخ هذا العالم؟ لماذا إذن تُسفَّه فكرة العالم الماورائي؟ ولماذا يُستبعد وجود واقع يمكن الوصول إليه عن طريق الانتظار؟ إجابة هذا السؤال من وجهة نظري، التي ربما تعرفونها الآن، هي أنه لا يوجد أي صلة بين العالمين، ولم يتمكن أي شيء أو أي شخص من إيجاد صلة أو جسر بين الواقعين أو بيننا وبين العالم السفلي أو بيننا وبين

الرب[30]. الانتظار حسب ما أورده المفكرون في هذا الفصل يتجاوز كونه مجرد موقف Situation، أو فكرة سهلة أو عملية مثالية أو رمزية. فالرمزية يمكن أن يكونها أي شخص بأي شكل. ويمكن أن تقودنا الرموز للتفكير في الإباحية أو الحياة الأخرى. وبينما نفكر معًا في جميع هذه الأمور أتفق معكم أنني قد نسيت التحدث عن الكرسي الشاغر في هذا الفصل

---

(30) ماريا هورسباخ، الانتظار: كمرشاط قوة الكمرة، هاربلدن، 2011. وهو كتاب يعرض بديلًا مدهلًا للمعتقدات.

8

غرفة الانتظار

هل يمكنك أن تحقق أكبر استفادة ممكنة من الترقب والانتظار حتى تأتي ساعة الموت؟

«أكره ذلك الأمر عندما يرسلونك إلى ما يسمى «غرفة الانتظار» The Waiting Room، فهي مصممة لغرض واحد، هو «الانتظار». وفي غرفة الانتظار لا سبيل لأن تفعل أي شيء سوى الانتظار. ووظيفتها أنها غرفة تنتظر فيها شيئًا ما، وعليهم استخدامها بغرض الانتظار، والغرفة معدة فقط لتجلس وتنتظر فحسب».

كانت هذه السطور من أقوال الممثل الكوميدي الشهير والثري جدًّا جيري ساينفيلد Jerry Seinfeld، وهو يشكو من غرف الانتظار في عيادات الأطباء[1]. وهذا السياق من الشكوى والسباب أتى في إحدى حلقات المسلسل الأمريكي الشهير في التسعينيات «ساينفيلد» Seinfeld، وكان عنوان الحلقة «الخليلة» The Girlfriend أعتقد أن ساينفيلد على حق بخصوص غرفة

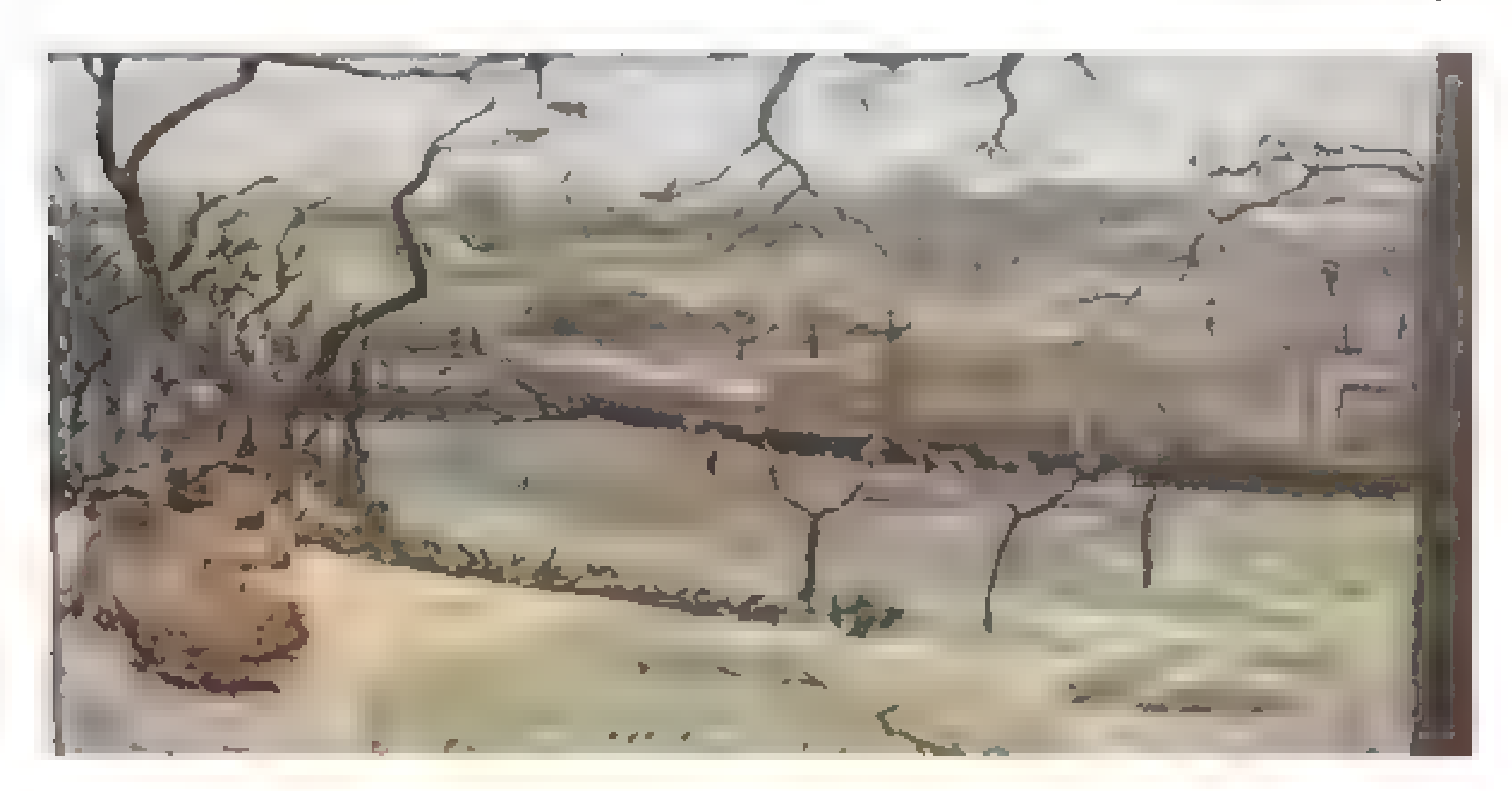
(1) كما يتحدث أندريا كولر Andrea Kohler أيضًا عن غرف الانتظار في كتابه «*Passing Time: An Essay on Waiting*»، حيث يتحدث كل من ميكل أرمسترونغ وكيث كلاسين عن موقف في عيادة أحد الأطباء، فيؤكدان كيف يمكن أن يصبح الموعد مضبوطًا بدلًا من مخالفته، ولا اضطرار إلى الجلوس والانتظار، فبدلًا من الدخول إلى الطبيب في الساعة ١١:١٥، من الأفضل الدخول إليه في الموعد، أي في تمام الساعة 10:30

الانتظار[2]: إنها مملة بشكل لا يُحتمل. وتنظيم الديكور في هذه الغرفة لا يجعل تحمل الانتظار بها أمرًا هينًا. أراهن إذا رفع جيري ساينفيلد عينيه إلى الجدار المواجه، ربما سيجد نسخة مملة، وإن كانت متقنة، من لوحة، أو عمل فني يشبه لوحة «الربيع أتى مبكرًا.. وأطفال جنيات الغابة» Early Spring: Little Fauns، كما في الشكل رقم (8-1)، للفنان التشكيلي بيير بونارد Pieerre Bonnard.

إنه الربيع في الريف الفرنسي في الجنوب قبل نحو خمس سنوات من اندلاع الحرب العالمية الأولى. وفي ذلك الوقت، كان بيير بونادر في سن 42 عندما قدم هذه اللوحة على الكانافا بالزيت. وربما لم يكن بونارد حينئذ قد اكتشف نفسه بعد كفنان تشكيلي. وبالرغم من ذلك، تعد تلك لوحة جيدة عمومًا، تنم عن جودة صانعها ومهارته. إلا أنها تتناول موضوع الأمل، والانتظار الحثيث لعودة الربيع بكل عنفوانه، ولكن تلك المخلوقات الخرافية شوهت المنظر ولكن يمكنك على الوجه الآخر أن تتعلم شيئًا مما كان يعنيه بونارد عندما رسم هذه اللوحة. ربما استخدم الطبيب المعالج للسيد سايبفيلد هذه اللوحة ووضعوها في غرفة الانتظار كرمز للأمل في الشفاء، وأن العلاج الذي سيقدمونه لمرضاهم سيكون خطوة ممتازة نحو الشفاء وبناء عليه، فقد يأتي الربيع من خلال غرفة الانتظار، وكذلك الأمل والعافية، ولمسة من القصص الخرافية. لقد كان هذا هو الطابع المميز

(2) ويضيف روجر جرنيي Roger Granier الكثير عن غرف الانتظار في نهاية كتابه «Waiting and Eternity»، شركة جمعة شيكاغو للنشر، 2014، حيث يقول: كما أن الانتظار يمكن أن يصبح أداة دينية، فإنه قد يتحول إلى دين في حد ذاته ما دمنا قد نسينا معبودًا له. إنها غرف الانتظار إنها أماكن غريبة للعبادة، ولكنها ليست مخصصة لعبادة أي إله، إنه لفرع من ما يحدث في غرف الانتظار يستحق دراسة اجتماعية. لدراسة ما الذي نفعله بالضبط قبل وقت طويل. لقد كنت كاتبًا مستأجرًا لطالب متخصص في جراحة التجميل أراد أن يكتب مذكراته. لقد كان يحتفظ بمذكراته في رأسه، وكان عليّ أن أذهب لأقضي النهار كله في عيادته في غرفة الانتظار، وأستمع إلى ما كان يقوله المرضى، وأراقب سلوكهم

للسيد بونارد، في بداياته على الأقل، لمحة متكررة من الأعمال الفنية التي تبعث على الهدوء، مثل هذه اللوحة. وقد كان بإمكانه دومًا- إن أراد- أن يقدم أفضل اللوحات، وخاصة تلك التي تجسد الأطفال والنماذج الأخرى الشبيهة بالأطفال أو الحيوانات؛ حتى يمكن وضعها في غرف الانتظار كرمز للهدوء والأمل.



الشكل (8-1) ماذا نرى في غرفة الانتظار؟ لوحة بيير بونارد (1867-1947) «الربيع أتى مبكرًا وأطفال[3] حيوانات الغابة Early Spring Little Fauns عام 1909. لوحة بالزيت على الكانافا. مقاس (102.5 سم × 125 سم). متحف التراث الوطني، سان بطرسبرج

«فتجلس هناك كما تعلم وتأخذ إحدى المجلات الصغيرة وتتظاهر بأنك تقرؤها، ولكنك فعليًا تحدق في الأشخاص الآخرين وكما تعلم، تفكر فيهم، وتمعن في النظر إليهم وتتساءل: تُرى مم يشكو هذا الرجل؟ أو ربما سأتمكن من قراءة هذه المجلة التي في يد تلك السيدة هناك، سأحصل عليها فور أن تنهض من مكانها».

---

(3) أطفال آلهة الغابات Fauns هم أحد أنواع المخلوقات الخرافية شبه الآدمية، ويكثر وجودهم في الأعمال الفنية الغربية منذ العصور الوسطى، وهي مستوحاة من الغموض الذي كان يلف عددًا من الغابات في فرنسا وإنجلترا، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، ويمكن أن نراها في الأفلام الأمريكية (المترجم)

ما زال ساينفيلد يشكو الضجر. ولكن بدأ ذكر المرض يظهر في الكلام فتعطيه لونًا من الكابة. بالتأكيد لن يجلس ساينفيلد في غرفة الانتظار بلا هدف: بل إنه يرجو الشفاء، فيسأل نفسه: مم يعاني هؤلاء الأشخاص؟ وما المرض الذي يشكون منه؟

«وأخيرًا تسمعهم ينادون باسمك. ويا لها من لحظة مرتقبة، فتنهض معتدلًا وتنظر إلى الآخرين في الغرفة وتقول في نفسك: حسنًا، لقد طلبوني في الداخل الآن. أراكم جميعًا فيما بعد»

«فأنت تتوقع أن يراك الطبيب، وكما تعلم، سيفحصك في دقائق، وتنتهي القصة. ولكن كلا، لا تحلم بذلك: فقد دخلت الآن غرفة انتظار أخرى، غرفة انتظار أصغر».

«لقد تأجلت اللحظة التي سوف يشخص فيها الطبيب حالتك، ولكن ماذا سيحدث بالفعل في غرفة الانتظار الأصغر؟ ربما هي صغيرة لأنهم يريدون القيام بنوع من الإجراءات الطبية عليك، أليس كذلك؟».

«ولكن لو أنهم على وشك أن يقدموا لك خدمة طبية من نوع ما في الغرفة الصغيرة، فربما من الأفضل بالفعل الانتقال إلى غرفة الانتظار الأصغر، فبالتأكيد لا تود أن يفعلوا ذلك في الغرفة الكبيرة. أفهمتم ما أعنيه؟».

«إذا كانوا على وشك القيام بأي إجراء طبي، فربما من الأفضل عدم القيام به في الغرفة الكبيرة: فلا حاجة لنا إلى الغرفة الكبيرة لفعل ذلك، فربما لن نعلم عدد الذين سيطالعون هذا الموقف من الغرفة الكبيرة (الذي سيكون عددًا كبيرًا كالعادة): لهذا، فمن الأكثر أمانًا إجراء ذلك في الغرفة الأصغر. كما لن يتمكنوا من فعل الكثير لك في هذه الغرفة الصغيرة، فبالتأكيد الإجراء الطبي المتبع في غرفة كهذه سيكون أمرًا بسيطًا».

«هل تعلم بوجود مسارح لتقديم العمليات الجراحية على أفلام مصورة، وبها ما يشبه كراسي ملاعب كرة السلة؟ بالتأكيد لا تود على الإطلاق أن يفعلوا ذلك بك، ولا تريد بالطبع أن تسمع أحدهم يقول: «يجب أن أراكم تفعلونها»، أو «أتمزح؟ هل سيفعلون ذلك به الآن؟»، أو «هل ما زالت بعض الأماكن متاحة؟ هل يمكننا أن نشارك؟». هل توجد تذاكر معدة لهذا الحدث؟ (صائحًا) تذاكر.. تذاكر.. عملية استئصال ورم بالمرارة!! لدي تذكرتان متبقيتان فقط. ولكن هل سيفعلون هذا به بالفعل؟»[4].

ولكن هل يمكن أن يتسبب الانتظار دائمًا في الأذى؟[5] ليس إذا كنت شخصًا مثل جيري ساينفيلد: فطريقته لمواجهة الانتظار الضروري قبل حدوث شيء ما هو البحث عن جميع الجوانب المضيئة الممكنة، حيث يوجد هامش من العبثية، أو التلهية، أو السخرية عند الانتظار لدى الطبيب فقط ليبصرك بحجم المشكلة الصحية التي تعانيها. وهي تتجسد في الطريقة التي تعامل بها ساينفيلد مع الأمر. بالطبع ليس من اللطيف أو الطريف أن تنتظر لتعلم في النهاية أنك ربما تعاني مرضًا رهيبًا أو قاتلًا: الأمر ليس ممتعًا. كما أن الانتظار لتلقي العلاج المناسب لمرض ما مهدد للحياة كذلك ليس أمرًا ممتعًا أو طريفًا، والمفاجأة هي أن الانتظار ربما يصبح هو أفضل خيار أمامنا، فهو

(4) بحسب تقرير نُشر في مجلة Science Daily، بتاريخ 13 نوفمبر 2012، بعنوان Being neurotic, and conscientious, a good combo for health، وفي إطار ظروف خاصة، يمكن للعصابية أن تكون أمرًا جيدًا للصحة، حيث تأكد أن المرضى المصابين بالعصاب هم الأقل إفرازًا لمادة انترليوكين 6، وهي من البصمات التي تحتمها الأمراض المزمنة والالتهابات.

(5) لقد أصبح موضوع الترقب والخوف حاليًا من أكثر الموضوعات انتشارًا، وهي الموضوعات التي تناقشها الكتب التالية: فرنك فيوريدي «How Fear Works: Culture of Fear in the 21st Century»، شركة بلومسبيري للنشر، 2019، وكتاب مارثا نوسباوم «The Monarchy of Fear: A Philosopher Looks at Our Political Crisis»، شركة سايمون وشوستر، 2019. وقد راجع جافين جاكوبسون كلا الكتابين في الملحق الأدبي لمجلة تايمز بتاريخ 8 فبراير 2019، وكذلك كتاب مارلين روبنسون بعنوان «Our age of anxiety: Why doom-mongering is back in fashion»، كما صدر قبل كل ذلك عام 2015 كتاب بعنوان «الخوف»، من تأليف مارلين روبنسون

أقل سوءًا مما قد نتخيل، وهذا هو رجائي على ما أظن، ولو أن تلك التجربة ليست دومًا ممتعة (نعم أنا جاد فيما أقول، فقد مررت بهذه التجربة من قبل)، في حين يتمكن بعض الأشخاص من تحويل الانتظار بلا أمل في هذه الغرفة إلى شيء ممتع، وهذا هو ما سوف أتحدث عنه في هذا الفصل.

ويمكن أن نجد تفسيرًا لقولي هذا من خلال القصة التالية التي تنبع من توقع البعض ظهور التجاعيد على الوجه مع التقدم في السن. السيدة تيس كريستيان Tess Christian، البالغة من العمر 50 عامًا، كان كل ما يشغل بالها هو احتمال ظهور التجاعيد على وجهها؛ ومن أجل ذلك لم تبتسم ولو مرة واحدة عقودًا طويلة، وتدعي أن هذا الأمر قد أثمر في النهاية: «بشرة وجهي خالية من التجاعيد؛ لأنني دربت نفسي على التحكم في عضلات الوجه... ويسألني كثير ممن يرونني إن كنت قد أجريت عملية ملء تجاعيد بشرة الوجه بسبب عدم وجود أي تجاعيد عليها بالرغم من تقدمي في السن كلا لم أفعل، ولا حتى جراحة واحدة. ويرجع الفضل في ذلك إلى أنني لم أبتسم ولم أضحك منذ أن كنت مراهقة، وقد ساعدني حرصي على ذلك كثيرًا، حيث لا تجد خطًا واحدًا من التجاعيد على وجهي». الترقب هو الخوف المصحوب بالخوف لحدوث أمر ما سيئ، ويقال إنه يتصاعد كلما طال وقت وقوع هذا الحدث الصعب وعند هذه اللحظة يبدو أن السيدة تيس كريستيان كانت تعيش فترة طويلة في ترقب مطبق خانق، ولكن يبدو من الصور المنتشرة عنها أنها تمكنت من التعامل مع هذا النوع من الترقب. يتضح من صورة وجهها الناعم الخالي من التجاعيد كيف نجحت تيس في تحويل الرعب والخوف والانتظار في غرف الانتظار إلى نوع من أنواع المكسب في صالحها[6].

---

(6) يمكننا أن نجد صور زوجة السيد كريستيان في صحيفة ديلي ميل بتاريخ 6 مايو 2016 (أنطونيا هويل Antonia Hoyle)

من الواضح أنه لولا تلك النتيجة المبهرة التي حصلت عليها السيدة تيس كريستيان لقلنا أن الانتظار أمر مرعب، وإنه دائمًا شيء سيئ جدًا. ولكن عندما تجلس كل يوم على طاولة الطعام مع عائلتها، تجد أنها متأكدة من أمر واحد: لقد ساعدها الترقب على أن تحافظ على مظهرها. ومن يدري؟ فمن المحتمل أن هذا الأمر ساعدها على أن تحافظ على محبة من حولها على طاولة الطعام كذلك. يبدو أن هذه النسخة من الانتظار، أو بالأحرى الترقب، قد ساعدت تيس جيدًا[7]. يدعي المتخصصون في علم النفس أنهم قادرون على إثبات أن مزيدًا من الناس يفضلون التعرض لمستوى مرتفع من الألم في أقرب وقت، عوضًا عن مدة طويلة من الألم الأقل في المستوى والقوة (بالتأكيد كانت تجربة عدم الابتسام أو الضحك 40 عامًا عملية شاقة ومتعبة وضارة). إن انتظار الألم يكاد يكون مؤلمًا بشكل يساوي التعرض للألم نفسه، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى السيدة تيس كريستيان، حيث يبدو أن الترقب (الذي يمكن أن أقدم له تعريفًا سريعًا بأنه توقع مصحوب بترقب حدوث واقعة ما) [يمكنك البحث عن الكلمة في قاموس أكسفورد إن أردت مزيدًا من الشرح والتفصيل] قد انقلب لمصلحة تيس كريستيان هنا. وما يثير إعجابي بشأن شخصية السيدة تيس كريستيان في هذه الحالة هو أنها قد تكبر في السن، ولكنها تحتفظ بقدرتها على الحياة. لقد حولت الانتظار لمصلحتها.

---

(7) ويتكرر هذا الأمر أكثر مما نتوقع. أعد راي مناج Ray Managh تقريرًا في ذا آيريش تايمز بتاريخ 13 يونيو 2018، يسرد فيه قصة جيدة عن روزين ميمناج Roisin Mimnagh (50) من مربنا فيبيدج في مالاهيد، التي كانت تخشى الضحك والابتسام. وقد حدث ذلك بعد أن ذهبت إلى طبيب الأسنان د. آنا دونوفان Anna Donnovan في دابلن، من أجل ضبط محاذاة إحدى أسنان القواطع لديها. ولكنها ارتعبت عندما اكتشفت أن أسنانها الأصلية استبدلت بها أسنان أصغر في الحجم، ومختلفة في الشكل، وتضررت من ذلك، حيث لم تستطع أن تبتسم وتدع أي شخص يرى أسنانها بشكلها الذي أصبحت عليه، وتقدمت بشكوى في المحكمة للحصول على تعويض بمبلغ لا يقل عن 60.000 يورو، ولكن الأمر انتهى بتسوية ما غير معلنة.

يبقى على حافة النظر.
صورة مهزوزة غير نقية.
صرح بارد من الصقيع.
يبطئ أي حافز.
وغير قاطع بلا حسم.
قد لا تقع معظم الأمور المرتقبة.
ولكن هذه الواقعة ستحدث لا محالة.
يقترب بغضب.
مثل الخوف من العذاب والناريدتو منا عندما ينفض عنا الجميع
والخمر.
لن تنفعك شجاعتك.
هو لا يقصد إخافة أحد، فالقبور ملأى بالشجعان.
فالموت يبقى مواتًا، سواء نحب الناحبون أو تحملوا وجيعته.

الشاعر/ فيليب لاركين– أغنية الفجر
PHILIP LARKIN, Aubade

وأغنية الفجر هي نوع من أنواع القصائد المعتادة في الشعر المكتوب باللغة الإنجليزية، ويكون موضوعها في الغالب عن بزوغ أو حتى عند انتظار الفجر. وتبدأ جنيات الغابة عملها في هذا التوقيت المبكر من كل صباح، كما رأيناها في لوحة بونارد. يصحو فيليب لاركين في الفجر بدون أن يرى جنيات الغابة، ثم يسجل استجابته لهذا الصباح الباكر. الأمر كله متعلق بالموت– «فالموت يبقى مواتًا، سواء نحب الناحبون أو تحملوا وجيعته» Death is

no different whined at than withstood.[8] أين يمكننا أن نلاحظ الموت؟ يتضح الموت في القصيدة عندما يخبرنا لاركين أن «الموت يبقى على حافة النظر، وأنه صورة مهزوزة وغير نقية، وصرح بارد من الصقيع» just on the edge of vision. يُكثر لاركين من أحاسيس الخوف من العذاب وترقب مصيبة الموت، وربما يحق له ذلك: حيث إن واقعة وفاته لم تكن جيدة في النهاية، حيث توفي نتيجة إصابته بسرطان المريء، ورفض إجراء عملية جراحية. وقد توفي في اليوم الثاني من ديسمبر 1985، عن سن 63 سنة، ويبدو أنه كتب هذه الأغنية ليودع بها الدنيا.

ينتظر الكاتب كلايف جيمس الموت الآن وأنا أكتب إليكم هذا الكتاب وهو لا يتوقع هذا الأمر مثل فيليب لاركين، بل إن السيد جيمس يتحدث عن دنو الموت منه، حتى إنه لا يحاول تورية إحساسه باقتراب الموت منه، بالرغم من ذلك البيت الذي كتبه لاركين «لن تنفعك شجاعتك فالقبور ملأى بالشجعان» being brave lets no one off the grave. ولكن يجب أن ألتزم الحذر، لقد كان كلايف جيمس صريحًا فيما يتعلق بانتظاره الموت الوشيك عندما بدأت بكتابة هذه السطور، ولكن يصعب التنبؤ هل توفي الكاتب والإذاعي الأسترالي بالفعل عند كتابة هذه السطور أم لا؟ (ونرجو ألا يكون قد وافته المنية بعد). فمع أن الرجل يعاني الأمفيوزيما emphysema واللوكيميا leukemia فإن هناك فرصة تلوح لإمكانية نجاة السيد كلايف. وبعد 6 أشهر تمكن من سحب البساط من تحت أرجل الجميع. لقد تمكن من النجاة بفضل عقار تجريبي جديد في أكتوبر 2015 صرح جيمس في مقابلة

---

(8) وعن موضوع الموت يمكننا أن نرجع إلى كتاب من تأليف أندرو ستارك Andrew Stark بعنوان «The Consolations of Mortality» شركة جامعة يال للنشر، 2017، وكتاب إرفين يالوم Irvin Yalom، بعنوان «التحديق في السماء: التغلب على الرعب من الموت»، جوزي باس، 2009

تلليفزيونية أنه قد أصبح محرجًا بسبب ذلك الامتداد غير المتوقع في عمره[9]. كنت سأراهن على نجاته لو أنني من عشاق لعبة المقامرة. ولماذا أعتقد أنه تمكن من النجاة؟ لأنني لم أسمع من قبل عن شخص يمكن أن يقدم مثل هذه المزحة المتعلقة بدنو ساعة وفاته نتيجة حالة صحية خطيرة؟ قد يكون كلايف جيمس شاعرًا متميزًا، ولكنه لا يتجاوب مع الموت بنفس طريقة فيليب لاركين. ربما سوف نتمكن فيما بعد من إثبات أن الانتظار بدون أمل ربما يكون أفضل حتى لو لم نتوقع ذلك، لا سيما إذا تعلق الأمر بالسيد كلايف جيمس.

وُلد كلايف جيمس لأسرة من الطبقة العاملة في نطاق مدينة سيدني في أستراليا، في منطقة تسمى كوروجا Korogah، وكان اسمه الحقيقي عند الولادة هو: فيفيان ليوبولد جيمس Vivian Leopold James، وقد وُلد في 7 أكتوبر 1939. ومع تقدمه في السن، وانتقاله من الطفولة إلى الرجولة، لم يحب تلك النكهة النسوية في اسمه، أو هكذا ظن نفسه، فاتخذ اسمًا مستعارًا له هو «كلايف»، بدلًا من «فيفيان». وبالرغم من كونه أسترالي الأصل فهو معروف أكثر في إنجلترا التي عمل فيها كاتبًا. إضافة إلى ذلك، فقد عاش في إنجلترا منذ عام 1962، وهو معروف ومحبوب من الإنجليز. ويُعرف كلايف جيمس لكثير من القراء بسلسلة السيرة الذاتية الشهيرة «ذكريات لا يُعتمد عليها» Unreliable Memories، والعديد من الأعمال الأخرى. ويحظى كلايف بإعجاب الكثيرين؛ نظرًا إلى الأعمال الصحفية الرائعة الضخمة التي أنتجها، والتي تركز أكثر على التليفزيون، والتي تم تجميعها مرات ومرات في بعض الكتب، مثل كتاب «الجردل الكريستالي» Crystal Bucket، وكتاب «الملتصق بالصندوق» Glued to the Box

(9) صحيفة الجارديان، عدد 10 أكتوبر 2015 (ستير ذلي Esther Addley)

أما إذا كنت تشاهد التليفزيون كثيرًا، فربما تعرفه أكثر من خلال البرامج النقاشية والأفلام الوثائقية. لقد عاش كلايف جيمس كرجل بريطاني إنجليزي تقليدي منذ أن كان في سن الثالثة والعشرين من عمره، وذلك بعد تخرجه في جامعة سيدني (حيث عاصر الكاتبة النسوية جيرماين جيرير Germaine Greer، التي قدمت كتابها المثير للجدل «إخصاء النساء[10] The Female Eunuch»)، وكان معاصرًا كذلك للناقد الفني الراحل روبرت هيوز Robert Hughs، مؤلف كتاب «صدمة كل ما هو جديد» The Shock of the New. ما أكثر شيء أتقنه جيمس؟ أعتقد أنه ربما كان يحب أن يتذكره الناس شاعرًا، ولكن لا ينبغي أن نحكم عليه بأنه شاعر، حيث لم يُجمع الكثيرون على هذا الأمر. وربما كانت أفضل مواهبه هو عمله كاتبًا ساخرًا. ويقول روبرت ماكرام Robert McCrum: «إن سألته أي نوع من الكتاب أنت/ ناقد، أم روائي، أم شاعر، أم كاتب مذكرات، أم مترجم، أم صحفي؟ فربما يجيبك بكل استخفاف أنه خليط من كل ذلك». في أستراليا يوجد مركز تجاري واحد يبيع كل شيء: خيط السنانير، وأواني القلي، والأفخاخ اللاصقة ضد الذباب والناموس، وهو أمر يصعب إدارته بكفاءة[11]، وربما يثبت ذلك الغرض من السخرية كما أنه يسعني أن أدعي أنه ما عاد يوجد في سيدني كثير من المراكز التجارية المختلطة. ربما تنتهي المراكز التجارية المختلطة مع دخول كلايف جيمس قبره.

لقد تمكن كلايف جيمس من تحويل انتظار الموت إلى شيء ما يشبه النكتة أو المزحة الجيدة[12]. ربما ما ساعده هو أنه لم يكن يعاني أي آلام،

(10) "إخصاء النساء" يقصد به أن النساء يتعرضن للتهميش بشكل يفرغ عمق المقدرة على الاختيار، مثل تأثير ذلك في الرجال (المترجم)

(11) صحيفة الأوبزرفر، عدد 15 مارس 2015. (روبرت ماكرام Robert McCrum)

(12) ظهرت مدرسة أدبية باسم «الدراسات الحديثة»، ويبدو أنها بدأت بشكل خاص من خلال كتاب إدوارد سعيد «المنهج الحديث»، شركة بانثيون للنشر، 2006 وتركز الدراسات الحديثة على —

أو هذا ما كان يدعيه كلايف جيمس على الأقل. ولكن مما رأيناه حتى الآن، يتضح أن كلايف جيمس رجل غريب بالفعل، وحتى لو كان يعاني أي آلام، ربما كان سيسخر منها على أي حال. وقد صرح من قبل للسيد روبرت ماكرم أن مرضه ليس مؤلمًا. «لقد كنت محظوظًا لأن علاجي غير مؤلم. ولا أعلم هل سأتمكن من الحفاظ على تركيزي إذا كنت أعاني الألم؟ ولكني لم أضطر يومًا إلى التوقف عن العمل نتيجة فقدان التركيز». عندما جاء تشخيص جيمس للمرة الأولى بعد رحلة شاقة في قسم الطوارئ، بدأ بالتعامل مع حياته بجدية، حيث يقول: «لقد أدى تدهور حالتي الصحية إلى استعادتي لنشاطي». لقد كان الأمر أشبه بإيقاظ شخص ما بطريقة عنيفة، وهذه الطريقة في شرح هذا الموقف الصعب تبدو ساحرة ومضحكة[13]. يبدو أن تلك الحالة التبصرية التي مر بها كلايف جيمس قد أدت إلى إضاءة أنوار عقله، وتشغيل محركات عضلاته وقلبه. ومنذ هذه اللحظة أنتج كلايف جيمس خمسة كتب، وما زلنا نعد له إنجازاته التي لم تنقطع منذ تلك اللحظة التي حصل فيها على حكم بالإعدام[14]. ويحسده روبرت ماكرم على

= شعور المبدع عند الوصول إلى نهاية أي تقليد فني أو أدبي. ويقدم بن هتشنسون Ben Hutchinson إسهامًا جديدًا من خلال مقال بعنوان «مكريه بعد الموت»، الملحق الأدبي لمجلة التايمز، 19 فبراير 2016 (عن المتقطات الحديثة). بالإضافة إلى كتاب «Lateness and Modern European Literature»، شركة جامعة أكسفورد للنشر 2016. بالإضافة إلى كتاب جوردون ماكمولان وسام سمايلر (المحررين) بعنوان «*Late Style and Its Discontents*»، شركة جامعة أكسفورد للنشر 2016، ورواية آرثر شنيتسلر «الشهرة المتأخرة»، نيويورك ريمبو، 2017. ومع أن الكتب الأخير لا يبحث مباشرة في هذه الفئة فإنها تمثل نوعًا من أنواع الاستجابة إلى «منهج الحداثة»

(13) كتبت كاتي رويفي كتابا عن الأيام الأخيرة لعدد من مشاهير الكتاب، وكان عنوانه «*The Violet Hour: Great Writers at the End*»، Random House Canada، كندا.

(14) يجب ألا نسمى بعبارات كلايف جيمس بخصوص المنهج الحديث- لقد نضج كلايف جيمس متأخرًا، ولم يثنه المرض عن عمله. ولكنه نضج وتألق متأخرًا. يجب علينا ألا نربط بين العبقرية والنضج السريع في كتاب بعنوان «What the Dog Saw—And Other Adventures»، للكاتب جيرالد موريان. ولقد تألق موريان طوال حياته. ولكن لم يتألق دوليًا إلا في السبعينيات من عمره (جاي أكرون، صحيفة الجارديان، 21 سبتمبر 2018)

ذلك لأن بعض الكتّاب ممن هم في نصف سنين عمره يلهجون ليصبحوا في مثل قدرته على الإنتاج، مع أن حالتهم الصحية ربما أفضل منه عدة مرات. لقد أسس كلايف جيمس حياة عملية جديدة باستخدام الموت، ولقد قدم السيد جيمس كثيرًا من المحاضرات والتجمعات في الندوات والمؤتمرات (أولًا بدأ في لندن. ثم في اتحاد كامبريدج) إلى درجة أن صديقه الساحر وكاتب المقالات السيد بي جي أورورك نصحه بأن «يبطئ من حركة فتح باب الموت ذلك. وإلا سوف يستغله الناس ويغادرون» ولا عجب إذن من قول كلايف جيمس إنه قد أصبح محرجًا لأنه لا يزال على قيد الحياة. كلا لم يكن كذلك قط. لقد تمكن من تحصيل كل استفادة يمكن أن يحصل عليها أي إنسان من الموت في يوم ما، إلى درجة أنه كتب مقالة في صحيفة الأوبزسرفر بعنوان «تقارير عن موتي» Reports of My Death.

تقول كيت سويني Kate Sweeny: «لو أنك متفائل بشكل أعمى، ولم تحضر نفسك- ولو لهامش بسيط من الفشل- فقد تجد نفسك قد أُخذت على حين غرة». كيت سويني باحثة ومحاضرة جامعية متخصصة في علم النفس في جامعة كاليفورنيا– ريفرسايد، وقد كانت تتحدث في مقابلة مع إليزابيث بيرنستين Elizabeth Bernstein نُشرت في صحيفة «وول ستريت جورنال» في عمود صحفي بعنوان «روابط» Bonds [15] كما تضيف: «ولكن لو كنت تشعر بالقلق، فقد أنجزت عملًا نفسيًا كبيرًا بالفعل، بغض النظر عن النتيجة النهائية».

(15) وهذه القصة الصغيرة مأخوذة من كتاب إليزابيث بيرنستين بعنوان «How to manage a long wait for news»، وول ستريت جورنال، 22 مايو 2017. لقد أوضح السيد د. سويني وزملاؤه، من خلال الأبحاث العلمية في جامعة كاليفورنيا ريفرسايد، أن الناس يلجؤون في المعتاد إلى عدد من الإستراتيجيات التكيفية حتى يتمكنوا من التحكم في إحساسهم بالتوتر وهم ينتظرون ظهور نتيجة عمل ما، وهو يدعوها طريقة البخلاء

وتبحث إليزابيث في الجوانب النفسية من الانتظار في الحياة. ربما أنجز السيد كلايف جيمس في حياته كثيرًا من الجوانب النفسية بالفعل، وربما يحاول أن يبين لنا ذلك من خلال آخر كتاباته والمقابلات العامة التي ظهر بها. هل كانت تلك هي الطريقة التي استخدمها للتكيف؟ مع فكرة اقتراب الساعة التي يموت فيها؟ تضيف إليزابيث بيرنستين: «لقد اتضح أن تلك هي الطريقة المثلى للانتظار بصحة جيدة. هؤلاء الذين يشعرون بالقلق والوجل والتشاؤم، أو الذين يعانون إلى أن تأتيهم أخبار، يميلون إلى أن يؤدوا بشكل أفضل عندما تصل إليهم الأخبار، أو عندما تنزل بهم المشكلات (لدى بعض الأمل). هؤلاء الأفراد يصبحون أكثر قدرة على تحمل الأخبار المزعجة، ويشعرون بأن هناك فرصة كبيرة وربما تلوح لهم الأخبار الجيدة. لقد انتظر كلايف جيمس جيدًا، ويمكننا من خلال تكرار حديثه عن الاقتراب من الموت أن نستنتج أن الرجل قد أصيب بالفعل بالقلق، وأنه قد مر عليه وقت طويل من التفكير، ولكنه يحاول أن يخفي ذلك. ماذا نقول عن فيليب لاركين؟ من ينتظر بشكل أفضل من الآخر؟ جيمس أم لاركين؟

دعونا نستمع إلى مزيد من حديث السيدة كيت سويني، وسوف تعلم أي الشاعرين يستطيع الانتظار أفضل من الآخر. إن انتظار وصول أخبار صادمة في المعتاد يكون صادمًا بالطبع، ربما إلى درجة تتجاوز نوعية هذه الأخبار بالفعل. حللت د. سويني، وفريق العمل التابع لها، طريقة الانتظار الجيد «Waiting Well» بطريقتين لتحليل الانتظار الذي ينطوي على الترقب: أولًا: يحاول البعض الانتظار بهذه الطريقة للتقليل من إحساسهم بالأزمة طوال مدة الانتظار، وثانيًا: يستطيع البشر الانتظار بطريقة تساعد على مضاعفة الإثارة التي يشعرون بها عند سماع الأخبار المفرحة، أو تخفيف وطأة الأخبار المفجعة. ولقد بنت سويني بحثها على الاختبار الذي أجرته على 230 مفحوصًا من 27 كلية ومعهدًا من تلك المتخصصة في دراسة القانون

في ولاية كاليفورنيا ممن خضعوا لاختبار القضاء، وكانوا لا يزالون في انتظار النتيجة. ويقال إن اختبار القضاء في كاليفورنيا هو الاختبار الأصعب في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يرسب نصف المتقدمين للاختبار، ولا يستطيعون اجتيازه، ليس من المرة الأولى على الأقل. ماذا عرفت سويني وفريقها عن تلك العينة؟ التي يملؤها الخوف؟ لقد اكتشفت أن العينة لم تتمكن من الانتظار بشكل إيجابي... وقد كانت الإستراتيجية التي استخدموها للتكيف غير مجدية في تقليل ذلك الإحساس بالأزمة المرتبطة بعدم التأكد من النجاح في الاختبار. بل إن الأمر قد ينتهي في غير صالحهم أحيانًا إذا ما حاولوا تقليل الشعور بالمشكلة... ولكن من ناحية أخرى، تمكن كثير من المفحوصين من الانتظار بشكل إيجابي، ولكن كيف تمكنت تلك المجموعة الثانية من إتقان هذا الأمر؟ لقد اتسمت المجموعة التي عانت- في أثناء فترة الانتظار- القلق والتفكير المطول والتشاؤم بأنها تعاملت بشكل أكثر فاعلية مع الأخبار السيئة، وبشكل أكثر فرحًا من الأخبار الجيدة إذا ما قورنت بالمجموعة التي لم تعانِ كثيرًا في أثناء فترة الانتظار[16].

وتتناسب شخصية فيليب لاركين مع الاستجابة الثانية لتجربة سويني السالفة الذكر. إن قصيدة أغنية الفجر، بكل ما فيها من قلق وترقب وتفكير وتشاؤم، ربما هي الاستجابة الأفضل لاحتمالية الموت، أو عند ترقب الأخبار السيئة في عرفة الانتظار التي يجلس فيها جيري ساينفيلد[17] ولكن

(16) كايت سويني وآخرون «Two Definitions of Waiting Well»، مجلة إيموشن، 16 (1)، فبراير 2016 بالإضافة إلى مقالات سارت جالوب، ودانيال تي جيلبرت، وتيموثي ويلسون «Anticipating One's Troubles: The Costs and Benefits of Negative Expectations»، مجلة إيموشن، 9 (2)، أبريل 2009.

(17) يكنيج هنكل، مؤلف مسلسل الإثارة الخاص بالمحقق السويدي كرت ولاندر. لقد علم هانكل بإصابته بمرض سرطان الرئة، ثم سرطان الحلق، في سن الخامسة والستين، في شهر يناير 2014، ولقد توفي بعد ذلك بنحو 22 شهرًا في جوتنبرج في السويد، في 5 أكتوبر 2015. ولا أصدق أن هانكل قد استسلم للسخرية في كتاباته، كما لم يستسلم للشك في نفسه، أو الحزن والحط من منزلته -

ماذا عن كلايف جيمس؟ هل كان متفائلًا بشكل مبالغ فيه ولو قليلًا؟ وهل كان ذلك في صالحه؟ هل يتناسب مع الفئة الأولى في بحث سويني بشكل أكبر من اللازم؟ وهل كان ذلك في صالحه؟ وهل كان يوم وفاته أسوأ من يوم وفاة لاركين؟ يمكنني الإجابة عن هذا الأمر بالسلب. كلا، هذا غير صحيح. إن كلايف جيمس يتمسك بالأمل، مثل السيدة جرونسكايا Grusinkaya من فيلم جراند أوتيل، أو مثل تيس كريستيان التي تمكنت من الاحتفاظ بنضارة بشرة وجهها، إنه لم يستسلم، وركز نظره على الحدث الرئيسي، والهدف الأساسي، ولو أن تفكيره اعتمد أكثر على السخرية السوداء أكثر من الإشفاق الذاتي، فكل ما يمكننا قوله في هذه الحالة هو ماذا يمكن أن نتوقع غير ذلك؟ من ذاك الصبي من كوجورا؟

الهدف ينحصر في تحويل الخوف والترقب والانتظار لصالحنا، إما عن طريق الشكوى بشكل مفوه، وإما عن طريق السخرية التي تعتمد عليها الطبقة العاملة وكلتا الطريقتين اللتين يتبعهما لاركين وجيمس تعمل جيدًا، ولكن الترقب والانتظار يمكن أن يكونا مفيدين في سياقات أخرى من القلق، وربما يمثل ذلك دعمًا إضافيًا للنقطة الجدلية التي تحدثت عنها سويني تخيل مثلًا أنك أحد أفراد قطيع من الخراف وترعى في سهول تابر لاندز الشمالية في نيوساوث ويلز في أستراليا، حيث نشأت خلال فترة طفولتي. ولكن الخوف والترقب موجودان، ويفرضان أنفسهما نتيجة الوجود الفعلي لعدد من أعدائك الطبيعيين، مثل الكلاب البرية، والكلب الأسترالي (المعروف بمصطلح كلب الدينجو، وهو نوع من أنواع الكلبيات canine يعيش في أستراليا) والقطط البرية الضخمة، وهؤلاء الذين اعتادوا سرقة

= ولقد كتب بعيه الذاتي بعنوان *«Quicksand. What It Means to Be A Human Being»*، هارفر سيكر للنشر، 2014، وطوال مدة 22 شهرًا أمد الصحف بتيار جارف من المقالات بدون توقف

الماشية، وهم من أحط أنواع البشر، وجميع هذه الأخطار بفضل وضعها في الحسبان، وعدم الاطمئنان في حضرة أي منها. وفي هذه الحالة، يؤدي الخوف والانتظار والترقب والنوم الحريص والحذر دورها في التشجيع على الانتظار، وتساعد على البقاء على قيد الحياة أطول فترة ممكنة، دون أي ضرر، أو ألم وأود أن أقص عليكم هذا الأمر: لأن أحد فرق البحث قد تكون في إحدى المؤسسات البحثية في أستراليا، المرتبطة بمنظمة الكومونويلث للبحث العلمي والصناعي (سيسيرو) CSIRO في أرميدال إن إس دابليو، وفي فرنسا، وقدم مشروعًا يهدف إلى تدجين القلق والترقب، ومعهما بالطبع الانتظار المثير للتعب من خلال تربية الخراف والأغنام. وجاء في شرح هذا المشروع مقال مفاده أن: «الأغنام والخراف ذات الطابع القلوق والمتخوف تتصرف بطريقة تتسم بالخطورة عند حبس حريتها». ويؤكد أحد العلماء التابعين لمؤسسة سيسيرو أن: «لو أمكننا تحديد هذه الحيوانات من خلال اختبار بسيط، فإنه يمكننا تهجين الحيوانات ذات السلوكيات الانقيادية بطبعها: مما يجعل الممارسات الزراعية أكثر أمانًا في المستقبل» عندما ينخفض معدل الضغوط بين الحيوانات الزراعية، فإن ذلك سيؤدي إلى ارتفاع جودة الإنتاج من اللحم المستخلص من الأبقار والشياه، ومنتجات الألبان كذلك، حيث سوف تصبح الأبقار أعزر إنتاجًا، وكل ذلك ذُكر في التقرير المنشور في 23 فبراير 2015 في مجلة أرميدال إكسبريس[18]

هل من المعقول استخراج قيمة من خلال تهجين الترقب بالانتظار؟[19] حسنًا، دعونا نرَ: سوف تنتظر الحيوانات دورها في المسلخ بهدوء، ولن تتعرض أبدًا لهذا النوع من الهلع الذي يجعلها تجزع وتفزع طوال الوقت،

(18) ليديا روبرتس، عالم سيسرو أو الاكتشافات التي تساعد الماشية، أرميدال اكسبريس، الاثنين، 23 فبراير، 2015

(19) من المثير أن نقرأ حاليًا أن العكس تمامًا يحدث الآن في أستراليا. أشلي براون (ساينس، 24 مايو، 2019). حيث اتضح أن الباحثين يحاولون تعليم الحيوانات المحلية النادرة أن تخشى القطط البرية

وأفترض أن هذا الأمر يمكن اعتباره ميزة جيدة للمسلخ، حيث سيتمكن القائمون عليه من التحكم بشكل أفضل في الحيوانات عند تجهيزها لاستخلاص لحومها، وبالطبع سيجد من يأكل اللحم ميزة من هذا الأمر، حيث يمكن من خلال التخلص من جميع مشاعر الترقب والفزع التي تشعر بها الحيوانات في أثناء اصطفافها للذبح في المجازر من تسهيل تقطيع لحوم الحيوانات وتعبئتها وتجهيزها للبيع في أقرب وقت ممكن لتكون متوافرة في محال اللحوم، مثل ذلك المحل في كنت الذي يحمل اسم «إن هيل وأولاده» N. Hill & Sons، وتذكروا هذا جيدًا، حيث لن تتذوق ذلك الطعم الحامض للأدرينالين في اللحم، حيث تُفرز الشاة الأدرينالين عندما تواجه الشخص الذي تعلم أنه سيقتلها. وهذا أمر جيد للجزارين بكل تأكيد في مجال الجزارة، وبالطبع سوف تسهم تلك الحصانة التي سوف تحصل عليها الحيوانات في ظهور ميزات أخرى ربما بدون توقف، فمثلًا تلك الحيوانات المحصنة من الترقب والهلع سيكون جز أصوفها أسهل من غيرها، حيث إن الخراف الفزعة يصعب جز أصوافها بسبب كثرة حركتها بين يدي عامل جز الأصواف المتعجل، كما أنها قد تتسبب في إصابة العامل في وجهه، أو تدمي ذراعيه؛ ومن ثم سوف يسهل كثيرًا تنظيف الخراف، ووضع العلامات عليها، وشحنها في شاحنات ضيقة، أو غير مريحة، وبالطبع يسهل ذلك إجراء عملية إخصاء الذكور من الحيوانات وتجهيزها للتزاوج. هل سبق أن أخصيت شاة من قبل؟ هل تأكل اللحم؟ يؤكد الباحثون من مؤسسة نيو إنجلاند أن كثرة الحركة والجزع الذي تشعر به الحيوانات لا يساعد منتجي اللحوم على تجهيز اللحم على طاولة طعام السيدة تيس كريستيان بسهولة. والقصة بالكامل هو ذلك الخبر السعيد إن اعتبرناه كذلك، أن هذا التغيير التهجيني من حذف الترقب والجزع، وتعزيز الانتظار لدى الحيوانات، يعد ميزة، وهو من الأفكار الجيدة جدًّا.

انتظر معي الآن للتفكير في موضوع الجزع والانتظار وطاولة الطعام بالتأكيد يمكننا أن نجزم أن عدم قدرة المخلوقات على الصبر على الانتظار هو أمر طبيعي وعاطفي يحدث لنا جميعًا، خاصةً عند انتظار حدوث أمر ما سيئ، بغض النظر عما يظنه الباحثون ويرددونه، وأعتقد أن د. سويني تتفق معي في هذا. إن فكرة الصبر على الانتظار التي طرحتها د. سويني من قبل، هي باختصار عملية جزع وقلق طبيعي، كما تضيف أن توقع وانتظار وقوع أمر ما يمكن أن تعتبره ميزة تطورية لذلك المخلوق الذي يتمكن من هذه القدرة على الصبر على الانتظار، وتحمل ما فيه من ترقب وقلق. سوف نقدم تلك الشاة البريئة من نورثرن تيبلاندز من نيوساوث ويلز، والتي شكلت عينة البحث الذي أجرته سويني، وسوف نقدم وجبة سهلة للكلاب والقطط البرية الضخمة إذا تخلت عن الترقب والانتظار الحذر. لماذا سوف تحاول الشاة حماية نفسها من الكلاب البرية إن لم تشعر بالخوف والترقب؟ إذا لم يكن الترقب والقلق حافزًا فلن تتمكن الشاة من رؤية الخطر. إن حياة الشاة نفسها هي الثمن الذي ستدفعه إذا تخلت عن الترقب والخوف والحذر. ربما ينتهي الأمر بهذه الشاة على مائدة الكلاب البرية، وليس على مائدة السيدة تيس كريستيان. لو أنني في موضع تلك الشاة، أو المزارع الذي يمتلكها، لفضلت الاحتفاظ بالقدرة على الدفاع عن نفسي، أو حتى اكتساب القدرة على معرفة الوقت الذي يتعين عليّ فيه الجري هربًا. بالتأكيد سوف يسمح لي الخوف بهذا الأمر، لا شك في ذلك. ويثبت ذلك أن تجربة سيسرو تلك، ولو كانت ناجحة، فهي في الأصل مغامرة مكلفة جدًا وبهذا الشكل، فعن طريق إنقاص الترقب، وتعظيم قدرة الحيوان على تحمل الانتظار الحذر، تصبح فرص حماية تلك الحيوانات لنفسها هذيلة؛ فعلى الحيوانات أن تكون حذرة، وإلا قُدمت طعامًا على طاولة أحدهم[20].

(20) ويحدث العكس مع أجهزة الكمبيوتر تقرير من خلال ماثيو هانسون، حيث يعمل الباحثون على —

كفانا كلامًا عن أستراليا وما فيها من شياه. التاريخ الآن 8 من شهر ديسمبر 1995، ونحن الآن في فرنسا وفي هذا اليوم، وجد الصحفي الفرنسي جون دومينيك باوبي Dominique Bauby نفسه بشكل غير متوقع في مواجهة أزمة طبية صعبة، حيث وجد نفسه في موقف أكثر تعقيدًا من موقف كلايف جيمس. وفي هذا اليوم، وجد رئيس تحرير مجلة «هي» ELLE (النسخة الفرنسية) نفسه في مواجهة الموت، حيث رأى مكانه وكأنه قد أصبح محجوزًا فجأة. لقد أصيب جون دومينيك باوبي بجلطة ضخمة في 8 ديسمبر 1995، وراح في غيبوبة لمدة 20 يومًا. وقد توفي الرجل بعدها بنحو 15 شهرًا في تاريخ 9 مارس 1997 نتيجة الإصابة بذات الرئة Pneumonia.

لقد كان جون باوبي صحفيًا ثريًا عند وفاته عن سن 43 سنة في 8 ديسمبر 1995، حيث عندما استيقظ أخيرًا من غيبوبته الناتجة عن الجلطة، وجد جسمه مشلولًا تمامًا، وأدرك أن فرصة نجاته مما هو فيه ضعيفة على المدى البعيد. لقد أصبح الرجل الآن محاصرًا في حالة تسمى «متلازمة الانغلاق على النفس» Locked in Syndrome، حيث كان جون دومينيك باوبي واعيًا بما حوله، كما هي الحال مع ضحايا هذا المرض، ولكنه غير قادر على الحركة بسبب إصابته بشلل رباعي، حيث اقتصرت قدراته الحركية على تحريك طرفي عينيه ورأسه. ربما تتخيل أنه ربما كانت تلك نهاية السيد/ باوبي، ولكن ما حدث كان مشابهًا لحالة جيمس حين فرض مبدأ «التدهور وحالة اليقظة التي تبعتها في النفس حالة فريدة»، حيث صنع هذا المبدأ من رئيس التحرير السابق لمجلة «هي» بالفرنسية كاتبًا أنتج من الكتابة ما يفوق كتابات جيمس خلال فترة أقل، وداخل غرفة انتظار أصغر، حيث تمكن جون دومينيك باوبي من كتابة المذكرات الأكثر مبيعًا «بذلة الغوص

= تعميم الحوف لأجهزة الكمبيوتر حتى يمكن أن تصبح قادرة أكثر على العمل، ساينس، 10 مايو، 2019 وربما يكون هذا الخبر أكثر بماهة من ذلك التقرير الذي تناول مشروع سيسرو

والفراشة» The Diving Bell and The Butterfly (وكان العنوان الشهير لهذه المذكرات بالفرنسية Le Scaphandre et Le Papillon) بالرغم من إصابته بحالة الشلل الدائمة تلك. ويصف الرجل حياته قبل الإصابة بالجلطة وبعدها بشكل كلاسيكي جدًا. وربما تجد في هذا العمل الأدبي المواصفات التي تبحث عنها عن الانتظار وعن الإصابة بمرض ما يتسبب في وضعك على السرير لما بقي من عمرك. ويمكننا أن نعتبر كتاب «بذلة الغوص والفراشة» من الأعمال الأدبية التي تقدم مذكرات عن الانتظار، وذكريات عن واحدة من أكثر نسخ الانتظار جلبًا للقلق والألم. كما قُدمت مذكرات «بذلة الغوص والفراشة» في شكل فيلم سينمائي رائع آخر. لا يمكن أن تجد كثيرًا من الأفلام عن موضوع الانتظار[21].

وتستحق تلك الرواية الإعجاب، لا سيما بعد تحويلها إلى هذا الفيلم الذي يتناول النسخة المقلقة للانتظار متجسدة في متلازمة الانغلاق على النفس. ما طبيعة متلازمة الانغلاق على النفس؟ وهو مرض متداول ومعروف طبيًا بمصطلح «كوادريبلاجيا» Quadriplegia، أو «الشلل الرباعي» و«تعسر النطق» Anarthria، حيث يبقى الإنسان في حالة وعي، ولكن هل يصل تأثير المرض إلى الوظائف العليا للإنسان higher faculties؟ أما هؤلاء المصابون بمرض الشلل الرباعي فلا تزيد القدرة على التواصل عن مستوى التواصل بطرفي العين، فهي الوسيلة الوحيدة المتاحة للتواصل مع الآخرين من الأصحاء في هذه الحالة. ما المسبب الرئيسي لمرض الشلل الرباعي؟ قد يرجع السبب في ذلك إلى الإصابة بارتجاج في المخ، حاصل

(21) ولا يحدث هذا مع الكتب أيضًا. ركي شميدت كيرجارد، بعنوان «*The Blink of an Eye: How I Died and Started Living*»، هودر وستوتون للنشر، 2018. كنت أتمنى لو أن هذا الكتاب يتسع لأقرأ عليكم كتابها المؤثر. كل ما أستطيع أن أقوله هو أن عليكم أن تقرؤوا مذكراتها. أُنتج فيلمان بعنوان الانتظار، وكان الأول لإيجور دريانشا بعنوان «غرفة الانتظار»، والثاني لليان لانسون بعنوان «بانتظار معجزة»

نتيجة صدمة في الرأس، أو بسبب الإصابة بمرض باركنسونز، أو «الشلل الرعاش» Parkinson's، وهو اضطراب انحلالي في الجهاز العصبي المركزي، ومن أعراضه التي تظهر ببطء، الإصابة برعشة، وتصلب المفاصل، وبطء في الحركة، وصعوبة في المشي، وأحيانًا يصاب المريض بشلل تام، ومعدلات الوفيات تساوي ضعفي معدل وفاة الأشخاص الذين تمكنوا من الشفاء من هذا المرض.

كما يمكن أن ينتج الشلل الرباعي عن الإصابة بمرض التصلب العضلي الضموري amyotrophic lateral sclerosis، أو ما يطلق عليه مرض لوجيرج Lou Gehrig، حيث يحدث ضعف تدريجي غير مؤلم للعضلات، وضمور مستمريمكن أن يؤدي إلى شلل تام في النهاية، وهي الحالة التي عاش عليها ستيفن هوكينج Stephen Hawking، ولكن بنسخة بطيئة نوعًا ما. عندما كانت شانتال براين Chantal Brayan حاملًا في أسبوعها السادس والثلاثين من بلدة تشيبنجهام في طريق العودة من أوكسموردشاير مع عائلتها أصيبت في حادث سيارة[22]. وكانت إصابات شانتال وزوجها وطفليهما والمربية لا تتجاوز بعض الكدمات البسيطة، ولكن شانتال تعرضت لنزيف مفاجئ، وولد الطفل الرضيع جوناثان مبكرًا عن موعده عن طريق عملية قيصرية أُجريت في مستشفى بريستول للأطفال، ونتيجة الحادث أصيب الرضيع جوناثان بانفصال مبكر في المشيمة Placental Abruption، وحُرم الوليد من الأكسجين بشكل يهدد بقاءه على قيد الحياة. وكان التشخيص الأولي لحالة جوناثان هو حالة «شلل دماغي» Cerebral Palsy، واكتشف الأطباء أن هذا الرضيع قد أصيب بأسوأ نسخة من هذا المرض، وهي حالة يستحيل معها أن يمارس الطفل حياته بشكل طبيعي، فهو لن يجري، أو

(22) الديلي ميل، 11 يوليو، 2016 (إيمي أوليفر)

يمشي، أو ينام، أو يبتسم، أو يرى، أو يسمع، أو يتعرف إلى والديه. وبناءً على ذلك، ظل جوناثان منتظرًا طوال السنوات السبع الأولى من حياته منغلقًا على نفسه «Locked-in» – منتظرًا أي مهرب أو أي وسيلة يعبر بها عن نفسه، منتظرًا فرصة للاستيقاظ. هل عاش جوناثان في حالة انغلاق على النفس مصحوبة بالترقب؟ لقد تمكن من التواصل عن طريق تحريك طرفي العين، ونجح في إصدار ابتسامة خفيفة، وبعض الإشارات الأخرى التي كان يصعب عليه ضبطها بذراعيه، ولكن جوناثان لم يعانِ إعاقة عقلية بالرغم من كل هذه الإعاقات. لم يصدق الأطباء ذلك، ولكن والدة جوناثان كانت واثقة أن الطفل سليم عقليًا، وتمكنت شانتال من تعليم طفلها المحروم من الهواء الطلق، وتمكن الطفل من إتقان القراءة، وأصبح قادرًا على التواصل من خلال لوحة الكتابة، وهي واحدة من تلك الأدوات التي اعتاد السيد ستيفن هوكينج استخدامها، كما يذهب برايان إلى المدرسة، ولكنه لن يعيش طويلًا كما تقول إيمي أوليفر Amy Oliver، الصحفية التي تولت كتابة قصة جوناثان، حيث قال لها: «قريبًا سأعود إلى حديقة الرب مرة أخرى»

ومتلازمة الانغلاق على النفس منتشرة بشكل أكبر مما قد تتخيلون، وأعلم أن معظمكم أو بعضكم على الأقل يعرف شخصًا مصابًا بهذا المرض. لقد تعرفت إلى أحدهم يومًا ما، وكان مصابًا بتلك الحالة الانغلاقية. لقد كان والدًا لزوجة أحد أصدقائي المقربين، وكان يُسمى بازا سيمكنز Bazza Simpkins، وعانى إصابة بجلطة في أواخر الستينيات من عمره. ولقد استمرت حالة هذا الرجل صاحب الوكالة الإعلانية في التدهور في أحد المستشفيات الريفية مصابًا بمتلازمة الانغلاق على النفس، حتى وفاته بعد سنوات طويلة بدون فترة استراحة، وهو أمر كان متأكدًا بنفسه من حدوثه يومًا ما، وأعتقد أن ما قضى على حياته فعلًا هو مرض ذات الرئة Pneumonia، بالضبط مثل حالة جون دومينيك باوبي. وإذا قرأت هذا

العمل الأدبي. فبالطبع سوف يبدو عليك التأثر. وستنخرط في البكاء، والسر في ذلك أنه قد نجح في الربط بين الأخبار السعيدة (النجاحات التي حققها أولاده) والمتعة (مثل رؤية أحفاده وزوجته) والأخبار السيئة (مثل انفصال أصغر أولاده عن زوجته). والآن ما حجم الترقب الذي أحس به الرجل طوال تلك السنوات الثلاث في أثناء انتظاره طوال هذا الوقت؟

وهناك نسخة أخرى من الانتظار مرتبطة بمتلازمة الانغلاق على الذات، وأحب أن أحكي عنها قليلًا والمتسبب في هذه النسخة من الانتظار المرتبط بحالة الانغلاق على النفس وأكثرها إثارة للقلق كانت من خلال مرض كان منتشرًا بشكل وبائي حول العالم في العقدين الأولين من القرن الماضي، وتحديدًا بين عامي 1915 و1926. وكان يُطلق على هذه الحالة مصطلح «الالتهاب الدماغي النوامي» encephalitis lethargica، أو بطء سريان الدم في الدماغ Sluggish Headitis، حسبما يمكن أن نستنتج من هذا المصطلح اليوناني الأصل ويصف أوليفر ساكس حالة الشخص المصاب بهذا المرض قائلًا: «ربما يحتفظ المريض بحالة الوعي الكامل، ويكون الإنسان مستيقظًا، ولكن تجدهم يجلسون في مقاعدهم بلا حراك، وبدون أي صوت على الإطلاق، ثم تجدهم يفتقدون أي قدر من الطاقة، أو الحافز، أو الباعث، أو روح المبادرة، أو الشهية، أو العاطفة، أو الرغبة. ومع ذلك يسجلون ويختزنون ما يمر عليهم من أشخاص، أو أحداث، ولكن بدون توافر الانتباه النشط اللازم لتكوين استجابة، وبلا مبالاة حادة وعميقة. فهم لا يعيشون الحياة، ولا يصبحون جزءًا منها، ووجودهم تمامًا كأنهم غير موجودين، أي كالأشباح، وهم في المعتاد سلبيون مثل كائنات الزومبي، أو الموتى الأحياء»[23].
ومن المعروف أن عدد المصابين بمرض الالتهاب الدماغي النوامي في العالم

(23) أوليفر ساكس، المستيقظون، باكوورث، 1973

تخطى الخمسة ملايين مريض، ولكن اليوم يبدو أن هذا المرض قد انتهى من الوجود، فيما عدا بعض البقايا من قريب أو من بعيد. ويرجح د. مانويل هاليجر Manuel Hulliger، من جامعة كالجاري، وهو طبيب متخصص في طب المخ والأعصاب، أن هذا المرض ما زال موجودًا، ولكن ربما تم تضمينه مع تشخيص الإصابة بمرض باركنسونز الأوسع والأكثر عمومًا في التصنيف. ويقترح البعض أن الالتهاب الدماغي الدوامي قد تطور في التصنيف ليصبح الآن ما يسمى بمتلازمة ما بعد الالتهاب الدماغي Post-encephalitic ضمن تصنيفات مرض باركنسونز. وهو بالتأكيد يشترك مع مرض باركنسونز في كثير من الأعراض؛ ولهذا السبب أعتقد أنه لا يزال معنا. ويضيف مانويل هوليجر أن نحو مليون ونصف المليون شخص قد توفوا من جرّاء الإصابة بهذا المرض، وقد بقي الكثيرون ممن لم يتسبب المرض في وفاتهم مصابين بحالة انغلاق على الذات، بالرغم من خصائصهم السلبية الغريبة. هل كانوا مترقبين لمستقبلهم؟

ولكن ماذا عن جون كلود باوبي، وإصابته بمرض الانغلاق على الذات؟ يبدو أننا نفقد التسلسل السردي لحكايته. إذا كان باوبي فعلًا مصابًا بمرض الانغلاق على الذات، فكيف إذن تمكن من كتابة رواية «بذلة الغوص والفراشة»؟ وكيف كان إحساسه منغلقًا على نفسه منتظرًا بهذا الشكل؟ سأعود للإجابة عن هذين السؤالين فيما بعد، ولكن دعونا الآن نستعرض سريعًا بعضًا مما كتبه الرجل. لقد تعلم جون دومينيك الكتابة من جديد، ربما علمتم هذا بالفعل لو أنكم قد شاهدتم الفيلم، وكان ذلك من خلال التواصل من خلال تحريك طرفي العينين، ثم تدريجيًا خلال الأشهر الخمسة عشر الأخيرة من حياته القصيرة تعلم مرة أخرى كيفية التواصل. وعندما نجح في التواصل، فعل مثل كلايف جيمس، لقد وصف شعوره في أثناء هذا الانتظار الطويل، انتظارًا للنهاية الحتمية. لقد نجح باوبي في التواصل

من خلال تحريك طرفي عين واحدة، حيث كانت العين الأخرى مغلقة دائمًا. ولم تكن العين المغلقة لديه مغلقة من تلقاء نفسها؛ بل اضطر الأطباء إلى تخييط طرفي عينه معًا بخيط جراحي؛ لحماية عينه المصابة بالشلل من التعمن نتيجة تعرضها الدائم للهواء والغبار بدون ترطيب طبيعي دائم. ولقد توصل باوبي إلى وسيلة مرهقة، وإن كانت ناجحة، للتواصل، وكان ذلك بمساعدة معالج متخصص في التخاطب، حيث اعتاد أن يرمش مرة واحدة بعينه اليسرى في حين كان المعالج الذي كان يعمل معه يسرد أمامه قائمة الحروف الأبجدية بالترتيب، وبهذه الطريقة تمكن من إنتاج كلمات كاملة، وفي النهاية جمل صغيرة، حيث تمكن من إنتاج نص مكون من فقرة كاملة. لقد قرأت ذات مرة أن هذا الكتاب قد تطلب أن يعمل باوبي 4 ساعات يوميًا لمدة 10 أشهر مستمرة حتى يتمكن من تجميع الكتاب بالكامل. إليك بعض الانتظار. فلو افترضنا أن التعبير عن كلمة واحدة من خلال التواصل بطرفي عين واحدة (العين اليسرى السليمة)، فإن هذا يعني أن إنتاج رواية «بذلة الغوص والفراشة» قد تطلب نحو 200.000 غمزة عين. من المشوق أن نعرف أن ما فعله باوبي قد ساعد على الحفاظ على صحته، ووفر له الحماية من الدمار والفناء. ويبدو أنه قد كُلف بتجميع نسخة جديدة من رواية «كونت دي مونت كريستو»، ولكن مع جعل امرأة تحل محل البطل أعتقد أن كلايف جيمس محق بشأن الموت، فنحن أفضل حالًا إذا حصلنا على عمل مميز مثل رواية «بذلة الغوص والفراشة» من رواية تحل فيها امرأة محل البطل في رواية «كونت دي مونت كريستو». لقد أعاد باوبي اكتشاف نفسه، مع أنه فعل ذلك بطريقة عصيبة، ومن خلال انهياره اعتلى إلى القمة، ونجح في الاستيقاظ بعد ركلة قوية.

كيف كان شعور جون دومينيك؟ يطرح د. بيتر إنجهام Peter Ingham هذا التساؤل عن ماهية الحالة العقلية للمرضى المحبوسين في النفس

بسبب إصابتهم بمرض متلازمة الانغلاق على النفس. ربما لنعرف إجابة هذا التساؤل من متابعة نسخة من رواية أوليفر ساكس Oliver Sachs «الاستيقاظ» Awakening، وهذا الفيلم من إنتاج عام 1990، وهو فيلم مأخوذ من رواية أوليفر ساكس التي تحمل العنوان نفسه. الفيلم رائع عن مرض الانغلاق على الذات والالتهاب الدماغي النوامي إذا كانت تلك الأمراض موجودة بحق، وليست مجرد أخطاء في التصنيف. عندما سأل د. مالكولم ساير Malcolm Sayer نظيره د. ساكس عن الحالة العقلية للمريض المحجوز لفترة طويلة في مرض لوجريج، وعن احتمال بقاء حواسهم العقلية بدون تأثر، وعن إمكانية نجاة الخصائص العليا للمريض بالرغم من إصابته بمرض الالتهاب الدماغي النوامي، أجاب بيتر إنجهام باندفاع: «لا يُبقي الفيروس أي خصائص عليا للمريض» (كان ماكس فون سيدوزوج كارين، السيدة المصابة بالفصام، هو من يؤدي دور بيتر إنجهام في فيلم «عبر زجاج داكن»). وسأله نظيره مرة أخرى عن السبب في اعتقاده هذا، فأجاب إنجهام: «لأن البديل لا يمكن حتى أن نتصوره، أو نتخيل احتمال حدوثه». بالتأكيد يلمح د. إنجهام أن الإصابة بمرض لوجريج ربما لا يتحمله عقل أي شخص عادي ولكن طبيب المخ والأعصاب الواقعي د. أوليفر ساكس لم يصدق ذلك، حيث يؤكد ساكس أن الخصائص العقلية لمرضاه كانت سليمة، وغير متضررة. وقبل أن أجيب عن هذا السؤال: كيف كان جون دومينيك يشعر؟ ربما يجب أن نولي أوليفر ساكس مزيدًا من الاهتمام.

لقد كان ليفودوبا Levodopa، أو إل دوبا، هو العقار المعجزة الذي كان أوليفر ساكس يصفه لجميع مرضاه حتى يمكن إعادة المرضى المصابين بانغلاق إلى الحياة، ويُقال عن عقار ليفودوبا إنه فور أن يخترق الحاجز الدموي في المخ فإنه يحفز تركيز الدوبامين في المخ (هل تتذكر تلك القطط المنتظرة على الرصيف البحري؟) وهذا أمر مفيد في علاج مرض باركنسونز

الذي يعد أحد أسباب الإصابة بمرض الانغلاق على الذات. ويمكنك في الفيلم أن ترى ثم تتأثر بما تراه، كيف اقتنع ساير، أم ربما يجب أن نناديه باسم «ساكس»، بقيمة العقار الجديد المستحدث ليفودوبا؛ ومن ثم يقدم جرعات كبيرة منه لمرضاه المصابين بالشلل، حيث يستيقظون تدريجيًا في الحياة الواقعية، وبالمقارنة مع الفيلم تجدهم يستيقظون بشكل جماعي؟ وقد وفر نجاح هذا العقار إجابة للتخمين غير الدقيق الذي قدمه د. إنجهام، حيث لم يفقد المرضى عقولهم في الفيلم خلال فترة الانتظار، لكن فوجئ الجميع بأن فترة الاستيقاظ التي يوفرها عقار ليفودوبا هي في الحقيقة فترة مؤقتة؛ ومن ثم يرجع المرضى مرة أخرى إلى حالة الجمود التخشبي Catatonia، بالرغم من محاولات هؤلاء المرضى للحياة عن طريق زيادة الجرعة. ومن الآثار الجانبية لعقار ليفودوبا- كما قرأت- أنه يمكن أن يؤدي إلى الإصابة بحالة الاضطراب والتوهان، وحالات النوبات الوجدانية المتوترة (قد تشمل الشبق الجنسي، الذي كان ليونارد لاو Leonard Low مصابًا به في الحياة الواقعية)، والقلق، وأحلام اليقظة، والهلاوس والهذيان، «والمشية التسارعية»، Festination والجمود، والإصابة بالرعشة، واستدارة العينين في مقلتيهما، وجميعها أعراض أصيب بها السيد ساكس. لكن من الواضح أن خلال فترة التنويم في المستشفى اتضحت على أوليفر ساكس خلال مرضه أنواع أقل من الاستيقاظ، حيث لم تتلاشَ الخصائص العليا لمرضاه، حيث اتضحت علامات وجود تلك الخصائص العليا مع العلاج. وهذا الأمر ربما يوفر إجابة عن سؤال: بماذا كان السيد باوبي يشعر؟ ولكن لا يمكننا أن نقول أي شيء عن الترقب بعد.

إن إيقاظ المرضى المصابين بالانغلاق على النفس، الواقعين في حالة سبات مرضي– أو من تستطيع أن تقول إنهم منتظرون– أمر يتكرر ويحدث كثيرًا. ويبدو أنهم سعداء بتلك الفترة من الاستراحة البسيطة. وفي العدد

الصادر يوم 26 فبراير 2014 من مجلة «نيو ساينتست» New Scientist، نجد تقريرًا منشورًا عن حالة لويس فيلجيون Louis Viljoen الذي: «أصيب عام 1999 بحالة مرضية وضعته في حالة سبات تام لمدة 3 سنوات»، حيث بدأ يعاني نومًا متقطعًا طويلًا. وقد وصف له الأطباء تناول الدواء المنوم زولبيدم Zolpdem وتقول هيلين طومسون في المقالة نفسها: «بعد دقائق من إعطاء أمه هذا العقار له، وجدت الطفل يدير رأسه نحوها قائلًا (مرحبًا أمي)». وقد استمر تأثير هذا العقار فيه بضع ساعات. الآن يسمح له هذا العقار عند تناوله أن يتواصل جيدًا لمدة ساعات يوميًا. وربما رأى ساكس أن في هذا الأمر مزيدًا من الأدلة على قناعاته. كما استُخدم التحفيز الكهربائي لهؤلاء المرضى المنتظرين، وأثبت فاعلية كبيرة في علاجهم.

وفي العدد الصادر يوم 1 مارس 2014 من مجلة «نيو ساينتست»، نجد تقريرًا بشأن فريق طبي بقيادة ستيفن لوريز Steven Laureys في مستشفى جامعة ليج في بلجيكا، حيث عمل هذا الفريق مع 55 مريضًا من المصابين بصدمة مخية، أو من المصابين بنقص في الأكسجين في المخ، مما تسبب في دخولهم في حالة سبات، أو فقدان جزئي للوعي، حيث وُضعت المحسات الكهربائية على الجزء الجانبي الأيسر من الفص الأمامي للمخ– وهي المنطقة المسؤولة عن الذاكرة، وعملية اتخاذ القرار والوعي- ثم قدموا 20 دقيقة من التحفيز لعينة من المفحوصين، وقدموا علاجًا وهميًا لمجموعة أخرى. وفي اليوم التالي، تلقت كلتا المجموعتين الأسلوب العلاجي المقابل. وتقول هيلين طومسون Helen Thomson إنه في أثناء التحفيز الدماغي ظهرت علامات استعادة الوعي على 13 شخصًا من المصابين بفقدان جزئي للوعي، وعلى شخصين من المصابين بحالة سبات مخي، وهذه العلامات لم تكن ملحوظة قبل التحفيز، أو بعد العلاج الوهمي. وكانت النتائج لمعظم هؤلاء المرضى متوسطة، ولكن بعضهم استعاد القدرة على التواصل. وبعد 4 سنوات من

ذلك، عادت هيلين طومسون إلى العمل على عينة بحث ليجي البلجيكية مرة أخرى[24] وعند هذه المرحلة، تمكن الفريق من تمديد فترة الاستيقاظ إلى أسبوع واحد، وذلك عن طريق تحفيز الجسم 5 مرات أسبوعيًا[25]. وفي آخر التعديلات، سمحوا لأسرة المريض أن يصطحبوا جهاز التحفيز معهم في المنزل، وإعداد جلسات علاج المريض بأنفسهم. تُرى، ما نوع التغير الذي أحست به عينة البحث من جامعة ليجي؟ لقد شملت آخر الدراسات التي عملوا عليها 27 شخصًا، أحدهم كان لا يزال محتفظًا بقدر من الوعي لمدة 33 عامًا وبعد تطبيق العلاج مرة كل يومين على مدار الأسبوع، لوحظ تحسن حالة الوعي في الأسبوع الخامس. كما استعاد البعض الآخر القدرة على الإجابة عن الأسئلة الموجهة إليهم، مثل: «هل ألمس أنفي؟»، ويصعب تصديق أن هؤلاء الأشخاص الواقعين في سبات عميق، راضون عن حالتهم السابقة لاستعادتهم وعيهم، ذلك إذا افترضنا أنهم كانوا واعين، أو يشعرون بأي شيء على الإطلاق (حيث قارن ليونارد لاو Leonard Lowe نفسه في فيلم «الاستيقاظ» Awakenings بنمر محتجز في قفص حديدي). ويبدو أن حالة السبات التي كانوا فيها لم تتمكن من تدمير خصائصهم العليا. وقد يظن البعض أن التعرض لهذه التجربة أمر مثمر وقد تمكن ليونارد لاو من كتابة مقالات نقدية عن بعض الكتب، وكانت تلك المقالات مشهورة في المستشفى الذي كان يُعالج فيه، ولكن لا يمكنني القول إنه تمكن من تحويل تجربة الانتظار بلا أمل كبير في غرفة الانتظار الروحانية في الحياة لمصلحته الخاصة. حتى وإن فعل، فلن نعرف أبدًا، فقد توفي عام 1981، عن عمر ناهز 61 سنة، وقد خضع لثلاث دورات إضافية من العلاج باستخدام

(24) الاستيقاظ من خلال صعق العقل، New Scientist، 26 مايو، 2018.

(25) جيرالدين ميرتنس وآخرون، تجربة عشوائية للحياة لمدة 4 أسابيع في المنزل في حالة نصف وعي مزمنة، براين ستيميوليشن، 11 (5)، 2018.

عقار «إل دوبا» L-Dopa، ونجحت جميعها. وقد استمرت فترة نجاحه في الاحتفاظ بحالة الاستيقاظ فقط من مارس إلى أبريل 1969.

يوضح عمل أوليفر ساكس- ويا له من عمل- أن الخصائص العليا في الغالب تكون محفوظة داخل عقول هؤلاء المرضى المصابين بمرض السبات خلال فترة انتظارهم الطويل. ونتيجة هذا الأمر تتحدى المنطق، إن أمكن الوصول إلى المنطق من كل هذا، فربما توقعت مثل السيد إنجهام، أن بقاء المريض منغلقًا فترة طويلة ربما سوف يؤدي إلى تأكل الخصائص العقلية العليا، وذلك سيؤدي إلى استسلام المريض للغضب بمنتهى البساطة، ثم للاكتئاب؛ ومن ثم يبدأ المريض بالتخلي عن الإدراك ككل. ولكن هذا لا يحدث، وقد رأينا ذلك عدة مرات منذ ظهور كتاب ساكس إنه أمر بديهي كما يمكننا جميعًا أن نتخيل أن شخصًا ما مصابًا بمرض الانغلاق على الذات ربما سوف يصاب باليأس؛ ومن ثم يعيش في حالة ترقب بسبب عدم قدرته على التحكم في حياته باستقلالية في محاولته لتجنب الموت، ولكن لا يبدو أن تلك فقط هي الحال. إن أكثر المتفائلين لا يمكن أن يتصور مقدرة شخص مثل باوبي عند القيام ببعض الأمور التي ربما لا يستطيع الأصحاء فعلها. والتحكم في حالة قد تتسبب له في الإصابة بالاكتئاب، وتتسبب في تحول موقفه الصعب إلى استفادة مبتكرة من نوع ما، مما يرجح أن الأمر ليس مجرد مصادفة، أو ظاهرة حديثة يتمكن من خلالها البشر من إكساب المخ القدرة على تحمل الانتظار والصبر عليه، ولكن بعض الأشخاص لديهم موهبة متأصلة فيهم، تعطي عقولهم القدرة على إفراز المواد الكيميائية اللازمة لاكتساب هذه القدرة، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يعرف ذلك السر؟

والآن، هل لدينا إجابة عن هذا السؤال؟ كيف كان إحساس جون ديو؟ ظاهريًّا، ينبغي أن نفترض أنه يشعر بأحاسيس لا تُطاق من الترقب والانتظار

في مرفق طبي مجهز على الأقل ليس بالضرورة أن يكون مشحونًا بالترقب بالشكل الذي قد نتخيله؛ بل إنه بالعكس، فكلما اتسعت فترة الانتظار تحسن فكر المريض وسلوكه. ولكن لا يزال هناك الكثير لنقوله عن سؤالنا هذا الذي طرحناه سلفًا.

صاح زميلي مستنكرًا: «ماذا؟ السعادة؟»، كان هذا هو رد فعل صديقي المتخصص في الطب النفسي عند الاطلاع على نتائج مقالة كتبتها ماري أوريلي برونو Marie-Aurelie Bruno، وجان بيرنهايم Jan L. Bernheim، وديديه ليدو Didier Ledoux، وفريدريك بيلاس Frédéric Pellas، وأثينا ديميتريزي Athena Demertzi، وستيفن لوريز Steven Laureys (كانت هذه هي أسماء أعضاء الفريق بالكامل، حتى إن بينهم وستيفن لوريز، ذلك العالم البلجيكي الذي تحدثنا عنه سلفًا في هذا الكتاب). وتعمل أوريلي برونو باحثة لدى مجموعة علوم البحث في الغيبوبة، وهي المؤلف الأساسي لهذا البحث، في مركز سايكلوترون للبحث العلمي وقسم الأعصاب التابع لجامعة لييج في بلجيكا. وقدم هذا الفريق أبحاثًا ذات نتائج مبهرة، وكان عنوان الورقة البحثية التي نحن بصدد الحديث عنها هو: «دراسة مسحية عن درجة السلامة الصحية المقدرة ذاتيًا لدى عينة من المرضى المصابين بالانغلاق على الذات . الأغلبية السعيدة والأقلية التعسة»[26] وتحاول تلك الدراسة أن تحدد طريقة تفكير المرضى المصابين بالانغلاق على الذات عن حياتهم، وكانت النتائج على عكس ما تتوقعه، وعكس ما توقع د. إنجهام، وبالطبع كانت النتائج معاكسة لتوقعات صديقي المتخصص في الطب النفسي[27].

(26) دراسة مسحية بالاشتراك بين ام برونو بيرنهايم MBruno وليدوكس Ledoux واخرين A Survey on Self-Assessed Well-Being in a Cohort of Chronic Locked- in Syndrome Patients. Happy Majority, Miserable Minority، الصحيفة الطبية البريطانية، 2011.

(27) لقد أنتج البي بي سي برنامجًا عن ردة فعل بعض النساء اللاتي علمن أنهن يواجهن الموت –

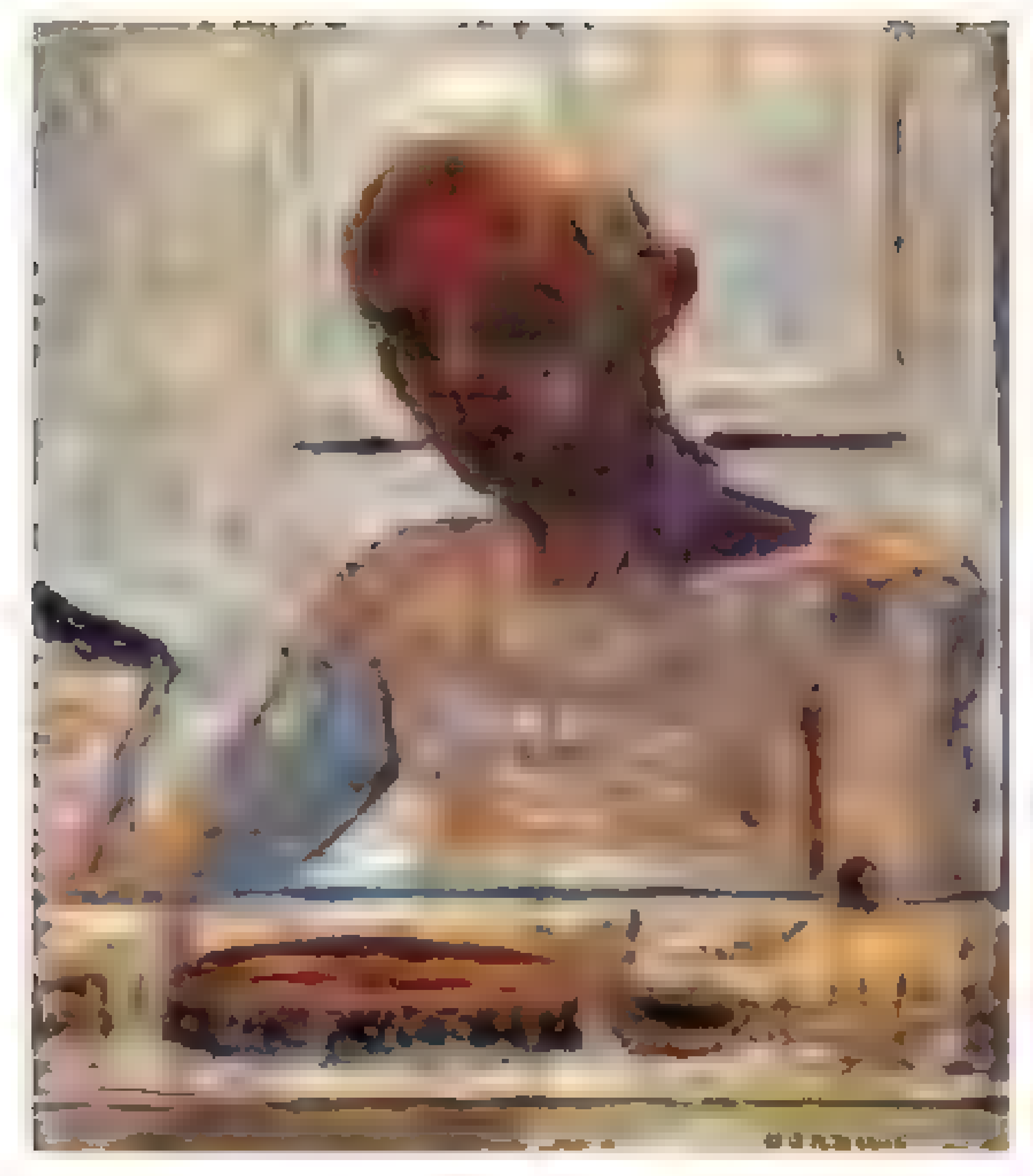
ما هو هدف ذلك البحث الذي خرجت به ماري أوريلي برونو ورفاقها؟ وأين توجد هذه السعادة؟ دعونا نرَ ما قالته د. برونو «قد يتمكن المرضى المصابون بالانغلاق على الذات من النجاة من الموت عقودًا طويلة إذا توافرت لهم الرعاية الطبية اللازمة، ولقد درسنا جودة الحياة حسب مشاركات المفحوصين أنفسهم من المرضى المصابين بالانغلاق على الذات». ولكن كيف كان ترتيب عملهم على البحث؟ تقول د. برونو: «دعونا 168 مفحوصًا من أعضاء الجمعية الفرنسية للمرضى المصابين بالانغلاق على الذات؛ للإجابة عن استبيان عن التاريخ المرضي، والوضع الحالي، والمشكلات المتعلقة بانتهاء الأجل»، حيث قدم المفحوصون تقييمًا ذاتيًا لحالتهم الصحية الحالية باستخدام «مقياس التقييم الذاتي المقارن للذاكرة» Anamnestic Comparative Self-Assessment، حيث كان المقياس يقدم (+5) درجات، أو يخصم (5) درجات عن الذكريات الأفضل للمرضى في حياتهم، وكذلك أسوأ فترات حياتهم على التوالي. وتشرح د. برونو فتقول إن عينة الدراسة شملت 91 مريضًا، وقد استجابت عينة من 54% من العينة للاستبيان، حيث أقر 47 مريضًا بأنهم يشعرون بالسعادة، ولكن استثني 26 مريضًا بسبب عدم استكمال البيانات. وتستمر ماري أوريلي برونو في الشرح فتقول: «لقد اشتملت بعض المتغيرات المرتبطة بالتعاسة على بعض المشكلات، مثل القلق، وعدم الرضا من عملية الانتقال في المجتمع المحلي، وعدم الاستمتاع بالأنشطة الترفيهية، وربما البدء باكتساب القدرة على الكلام. لقد ارتبطت الفترات الأطول من الإصابة بمرض الانغلاق على الذات بالإحساس بالسعادة والرضا» وتلك الملحوظة الأخيرة مذهلة، وغير

= بمرض السرطان. الزمن المجدد للحياة، 17 مايو 2017 وقد ادعت معظم النساء أن إصابتهن تلك بالسرطان جعلتهن أكثر سعادة وحرية. وهناك أيضًا دراسة كيسث شيرمان «*Wait Time. A Memoir of Cancer*»، وبلفريد لوريل

متوقعة بالمرة، وربما لهذا يرجع السبب في اكتساب باوبي القدرة على الإبداع والإنتاج أكثر من أي وقت مضى بعد إصابته بمرض الانعزال، وبقائه في المستشفى: ومن ثم ربما إلى هذا يرجع السبب في إشراقة كلايف جيمس في أثناء إصابته بالمرض. إن نتائج دراسة د. برونو مذهلة بحق، إنها توصي بمزيد من الرعاية التلطيفية Palliative Care، حتى يتسنى تقليل الإحساس بالقلق، وللمساعدة على إمكانية ازدياد الحركة.

لا شك أن مرضى الانغلاق على النفس يتكيفون على حسب حالتهم. وبناءً عليه، يتعين تدعيم موقف المرضى المصابين حديثًا بمرض الانغلاق على الذات، ممن يتمنون الموت، ويرغبون في إنهاء حياتهم. وفي هذه الحالة، سوف يتمكن المرضى من استرداد حياتهم، والبدء بحياة جديدة ذات مغزى. وتشير نتائج الدراسة إلى أن مجموعة من الناجين من مرض الانغلاق على الذات المزمن يفيدون بأن حياتهم أصبحت ذات مغزى بالفعل، وأنهم غير مقبلين على فكرة «الموت الرحيم» euthanasia.

لقد بدأنا هذا الفصل مع ساينفيلد منتظرًا في غرفة الانتظار الموجودة في عيادة الطبيب وعلى جدار هذه الغرفة توجد صورة معلقة تبعث على الهدوء والسكينة. مع أنها مثيرة للاهتمام بدون كثير من الفكر، من إبداعات الفنان بيير بونارد Pierre Bonnard، وفي الصورة اثنتان من جنيات الغابة تعزفان على الناي، وتنظران إلى أفق من المناظر الطبيعية السائدة في جنوب فرنسا. ولم أكن منصفًا مع السيد بونارد عندما رسمت نسخة من هذه اللوحة على الكانافا، وهي أبعد ما تكون عن أفضل أداء قدمه الرجل في أي من لوحاته التالية والآن نستعرض عملًا آخر من أعمال بونارد، كما في الشكل رقم (8-2). وعلى العكس، لا تنتمي هذه اللوحة إلى فترة بداياته الأولى، أو الفترة المتوسطة من إنتاجه الفني، ولكنها أحد أعماله



الشكل (8-2) يعاني الكبار في السن من كثرة الأفكار، ولكنهم لا يزالون على الساحة. بيير بونارد (1867 - 1947) «البورتريه الشخصي للسيد/ بونارد عبر مرآة الحمام» 1939-1945. رسم بألوان الزيت على الكانافا. مقاس (73 سم × 52 سم). المتحف الوطني للفن، باريس.

التي انتهى منها قبل وفاته بفترة ليست بالطويلة. وهذه اللوحة عبارة عن بورتريه شخصي لبونارد في سن 78. وقد انتهى من رسم هذه اللوحة قبل وفاته بنحو 18 شهرًا. وفي ذلك الوقت، كانت زوجته مارثي دي ماليجني Marthe de Meligny قد توفيت منذ وقت ليس بالبعيد. وكانت زوجته من أهم الموضوعات التي كان يختارها للوحاته. ولم يرزقا بأطفال معًا. ويؤكد رسام البورتريهات البريطاني تيموث هايمان Timothy Hyman أن أعمال بونارد الأخيرة كانت من أفضل ما أنتج. ومن يمكن أن يختلف على ذلك؟!

وقد كتب هايمان ذلك في دراسته التي انتهى منها عام 1998 بعنوان «بونارد ببساطة» Simply Bonnard وفي إطار نقده للوحة «البورتريه الشخصي للسيد/ بونارد من خلال مرآة الحمام» Self-Portrait in the Bathroom Mirror أكد هايمان أن «في عامه الثامن والسبعين يُبدع بونارد ويُظهر عبقريته العجوز. حيث تختلط الألوان والإطار وأصابع الفنان معًا في عمل واحد. وفي كل مكان في هذه اللوحة، يمكننا أن نلاحظ أن فرشاة الفنان قد حصلت على مساعدة من أطراف أنامله، حيث أضافت- برقة غير عادية- بقعًا بيضاء وصفراء».

ويبدو أن بالرغم من تقدم سن بونارد، ومع أن جسمه قد بدأ بالتدهور، وأصبح على حافة الانهيار الصحي، فإن إحساسه بعزلته عن زملائه المعاصرين له في هذا الوقت قد بدأ في الازدياد، وتلك كانت عزلته الذاتية من ناحية الروح قبل الجسد خلال هذه الفترة. ولقد كان أسلوبه في أعماله الفنية، الذي يرجعه البعض إلى عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر، واسع الانتشار بعد ذلك من خلال الحداثة Modernism، والطليعية Avant-grande (اللتين كانتا في مرحلة الضعف والانحدار). حيث كان أصدقاؤه يتوفون تباعًا، وكانت زوجته قد توفيت بالفعل، وكانت فرنسا تعاني تحت الاحتلال الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية[28]. كما أن حالته الصحية لم تكن على ما يرام. لقد توفي بونارد عام 1947. وخلال

(28) لقد أسلفت الحديث عن آدم جرانت، وشيرين سانسبرج، وعن كتابهم «كيف يتمكن المتسرعون من التحكم في العالم»، وخصوصا في الفصل الرابع «الأغبياء فقط يندفعون» لتوقيتات والانتظار الإستراتيجي، وعن عيوب البدء في العمل غير المألوف» ربما يكون بعض الشخصيات في هذه الفصول من الواقع، وربما نتحدث عنها لاحقًا. ولكن لا يعد ذلك تصميمًا أو إستراتيجية. إن ترقب الموت أو التوتر المصاحب لهذا الانتظار هو ما يمكن أن نحاول التوصل إلى حل له. وإليكم مثالًا آخر: الرسام التشكيلي الأمريكي سام فرانسيس خاض حياة عملية وفنية ناجحة جدًّا، وبعد أن أصيب بسرطان البروستاتا، اضطر إلى رسم لوحاته بيده اليسرى وحدها، وكانت تلك اللوحات من أنجح ما رسم الرجل.

العام الذي توفي فيه. ربط الناقد الفني وصانع الكتالوجات الفنية اليوناني الشهير كريستيان زيرفوس Christian Zerfos بين بونارد ونصف قرن من الأعمال الفنية التي تطبق معايير الانطباعية Impressionism في الأعمال الفنية المرسومة على الكانافا باستخدام الفرشاة؛ ومن ثم شكك في قدرات الرجل الفنية بعد وفاته بفترة ليست ببعيدة. جدير بالذكر أن زيرفوس قد اكتسب شهرته من خلال إسهامه في تأليف مجموعة من الكتالوجات المخصصة لأعمال بيكاسو Picasso الفنية.

وكتب زيرفوس عن أعمال بونارد: «لم يقدم في الواجهة أي أفكار استثنائية أو تجديدية ولا تقدم أعماله أي شيء حاد فكريًا يمكن أن يسبب لنا خدوشًا وجراحًا إذا توغلنا فيه. ولا يزلزل الأرض تحت أقدامنا، ولا يحفل للقوة والتصادم». ولكن هنري ماتيس Henri Matisse كان من الأصوات التي علت دفاعًا عن بونارد «نعم أؤكد أن بونارد كان رسامًا رائعًا أمس، واليوم، وفي المستقبل»[29]

وقد اتفقت آراء المتذوقين للفن والمشترين للأعمال الفنية بعد ذلك مع رأي ماتيس دون كريستيان زيرفوس. وقد تداولت الأخبار، في 9 فبراير 2011، أن «كريستي للمزادات» باعت لوحة لبونارد بعنوان «تيريزا في حديقة في فيرنون» (Terresse de Vernon (1923 نظير 8.485 287 يورو (أي ما يساوي 7.14.200 جنيه إسترليني). يبدو أن زيرفوس مصاب بضعف نظر؛ حيث إن معظم الأعمال الأنجح لبونارد ظهرت في السنوات الأخيرة من عمره، وهو تاريخ يقترب كثيرًا من التاريخ الذي أذاع فيه زيرفوس رأيه في أعمال الرجل الفنية[30]. كما يؤكد كلايف جيمس بنفسه ما أشيع عنه

(29) الملحق الأدبي لمجلة التايمز، 15 فبراير 2019، استعراض تايت لبونارد

(30) لقد حقق معرض بونارد الذي تم تنظيمه في معرض تايت في لندن نجاحًا باهرًا. وأقيم المعرض عام 2019 وكان الكتالوج الخاص بالمعرض من إنتاج ماثيو جال، وكان عنوان المعرض *Pierre»* =

فيقول: «بالنسبة للفنان المتخصص في أي نوع من الفنون، ربما تكون أكبر هدية من الله هي امتلاكه فرصة للإسهام بجزء كبير في كتابة أعماله قبل نهاية أجله». وينطبق هذا على السبعيني بونارد، حيث بالرغم من تدهور حالته الصحية فإن أعماله الفنية الأخيرة تثبت أنه لا يزال قادرًا على فرض كلمته على الساحة الفنية.

عندما ترى لوحة بونارد «صورة شخصية عبر مرآة الحمام» Self-Portrait in The Bathroom Mirror، يمكنك أن ترى الأيام الناجحة الأخيرة في حياة كلايف جيمس، أو جون دومينيك باوي[31]. فهذا الثلاثي: جيمس، وباوي، وبونارد، ينتظرون الموت، ولكنهم لا يزالون في الساحة. ولا يمكن أبدًا إيقاف من قد صمم على أن يبقى في الساحة. حتى مرض الانغلاق على الذات لا يستطيع أن يفعلها. إنهم يواجهون بطريقة رائعة مشكلة كيفية إحراز أكبر استفادة من الانتظار، برغم ضعف قوتهم، والمرض، والترقب، ودنو الموت منهم. إنهم يحاولون الاستفادة من الانتظار في غرفة الانتظار الأصغر التي يجلس فيها ساينفيلد منتظرًا[32]. لقد حولوا الدوران بلا هدف في غرفة الانتظار لصالحهم في الحياة، وتمكنوا من تحويل اقترابهم من ذلك الكرسي الشاغر لصالحهم كذلك. كما تحول بذلك الانتظار المترقب لصالحهم. لا أصدق أنهم قد توصلوا إلى حل ما لمشكلة انتظار الموت تلك، ولا يمكنك أن تصدق هذا أيضًا، ولكنهم أثبتوا كيف يمكن أن تتحول تجربة

ـ *Bonnard The Colour of Memory*» وكتبت هيلين أوماكي في مميزات بونارد وعيوبه، وقدمت بعض العمل من جانب راموس وآخرين بشأن بونارد (مثل بيكاسو وماتيس)

(31) كتب إدوارد سعيد من بين آخرين عن الأعمال الإبداعية الأخيرة لبيتهوفن، وموتسارت، وشتراوس، وبرتن، وجون جينيت، وجلين جولد لامبيدوسا، وكافافي في كتاب «On Late Style»، وقد نُشر الكتاب بعد وفاة الرجل، وكانت هذه اللحظة بالنسبة لبونارد تكريمًا شرفيًا بعد الوفاة

(32) وعلى النمط نفسه كان هذا أعظم كتاب لجيمس ماريوت لم يكتمل إلى النهاية، مجلة لتايمز، 15 مارس، 2019

ما من خسارة يصعب تعويضها إلى مكسب ملهم لمن يأتي بعدك. ربما ردد بونارد المعنى نفسه عندما قال: «ليس كل من يغني سعيد» he who sings is not always happy، حيث ردد كلايف جيمس قولًا مماثلًا عندما قال: «لقد عدت إلى الحياة من خلال انهياري، وعن طريق نوبة الاستيقاظ المزعجة التي تعرضت لها»[33].

(33) في الحقيقة، كانت تلك مأخوذة من مذكرات بونارد، ولكنها مقتبسة ليس إلا

خاتمة

واحد.. اثنان.. ثلاثة[1]

وصفٌ أفضل للانتظار

حاولت في هذا الكتاب أن أجسد أنواع الانتظار التالية: الاقتران بنسخة متطابقة، وإطار الصورة المتوقفة، والمقعد الشاغر. وأعتقد أن تجربة الانتظار التي نواجهها في حياتنا تتركز- في الغالب- على النسخة الأولى من الانتظار في القائمة السالفة الذكر. فكما أسلفت، لو أنك حاولت أن تجسد الانتظار، أو تتخيله، أو ترسمه، أو تصوره، أو تصفه، فإن أكثر العروض التي سوف تظهر لك ستتضمن شخصين وفي هذا الجزء الأخير من الكتاب، أود أن أعود مرة أخرى إلى موضوع الاقتران Pairing، الخانة الثانية من القائمة المكتوبة في عنوان هذا الفصل في الأعلى. أريد أن أوضح كيف يمكن أن نفهم الانتظار فهمًا أوضح من خلال مقارنته بالخبرات الوجدانية التي تتضمن ليس زوجًا من الأشياء (الانتظار) فقط؛ بل الفرد الوحيد (الملل)، أو ثلاثة من الأفراد (الغيرة) «مثل الثلاثي الموسيقي» Trio، وهما الملل والغيرة Boredom and Jealousy.[2] سوف أبدأ «بالواحد» The One. ربما كلمة

(1) يشير الرقم "واحد" إلى الإحساس بالملل الذي ينتاب شخصًا واحدًا ويؤثر فيه، ولا يدرك غيره معناه أو سببه. ويشير الرقم "اثنان" إلى الانتظار الذي ينطوي غالبًا على شخصين، أو شيئين مقترنين أحدهما بالآخر. ويشير الرقم "ثلاثة" إلى مشاعر الغيرة التي تنتاب شخصًا ما نحو آخر يوشك أن يخسره لصالح شخص ثالث (المترجم)

(2) بيتر توهي «Boredom: A Lively History»، شركة جامعة يال للنشر، 2011، و«الغيرة»، جامعة يال للنشر، 2014.

«الواحد» لا تعني في اللغة العربية شيئًا، ولكنها في الإنجليزية The One تعني الكثير- ويصبح معناها الشخص الذي انتظرناه من مدة، أو الشيء الأكثر أهمية، أو الأكثر قوة، أو «المميز». وسيكون هذا الواحد هنا هو «الملل» Boredom، وهو الإحساس الذي كنت أظنه- لفترة قصيرة- مرادفًا لكلمة «الانتظار» waiting، إلى أن اتضح لي أنهما شيئان مختلفان

(1)

يساعدني الصحفي الأيرلندي جودون ديجان Godon Deegan، حيث قدم تقريرًا صحفيًا بتاريخ 3 أغسطس 2017، في صحيفة أيرش إكزامينر The Irish Examiner، ذكر فيه «أن خدمة مكتبات السجون تكلف الحكومة الأيرلندية 230.000 يورو مقابل تشغيلها... حيث تشمل التكلفة كتبًا عن تهريب الكوكايين، واليوجا، وممارسة التمارين البدنية الذهنية، وكتبًا عن الملل» وضمن الكتب التي كانت معروضة للبيع، كتاب وينسلي كلاركسون Wensley Clarkson الأكثر مبيعًا «قصص الكوكايين السرية»– يحتوي على قصص من أكثر أنواع المخدرات شيوعًا– وكتاب جيف فيريل Jeff Farrell وبول كيني Paul Keany «مذكرات الكوكايين. كابوس في سجن في فينزويلا» إن اسم جودون ديجان من الأسماء الأرستقراطية في أيرلندا– أكثر من اسمي أنا شخصيًا– وهو يضيف أيضًا أن «من بين نزلاء هذا السجن الباحثين عن السلام الداخلي [البالغ عددهم ثلاثة آلاف و700 نزيل]، في حين يقضون مدة العقوبة المصحوبة بإحساس قاتل بالملل يقضون يومهم في قراءة كتب مثل: «10 طرق للنجاح وتحقيق السلام الداخلي» 10 Secrets for Success and Inner Peace، ويقرأ آخرون كتابًا مثل، «الملل.. التاريخ الحي» Boredom: A Lively History، لمؤلفه بيتر توهي Peter Toohey. شكرًا جودون ديجان Godon Deegan لأنك ذكرت اسمي

في مقالاتك. ويشير جودون إلى كتابي قائلًا إن النزلاء من المساجين ربما يسعون إلى إيجاد بعض السلوى من خلال قراءة ما يلمح إليه جودون أي نوع من أنواع الكتب السخيفة المملة التي تصف مشاعرهم بالضبط. تخيل فقط إحساسك وأنت محبوس في زنزانتك لا تفعل أي شيء مفيد أو مُسلٍ. مع أنني متأكد أن هذا لم يكن قصد ديجان من ذكره كتابي في هذا السياق، فإنني أشعر بالإطراء؛ لأن هؤلاء النزلاء من المساجين- وعددهم كبير- ربما يجدون السلوى عند قراءة كتابي هذا عن الملل. كما يشير جودون ديجان أن الإحساس بالملل يكون في المعتاد مصاحبًا للشخص الوحيد المنعزل عن الآخرين، خاصةً إذا كان محتجزًا في محبسه.

تلك المرأة الشابة الجالسة على بار إحدى الحانات في إنجلترا في زمن الحرب، ربما هي مفيدة بشكل أفضل من تضييع وقتنا مع ديجان. تلك الشابة الجميلة في بورتريه من أعمال الفنان التشكيلي إدوارد لي با Eduard Le Bas بعنوان «بار في حانة» Saloon Bar. هل تشعر بالملل، مع أنها ليست في محبسها، ولا تقرأ كتابي عن الملل؟ كيف عرفنا أنها تشعر بالملل؟ حسنًا، هناك كثير من العلامات التي تشير بوضوح إلى إحساسها بالملل: أولًا: وضعيتها تلك هي إحدى أكثر وضعيات الإحساس بالملل؛ فلو أنك كنت تشعر بالملل فبالتأكيد سوف تجلس بهذه الوضعية. إنه نوع من أنواع السمات البصرية (visual phenotype)؛ فالرأس مستند إلى راحة اليد، والكوع على الطاولة، والعينان تحدقان في نقطة ليست ببعيدة، في سرحان واضح. عادة ما يُطلق على هذه النظرة نظرة إلى مسافة 12 قدمًا في غرفة لا تزيد عن 10 أقدام، أو ما يسمى «النظرة الباردة» Arctic Stare. وإضافة إلى ذلك، يبدو أن هذه الشابة تعاني الوحدة، بالرغم من وجود ذلك الشاب الذي يحاول مغازلتها[3].

(3) ولقد ذكرت بعض تلك العناصر البصرية المتعلقة بالملل في اللوحات والصور الفوتوغرافية بالتفصيل في «هل من الجيد الإحساس بالملل؟» من كتاب «*Boredom Is in Your Mind*». =



الشكل رقم (1-E) ملولة بطبعها Bored on her own. للفنان التشكيلي إدوارد لي با (1904-1966). بار في حانة. لوحة على الكانفا ترجع إلى عام 1940 (10 × 88 سم). معرض تيت في لندن.

وماذا نرى أيضًا في هذه الصورة؟ وماذا يحدث على تلك الطاولة في البورتريه؟ يبدو أن هذه الشابة اللطيفة تجلس على البار في إحدى الحانات مع رجلين آخرين (أو هذا ما يوحي به عدد الكؤوس على الطاولة وطفايات السجائر، وهي تشعر بالضجر الخانق ممسكة بسيجارتها وكأسها أمامها. ربما تنتظر الرجل الذي معها ريثما يعود) ربما ذهب ليلعب بعض الأشواط على الدارتس، أو أنه جالس معها من ناحيتنا على الطاولة. وربما ذهب الجميع للعب الدارتس تاركين السيدة الجميلة وحيدة مؤقتًا مع مشروبها- هل هذا مشروب حقًا؟ وخلال هذا المنعطف نرى هذا الرجل معها يحاول أن يغازلها. وبالطبع يمكننا أن نستنتج أن هذه الشابة ربما تشعر بالإهانة نتيجة هجر أصحابها لها، وانشغالهم عنها بالشكل الذي جعلها عرضة لمحاولات الغزل

= جوزيف روس قالاسكو، سبرينجر، 2020

من ذلك الشاب خلفها، ولكن الصورة لا توحي أمامنا بالضيق، ولا تخبرنا بأي شيء عن الحالة الوجدانية لهذه الشابة

ولا يمكننا أبدًا تجاهل الوضعية التي أخذتها الفتاة الشابة من جلستها في الحانة، هذه الوضعية التي اشتهرت عند الإصابة بحالة من الملل: إلقاء الرأس على راحة اليد، والكوع المستند إلى الطاولة إنها أكثر المؤشرات البصرية دلالة على ثبوت حالة الملل التي قد تراها العين[4]. ولدينا أيضًا تلك الأوساخ على الطاولة[5]، والتبغ والصحيفة (إذا تناولنا المؤثرات البصرية في اللوحة في اتجاه عقارب الساعة)، وطفاية السجائر المستعملة، وذلك الكوب الصغير، والكوب الآخر، والكأس نصف المملوءة التي نراها في متناول يدها اليسرى، ثم كوب آخر نصف فارغ. وأخيرًا «فازة» بها بعض الورود إنها مجموعة من الأشياء الفوضوية ذات الروائح النفاذة، وهو خليط فوضوي أقرب إلى أن يكون مثيرًا للاشمئزاز على طاولة سية كئيبة[6]. غالبًا يكون اللون البني مثيرًا للاشمئزاز ويبدو أن السيدة الشابة قد استكفت من شرابها عند هذا الحد، فقررت أن تجلس قليلًا بلا حراك في حانة في إحدى ضواحي نايتس بريدج في لندن، فنجدها تداعب كأسها بأناملها بدون إبداء أي اهتمام بمحتوياتها. ربما تشعر بالملل من شرابها في الأساس؟ أحيانًا يرتبط الإحساس بالملل بالشعور أنك قد تناولت كثيرًا من الطعام والشراب بشكل يفوق طاقتك الاستيعابية وإحدى الطرق المعروفة لإظهار الشعور بالملل (أو الاشمئزاز) هي عدم الاكتراث بالطعام والشراب، أو إهمال أدوات التدخين

(4) هل تتذكرون لوحة إدوارد مانيه يستمع إلى عزف زوجته على البيانو؟ لدي مجموعة أخرى من التفاصيل عن تلك الوضعية في كتابي «Boredom A Lively History»

(5) كتب وبحاث اي بي فان ديلبورج وآخرون مقالة جيدة عن الطعام والأحاسيس المتعلقة بالاشمئزاز والملل «Eaten Up by Boredom Consuming Food to Escape»، جبهات في علم النفس، 1 أبريل، 2015

(6) جيسون دالي الأشياء المعرفة تقع تحت ستة تصنيفات مثيرة للاشمئزاز، سميثسونيان نيوز، 7 يونيو 2018

كالنايب والمبسم. ويبدو على هذه السيدة الشعور بالملل. وربما يكون مللًا ممزوجًا بالاشمئزاز. كما يبدو عليها القليل من التعب.

لقد اتفقنا سلفًا أن تعريفي الذي أراه للملل هو «إحساس متوسط بالاشمئزاز، نابع من بعض الظروف المؤقتة غير المتوقعة التي لا يمكن تجنبها»[7]. كما يمكن أن أضيف كذلك أن الملل هو تجربة تميل أكثر إلى النظر داخليًا أكثر من الرؤية خارجيًا وأنا أعني بكلمة (داخليًا) أي (نفسيًّا)، حيث إن الملل من أكثر الخبرات النفسية خصوصية. أي لا يعاني وطأتها إلا صاحبها. ومن الواضح أن هذه السيدة بالفعل مرغمة على تحمل الإحساس بترقب حدوث أمر ما حتمي، ومؤقت، وغير سار – انظر إلى وجه ذاك الشاب الذي يتودد إليها وبتجسد الإحساس بالألم ويبدو جليًا في هذا الاشمئزاز والإحباط (انظر إلى هذه الكأس). ويضرب الإحساس بالملل صاحبه فقط في أغلب الحالات. فلا يشعر أحد بالألم سواه (بعكس الإحساس بالحب، أو بالغضب، أو بالمفاجأة، أو بالبغض مثلًا)، أو إذا كنت بصحبة عدد من أقاربك أو زملائك. فربما يعزلك عنهم الشعور بالملل[8] يمكننا أن نستنتج من كل ذلك أن الأحاسيس التي تمر بها تلك الشابة في لوحة إدوارد لي با لا تمت إلى الانتظار بصلة. إن الجانب الذي ينطوي على الإحساس بالعزلة والاشمئزاز في الملل هو العدو اللدود للانتظار. إنه يقضي على القدرة على إيجاد الصحبة Pairing، ولا يبقى إلا إحساس مُضنٍ بالوحدة[9]. وذلك بالضبط إحساس

(7) كتاب «Boredom: A Lively History»، 2011.

(8) وهو أمر أوضحه جيدًا كل من دانكيرت وايستوود في كتابهما «*Out of My Skull: The Psychology of Boredom*»، مطبوعات شركة هارفارد للنشر، 2020. ومن خلال إسهامات أعمال جوزيبا روس فيلاسكو، 2020.

(9) ويرتبط الألم بالإحساس بالملل والاكتئاب حتى الآن، حيث إنه يعد أمرًا تعرفيًا جديدًا، وما زال مفعوله يعمل جيدًا إلى يومنا هذا. ولقد تعلمت الكثير عن الألم من عمل المؤلفة نيكول ويلسون بعنوان «*Depictions of Pain in the Roman Empire*»، رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراة، جامعة كالجاري، 2012.

تلك الشابة في الحانة. وربما كان هذا بالضبط أيضًا هو إحساس هؤلاء المساجين الأيرلنديين.

ويركز بعض أفضل الفنانين في معظم أعمالهم الكبرى على هؤلاء الذين يضربهم الإحساس بالوحدة. فإذا أحببت أن تقرأ رواية «الغثيان» Nausea للفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر (ها قد أتى الاشمئزاز والغثيان كموضوع أساسي في عمل فني اخر). أو رواية «الدخيل» The Outsider لألبرت كامو Albert Camus، أو حتى بعض القصص القصيرة من تأليف الكاتب فرانز كافكا Franz Kafka. سوف تعلم ما أعنيه تمامًا: ففي جميع تلك الأعمال يتركز الاهتمام الرئيسي على الأشخاص المنعزلين، أو من تقتلهم الوحدة. وربما ما زلت تتذكر زيارتنا لهذه الشقة في المبنى رقم 30، في شارع ستراندجيت، في كوبنهاجن، حيث كانت إيدا Ida زوجة فيلهيلم هاميرشوي Vilhelm Hammershoi تقف مثل المسمار في ثباته واستقراره في وسط الغرفة بين الظلال، وكانت وحيدة في هذه اللوحة، وتلك هي حالتها دومًا في معظم لوحات زوجها التي تظهر فيها. ويمكن أن تعتبر هامرشوي هو المتفرد في تصويره للوحدة: فإذا كنت مهتمًا بالصحة النفسية- وقد بدأت هذا الكتاب من عند جيني ديدييه، وتلك الحالة التي تعانيها من الاكتئاب والقلق– وإذا كانت معظم أسباب القلق لديك نابعة من حالة الصحة النفسية؛ إذن ربما يكون تركيزك مع هذا النموذج الفردي من المنعزلين «the ones»، ولا يمكن اعتبار الملل مرضًا نفسيًا، ولكن لو لم يتم القضاء عليه، وأنا أعني القضاء عليه تمامًا، فمن السهل أن يتحول إلى إصابة بالاكتئاب ويقول جون دومينيك باوبي: «أيام الأحد؟ أنا أكره أيام الأحد». نعلم جميعًا أن جون دومينيك باوبي محتجز بسبب إصابته بمرض الانغلاق على الذات، وهو لا يقصد بذلك أنه يخاف من أيام الأحد حرفيًا، مع أنني أعتقد أنه يجب عليه أن يخاف منها حرفيًا، فهو لا يكره أيام الأحد ذاتها، ولكنه يكره ذلك الإحساس

بالملل الذي يشعر به أيام الأحد داخل المستشفى، فهو لا يشعر بالملل في باقي أيام الأسبوع، بل الأحد فقط ويضيف باوبي: «لو لم يسعدني الحظ بأي زيارات، فلن أحظى بأي إلهاء يساعدني على قطع السبيل على تلك الرسائل الظلامية التي تتدفع إلى ذهني طوال اليوم». ويسهب في مرارة: «لا يأتني طبيب العلاج الطبيعي، ولا أخصائي التخاطب، ولا يزورني الطبيب النفسي». أيام الأحد أشبه بالمشي في الصحراء، ويعد الاغتسال بإسفنجة مبللة هو النقطة المضيئة الوحيدة في ذلك اليوم، بالرغم من الطريقة الروتينية التي يتم بها هذا الأمر، وقد يجعل الإصابة بمرض العزلة الذاتية الحياة مزدحمة، ولكن بطريقتها الخاصة. ويوضح باوبي كيفية القيام بهذا الأمر وهو يحاول الانسجام مع حالته الصحية بالانتظار، ولكن أيام الأحد مختلفة بالنسبة إليه ويحدثنا باوبي أكثر عن أيام الأحد فيقول: «في تلك الأيام ينغمس طاقم التمريض في حالة كئيبة من الخمول والكسل نتيجة تأثير الإكثار من تناول الكحوليات في ليلة السبت، مخلوطة بأحاسيس الندم على تفويت فرصة الخروج في نزهة مع العائلة، أو زيارة للمعرض التجاري، أو الذهاب للصيد، وجميعها أنشطة حرموا منها نتيجة تورطهم في جدول أعمال يوم الأحد. إن الاستحمام الذي أنعم به في هذا اليوم هو أشبه بمن يرسم خطوطًا ودوائر أكثر من العلاج المائي، ومهما أغدقوا عليّ بأفضل عطور ما بعد الحلاقة، لن تختفي الحقيقة: فرائحتي نتنة». إن ذلك الإحساس بالاشمئزاز المرتبط بأيام الأحد الذي يشعر به باوبي المصاب بالشلل، يتركه غير متقبل للدعم، أو المساعدة. وفي نهاية الفصل الذي يتناول فيه جون دومينيك أحاسيسه في أيام الأحد، ينتهي بذكره واقعة جرت بينه وبين حشرة: «استقرت ذبابة لونها أسود عجيب في سوادها على أنفي مباشرة، فهززت رأسي لأجبرها على الرحيل، لكنها بقيت مصرة أكثر على معاقبتي إن ذلك أشبه بمقارنة لعب الأطفال بالمصارعة الأولمبية. إنها أيام الأحد»

ويمكنك بسهولة أن تربط بين هؤلاء المنعزلين الذين تمزقهم الوحدة بالانتظار. سيكون من السهل تصديق أنهم جميعًا منتظرون حدوث شيء ما. ربما هم كذلك، ولكن ذلك ليس بالضبط السبب في إحساسهم بالحسرة، فعالمهم فيه تجسيد حي لتآكل أي نوع من أنواع الارتباط (الارتباط الشخصي بين الإنسان والعالم المحيط به). فعالمهم يمرض عليهم قتل كل إحساس بالفضول (فكيف يمكنك أن تشبع فضولك إذا سلبوك كل قدراتك على الاستكشاف)، وقتل كل إحساس بالاهتمام، فتتقلص اهتماماتك مع الوقت (وهذا ثابت في أيام الأحد التي يمر بها جون دومينيك)[10]. لا يجسد أي من هؤلاء المنغلقين على أنفسهم مثالًا للانتظار- في إحساسه بالملل، أو الاكتئاب، أو الوحدة. فالانتظار ينطوي أساسًا على التوقع- والمنتظر يبقى مترقبًا. ويُبقي المترقب تركيزه على ما هو قادم في المستقبل. والملل قد يبدو شبيهًا بالانتظار- ويمكن أن يكون الملل المصحوب بالإحباط والاستعجال نتيجة الانتظار. ولكن يعد الملل سلوكًا تكيفيًا، فهو يدفعك إلى الحركة والنشاط الفعال، وهو يدفعك إلى الهروب من الموقف أو الظرف الذي يحبسك، ذلك الموقف الذي يحرمك من الإحساس بكل اهتماماتك، ومن مشاعر الفضول والانخراط الاجتماعي. والملل يريد منك الاندفاع إلى الأمام، وأن تستمر في الاستمتاع بالحياة إلى الهروب، فهو يجبرك على البحث عن مهرب والانتظار- من ناحية أخرى- يقدم ميزته التكيفية من خلال تنمية قدرة الإنسان على البقاء، ومن التركيز على شيء سوف يحدث، أو شخص سيصل في المستقبل. إن الملل بالفعل هو العدو الأكبر للانتظار، وهو عدو الرغبة في الاستقرار والحفاظ على الوضع الراهن.

(10) أكثر الأعمال وضوحًا فيما يتعلق بتقديم وصف دقيق للملل هو تتبع علاقة الملل بالفضول والاهتمام والتعلق، في فصول د.بكرت وايستوود في كتابهم: «*My Skull The Psychology of Boredom*».



الشكل (E-2). لوحة عن «الزواج» Marriage. من أعمال الفنان التشكيلي فرانسوا بارود 1934 -1899) Francois Barraud) بعنوان «البانسان» Le malcontent

(2)

والآن نتحدث عن إيجاد نسخة متطابقة Pairing عند الحديث عن الرقم الأوسط بين (1و3). حيث يجب علينا أن نتحدث قليلًا عن الرقم (2). وهنا يجب أن نتحدث عن لوحة «البانسان» Le Malcontent، للفنان التشكيلي فرانسول بارود Francois Barraud. كما في الشكل رقم (E-2). التي تعبر- بلا جدال- عن الانتظار (ألا تتذكر ذلك الزوج الفني في لوحة ديجاس، تلك الراقصة ومدربتها والطريقة التي كانا ينتظران بها؟). وتقدم الوردة البيضاء أسفل لوحة بارود مؤشرًا على الطريقة التي يعمل بها الانتظار بالنسبة إلى هذين الزوجين (أو هكذا يبدو الأمر من طريقة جلوس الرجل

إلى جوار السيدة)، فالوردة البيضاء ترمز إلى الحب والزواج. وتلك الوردة على الأرض مفصولة الساق عند قدمي فرانسوا (والآن نعرف جيدًا أن شخصية فرانسوا الموجودة في الصورة، وكذلك إلى جواره زوجته واسمها ماري). والمقصود بالوردة في هذه الصورة أن علاقة الارتفاق بين هذا الرجل وزوجته على وشك أن تنتهي، وهذا هو ما ينتظرانه (وهذا هو ما ينتظرانه، إلا إذا كان رسم هذا التابلوه الصغير مجرد لهو). ولكن إذا كان هذا التابلوه حقيقيًا وواقعيًا، فربما تكون المشكلة بين الطرفين نابعة من كون فرانسوا يشعر بالحزن وعدم الاستقرار. وهذا هو ما يميز فرانسوا بارود عن غيره: فهو لا يرضى بسهولة، ودائمًا متشوق لما هو أفضل ويبدو أن فرانسوا بارود يقصد بكلمة Le Malcontent الفرنسية الكلمة الإنجليزية «Melancholic». وقد رسم بارود نفسه كشخص حزين بائس كصاحب رأس الميت– بائس المنظر.

هل من الممكن أن نزعم أن هذا الإحباط الذي يعانيه قد أدى إلى انفصال الزوجين وانكسار هذا الاتفاق بينهما؟ لقد تحدثنا طويلًا عن الزواج والانتظار. ولكن مع أن لوحة «البانسان» مجسدة للزواج، فإنها أيضًا توضح جيدًا دور الحب في الزواج، وينتظر أحد الزوجين (وهو فرانسوا) حتى يخرج من إطار الزواج هذا. والطرف الآخر (ماري) ينتظر، ويدعو أن تنصلح الدنيا[11]. وتحاول ماري أن تجذب فرانسوا إليها ثانية داخل عقال الزوجية من خلال إغرائه بنغمات عزفها على الأوكورديون ورأسها يشير نحو زوجها،

(11) وربما تلك هي الطريقة التي تستمر بها بعض الزيجات أو معظمها ولكن يبدو لي أن زوجة فرانسو، وكان اسمها ماري، التي كان يستخدمها زوجها كثيرًا كأحد الأشخاص في رسومه، لم تكن قد انفصلت عن زوجها بعد في الثلاثينيات، حيث تزوجا عام 1924، ولم ينته زواجهما إلا بوفاة فرانسوا عام 1934 بعد إصابته بمرض السل (ولا أعلم التاريخ الذي توفيت فيه ماري، لكني رأيت تاريخ وفاتها على ما أعتقد في وقت ما عام 1942) ومن وجهة نظري، أظن أنهما أبدعا في تقديم دورهما جيدًا عندما خرجا بهذا «لتسو» البديع، وربما حنسا بهذه الوضعية أمام المرآة حتى يمكن الخروج بهذا التابلو

ولكنها تنظر إلى أسفل في حزن. فرانسوا يقاوم إغراءاتها، وينتظر حتى تفرغ من عزفها لتتركه في حال سبيله. ومع ذلك فقد تحرك فرانسوا نحو حافة المقعد تقريبًا هربًا من ماري. ولكن يبدو أن يدها اليمنى على المقعد تتبعه وتسعى لتمسك به.

وتوضح لوحة فرانسوا بارود- ببساطة- الفارق بين الانتظار والملل، ويتأسس الانتظار وهذه اللوحة على وجود علاقة بين فردين. ويتنبأ هذا التفاعل بين هذين الشخصين بالمستقبل الذي ينتظر كل منهما. ويركز الانتظار كل اهتمامه على المستقبل. وهذا هو ما رأيناه واضحًا على سطح لوحة الكانافا التي رسمها الفنان التشكيلي ديجاس لهاتين السيدتين الجالستين على هذا المقعد البسيط. وقد كانت اللوحة بعنوان «الانتظار» Waiting بالفعل. وكما يتركز الاهتمام في اللوحة على موضوع الانتظار. فإن من بين أهم موضوعاتها أيضًا موضوعات الحب، والمشاعر، والأسرة. والصداقة، وربما يكون هذا هو السبب الذي يجعل من الانتظار أساسًا للتفاعل الوثيق بين الناس. وتلك الموضوعات في أفضل حالاتها ليست منعزلة. كما أنها ليست اجتماعية (كما هو الأمر عندما نرى لوحة «البانسان»). من ناحية أخرى، فإن الملل إحساس منعزل فردي، ويركز اهتمامه على اللحظة الحالية بسبب العلاقة بينه وبين الشعور بالغثيان. وهو لا يهتم كثيرًا بالمستقبل. ولا يضع العلاقات المنزلية في حسبانه. إن الانتظار حالة تجربة ربما تحتل صميم العلاقات الوثيقة بين الناس، وهذا هو ما يحاول أن يتناوله هذا الكتاب، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى كتابته

يحب الفنانون موضوع العلاقات بين فردين، فهذا يخبرنا بالكثير عن سماتهم، كما يخبرنا بالكثير عن شخصياتهم، كما اعتادت الصور التي تعبر عن التفرد أيضًا أمورًا شخصية خفية. «The Ones»، كما تخبرنا بالكثير



الشكل (E-3) سوف تبقى إحداهن في الخلف- ستبقى وحيدة- مانويل ألفاريز برافو (Manuel Alvarez Bravo (1902- 2002 بعنوان «أطياف في القلعة» Figuras en el Casillo، أو بالإنجليزية Figures in the Castle- ظهرت الصورة في العشرينيات من القرن الماضي

عن الدوافع التي تسهم في دفع الفنانين إلى الابتكار والإبداع. كما يمكن أن يخبرنا ذلك أيضًا عن حجم اهتمام هؤلاء الفنانين بالمشاعر المنزلية بين أفراد الأسرة الواحدة. ويتعمد فرانسوا بارود دائمًا أن يرسم زوجًا من الأفراد، وربما يعكس ذلك اهتمامه بهذا الموضوع عن الانتظار. كما يفضل الفنان التشكيلي هنري ماتيس Henri Matisse أن يرسم الأزواج المرتبطين مرة بعد مرة، سواء كان هذا الزوج في وضعية الحركة، أو الثبات. وربما من أشهر الأزواج التي رسمها، لوحة لنفسه مع زوجته، وأسماها «الحوار» The Conversation، وهي لوحة شهيرة، تتناول الحياة المنزلية. ويعشق السيد ديفيد هوكاني David Hockney الأزواج أيضًا، ويمر أكثر من مرة على

موضوع الانتظار، فهو يقلد لوحة السيد هنري ماتيس في رسمه للأزواج، وذلك في لوحة السيدة كلارك وبيرسي 1971-1970 (Mrs. Clark & Percy). ولديّ مثال واحد أخير عن الأزواج والانتظار: إنها صورة فوتوغرافية لمصور فوتوغرافي مكسيكي شاب يُعرف باسم مانويل ألفاريز برافو Manuel Alvarez Bravo، كما في الشكل (E-3)، وهو أحد أمهر المصورين الفوتوغرافيين في المكسيك على الإطلاق، وربما كان سنه عند التقاط هذه الصورة 20 عامًا. وقد امتدت حياة مانويل ألفاريز برافو من 4 فبراير 1902 حتى 19 أكتوبر 2002.

يمكنك أيضًا أن تقارن بين صورة ألفاريز برافو ولوحة ديجاس عن الانتظار، حيث يتضح من صورة ألفاريز «أطياف في القلعة» Figuras en el Casillo، أو بالإنجليزية Figures in the Castle، حيث ترى سيدتين منتظرتين حدوث شيء ما، أو قدوم شخص ما في المستقبل القريب. ويبدو أن هذا الأمر أو ذلك الشخص متعلق بتلك الخيالات الغريبة الشكل الملقية بظلالها على هذا الجدار المقابل لهما. ويبدو ذلك الخيال ناتجًا عن نفاذ ضوء الشمس إلى زجاج السقف المكسور. هل نلاحظ لمسة من الترقب؟ شكل من أشكال ذلك المقعد الشاغر تتضح معالمه من خلال هذه الظلال على هذا الجدار؟ أم أن هاتين الشابتين تنتظران فحسب حتى تصلا إلى أعلى السلم صعودًا لاستكشاف ما تبقى من القلعة. الصورة لشابتين يبدو أنهما صديقتان تصعدان السلم يدًا بيد، ويبدو أن السلم داخل إحدى القلاع في دولة المكسيك خلال العقد الثاني من القرن العشرين، وتبدو الفتاة على يسارنا أكثر حذرًا وترددًا وسلبية، وتبدو الفتاة إلى يميننا أنها القائد. والآن يبدو أنهما تتوقفان عند مفترق السلم، تحاولان اتخاذ قرار في أي المرفقين يجب عليهما أن تصعدا؟ ويبدو أن الفتاة إلى يميننا هي من سوف تقرر وجهتيهما، ومن الواضح في الصورة أنها ترفع ذراعًا نحو جبينها لتساعد

نفسها في عملية اتخاذ القرار المناسب. هل مشاعرها تشبه مشاعر مدربة الباليه من لوحة ديجاس؟ فالبنتان تنتظران اللحظة المناسبة لتبدأ في الحركة. ودومًا كان هذا المنظر كناية عن معنى الحياة التي يعيشها الشباب وصغار السن: فهم غالبًا ما يصلون في مرحلة ما من مراحل حياتهم إلى مفترق طرق وعر وصعب. فكلتا البنتان تنتظر لاتخاذ القرار الأنسب لحياتها في المستقبل. ويبدو أن إحداهما ستبقى في الخلف، ربما لسبب لا نعلمه، وربما أحسست بذلك في إحدى لوحات ديجاس أيضًا. ربما في صورة ألفاريز برافو تلك، سوف تبقى الفتاة إلى اليسار في المؤخرة. ويبدو أن تلك كانت أفكار ألفاريز برافو عن حياته. ولكن ماذا يخبرنا ذلك عن الانتظار، والبقاء، والوصول؟ هل يسهم ذلك في التوصل إلى تعريف أكثر وضوحًا؟ فيبدو أن الصورة تعبر أكثر عن الزوج المقترن أحدهما بالآخر أكثر من الاهتمام بما هو أعلى السلم.

(3)

الغيرة من المشاعر التي لا يبدو أن كثيرًا من الناس يفهمها. وأظن شخصيًا أن معظم الناس يعتقدون أن أخلاقهم أفضل من أن يشعروا بالغيرة. ولهذا ربما يشعر كثير من الناس أنهم لم يسبق لهم أن أحسوا بالغيرة، أو هكذا يزعمون، ربما لأنهم يربطون بين الغيرة والجنس، وأعني بذلك الإحساس بالغيرة الجنسية erotic jealousy المتعلقة بالمتعة الجنسية. فبعض الناس يعتقدون أن الإحساس بالغيرة هو الشعور بأن العلاقة أو الصلة التي بينك وبين من تحب مهددة بالزوال عند ظهور شخص آخر في الواجهة. ولا يحدث هذا الأمر للجميع، أو أنهم لا يفضلون أن يبوحوا بهذا الإحساس لغيرهم، أو يمكننا القول إن هذا الإحساس لا يحدث بشدة كبيرة لعدد كبير من الناس بالشكل الذي يجعلهم يشعرون بأحاسيس جياشة سلبية. ولكي يحدث هذا النوع من الغيرة: يجب أن ينطوي الأمر على توافر 3 أشخاص، حيث

يشعر واحد من بين هؤلاء الثلاثة أن هناك مخاطرة بمقدان المتعة الجنسية لصالح الفردين الآخرين. وعندما يضرب هذا الإحساس الثلاثي فإن الضحية- إن جاز لنا أن نستخدم هذا المصطلح- تعتقد أنها سوف تفوت على نفسها علاقة من نوع خاص لهم فيها حقوق خاصة. إنها لعبة يواجه فيها شخص واحد شخصين أخرين منافسين له. ومن أفضل الأماكن التي يمكن أن نلاحظ فيها الغيرة الجنسية الملتهبة في أثناء اشتعالها هو صفحات الصحف الصفراء، أو الفن المرني، أو حتى داخل رأس كل شخص منا من بين أعظم الفنانين الذين صوروا الغيرة الجنسية، يتربع الفنان التشكيلي إدفارد مانش 1944 -1863) Edvard Munch)، فهو يرسم ثلاثة أشخاص في لوحاته ليوضح بانتظام قوى الغيرة الجنسية[12] وعالمًا يوجد مانش نفسه في تلك اللوحات الثلاثية، ولا يمثل عندئذ دور الضحية؛ بل اعتاد تمثيل دور الشخص المتآمر على المتحابين من الأزواج. ربما كان يرى مانش نفسه رجلًا قويًا من نوع ما.

أعتقد أن الغيرة التنافسية أكثر شيوعًا من الغيرة الجنسية، ولكن العناصر نفسها تقريبًا لا تتغير: وعادة ما ينطوي الأمر على 3 أشخاص أو أشياء (وقد يكونوا شخصين وشيء)، وسيكون الخاسر شخصًا واحدًا فقط، وفي الغالب يشعر الخاسر بأنه على وشك أن يخسر علاقة من نوع ما، أو مركزًا من نوع ما (إذا كانت الغيرة بين شخصين على شيء ما)، حيث يعتقد كلا الفردين أن لديهما حقًا من نوع خاص في هذا الشيء. وتحدث هذه الغيرة التنافسية طوال الوقت في العمل، حيث تكثر أسباب الغيرة، مثل مكافآت العمل، والمناصب، والوظائف، وحتى علاقات العمل بين الزملاء، فبعضهم يغالون من تقديرهم لزملائهم، ويجب ألا يفقدوا علاقاتهم بهم. ويشعر

(12) بعض من تلك سردها وناقشتها في كتابي «الغيرة»، شركة جامعة يال للنشر، 2014

الخاسر في هذه العلاقة بالألم، كما هي الحال في الغيرة الجنسية، ولكني لا أعتقد أن الإحساس بالغيرة في الحالتين متساوٍ في الشدة. سوف يكون لديك رأيك الشخصي عندما يتعلق الموضوع بهذا الأمر. والغيرة التنافسية هي الشيء الذي تتأسس عليه حياتنا العملية بالكامل؛ فنحن جميعًا في تنافس مستمر في العمل حتى نصل إلى أعلى مراتب التقدم. إنه أنت في مواجهة منافسيك في سبيل الفوز بعقل رئيسك في العمل وقلبه، وجميعكم تتنافسون في سبيل الحصول على المكافأة الكبرى. ويبدو أننا أكثر ميلًا إلى قياس درجة تقدمنا بالمال، وحسابات حجم المكسب المادي، والعلاقات التي تحمل أهمية من نوع خاص، وهذا ما أعتقده أنا شخصيًا. إن الغيرة التنافسية تنطوي على كيفية وصولنا إلى الأشياء، وكيفية بلوغنا مراتب النجاح، وكيف يمكن أن نخسر. إنها تعلم جيدًا كيفية إعاقة منافسينا، وكيفية إعاقة المنافسين لنا. وأنا أجزم أن ذلك الشخص الذي سيدعي أنه لم يشعر قط بالغيرة التنافسية هو شخص غير موجود في هذا العالم. وفي رأيي المتواضع، أرى أن الغيرة التنافسية تأتي في قلب الحياة التي نعيشها داخل هذا المجتمع، وهي أيضًا تتعلق بموضوع المكان والزمان الحاليين، ولا علاقة لها بالمستقبل.

سيركز بعض الكتاب والفنانين- أكثر ولو قليلًا- في أقوى أعمالهم على الثلاثيات (The Threes). ألا تتذكر ما ذكرناه من قبل من وجود بعض الفرق المكونة فقط من ثلاثيات، وتسمى (تريو) Trio، وهو ما يعني مجموعة مكونة من ثلاثة أشخاص فقط يتخصص كل منهم في نوع من أنواع الآلات الموسيقية لإنتاج مقطوعة موسيقية من نوع ما؟ وثبت فنيًا أن أقوى الأعمال الفنية هي تلك التي تتضمن نوعًا من أنواع الثلاثيات أو التريو، وأعتقد أن ذلك يخبرنا بالكثير عن اهتماماتهم، وعن حالاتهم النفسية، وسماتهم الشخصية، وعن طريقة تفاعلهم مع العالم من حولهم. ولأن الغيرة

التنافسية هي الوقود الذي تسير به الحياة في هذا المجتمع. ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك على أعمالهم، حيث استقرت التراجيديا اليونانية على ثلاثة ممثلين فقط عند أدائها على المسرح. فبالطبع سوف ينعكس ذلك على أعمالهم الفنية التي كانوا يحاولون بقدر الإمكان أن يضبطوا إيقاعها لتتناسب مع تأدية ثلاثة أشخاص فقط. لقد جربوا العمل باثنين فقط من الممثلين، ولكن ذلك لم يفلح بأي حال من الأحوال وتعد أعمال يوروبيديس Euripides وسوفوكليس Sophocles من أكثر الأعمال المسرحية انخراطًا في المجتمع الغربي، فهي تحتمل بالصراع الذي قد يشق هذا الثالوث. ومن أجل التعبير عن رؤيته السياسية، صور الفنان التشكيلي الإنجليزي من أصل إفريقي/ كاريبي السيد دينزل فورستر Denzil Forrester ثلاثة عناصر (ولد السيد فورستر في مدينة جرانادا عام 1956)– ولنمعن النظر في أعماله الثلاثة التالية: ثلاثة رجال مجرمين 1982) Three Wicked men)، والموتى الأحياء 1983) Death Walks). ولوحة من ترينشتاون إلى بورثتاون From Trenchtown to Porthtown (2016) وفي اللوحة الأخيرة، يبدو لنا طابور من ثلاثة أشخاص، اثنان من رجال الشرطة البيض يقودون رجلًا أسود البشرة من المشتبه فيهم في قيوده، عبر شاطئ مزدحم بالمصيفين في مكان أشبه بأحد شواطئ كورنوال في فصل الصيف ويعلمنا السيد دينزل فورستر الكثير من خلال أعماله الفنية التي تستخدم ثلاثة أشخاص الكثير عن العلاقة بين الحياة الاجتماعية والسياسة. وكيف يمكن ألا ينفصل الجمال عن تقديم رسالة، وتعليق، وملحوظة وليتني أستطيع أن أقدم لكم البعض من أعماله هنا[13]، ولكن يمكننا استعراض أعمال

(13) نايومي راي Naomi Rae هل يريد بيتر دويج حقًا أن يجعل من دينزل فورستر الفنان التشكيلي الذي يقدم وجه الصوت الإفريقية والكاريبية في إنجلترا ويريد من شهرته؟، أرست نيوز، 23 مايو، 2018



الشكل (4-E) الغيرة التنافسية. فانيسا بيل (-1879 1961). بورتريه بعنوان «حوار» The Conversation (1913- 1916). لوحة بألوان الزيت على الكانافا

فانيسا بيل (-1879 1961) Vanessa Bell، وهي شقيقة الروائية المشهورة فرجينيا وولف، حيث صورة حديثًا ثلاثيًا في لوحتها بعنوان «الحوار» The Conversation (1916) كما في الشكل (4-E)، ولوحة «الغرفة الدراسية» The Schoolroom (1913)، ولوحة «عارية بين الزهور» Nude with Poppies التي رسمتها لعشيقة زوجها[14].

(14) يمكنك أن تقارن بين لوحة الفنان التشكيلي الفنلندي هيني الفنان Henni Alftan بعنوان «إجازة» Holiday، عام 2016، ولوحة فنيسا بيل الأكثر حداثة بعنوان: «عارية مع زهور الخشخاش»

فمن الخاسر هنا في لوحة فانيسا بيل «الحوار»؟ تبدو لي أنها تلك الشابة ذات الرداء الأسود والشعر القصير هي الخاسرة، حيث تمتد يدها اليمنى كالذي يستجدي شيئًا ما. وتبدو رقبتها الطويلة ضعيفة القوة، وعيناها مفتوحتان عن آخرهما. ويبدو كأن بها لونًا من نوع ما. كما تميل إلى الأمام بجسمها، فيبدو أصغر في الحجم مما هو عليه في الحقيقة إنها تؤدي دور الشخص الدخيل بين اثنين، لكن هاتين الاثنتين الأخيرتين اللتين ترتديان اللون البني تبدوان أكثر ثراءً، ولهما دخل ما بالحكومة، أو بالمناصب الحكومية، وربما تكونان من الموظفين الحكوميين المهمين بعينيهما الضيقتين، وأنفيهما المدببين، ورقبتيهما القصيرتين، واضعتين أيديهما في جيوبهما في وضعية الرفض، ولا تبدوان أنهما واثقتان من نفسيهما إلى حد بعيد، بالرغم من محاولتهما الشاقة لإثبات العكس. ربما هما خائفتان أيضًا من الخسارة. ربما كانت لوحة «الحوار» هي الأفضل في تجسيدها المرئي لمشاعر الغيرة، حيث نرى ثلاثة أفراد في موقف ما من المواقف، اثنان منهم يجلسان قريبين أحدهما من الآخر، ويتمكن هذان الزوجان من السيطرة على الأمر وفي الغالب تكون نظرات شخصين من الأشخاص الثلاثة مباشرة وندية أحدهما للآخر، وأرى أن هذا الأمر مناسب للغيرة الجنسية والتنافسية معًا.

هل ينتظر الشخص المصاب بالغيرة؟ هل الشخصان الموجودان في لوحة الحوار ينتظران؟ هل السيدة التي ترتدي اللون الأسود تنتظر؟ ربما يبدو الأشخاص الغيورون أنهم منتظرون، بلا أمل، فهم منتظرون قرارًا بإقصائهم، أو حرمانهم، أو رفضهم، وفي هذه الحالة الموضحة في بورتريه «الحوار»، فهم منتظرون إلى أن يتحقق لهم الثأر، ولكني لا أعتقد أن هؤلاء الذين تتعبهم الغيرة يشعرون بتجربة الانتظار، إنهم لا يشعرون بها. عندما أنتظر في مكان ما، فأنا أشعر بثقل الانتظار، أو أنت كذلك، ولكنهم يحملون

مشاعر رهيبة مؤلمة من الحرمان. وإن أحسست مرة بالغيرة، وشعرت بها، فربما سوف تقول لنفسك: «أريد أن ينتهي هذا الشعور قريبًا» "I want this to stop soon." وعلاج هذا الإحساس هو «التملك» having، مثل تملك شريك الحب، أو أي ممتلكات مادية، أو حتى طعام من أي نوع. إن تجربة الغيرة التي تنطوي على علاقة ثلاثية، تتضمن- في الغالب- ألمًا كبيرًا وحقيقيًا لا يُتاح كثير من الانتظار في هذا العالم، بالرغم من سهولة إقناعك بأن هناك متسعًا من الوقت أمامنا: فالانتظار ألم، ولا بد أن يحدث التملك «الآن».

ماذا كان تعريفي للانتظار منذ البداية؟ نعم، لقد قلت إن «الانتظار هو تجربة عاطفية ناتجة عن موقف ينطوي على الانتظار، حيث نتوقف حتى وقت معين، أو حتى حدوث أمر ما، أو وصول شخص ما». ويحرص هذا التعريف على طرح تجربة الانتظار، وموقف الانتظار أيضًا. ولكن لماذا التركيز هنا على خبرة أو تجربة الانتظار؟ توجد طرق كثيرة نمر من خلالها بالأحاسيس المرتبطة بالانتظار. ربما يكون الأمر كذلك لأن الوقت نفسه يمكن أن نمر به بأكثر من طريقة ونحن ننتظر. فمثلًا، قد يبطئ الوقت في أثناء الانتظار أو قد يسرع من وتيرته، وقد يكون مرعبًا أو مفزعًا، وقد يكون ممتعًا أو عاديًا. يمكن أن نمر بالانتظار بأكثر من طريقة لا تعتمد- بشكل أو بآخر- على طبيعة الموقف المرتبط به، ولا يتحدد الأمر من خلال الموقف، ولكن ما يحدده أكثر هو ردة الفعل على الموقف في المخ. كما حاولت أن أوضح لكم أن هناك- عادةً- نمطًا معينًا للاستجابة الوجدانية نحو الانتظار، حيث يأخذ وضعية الفاعل المستقل: ذلك ربما لأنه يعتمد على كمية بسيطة من المواد الكيميائية التي يحتويها المخ، كالسيروتونين الذي تعزز روابط الصداقة، والدوبامين الذي يركز عليه الجوعى. ويبدو أن الانتظار يبقى في عالم آخر صغير مثلما يحدث عند الإحساس بالملل، وبالغيرة، وهذا هو السبب أنني

حاولت في هذا الفصل الأخير توضيح مفهوم الانتظار بشكل أفضل من خلال مقارنته باثنتين من أكثر التجارب الوجدانية شيوعًا. تتضمن الأولى شخصًا واحدًا، والأخرى تتضمن ثلاثة أشخاص، بدلاً من هذا الشعور الذي يتضمن شخصين اثنين. والملل ينطوي على شخص واحد، والانتظار - كما أسلفنا- ينطوي في المعتاد على شخصين، أما الغيرة فغالبًا تتضمن ثلاثة أشخاص. ثم يجب أن ننظر إلى الانتظار على أنه يستدعي الحالة الوجدانية نفسها التي يستدعيها الملل والغيرة. ولكن هل يجب أن ننظر إلى الانتظار على أنه نوع من أنواع الأحاسيس المستقلة في ذاتها؟

عند تعريف الانتظار، نجد أن البقاء والوصول موجودان معًا، ومذكوران معًا في التعريف، ويساعد ذلك على استنتاج أن الانتظار يمكنه أن يصبح إحساسًا وجدانيًا في ذاته. وكيف يحق للانتظار أن يصبح في مكانة تجعل منه إحساسًا وجدانيًا منفصلًا عن غيره، وأنه ليس موقفًا نابعًا من إحساس أكبر، أو حدثًا مؤديًا إلى إحساس آخر مختلف؟ ويمكن للأحاسيس العاطفية والوجدانية أن تتنبأ بمكانتها المستقبلية من خلال احتوائها على ما يطلق عليه «مواقف ارتباطية وثيقة» Core Relational Themes،[15] فما المواقف الارتباطية الوثيقة؟ لو أخذنا الغضب مثالًا، فمن السهل- بدرجة كافية- أن نفهم تجربة الغضب، ولكنه ينبع أيضًا من موقف مرتبط به ارتباطًا وثيقًا في دنيانا، وسيكون من السهل أن نستوعب الموقف العاطفي للغضب إذا فهمنا الموقف المرتبط به إن الارتباط يتمثل في التهديد والحاجة

(15) يمكنك أن تقرأ بعض النقاش عن الموضوع الشاسع في كتاب للمؤلف بيريت بروجار Berit Brogaard بعنوان «*On Romantic Love: Simple Truths about a Complex Emotion*»، شركة جامعة أكسفورد للنشر، 2014، وجين كازيز Jean Kazez «الآباء الفلاسفة The Philosophical Parent: طرح للأسئلة الصعبة عن إنجاب الأطفال وتربيتهم»، شركة جامعة أكسفورد للنشر، 2017، وكتاب جسي برينز Jesse Prinz بعنوان «الاستجابة الحدسية: نظرية إدراكية عن المشاعر»، شركة جامعة أكسفورد للنشر، 2006

إلى الحماية؛ فمثلًا، إذا حاول أحدهم أن يؤذي أطفالك، فمن الطبيعي أن تكون ردة فعلك غاضبة بهدف حماية أولادك، ولكن في هذه اللحظة تكون استجابتك غير مصحوبة بأي محاولة منك لأن تشرح ذلك الإحساس الحارق الخانق الملتهب الذي تشعر به، إنه شعور عدواني طبيعي، وهذه الاستجابة، وذلك الهدف العفوي لتوفير حماية، هو ما يمكن أن نطلق عليه الموقف المرتبط بالغضب، وهو شيء جيد، ولكن قد يخرج الغضب عن السيطرة، وهذا الأمر نفسه ينطبق على باقي الأحاسيس الوجدانية من ذاك المستفيد من نوبات الغضب تلك الخارجة عن السيطرة؟ ولكن الإحساس بالغضب يشتعل لدى الجميع، ويكون في أوجه عندما تشتد الحاجة إلى توفير الحماية: ولهذا تجعل الحماية مشاعر الغضب سهلة الاستيعاب على الجميع وإذا كانت الحماية هي موقفًا ارتباطيًا أساسيًا لمشاعر الغضب، وإذا كانت الحماية تمثل جزءًا من وضع الغضب كنوع حقيقي من أنواع المشاعر الشائعة، فإن علينا أن نتساءل عن الموقف الارتباطي للانتظار. وفي هذه الحالة سوف نتمكن من الاستنتاج إذا كان الانتظار بالفعل نوعًا من أنواع المشاعر أم لا.

وسوف يساعدنا السيد هول بورتر سينف في الإجابة عن هذا السؤال. لقد قابلناه للمرة الأولى في ألمانيا، عندما كان ينتظر بقلق حتى تلد زوجته أول طفل لهما، وربما ما زال منتظرًا حتى الآن هل يمكن أن تجد موقفًا ارتباطيًا لانتظاره القلق بالشكل الذي يساعدنا على التأكد من إمكانية أن يصبح الانتظار وحده يستطيع أن يمثل نوعًا منفصلًا من أنواع العواطف؟ يمكننا أن نرى أن الوصول في المستقبل «Arrival» له مكانة رئيسية في انتظار سينف، ورغبة في تحقيق نوع من أنواع الإنجاز من خلال الانتظار. ربما يمكن أن تجد مجموعة كبيرة من الكلمات التي تصف الموقف الذي يمر به السيد هول بورتر سينف، كلمات مثل: الإنجاز، والوصول في المستقبل،

وبلوغ الغاية، والحصول على مكافأة ما، وتحقيق الآمال، والتي يمكن أن تعبر عن موقف ارتباطي. وربما أيضًا ترقب وصول سينف الابن. ولكني شخصيًا أعتقد أن البقاء والوصول يخبرانا بالكثير عن تجربته، حيث يريد سينف من الطفل أن يأتي. وسوف ينتظر مكانه إلى أن يحدث ذلك. هل يمكن فعلًا لأي من هذه الكلمات أن ترقى بالفعل إلى منزلة الموقف الارتباطي للانتظار؟ بالتأكيد يبدو أنها ترقى إلى هذه المرتبة. هل تساعد هذه الكلمات على تعزيز موقف الانتظار بوصفه نوعًا مستقلًا من أنواع الأحاسيس الوجدانية؟

الانتظار بوصفه تجربة مخية محدود بحدود تقرره معدلات السيروتونين والدوبامين، وبتركيزهما على الوصول أو البقاء. لكن خارج تحكم المخ، وفي الحياة اليومية، فإننا نراه غالبًا عندما ينتظر الناس بعضهم بعضًا (أو ينتظرون الأشياء). عندما ينتظرون ويركزون على الوصول في عدد متنوع من المواقف كما أنني أعتقد أن الانتظار، مثل باقي الأحاسيس الوجدانية الأخرى، يقدم إلى عالم الحيوان ميزة تفوقية جيدة: إنه يقدم فرصة أفضل للبقاء والنجاة من شتى المواقف (فإذا لم تتمكن الحيوانات من الانتظار، فكيف ستتمكن من أن تترقب وتترصد فرائسها؟) أحيانًا يتحدث الفلاسفة عن العمليات العقلية التي تنشأ عنها العواطف، وهم يقصدون بذلك أن العاطفة يمكن لها أن توجهك نحو الإجراءات العملية الصحيحة[16]. بالتأكيد توجد أبعاد عقلية للانتظار. ولكن هل يمنح كل هذا للانتظار مكانة تشبه مكانة العواطف الوجدانية؟ يمكن أن نختار أن نقول إن الانتظار «نصف عاطفة» Semi-emotion لتمادي الخطأ. أو إنه على الأقل شيء قريب جدًا من أن نعدَه نوعًا من أنواع العاطفة. ولكني أعتقد أن هذا الخيار في غير محله، وأن الانتظار هو تجربة تجسد حالة وجدانية حقيقية وإذا كان الأمر

(16) يمكنك أن تستكشف هذا النوع من الجدل في كتاب بعنوان «*The Emotional Construction of Morals*» لمؤلف جيمي برينز Jesse Prinz، شركة جامعة أكسفورد للنشر، 2009.

كذلك، هل يجب علينا إعادة تعريف الانتظار لنقول إنه: «نوع من أنواع الشعور العاطفي الذي يفسر تجربة موقف ينطوي على البقاء إلى وقت معين، أو حتى وقوع حدث معين، أو وصول شخص معين».

يقبع الانتظار في تلك الثنائيات، وتركيزه على المستقبل، وعلى البقاء والوصول في وسط الوحدة والمشاعر الحبيسة في حاضرها. مثل الملل الذي يشعر به شخص واحد ويُكوى بنيرانه، والعواطف الاجتماعية مثل الغيرة الجنسية، والتنافسية التي تنطوي على ثلاثة أشخاص. وأحيانًا يستلزم الحديث عن الانتظار التركيز على مواضيع داخلية، وربما هذا هو السبب الذي يجعل من الانتظار هو أساس التفاعلات الوثيقة بين الناس (مثل الحب، والعواطف، والصداقة) التي تحدد المستقبل، كما أنها تحدد الحاضر. لا تعد تجارب الحب والعاطفة والصداقة منعزلة، أو اجتماعية، أو تنافسية. إن الانتظار بوصفه تجربة وحالة وجدانية، وبوصفه عاطفة في ذاته، ربما يأتي في قلب الخبرة الشخصية الوثيقة بين الناس، وهذا هو موضوع هذا الكتاب بطريقة أو بأخرى. بالطبع هناك كثير من الاستثناءات التي عرضنا بعضها في الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب.

كما سنتعرض لبعضها في نهاية هذا الفصل، ولكن يبدو لي أن الانتظار اعتاد العلاقات الثنائية؛ لأنه دومًا يتضمن شخصًا آخر، كما أنه يتعلق كثيرًا بالمستقبل والوصول. فبالطبع تتطلب مشاعر الحب والعاطفة والصداقة وجود شخص أو كيان آخر، وكلاهما يحتاج إلى الوقت، الزمن المستقبلي، وإلى البقاء أيضًا في حالة واحدة، والوصول مع بلوغ الغاية وتتحدد هوية المحب- كما يقول رولاند بارثيس Roland Barthes- في الشخص الذي كان منتظرًا.

في نهاية الفصل الأول من هذا الكتاب تحدثت عن رجل يتعامل مع الكحوليات باشتياق، وكان السؤال الذي طرحته حينئذ- إذا كنت تتذكر-



الشكل (E-5) هل هو الصبر أم الانتظار؟ الفنان التشكيلي لاسلو ميدنيانسكي Laszlo Mednyanszky (1852- 1919)، لوحة بعنوان «شارب الخمر» The Absinthe Drinker 1898، مقاس 45- 34.5 سم، المعرض الوطني، المجر، بودابست.

يتأسس على الوصف التالي: «الوقت لهذا السكير لا يسير في خط مستقيم، بل في دائرة مفرغة، مدفوعًا بمرور وقت الاتزان الممتع، حيث يدور الزمن في دائرة عجيبة من زمن الاتزان الإجباري إلى المتعة، ثم في الانحدار التوقع، حيث تؤتي الخمر مفعولها على أكمل ما يكون. ما الذي يحدث هنا؟ هل هذا هو الصبر؟ أم إنه الانتظار؟» لكي أجيب عن استفساري هذا بشكل أسهل، سوف أقدم لكم هذا الرجل في الشكل (E-5).

ما رأيكم في لوحة الفنان التشكيلي لاسلو ميدنيانسكي Laszlo Mednyanszky «شارب الخمر» The Absinthe Drinker؟ هل تجسد الصبر أم الانتظار؟ في رأيي هي تجسد الانتظار. لماذا؟ يتكون الصبر من طبقات من الانتظار، ولكنه ربما أكثر صور الانتظار شيوعًا، فيمكنك أن تنتظر بصبر، أو بدونه، ماذا يحدث هنا؟ ماذا سيحدث لذلك الرجل السكير أمامنا في لوحة لاسلو؟ سيضع يده على كأس الخمر التي أمامه، وهذا مؤكد، وإليكم السبب: في هذه الصورة، الرجل يتأمل الكأس قبل أن ينقض عليها، ويمكننا أن نقول إنه يترصد الكأس، كالنمر يترصد فريسته. يبدو أن اللوحة عبارة عن لقطة فيديو متوقفة قبل أن تتحرك يده اليمنى نحو الكأس. إذن، الأمر أشبه بلوحة كوجيرو أونشي لتلك اللقطة للغطاس قبل أن يلمس جسده الماء. الدوبامين! لا يبدو صديقنا هذا في لوحة لاسلو ميدنيانسكي يطيق صبرًا للحصول على كأسه. إنه يشعر بالإثارة. إذا سألتني، يبدو أن الصبر من الفضائل التي يخطيء الكثيرون في تقديرها.

وهناك طريقة أخرى يمكن أن تنظر بها إلى لوحة لاسلو ميدنيانسكي لذلك السكير البولندي: فذلك السكير في الواقع هو أنت، وتلك الكأس هي أنا. وما أنتظره منك هو رأيك في طعمي، ما رأيك في هذا الكتاب؟ فإذا لم تحب هذا الكتاب، فإن الكأس لا شك سيكون لها طعم علقمي في كل قطرة. أما إذا أحببت هذا الكتاب، فبلا شك أصبح كتابي جديرًا بالانتظار، وكان طعم الكأس رائعًا في حلقك، لكنك لن تعلم أبدًا كيف طعمه حتى تصل محتوياته إلى حلقك، فأنا منتظر.

شكر خاص

أخص بالشكر السيد ستيفان فرانكا Stefan Vranka، ومطابع جامعة أكسفورد؛ لتوليهم طباعة كتاب «الانتظار.. الحياة والعلم والفن في الانتظار» ونشره. لا أعلم أسماء المحكمين، ولكن مقترحاتهم ومقترحات ستيفان وغيرهم أسهمت في تكويني لفهم أفضل للأشياء. والشكر موصول إلى السيدات والسادة أندي بولوك Andy Bulloch، ومانويل هوليجر Manuel Hulliger، وفرانك ستاهينش Frank Stahnisch، وهانكس تام Hanl Stam، وسكوت باتن Scott Patten، وغيرهم من أعضاء مجموعة التأريخ لعلوم المخ والأعصاب في جامعة كالجاري؛ للعون الثمين المنتظم الذي قدموه لي. كما أتقدم بالشكر للسيدات والسادة روبرت بيكر Robert Baker، وريس بيرتولين Reyes Bertolin، وبيتر دايل Peter Dale، ومارك جولدن Mark Golden، وجيمس هيوم James Hume، وريتشيل لونزديل Rachel Lonsdale، وهيذر ماكالوم Heather McCallum، وهاني سيجيزموند نيلسين Hanne Sigismund Nielsen، وبازا سيمبكينز Bazza Simpkins، وجوزيفا روز فيلاسكو Josefa Ros Velasco، وأخيرًا إيان وورذينتون Ian Worthington. كما تعلمت الكثير من كتابات جيسون ماكلور Jason McClure عن الأزواج والنسخ المتطابقة، وأعمال نيكول ويلسون Nicole Wilson عن الألم. كما أشكر جيكوب دوجتيرتي Jacob Daughterty من مكتبة بريدجمان للفن. كما يمتد الشكر إلى ديفيد

طومسون David Thompson، ولويز بيرلي Louise Burley في معرض تيت، وأوريلا ألفاريز أورباتي Aurelia Alvarez Urbatie من طاقم العمل في أرشيف مانويل ألفاريز برافو التابعة لمؤسسة مانويل ألفاريز برافو، وإيريس لابوي Iris Laeur في متحف ريجكس بمدينة أمستردام. كما أرفض أن أشكر جميع من رفضوا تقديم الصور واللقطات التي طلبتها منهم. ودومًا أوجه الشكر إلى عائلتي وأسرتي من كبيرهم إلى أصغر عضو فيها: إتش فوكس، ونوا وكينلي، وجيس، ومات، ولينس، وكيت، وفراني، وفيل. كما ساعدتني جامعة كالجاري في رسوم حقوق إدراج الصور عند نشر الكتاب. كما قدم لي مجلس كندا للبحث منحة بحثية في العلوم الاجتماعية والإنسانية منذ 10 سنوات أو يزيد للكتابة في موضوع الاضطراب النفسي في روما القديمة. وقبل أن أنتهي من كثير من هذا العمل توقفت، ثم كتبت كتابًا عن الملل، ثم كتبت كتابًا عن الغيرة، ثم تبعهما هذا الكتاب ليكمل الثلاثي. وأقدم امتناني إلى مجلس كندا للبحث؛ لتزويدي بالدعم اللازم حتى يرى هذا الكتاب النور. وأعتذر عن عدم استغلالي لهذه المنحة الاستغلال المرجو؛ فهذا نوع من أنواع التردد المنظم عند العمل. إنها حياة الانتظار، وأرجو أن يكون هذا هو الإجراء السليم.



جميعنا ننتظر. يقضي البشر ثلث أعمارهم في العمل. يعملون مدة تتراوح من 30 إلى 35 عامًا من أعمارهم إذا بلغوا سن 78 سنة. وبهذا فإنهم أضاعوا 30% من حياتهم في الانتظار. الانتظار في فترة الدوام حتى موعد العودة إلى البيت. والانتظار حتى حلول إجازة آخر الأسبوع. كما يفكر الناس في المستقبل 59 مرة يوميًا. نصف هذه المرات تكون مخصصة لموضوع واحد تتلهف إلى تحقيقه. يبلغ المجموع الزمني لهذا الوقت 2920 دقيقة. وسوف تمضي 2920 دقيقة أخرى من الانتظار للمتعة. انتظر.. سوف تعرف المزيد في هذا الكتاب عن فلسفة الانتظار: شعور الانتظار: تجسيد الانتظار.. ولا تنسَ أن الانتظار قد يولد اللذة.



9 786039 209669
الطبعة الأولى : 2023

معنى
MANA